أحمد
السباعي

أوراق مطوية

مطبوعات نادي الطائف الأدبي

اشتريته من مكتبة إحياء التراث الاسلامي
يوم الثلاثاء مساءً في مكة المكرمة
٢/ جمادى الاولى / ١٤٤٣هـ
٧/ ١٢/ ٢٠٢١م

سرمد حاتم شكر السامرائي

م. سرمد حاتم شكر

اوراق مطوية

بسم الله الرحمن الرحيم



الطبعة الأولى عام ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م

احمد السباعي



مطبوعات نادي الطائف الأدبي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن من حكمة الله سبحانه وتعالى أنه يهب كل أمة في أي مرحلة زمنية تمر بها أناساً مرهفي الحس عميقي الإدراك لكي يسجلوا كل دور تمر به أمتهم معبرين بإنتاجهم الفكري والأدبي عما تعانيه أمتهم من حضارة أو تخلف محددين أبعاد تطورها الحضاري والفكري ـ وأحمد سباعي هو أحدهم .. فهو بإنتاجه الأدبي والفكري يقدم صوراً لأجيال المستقبل لكي تدرس ماضيها وتستفيد من تجاربه وخبراته ..

ورحلة أحمد سباعي مع الأدب هي رحلة طويلة مضنية شقها بقوة إحساسه المرهف .. فهو الذي لم يتلق من العلم إلا القليل .. ومع ذلك لم يقف مكتوف اليدين .. بل بدأ في تعليم نفسه وتثقيفها ، فكان المدرس والتلميذ ، ينطلق بين دهاليز الأدب وطرقاته .. محولاً قطرات المداد إلى كلمات ذات معنى ، هي في ذاتها خلاصة ما احتوته صفحات عقله من خبرات وثقافة .. فكان رائداً من رواد الصحافة وملكا من ملوكها في الجزيرة العربية .. لذلك فهو يستحق أعلى شهادات التقدير والثناء ..

هذا عن أحمد سباعي ونوعية معدنه ، أما عن الكتاب ... فإن رحلة هذا الكتاب لم تكن سوى ذكرى بدأت مع بداية صداقتي بأديبنا الكبير .. فقد وجدت في أدراج مكتبه الكثير من الموضوعات التي فهمت أنها نشرت في أحد الأيام من سنوات طويلة وأخرى أطول ولكنها ضاعت بضياع الأيام وبقيت مسوداتها في حكم الأوراق المهملة ..

فعرضت عليه فكرة نشرها في مجموعة كتب .. فلم يمانع في ذلك .. عارضاً على شرف تجميعها .. تحت إشرافه طبعاً .. وبدأت المهمة فكان هذا الكتاب هو أول إنتاج شرفت في جمعه .. وهو قليل من كثير أسأل الله عز وجل أن يعين أديبنا الكبير في تكملة مشواره والله من وراء القصد ..

الشريف عدنان الحارثي

مشاهد من تاريخ مكة

مشاهد من تاريخ مكة

(١)

في وسعك وأنت تدرس تاريخ مكة دراسة واسعة تعتمد فيها على أمهات الكتب المؤلفة في تاريخها ، أن تلتقط مناظر فيها المثير والضحك ، وفيها ما يشجيك أو يبكيك أو يطويك على غرائب لا تكاد تفهم معانيها .

نحن : الآن على خطوات من موقف قصي بن كلاب في ظل الكعبة ، وقد استتب له الأمر فيها ، واستطاع أن يطرد آخر خزاعي منها ، ليضع يده على صولجان أجداده من أولاد اسماعيل .

و يجلجل في أسماعنا صوته الأجش :

« يا قوم لقد جمعتكم إلى مهبط أجدادكم بعد أن أجلاكم الظلم عنه ، وتركتكم أوزاعاً لا يجمعكم حي في الجزيرة ، فالتفوا حول كعبتكم وأحيطوها ببيوتكم وامنعوها من كل فاسد - هأنذا لكم أخط مداراً حولها ليكون حرماً لها ، وألزمكم بالبناء لسكانكم حول المدار .. وأن تجعلوا بين البيوت مسالك إلى حرمها لتصونوها بسيوفكم وتقوموا على أداء شعائرها ، ولا بد لكم في ندوة تجمعكم على نجوة من صحن الكعبة تعقدون فيها مجالسكم ، وتتداولون الرأي في ظلها ، فأسسوا لها على مرمى حجر من موقفي هذا » .

وتتعاقب : المناظر في شبه شريط ، فإذا بصاحب مكة الغيور على محارمها لا يرى ما يمنع من تنصيب الأصنام في زواياها . ثم لا يلبث أن يأمر بصنمين كانا في ذيل أبي قبيس لينقلا إلى ركن الكعبة ، ليتمسح بها الطائفون ، و يتقربون بها زلفى إلى رب الكعبة .

و يستمرىء الفكرة ، فيتخذ لنفسه من أحجار الحرم صنماً يثوى في بيته ، ليتبرك به إذا أصبح و يتمسح به إذا أمسى .

و يأمر فينحتون له من أبي قيس تمثالاً يصحبه في رحلاته ، إذا تيامن أو تياسر ، و يمر .. الشريط ، فإذا الفتنة المنكرة والمضحكة معاً تجد مرتعها خصباً في ظل كبير مكة ، الذي روى سيفه في خزاعه ليصون الكعبة ، وأحاطها بقومه ليذودوا عن قداستها .

ويتفاقم الخطب فإذا الأصنام في كل بيت من وادي ابراهيم ، وإذا « سوق الحزورة » أهم سوق في جنوب الكعبة ، تزدحم بباعة ألاصنام من الحجارة أو الطين أو خشب العرعر ، وإذا حجاج الكعبة من كل فجاج الجزيرة لا يكادون ينهون مناسكهم عندها ، حتى يتزودوا من « سوق الحزورة » بما يكفي ذويهم من هدايا الأصنام .

وتتعاقب المناظر فتتوالى الأجيال ، وإذا الأصنام في مكة عقيدة سائدة تختلط بشرعة الكعبة حيناً وتتباعد حيناً ، وإذا للعقيدة مذاهب فيها المتزمت والمحافظ والمجدد .

وتضحك ما وسعك الضحك وأنت تسمع المجدد وهو يبتهل تحت ستار الكعبة : « واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، تلك الغرانيق العلا ، وإن شفاعتهم لترتجي » . وترى المحافظ ينحر عند أقدام صنم الغبغب ، ويمضي في تبتل إلى سادن الكعبة ليستقيم له بالأزلام ، فإذا انتهى إليه القدح مكتوباً بأمر أو نهي عمل به في غير هوادة أو تردد .

ويمر بك المتزمتون ، فإذا بينهم من أحرم للحج ، فحرم على نفسه السمن واللبن والزبد ولبس الوبر والشعر والإستظلال بها ، أو حتى غزلها ونسجها ، وقد تعرض له الحاجة فلا يدخل بيته بعد أن أحرم إلا من ثقب يثقبه في ظهره ، لئلا يفسد دخول الباب إحرامه .

وإذا : بينهم من لا يبيح لنفسه أن يطوف بالبيت في ثوب ربما أذنب وهو يلبسه ، فلا بد من جديد يلبسه للطواف ، أو يمضي إليه عارياً في غير ستر ، وربما عن لفتاتهم أن تطوف ، فلا عليها أن تمضي إلى طيتها عارية تماماً ، ولا عليها إذا تربص بها فتيان مكة أو عاكسها فساقها فهي مأخوذة بتجليات مذهبها .

وإذا بينهم من لا يشده مذهب واحد ، وإذا للمرأة أن تبني بأكثر من رجل ، ولها أن تلحق ابنها بمن تختاره من أزواجها . وإذا بالرجل يدخل الكعبة ليصلي ، فلا يتقيد بعدد المرات في ركوع أو سجود ، وربما أطمأن بين بعض الركعات ، فمر به صاحبه ، فلا حرج إذا سلم عليه ، أو سأله عن الصحة والحال وأخبار العيال وما بلغه من أنباء المطر ومسير القافلة ثم يستأنف سيرته في الصلاة ، كأن شيئاً لم يحدث من موانع الصلاة ، وربما قدم له صاحبه بعض تمرات مما يأكل ، فازدردها وهو يصلي ، أو مرت به ناعس هيفاء ، فغازلها ولم يتركها إلا على موعد من عتمة العشي .. ذلك لأن زياداً ابن هياب أخبر عن عاتق عن صخر عن كبيش بن صفوان أن كاهناً ، بعلم الناس في المسفلة كان يفتي بأنه ليس في مصالح الذات ما تحرم الصلاة .

ويمر بك الشريط ، فإذا متزمت من النوع المتطرف المعاتي يحتفل في ثوبه الجديد يدفن فتاته حية ، لئلا يعلوها زوج فيكسر من قناته ، وإذا في الطرف الآخر من بشر بأنثى فاسود وجهه في

حيرة أيمسك أنثاه على هون ، أم يلحقها بيوم الدفن في هذا الحفل .

ويدور الشريط ، فإذا بك بعد مشاهد الترهات أمام نفوس عالية تمجد الشرف وتقدر الكرامة وتتعشق البذل الكريم والشجاعة في أعلى مستوياتها ، حسبك أن يقال أنه من قريش لتقول عن المروءة والسماحة والنصفة ما شئت .

هذا موكب يمضي بك في دروب أجياد ، فلا تتبعه .. ؟ إنه أمامك على باب ابن جدعان . ويمر الشريط ، فإذا هم من علية القوم وإذا هم جلوس في أمر جلل ! ! ! ! أيظلم الضعيف وهم أحياء ؟ و يغبن الغريب وهم شهود ؟ أم عليهم أن يعقدوا خناجرهم على نصرة المظلوم .

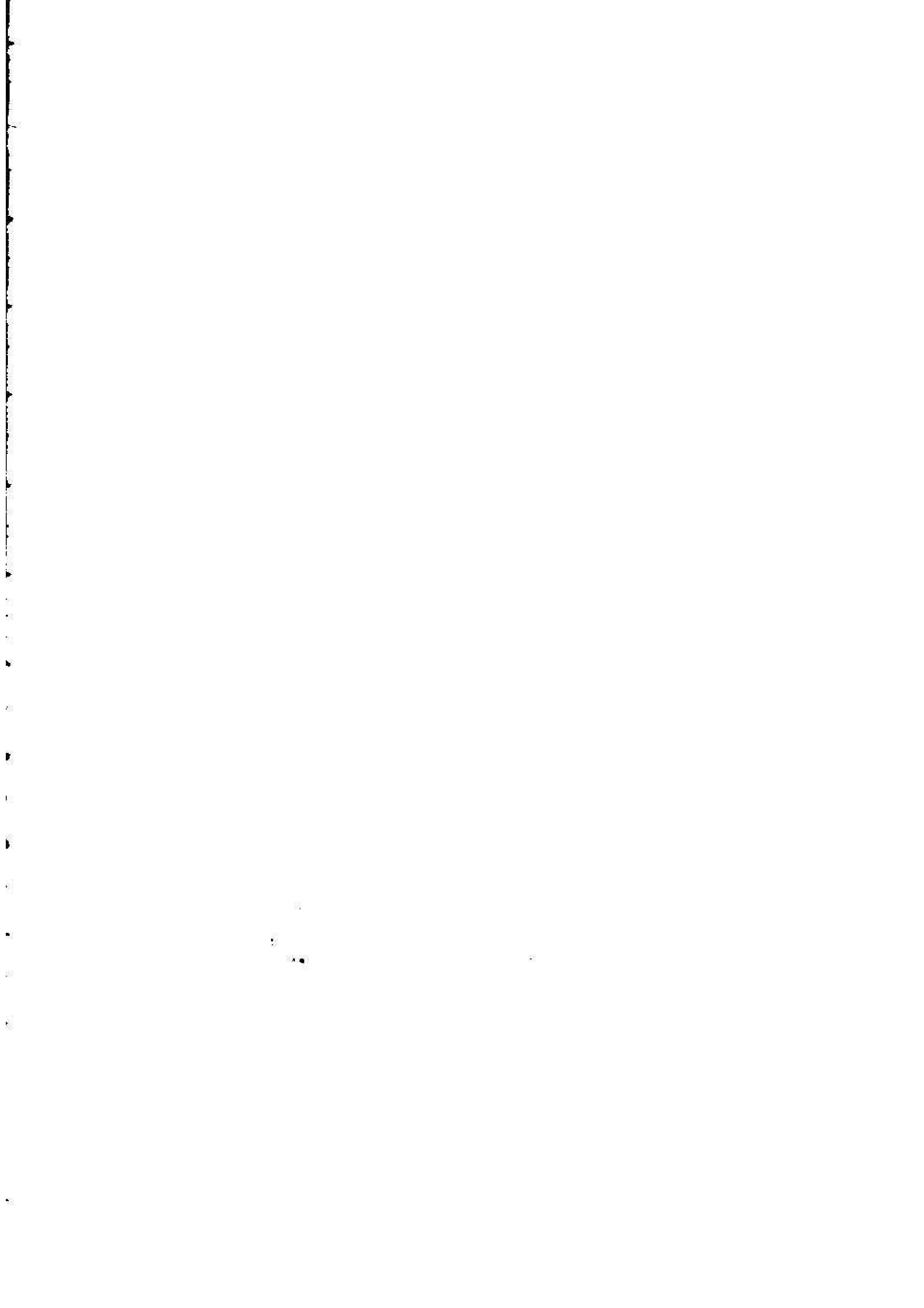
هات : يا ابن جدعان قصعة الدم ، فما جئنا إلا لنجمع كلمتنا عليها ، هذه أصابعنا مغموسة في دمها إقراراً بألاّ يبيت في بطن مكة ظالم وأننا دون الضعيف حتى نأخذ له الحق .

ويمر الشريط ، فإذا نحن على خطوات من دار شيبة بن عثمان ، ترى فيم هذا الجمع حول دور بني عدى ؟ إنهم يصعدون في الدرب الذي ينزله الخطاب ابن نفيل .. أتراهم يمضون إلى دار الندوة ؟[1] . أم هو موعدهم لاجتماع طارىء ؟

ما أكثر هذه النفوس وهي تحفل بشئونها في ديمقراطية واسعة وإبرام محكم ! ! وما أغرب أمرهم وهم يجمعون إلى ترهاتهم المثيرة المضحكة سجايا عالية نادرة المثال ! ! .

---

(١) ـ من الشائع عند الكثير أن دار الندوة كانت تقع على خطوة من صحن المسجد ، ولكن الحقيقة التي يثبتها التمحيص التاريخي أن الدار تنتهي حدودها الخلفية عند باب الزيادة القديم ، وأن واجهتها الأمامية كانت تسامت منتصف الرواق أمام الزيادة بدليل أن واجهتها الأمامية هدمت في توسعة المنصور وهدم الباقي في عهد المستعين بالله ، فكانت منه الزيادة التي كنا نراها ملحقة بالرواق .



أتسألني ؟ ؟

أنا على استعداد لأن أرسم لك مكة القديمة في عهدها الجاهلي ، يوم كانت عاصمة قريش ، سأرسمها لك على لوحة ما تشاهد اليوم من معالمها الجديدة ، فهل تبيح لخيالك أن ينطلق ، إلى أبعد ما يتسع له الخيال .

أترى موقفنا .. ؟ إننا في ظل باب بني شبية ، وأحسبك تعرف أنه « شبية بن عثمان » لم يكن باباً بالمعنى الذي نشهده اليوم ، بل كان ممراً إلى صحن الكعبة بين البيوت ، إلى جانب ممرات غيره جعلوها تتخلل بيوتهم كمداخل إلى الصحن ، ولكنه كان موضع ارتكاز الحركة العمرانية في مكة ، وكان مفروضاً على الحاج في - جاهليتهم - ألا يصافح الكعبة يوم قدومه إلا من هذا الباب .

أنراك تشهد هذا الزحام المتلاطم على حفافي المدخل .. ؟ أنهم حجاج من الغساسنة ، قضوا مناسكهم ، وأوفوا نذورهم ، واطوفوا بالبيت العتيق ، وها هم ياخذون طريقهم بين ملتويات الأزقة حول باب بني شبية ، حيث تقوم بيوت لمجاورين من غساسنة الشام .

أتمضي بنا خلفهم في هذا الزقاق الضيق ؟ أنه ينتهي بنا إلى نهاية الحلة التي يسكنها الغساسنة .

وإذا شئت فادرج بنا يساراً ، فثمة بعض بيوت يعرضون فيها أصنافاً من الحبوب وانواعا من العطارة وأشكالاً من الفواكه المجففة .. لا لا تذكر الشاي أو السكر ، فتلك أسماء لا تعرفها قواميسهم .. لا ولا الدخان ، فقد يتهمون عقلك بما لا يرضيك .

ودع الزقاق يلتوي بك لتصافح بيت العباس ، ودوراً لجبير بن مطعم ، ودوراً لآل عدى من ثقيف .

وامض : إذا شئت بما نسميه اليوم شارع القشاشية ، فهناك سوق الفاكهة تنحدر منه إلى سوق الرطب ، ليواجهنا دار مال الله ، وأحسبك لا تجهل أن مال الله فى الدار وقف .. مواساة المرضى وإطعامهم ، وأن ثمت طبيب وكاهن يعاينان المريض ، ليرسله أحدهما إلى سوق أحدهما إلى سوق العطارين ، أو يحيله الآخر إلى تميمة يشتريها من سادن الصنم في ظل زمزم .

ودعنا نقطع المساحة أمامنا ، لنسير في شعب ابن يوسف ، ونسميه اليوم شعب علي . هذا دور عبد المطلب بن هاشم ، حيث ولد سيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه في أقرب دار منها تشرف اليوم على الشارع العام ، وتلك الدور لأبي طالب ، تواجهها دور للعباس بن عبد المطلب وأخرى لبعض أولاد هاشم .

ولعله لا يعجبك أن تتخلل الأزقة الضيقة الملتوية بالتواء الجادة بين تلال الشعب وهضابه لنستقم إذن باستقامة الشارع ، هذا شعب بني عامر ، يصافحك في مدخله دار العاص ، وإذا رأيت ألاّ تتغلغل في دروبه فحسبك أن تعرف أن ثمة منازل لبني بكر ، وأخرى لبني عبد مناف .

فامض بنا في استقامتنا إلى المعلاة .. تريث في خطوك قبل أن تمشي فهذا موقف الحمارين يكرون حميرهم للمتنزهين وقصاد الفسحة بين بساتين الخزمانية ، وشعب الصفى وأخياف منى ، ومزارع وادي طوى ، والزاهر ، وامض خطوة لتشاهد سوق الجزارين على يمينك في شعب أبي دب ، وشعب أبي دب يتصل باطراف شعب بني عامر من جهة المقابر حول ما نسميه اليوم « برحة الرشيدي » .

وإذا : شئت أن تترك الطريق يمضي بنا قدماً ، فليس أمامنا إلا الحجون الجاهلي على يمين الطريق ، أو المدنيين في يساره ونسميها اليوم ريع الحجون اعتباطاً ، وليس أمامنا إليها إلا بساتين كانت تسقيها بعض الآبار ، ثم بساتين تنتهي بشعب الصفى ، وهو ما نسميه اليوم حي المعابدة ، ثم بساتين تعرج بمعارج الطريق ، أو تستوي باستوائه إلى خيف منى .

فما يمنعنا أن نختصر الطريق ، ونحن في المعلاة ، دعنا نذهب إلى اليسار فيما كنا نسميه « الحلقة » هذه بساتين ابن الزبير يتخللها هذا الدرب الضيق ، ليسلمنا إلى الفلق الذي فلقه ابن الزبير وعبده للمشاة .

أأرهقك التصعيد في مرتفعات ابن الزبير .. ؟ لقد هان الأمر ، فامض بنا نهبط إلى قرارة المدحى ، هذا الجبل الديلم يشرف علينا ، ونحن نمر في دروب متشابكة بين بيوت لبني غزوان وأخرى لأولاده الحارث بن عبد المطلب و بعض بني شمس .

أهالتك الضوضاء الصاعدة من مهابط القرارة .. ؟ لا عليك فهؤلاء صبيان من قريش يلعبون المدحى ، وهو نوع يشبه « البرجو » عندنا .

هلم فهذا الطريق أمامك يسلمنا إلى الجودرية ، وهي من أرباض مكة ينزلها فقراء الأعراب من حجاج الكعبة ، فتزدحم بها خيامهم .

دعنا نتخلل الخيام إلى سوق الغنم ، فردهة الجزرة ، فزقاق المدعاة ، وستجد في سوق الغنم أثر المكان الذي قيل إن النبي صلوات الله عليه اقتعده في إحدى روحاته من أعالي مكة وستشهد أثر المكان على يسارك قبيل المدعاة ، وقد أحيط ببعض الحجارة ، واتخذه الناس اليوم مسجداً .

واقعد ، فهذه دور لأولاد الحارث و بعض أولاد العباس وقوم من خزاعة تنتهي بنا إلى ما نسميه اليوم المحناطة ، وهي ساحة واسعة كانت تحط فيها عير الحنطة والسمن والعسل ، وتطل عليها دار أبي سفيان ، التي أعلن النبي حرمتها يوم الفتح : وقد نادى : « من دخل دار أبي سفيان كان آمناً » .

ولنمش منحدرين إلى المروة ، هذه دور لآل عتبة وأخرى لآل ياسر ، وهذه حوانيت الحجامين على خطوة منها .

أيروقك بعد هذا أن تعرج بمعارج الطريق إلى ما نسميه الشامية ... ؟ هناك دور لآل زرارة من تميم ودور لآل الخطاب بن نفيل ، تسلك بينها درباً إلى سوق الحذائين ، ثم تنحدر في زقاق لبني خزاعة يسلمنا إلى دار لبيت المال وآخر لخزانة الكعبة وآخر لشيبة بن عثمان وآخر لآل الزبير ، لنصافح بعده دار الندوة ، التي بناها « قصي » .. كمجلس لنواب الأمة يتبادلون فيها الرأي والمشورة

ولكن : ما لنا تركنا المسعى دون أن نتتبع تخطيطها إلى الصفا ، لقد كدت تنسيني هذا الدرب إلى يسارك ، فامض بنا هذه دور لبني عدى تفضي بنا إلى الحزامية ، فسوق اللبانين ، فساحة لبني سهم ، فدور لأولاد الحكم بن حزام ، بينها سقيفة يفترش ظلها بعض صغار الباعة ، ويلتوي في صدرها زقاق ينتهي عند الجدار الخلفي لدار أبي سفيان حيث تقوم دار لخديجة بنت خويلد ، كان يسكنها النبي صلى الله عليه وسلم عندما بنى بخديجة ، وفيه ولدت إبنته فاطمة .

وتعال نستأنف عودتنا إلى المسعى ، لنأخذ طريقنا إلى الصفا ، هذه منازل لأولاد عدى بن كعب تنتهي إلى ساحة الخطاب ، وهي ساحة ورثها عمر ، فتركها لصغار الباعة يحتلون أطرافها ببضائعهم ، فاستغل الباعة عطفه وراحوا يبنون لبضائعهم ظللاً تقيهم الشمس ، فثبتت الظلل

وضاعت معالم الساحة ، فعجز الورثة عن إثبات حقهم فيها ، وهذه الساحة لا تفضى إلى دار العباس ، فسقيفة لبني عائدة تنتهي بنا إلى الصفا ، ثم تعرج بنا في الطريق إلى فوهة أجياد ، لنمر بسوق البزازين بجواره البيت الذي اتخذه النبي صلى الله عليه وسلم مكاناً لتجارته شريكاً مع السايب بن السايب قبل البعثة .

نحن : الآن على فوهة أجياد ، فإذا شق عليك أن تسعى في مسالكه الطويلة فحسبك أن تعلم أنه أجياد، أجياد الكبير و ينتهي إلى ما نسميه اليوم « بئر بليلة » وكان ينزله ابتداء من رواق المسجد اليوم قوم من بني تميم ، كانت بيوتهم تمتد أمام أجياد إلى صحن المسجد ، فإذا صعدت بعد بيوت بني تميم متجهاً إلى مداخل أجياد اليوم ، واجهتك دور لبني مخزوم ، ثم دور لجماعة من الأزد حول موقع دار الصحة اليوم . وعلى غير بعيد من ذلك كان منزل أبي جهل بن هشام ، ثم بيوت من الشعر كان ينزلها بعض الرعاة من البدو الطارئين ، انتجاعاً للكلأ من مشارف الجبال إلى الصافح .

وأجياد الصغير و ينتهي إلى مواقع السد اليوم ، و ينزله بعض آل عدي بن عبد شمس وتنتهي بيوتهم إلى سقيفة كانت للحواتين ، ثم دار لعبدالله بن جدعان ، التي تم فيها حلف الفضول بألا يقر في مكة ظالم ، ثم دور لآل سلمة ابن هشام ، وإلى جوارها بئر كانت تتشابك عندها الأزقة ، وإلى جوارها بئر كانت تتشابك عندها الأزقة التي تصل بأجيادين ، احتفرها آل سلمة مع جماعة من جيرانهم ، وكان يردها السكان من أجيادين ، ولا أعتقد أن الخبت بعد دور آل سلمة كان مأهولاً ، إلا أن كان بعض الرحل يخيمون في بعض شعابه إذا هبطوا مكة .

وإذا : كنا أطلنا الوقوف على فوهة أجياد في نظرتنا العامة إلى منازل القبائل فيه فقد آن لنا أن نستأنف سيرنا مع استقامة الجادة في طريقنا إلى المسفلة ، هذا سوق الحزورة على غير بعيد مما نسميه اليوم السوق الصغير ، وهو من أوسع أسواق مكة ، أتشهد هذا الزحام بالمناكب والأقدام رغم امتداد السوق وسعته .. ؟؟ أنه معرض البدالين والبقالين والعطارين والدباغين وصناع الآلات الزراعية .

وهذه العطفة الصاخبة على يمينك ، أتدري ما شأنها .. ؟ إنها منتجع الحجاج يبتاعون منها هداياهم من الأصنام تبركاً من مكة ، يحملونها إلى بيوتهم و بيوت أصفيائهم لتأخذ مكانها من صدور مجالسهم ، فتقبل دعوتهم السخيفة وابتهالاتهم المضحكة .. فهلم بعيداً عن هذه الترهات .

هذه دور لبطن من آل صفي ودور لآل عبد الدار ، وهذا درب الحناطين يلتوي أمامك .. بالتواء الجادة إلى ما نسميه « الشبيكة » ، إنه سوق لباعة الحنطة من منتجات مزارع الحنطة في جنوب مكة ومستوردات اليمن ، البلد السعيد ، هيا نمض .

لا تتيامن كثيراً إلى ما نسميه الشبيكة ، فثمة قفر لم ينزله أحد إلا في قرون متاخرة ، لنمض إذن في جادتنا المستقيمة إلى المسفلة ، ولا تنس - قبل أن تخطو - هذه المنازل المشرفة على نهاية سوق الحزورة ، فهي لجماعة من بني مخزوم ، وهذه دور لبني أسد بن عبد العزي وتلك منازل

على سفح ذي أعاصير ، ينزلها بعض فقراء البدو من قبائل متفرقة ، و بعض من أحابيش قريش ، ولعل بعض القرائن تدل على أن « ذا أعاصير » هو ما نسميه اليوم جبل عمر ، ولا أؤكد لك مصدر التسمية ، فليس فيما قرأت ما يثبت شيئاً معيناً .

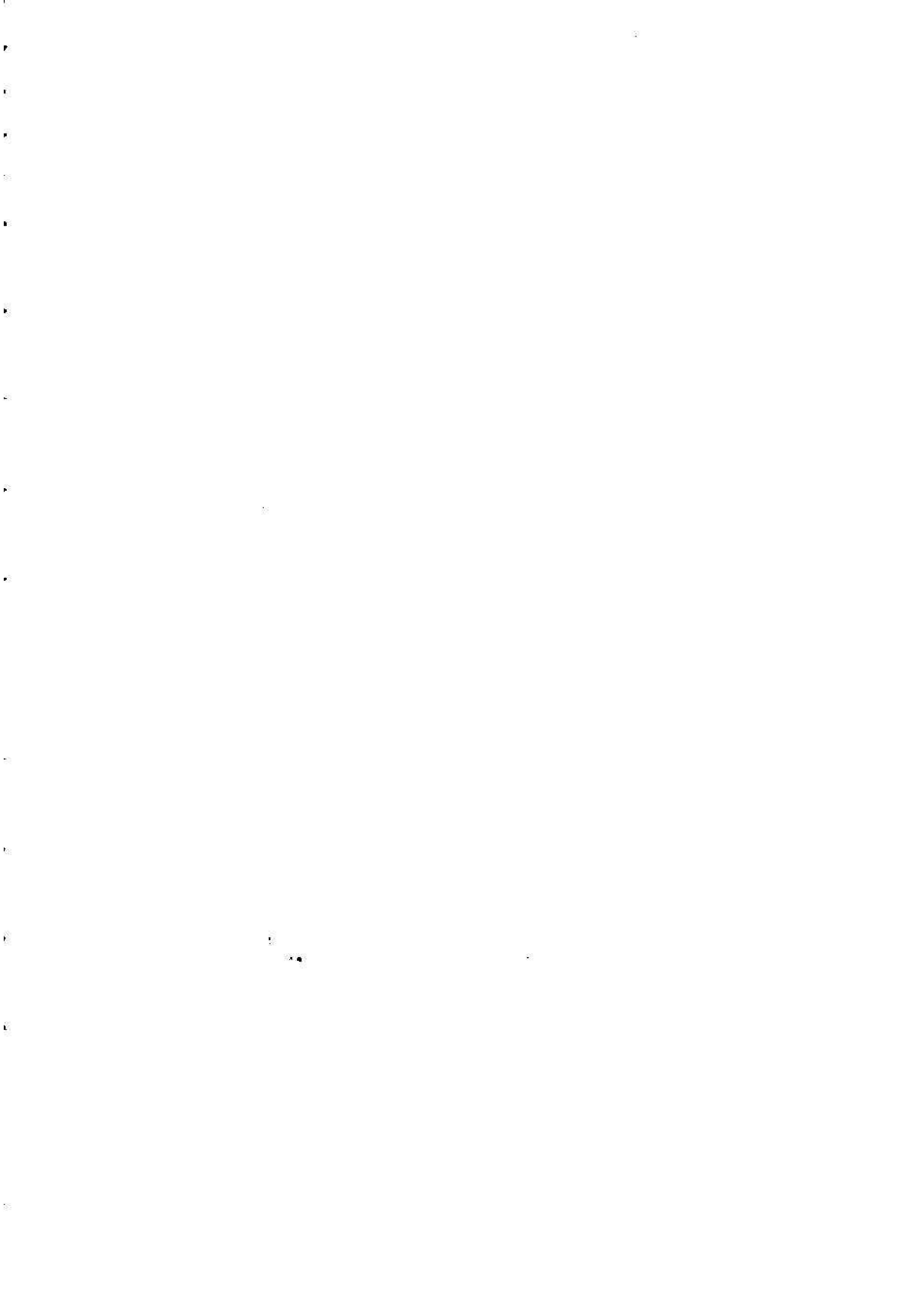
ودعنا قبل أن نمضي إلى أباطح السيل نقف إلى هذه الثنية التي تهبط إلى جرول الخلفية وكانوا يسمونها الحزنة ، كما نسمي اليوم جرول الخلفية « بالهنداوية » إنها حزنة صعبة .. المسلك لم تفلق كطريق إلا في عهد العباسيين ، فلقها جعفر البرمكي ليصل الطريق بين .. الجادة و بين بستان له كان يملكه فيما نسميه « الحفائر » .

لنمض فيما نحن فيه إلى المسفلة هذه هي الحتمة ، إنها صخرات في طريق المسفلة لا بد أنها كانت سوداوات ، فالحتمة في اللغة هي السواد ، لتهون من خطوك فهذا صاحب الأزلام على كتف الصخرة الكبرى يستقسم بالأزلام ، وهؤلاء غواة من الأعراب يزدحمون حوله في انتظار دورهم أمام الأزلام .

لنمض : فهذه مزارع المسفلة على خطوات منا ، أترى هذا الماجل .. ؟ إنه ماجل أبي صلابة ، وهو مجمع المياه ومنحدر السيل يسقي أكثر من بستان حوله بما يجتمع إليه من الأمطار لقد تناولته يد البناء في عهد المأمون فكان بركة ، وسماه الناس بركة الماجل ، ثم ما لبثنا أن حرفناه فهو اليوم « بركة ماجد » .

أيروقك أن تمضي إلى أكثر من هذا ؟ لقد انتهت مكة الآهلة ، وليس أمامك إلا ماجلان صغيران يسقيان بعض الزرع في مسيل الوادي . وإذا استطعت أن تمد ناظرك إلى أبعد من هذا ، فسوف يسلمك الوادي إلى مزارع تكتنف الجادة فيما يسمونه جرول الخلفية ، ونسميه اليوم الهنداوية .

دعني أودعك عند هذه النهاية ، وسألتقي بك إذا شئت ، في مشاهد جديدة من تاريخ مكة القديم .



ما ظنك بهم ؟

لقد : كانوا أصحاب جاهلية ، ليس في هذا ريب ، حكمتهم أساطير توارثوها ، وأنت تعرف مفعول الوراثة وتعرف أثره في توجيه طاقة العقل ، ولا تجهل قدرته على إلغاء ملكة النقد .

قل لي بربك : ألا تعايش اليوم أمماً أضلتها الأساطير على سبيل الله ، وحكمتها الوراثة بما لا مناص لها منه ؟ .

لندع هذه لسنة الله في الحياة ، وتعال نتابع قصصهم في حياتهم العقلية في القيافة والعيافة والفراسة .

أي ذكاء هذا الذي كان يميز وصف الدابة من آثار خطوها ، كما يميز سن الفتاة من حركتها في المشي ، ولا يعجزه أن يلحق الرجل بنسبه عند أول نظرة يدققها في : سيماه وهو إلى هذا يتتبع آثار الضال والهارب ، كما يتتبع آثار السارق ، حتى يقف على مخبئه ومخبأ جريمته ، ويستدل من كلام الشخص وهيئته على أخلاقه ، وهو يدرس اليوم في الجامعات وربما قصر عن الشأو الذي بلغوه قبل ألفي سنة ، ولا يتطاول إليه أستاذ في علم النفس أو في فلسفة الحياة إلا فيما ندر . وهم يكشفون مواطن المياه ويعرفون مظانها ، واستطاعوا بذلك أن يستبطنوا الماء من مئات الآبار التي حفروها في مكة ، وفي البوادي المحيطة بها .

أي ذكاء هداهم إلى النجوم : واقعها ، وأطوالها ، وحركاتها ومنازلها في البروج ؟ وأي ذكاء هيأ لهم فهم الأنوار والأمطار وأنواع السحاب ، ممطراً وغير ممطر ، وعلمهم اتجاه الممطر بالنسبة إلى جبالهم ووديانهم ، كما علمهم أنواع الرياح واتجاه سيرها في كل وجه ؟

لا لم يقف ذكاؤهم عند هذا الحد ، ولا انتهت كفاءتهم إليه ، فقد برعوا في البحر كما برعوا في البر ، كانت مراكبهم تتهادى في البحار تمخر عبابها إلى السودان والحبشة ، وكانت تضرب في الشمال إلى موانىء مصر ، وتتوغل في الجنوب إلى أطراف الهند .

تفرقوا في البحار حتى أتقنوا فنونها ، وبذوا كثيراً من جيرانهم فيها ، وربطوا أوقاتهم بحركات النجوم ، واهتدوا في سيرهم بمطالعها ، وكان لهم في الشعيبة وأكبر ظني أنك لا تجهل الشعيبة ،

فهي ميناء يقع اليوم جنوبي جدة .. كان لهم في هذا الميناء دار .. صناعة لإنشاء السفن وإصلاحها ، وكان ملاحو الجنوب يؤمون ميناءهم لإصلاح ما استعصى إصلاحه في موانئهم وكانوا ينتدبون فتياناً إلى هذا الميناء ليتفقهوا في صناعة السفن ، ويتعلموا من فنون الملاحة ما يقصر باعهم عنها .

ولعلك تدري بعد هذا أن دور الصناعة شاعت بعدهم وظلت متوارثة ، حتى استفاد منها المسلمون في عصرهم الذهبي ، وأنها انتقلت منهم إلى كثير من الأمم المتحضرة ، فهي اليوم عندهم (ترسانة) تحريفاً لـ (دار الصناعة) اسمها الأصيل في عاصمة قريش .

والآن ألا تتبعني سأمضي بك إلى محترفي الطب في بطون قريش ، لتعرف أي مدى بلغوه في طبائع الجسم وأمراضه وسائر علله .

نحن : الآن على فوهة شعب بني عامر ، نستطيع أن نسلك درب بني بكر الملتوي لنصافح دار الطبيب ، أترى هذه العرصة المزدحمة بالمرضى ؟ إنهم ينتظرون خروج الطبيب إليهم . استمع معي إلى قصصهم ، إنهم يثنون على مهارته ونجاحه في تخفيف آلامهم ، أترى هذا القصي في الزاوية النائية ؟ إنه لا يخالط المرضى امتثالاً لأمر الطبيب فقد أصابه الجذام ، ولكن أعشاب الطبيب بدأت تترك أثرها في صحته .

وليس هذا وحده طبيب البلدة ، فهناك عند « المردم الأدنى » طبيب وإذا عنّ لك أن تمد رجليك إلى منازل « بني زراة » من تميم ، في سفح قعيقعان ، فثمة طبيب ، آخر عند « سقيفة بني عائذة » تستطيع أن تصعد إليه من سوق البزازين عند مدخل أجياد .

ترى هل طال مشوارك ؟ أم أنت تتألم من عرج في رجليك ؟ لا .. لا يحسن بك السكوت على ما أرى ، دعني أركب بك الطريق إلى المسفلة ، فثمة طبيب بارع في علاج العظام .

أتشكو عجزاً عن المسير ؟ الأمر يسير ، هذا سوق الحمارين على خطوات منا في ساحة بني عبد مناف ، أيعجبك هذا الفاره ذو البردعة المفضضة ؟ إنه من خير ما يصلح لمثلك .

ها قد أشرفنا على ما نسميه « الهجلة » إنها دار الأزلام « الحتمة » أترى الصخيرات .. السوداء عندها ؟ والبيت الواقع على كتف الصخرة الكبيرة المشرفة على مبطح السيل ؟ إنه بيت طبيب العظام .

لا تستهول الأمر فالدرب إلى الصخيرات ممهد للمشاة والركبان ، لا يعجزك تقطعه راكباً في أمان .

أترى هذا المحتبي في ظل الصخرة إلى جوار « الكانون » ؟ إنه الطبيب الذي نقصد ، وليس غريباً أن نجده خالياً إلا من هذا الشخص الذي يعاين أطرافه ، فأطباء العظام هنا يتوازعون المرضى ، على أن أكثر كهول البيوت وعجائزها يطيبون العظام في مهارة .

أتتردد في خوف من الكانون ؟ لا .. فالكي هنا آخر مراتب العلاج ، فأمض ثابتاً ولا تتردد .. أرأيت ؟ هذه وصفة الدهان التي أوصاك بها تصدق خبري عن الكي بأنه آخر مراتب العلاج .

فسأمضي بك إلى سوق العطارين لتشتري الدهان ، إنه دون رمية السهم في درب يتفرع من سوق « الحزورة » عند دور « آل صيفي » . ولكن أرى من الأوفق أن نتمتع بهذا الأصيل الغائم ، ما دمنا في ركائبنا ، على مشارف « المسفلة » .

هيا : ولنغذ السير ، فما جعل أبي صلابة[1] على نجوة منا ألا تسمع خرير المياه ، وهي تنحدر إليه هابطة من مشارف التلال حوله ؟ أنظر كيف تصطفق المياه بين أركانه إنه مجمع طبيعي لمياه السيول المنحدرة إليه ، فيصرفها في جداول تسقي البساتين والمزارع إلى العدوة القصوى من الوادي .

وإذا شئت فلنتابع سيرنا إلى « الليط » على حوافي مانسميه اليوم « شارع منصور » فثمة مزارع يانعة وأشجار باسقة تعانقت فروعها فامتد ظلها وارفاً .

أترى ؟ هؤلاء فتيان قريش وشبابهم في ثيابهم المحمرة والمصفرة ، والمعصفرة يتواكبون في ظل الأشجار على شطآن المزارع ، أترى هذه الجفنة الصغيرة بين يدي هذه الجماعة في هذا الطرف الأدنى بجانب الصخرة البلقاء .

ستسألني ما هي ، وفيم كانت ؟ إنها جفنة للفواكه المجففة يتنقلون بمحتوياتها في نزهتهم إنهم شباب من شباب « بني مخزوم » وعلى غير بعيد منهم فتيان من « بني أسد بن عبد العزي » أما هؤلاء الذين تشهدهم يتواثبون طربين على صوت المزمار ففتيان من « هذيل » .

هذه بطون تعودت التنزه في « الليط » وفي ظل الأقحوانة في منبسط الوادي و بين .. البساتين القريبة من « الماجل » لقصر المسافة بينها و بين منازلهم ، وهناك بطون أخرى من « بني عامر » و « بني عبد مناف » و «آل عتبة » و « آل معيط » ترتاد حائط الحمام .. و بساتين حول « ثنية الحجون » و بطون أخرى من « بني كنانة » و « بني عبد شمس » و « آل ربيعة » ترتاد منتزهاتها في بساتين «الخزمانية » ومزارع « المحصب » وما يليها من ملتويات وشعوب في

الطريق المؤدي إلى « منى » و بطون أخرى من « الأزد » . و « آل سلمة بن هشام » و « آل عامر بن لؤى » ترتاد متنزهاتها في وادي « طوى » ومرتفعاتها « فخ » فيما نسميه اليوم « ألزاهر » .

وثمة : أعيان من صناديد قريش والمثرين فيها يشتملون بعباءاتهم الحاكة من أوبار الجمال فوق القباء الطويل المشقوق من وسطه ليسهل امتطاء خيولهم ، يتهادون بها في طريقهم إلى المتنزهات البعيدة في منبسط حوض البقر ، والأغوار المزروعة خلف جبال المزدلفة والواحات اليانعة بين التلال في حواشي عرفة .

لعلك تستغرب يا صاحبي أن تكون لمكة المكرمة في هذا العهد القديم كل هذه المتنزهات وكل هذه البساتين ، وربما دار في خلدك أن تتهمني بالإغراق والمبالغة ، لا يا صاحبي فمن الثابت أن مكة كانت في عهد من عهود التاريخ المجهولة مروجاً خضراء وكانت غيوم الرياح .. الغربية الشمالية تصل إليها قبل أن تفقد رطوبتها فتنهال الأمطار غزيرة عليها ثم ما لبثت عوامل الجفاف الطبيعي الذي طرأ بالتدريج أن حالت دون وصول الغيوم مرطبة فحرمت مكة المكرمة كما حرم كثير من بلاد العرب من أمطارها ، وأقول أن عوامل الجفاف أصابتها بالتدريج أي أن عوامل الجفاف في عهد قريش كانت سورتها أقل مما نشهده اليوم ، فلهذا فقدت مكة المكرمة اليوم أكثر المزارع التي كانت لعهد قريش .

أتنغض إلى رأسك مستنكراً ؟ هون عليك فنحن نرى اليوم سورة الجفاف وغيرها قبل خمسين سنة ، بدليل هذه البساتين في ضواحي مكة المكرمة والمدينة المنورة والطائف وجدة التي قضى الجفاف على بعض منها فأصبحت في خبر كان .

---

(١) ـ كان « ماجل أبي صلابة » مجمع طبيعي للمياه ، وفي عهد المأمون بني له جدار واتخذه بركة فقيل « بركة الماجل » ثم حرفه العوام فسموه « بركة ماجد » .

(٢) ـ الأقحوانة نسميها اليوم عباد الشمس .

عفا الله عنك .

أحسبت وأنت تقرأ عن الأعرابي الذي باع جاريته بألف ، فلما قيل له لم قبلت الغبن ؟ قال : « والله ما ظننت فوق الألف شيئاً » .. أحسبتها فكرة صحيحة . تصور معارف العرب في جاهليتهم ؟ ؟

أنا لا أستبعد أنها لون من الملح الفكاهية كان القاصون يتندرون بها في مجالسهم . ولحا الله القاصين وما فعلوا ، وما اضافوا إلى تاريخ العرب من أباطيل وترهات .

أتظن أن معارفهم تقصر عن إحصاء ما فوق الألف وأنت تسمع القرآن الكريم يحدثهم عن قصة يونس فيقول : « وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون » ؟ وتسمعه يحدثهم عن أهوال القيامة فيقول : إنها « في يوم كان مقداره خمسين ألف » .. أفتظن القرآن يحدثهم بما لا يفهمون ، ويخاطبهم بما لا تتسع له مداركهم ؟ ؟

وإذا عرفت أن القرآن الكريم أخذ يحدثهم في صدد التشريع بأدق من هذا ، فأشار فيما شرع إلى النصف ، والثلث والربع ، والخمس ، والثمن ، والعشر ، ونصف العشر ، وربعه ... إذا عرفت هذا ، عرفت المدى الذي بلغته مفاهيمهم ، وعرفت أنهم كانوا في بيئة تجيد أعمال الكسور على هذا النحو ، وتجيد مستلزمات التوزيع كعمليات الجمع ، والطرح ، والضرب ، والقسمة .

كانت مكة عاصمتهم - من أهم مراكز الصرافة في العالم القديم ، كان يتوارد إليها النقد باشكاله من عرب يتاخمون بلاد الفرس ، وعرب يتاخمون الروم ، وعرب يتاخمون البيزنطيين ، وعرب يتاخمون الحبشة ، وعرب .. وعرب ، إلى آخر ما تعرفه من أجناس المتاخمين .

وكان يعايشهم في عاصمتهم جاليات رومية ، وحبشية ، وفارسية ، وعبرية ويتداولون نقوداً أجنبية ، ويتاجرون في عروض لا يحصيها رقم ، فكانت بيوت الصرافة في سوق الحزورة وساحة الخياطين تيسر لهم مداولة النقد ، وتربح من فرق أسعارها أرباحاً يحسدون عليها .

وإذا شئت أطرف من هذا وأدعى للعجب فهلم بي ، وتعال نمض في دربنا بعد الحناطة إلى المدعى . أتشهد هذا الذي يخب أمامنا خبا ؟ إنه من عرب الحيرة باع أحماله من الفواكه المجففة وقبض الثمن ، فاشترى به من أسواق مكة وسقا من المسك .

إنـه لا يـأمـن عـليه غائلة الطريق إلى الحيرة فلا بد له أن يؤمن عليه ، على غرار ما نفعل اليوم عندما نؤمن على بضائعنا المسافرة .

أتـراه يـعرج أمـامـنـا في معارج هذه الربوة الصاعدة إلى القرارة ؟ إنهم هناك في بيوتهم بين مخارف الربوة المطمئنة يستقبلون تجار الجملة ، ليؤمنوا على بضائعهم لقاء جعل مرسوم .

وهـو وإن كـان تأميناً على غرار ما نفعل ، ولكنه لا يشبهه في تفصيلا ته ، فأجيالنا اليوم تؤمن ضـد الحريق ، أو الغرق ، أو التلف ، بشكل خاص وشروط مخصوصة ، فهو نوع من القمار .. لا تـملك شركة التأمين إلا أن تترك بضاعتك للقدر ، فإذا كتبت السلامة لبضاعتك ربحت الشركة ما أمنت به ، وإذا حال القدر دون سلامتها تقدمت إليك بقيمة ما أمنت من بضاعتك .

أمـا تـأمـينهم فلا أكثر من سلامة من الغائلة في الطريق ، يتقاضون قيمة التأمين المرسوم على بضـاعـتك ، ليدفعوا إليك لقاءه توصية إلى غيارى الطريق وقطاعه ، فلا يمسونك بشيء ، احتراماً لتوصية بيت التأمين .. أو إن شئت فقل لقاء ما تواسيهم به بيوت التأمين ، كضريبة مقررة .

لـسـت أعـنـي بهذا أنهم لا يقامرون ، ففي بعض هذه البيوت على كتف هذه الربوة قاعات يـرتـادهـا لـلـقـمـار أصـنـاف وأصـنـاف من المواطنين والمجاورين والمهاجرين .. وحتى الحجاج لا يتورعون عن القمار ، فشرائعهم لا تحرم ما حرمه القرآن فيما بعد .

وربـما خسر المقامر جميع ما يملك ، فلا حرج عليه إذا اعتلى الصفا ، وصاح ينادي قومه بأعلى صـوتـه : « يـا لـفـلان ، لقد ارتكست ، فأعينوني .. » فلا يلبث أن يجتمع إليه القوم ، وأن يمدوا إليه أيديهم بما يعينه ، إذا تحققوا صدقه ، وأنه لا يفجر في إيمانه ...

ولا تـتـورع بيوت التأمين في معارج الربوة من أكل السحت ، ومزاولة الربا بأنواعه البسيطة والمركـبـة ، « ذلـك لأنهم قـالـوا إنما البيع مثل الربا » . فهل تستغرب وأنت تنظر معي إلى هذا البائس المنطوي على نفسه في ظل السدرة يبكي ماله الضائع ؟

أتـدري مـا خـطـبه ؟ .. إنه رهن جماله من عامين في مبلغ من المال يمتار به في أسواق مكة ، لـيسد جوعة أهله القاطنين في ذيل حصن ، و يحيي أرضه التي قضى عليها الجدب ، ولكن البطون الجائـعـة مـا لـبـثـت أن جاءت على آخر الميرة . أما الغدير الناضب فلم تسخ عليه السماء ، فظلت الأرض عـلى جدبها لا ينبت فيها نابت . وحال الحول ، ثم الحول ، فباتت الجمال ملكاً للدائن .. استغرقها الربا في غير رحمة ، وترك صاحبها يندب حظه العاثر ، و يبكي ماله المفقود .

ألا تـرى معي أنها سيئات مجتمع جرفته المدنية إلى أقصى منحدر ، كما لمعت في بعض جوانبه بأبهى ما يضيء .. شأن كل المدنيات في كل العصور ؟ ؟

إنها لوثة الغني ، وهوس الترف ، وجنون المخابىء التي تكتنز بالذهب الخام ، والذهب والفضة مضروبين دراهم ودنانير .

أتعرف ابن جدعان ؟ إنه من كبار أصحاب رؤوس الأموال ، وما حدثتك عنه إلا لمناسبة ظهوره في مرتفع الربوة .. ها هو قادم إلينا يرفل في ثيابه من الكتان المطرزة بالوشي ، أتراها كيف تقوم قياماً على جسده من شدة الصقال .

إنه وقد آن أوان عودته إلى بيته يترك متجره الواسع في الربوة لصاحب حسابه وخدمه . تعال نتبعه إلى أجياد حيث يسكن ، وإذا تراءى له أن يجول جولة في فرع متجره بسوق الحزورة ، فمن الخير أن تزداد علماً بمدى ما يزاول من أعمال .

أترى ؟ .. لقد صدق حسي ، وها هو أمامنا على باب المتجر ، تعال ندلف في ساقته كأننا تجار نشتري .

أتدهشك هذه القاعة الواسعة بما يموج فيها من بشر ؟ إنهم مماليكه العبيد استوردهم سماسرته من أقاصي الأرض .. هؤلاء قوم من الصقالبة ، ربما كانوا من أسرى القرصنة في بحار الغرب ، وهؤلاء أروام ، ربما سرقهم النخاسون من جزر البحر الكبير ، وهذا الأصفر الحديث السن ربما ابتاعه وكيل تجارته من إحدى دساكر الصين ، وهذا الجمع الراقص في ركن القاعة ، ألا تظنه من مجاليب إفريقية ؟

قل معي : ما أغرب ما يتسع له هذا الغني من أعمال !!

أتسمع ؟ .. إنه يدعونا إلى حفل غداء في بيته في جملة من دعا من كبار قريش . لقد ذهب به ظنه إلى البعيد ، فتراءى له أننا من تجار الآفاق ، فتعال نهتبلها فرصة ـ يا صديقي ـ نتعرف فيها نواحي القوم ونصيبهم من حضارة جيلهم .

ماذا أرى خلفي على الدرب ؟ إنهم نفر من بني مخزوم على دوابهم الفارهة أترى القلائد الذهبية كيف تتدلى من أعناق الدواب ؟ لعلهم من كبار القوم ، فهذه الأقْبِيَة من الخز أو الديباج التي يرتدونها تدل على مبلغ الغنى وسعة الثراء . إنها ظاهرة لا بد أن تتلوها ظواهر .. فهلم ندلف إلى مجلس القوم .

يا لجمال هذا المتكأ المبطن بالسندس ، وهذه الزرابي والنمارق المصفوفة بعرض المجلس فوق البسط الناعمة نعومة الحرير . أيعيش ابن جدعان في كل هذا الترف ، ويأتي مثلك لينسبه إلى بداوة الأجلاف ؟ ؟

ما أصدق شاعرهم ، وهو يصف يوماً من أيامه:

يوم ابن جدعان بجنب الحزورة — كأنه القيصر أو ذو الدسكرة

إنه واحد من قريش ليس بالرفيع الفذ ، ولا الوضيع الخامل ، وانها حياة تكاد أن تعم أكثر من طبقة . في أكثر من حي في مكة . إن بينهم من كان يلبس الرداء بخمسين ديناراً ، و بينهم من يدفن في حلتين قيمتها ألف مثقال من الذهب .

كانت مجالس سمرهم تزدان بالأرائك المفضفضة ، والثياب المعصفرة ، يشجيهم فيها صوت المغني ، أو يضحكهم مجون النديم ، و يدور عليهم ساقيهم بخمرة النخيل أو عصير الأعناب في آنية من فضة ، أو أقداح من بلور تفوح منها روائح المسك أو الكافور .. فإذا انفض سامرهم أخذوا للراحة ليستأنفوا من غدهم أعمالهم في المتاجر ، والمصارف ، وأسوق الماشية .

وكانت متاجرهم تستورد الرقيق والصمغ والعاج والتبر ، وكانوا ينقلون من اليمن الجلود والبخور والثياب ، و ينقلون من مصر والشام الزيوت والغلال والأسلحة وأنواع الحرير ، ومن الهند أنواع البهارات والنسيج وأصنافاً من الحلي .

ألا تدري أن قوافلهم التجارية بلغت يوم بدر ألف بعير ، كانت يومها موسوقة بالثمين والغالي ، عدا خمسين ألف دينار كانت منقولة بين الأثقال ؟ ألا تدري أنهم استطاعوا بعد هذه الغزوة أن يفتدوا أسراهم من المكيين بأربعة آلاف درهم للرجل إلى ألف درهم ؟

إنه الغنى مد أطنابه ، فتفيؤوه في ترف ، ولعبوا في ظله بما شاء لهم الهوى كدأب المتحضرين من أصحاب المدنيات البائدة أو القائمة .

ومع هذا كانوا أهل برّ ، يغيثون الملهوف ، و ينتصرون للمظلوم . كانوا يحفرون الآبار لسقيا الحاج ، و يخرجون من أموالهم خراجاً واسعاً يهيئون به طعاماً يسع ألوف الحجاج الفقراء ، وكانوا يستقبلونهم في بيوتهم دون أن يتقاضوهم أجراً . وكانت لهم إلى هذا مخيمات واسعة ينزلها المسكين والمحتاج في ظاهر مكة ، وسقائف ظليلة يستضيفون فيها أعيان الوافدين .

وكانوا يحفلون بجوانب الفصاحة من شعر أو أدب أو خطابة ، فيعدون أسواقها في عكاظ قرب الطائف ، أو المجنة ، أو ذي المجاز ، من أعمال الجنوب ، ليتبارى شعراء القبائل وخطباؤها في ألوان من بليغ البيان . و يدفعون بلغاءهم ليشاركوا في المضمار ، و يساهموا في مجاله ، حتى استقام لهم من فصيح القول ما كانت تشد إليه الركاب .

وبعد ، فهل تستمع إلى نماذج مما كانوا يقولون لتعرف مدى ما حققته فصاحتهم وما قررته مفاهيمهم .. هاك فاسمع :

من أجمل قيلاً ، سمع جميلا . أنفك منك ، وإن كان أجدع . إن البلاء موكل بالمنطق . ما حيلة الرامي إذا انقطع الوتر . من سابق الدهر عثر . كل الصيد في جوف الفرا . لا قرار على زأر من الأسد . كل شاة من رجلها معلقة .

إن مجالسنا هنا لا يتسع لألوف وألوف من هذه الأمثال ، فحسبك اليوم ودعني استودعك الله إلى لقاء آخر ربما تبسطنا فيه إلى أكثر من هذا .

(٥)

وي .. كأنك لم تقنع بعد بما قدمت لك ؟ سأعذرك يا صديقي ، ما دام المفهوم العام يدرج سائر القبائل في بادية العرب مدرجاً واحداً ، ولا يعرف كيف يستثني قوماً « كقريش » احتكوا بالحضارات شمالها وجنوبها ، وعاشوا في مركز يجمع تجار الشمال إلى تجار الجنوب ، وتزدحم أسواقها بالصادر والوارد من كل لون وجنس . كانوا يختلطون بهم و يفسحون لهم في بيوتهم ، وتدعوهم الأعمال الواسعة إلى الحركة ، فيرتحلون من بلد إلى آخر ، فتتفتح عيونهم على الكثير من مظاهر المدنية في أحدث طراز كانت تعيشه مدنيات أجيالهم .

حسبك دليلاً يا صديقي على ما قدمت أن « القرآن الكريم » خاطبهم بمعان ، لا يمكن أن يخاطبهم بها وهم لا يفهمونها أو كانت مدلولاتها غريبة عنهم ، فحدثهم عن المشكاة والمصباح . كما حدثهم عن المساكن يعرج إليها بالمعارج ، وتهيأ بالنمارق والزرابي والسرر والفرش المترف المبطن بالإستبرق والسندس .. كما حدثهم عن أنواع الأواني من الفضة والذهب والقوارير والزجاج ، كأنه الكوكب الدري .. كما حدثهم عن الكؤوس ناصعة البياض في شكلها اللذيذ للشاربين .. كما حدثهم عن الحلي من الزبرجد والياقوت والمرجان واللؤلؤ .. كما حدثهم عن القراطيس والكتب والسجلات والأقلام والمداد والصحف .

وهي بالطبع ليست صحفنا التي تنشر الأخبار يومياً أو أسبوعياً ، فمدنيات تلك الأجيال كانت لا تعرف هذا النوع الشائع اليوم ، وإنما هو إطلاق البعض على الكل ، فالصحف المنشرة والصحف المطهرة أعم بكثير مما نطلقه اليوم .

يصح أن نقول إن لمدنيات تلك الأجيال ما يؤدي معنى صحفنا اليوم ، و يتمثل ذلك إلى حَدٍّ ما في شعرائها وخطبائها ورجال القصص فيها ، وكان للعرب ـ جميع العرب ـ نصيبهم من هذا المعنى كما كان لقريش حظها الأوفى .. فشعراؤها كانوا يرتادون كل سوق وقصاصو أخبارها يقتحمون كل مجمع .

وعرفت قريش في أسواقها ما لا يعرفه العربي البادي من المكاييل والموازين كما عرفت مفردات أثقالها ، وحذقت ألواناً من التلاعب بهذه المقاييس ، فكانت تضلل البادي وتخدعه وتتلاعب به ، كما يتلاعب المتحضر بسذج القوم البادين . وأنت تسمع فيما تقرأ اليوم من آيات « المصحف الشريف » ما توعدهم به القرآن : « و يل للمطففين الذي إذا اكتالوا على الناس

يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون » . ولا يستوفي إذا اكتال و يطفف إذا كال إلا واسع الحيلة من شياطين الحضارة .

واستعمل القرشيون في مكة الثياب والسراو يل والقمصان ، وتغالوا في أثمانها كما تغالوا في وشيها وتطر يزها . وأحسبك لم تنس ما حدثتك به قبل اليوم عن القرشي الذي كان يلبس الثوب بخمسين ديناراً ، وعن عبد المطلب الذي دفن يوم دفن في حلتين قومتا بألف مثقال من الذهب .. لا أحسبك تستنكر هذا أو تنكره . وقد جاء في القرآن ذكر « أو من ينشأ في الحلية ، وهو في الخصام غير مبين » .

واستعملت القرشيات الخمر والجلاليب ، وتختمن بالخواتم مرصعة بحبات اللؤلؤ وفصوص الياقوت ، كما استعملن الخلاخل ، وكن يضر بن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من ز ينتهن وتحلين بالعقود والأساور ، وتطيبن بكل ذي أريج فواح ، ومشين في زهو وخيلاء .

وعندما مد لهن أصحاب القيم في المجال الداعر ، وفرضوا عليهن ألا يطوفوا في ثياب أذنبوا فيها ، وجدن فرصتهن واسعة ليطفن عار يات ، وانتهى انحلال الحضارة وتفسخها بإحداهن ألا تكتفي بعريها في المطاف ، بل فعلته في فجور وقح .

و يكاد هذا اللون من التبذل أن يكون وسم جل الحضارات في جل العصور فقل أن ترى حضارة ترعرعت في غير ظل الانحلال والحر ية المتفسخة .

و بعد فهل يلذ لك أن أطوف وإياك على بعض سكك مكة وشعابها لنشهد بعض ملامح الحر ية الفكر ية التي كانوا يتطرفون في مزاولتها في صور لا يحدها عقل ولا يقيمها ميزان ؟ !

لتتبعني إذن .. أترى هذه العلية المشرفة على مداخل الشعب ؟ .. إنها علية إحدى بنات الهوى . وإذا شاقك من باب العلم بالشيء أن تدلج بي في هذه المدالج الملتوية ، فسوف تطالعك عشرات البيوت مزدحمة بعشرات الغانيات من كل جنس .

وهذا اللغط اللاغب الذي يتعالى من حاشية الوادي ألا تسمعه ؟ .. إنه لغب سمّار « سالمة الخثعمية » التي يسمونها صداحة الوادي ، يجتمع إليها الشباب في أمسيات القيظ المقمرة ، فتبسط لهم البسط في ردهة دارها ، وتتبدى لهم في أحلى ز ينة ، وتأمر قيناتها فيبرزن في ثيابهن الرقيقة الموشاة ، وفي أيديهن الطارات والمزامير تتقدمهن صاحبة الطنبور ، فيأخذن في الغناء ، بينما تدور عليهم أقداح الخمر التي تخلط عليهم عقولهم ، فتضج أصواتهم بالصخب اللاغب . ولا يقتصر

الأمر على هذا فشعاب مكة وأحياؤها تضج في أكثر لياليها بالغناء والزمر والصخب .

وإذا لذّ لك في أية أمسية من أماسي الصيف أن تدلف إلى أعاليها ، فستصافحك بطحاؤها مفروشة بطوائف السمار يتحلقون حول مغنيهم أو صاحب مزمارهم على ضوء مشاعل الزيت أو وقود الحطب ، في ضجيج راقص وصخب يملأ الوادي . وستعجب إذا تراءى لك أن تنحدر إلى أسافل مكة مما تراه مماثلاً لذلك .. من خلق الله المائج بين هضاب الوادي وسفوحه لا هم لهم إلا أن يطربوا و يرفعوا أصواتهم عالية ، فتختلط بعضها ببعض في صخب لاغب .

ربما ظنهم مثلك خليين ، ليس لديهم ما يشغلهم في دنياهم . لا .. لا يا صاحبي فنهارهم مزدحم بالأعمال الجادة والكسب الفاحش ، الذي لا يحرم ولا يحلل ولا تعرف مدى لاحتيالاته وألاعيبه .

وإذا شاقك أن تطيل في سهرك فدونك هذه العدوة القصوى وراء المسيل فثمة طائفة من أحباش قريش ترقص على نفحات طبولها .

وتستطيع أن تعرج بمعارج الربوة القائمة على صدر المسيل لتشرف على حشد من شباب فارس هبطوا مكة من أيام ، فباعوا وابتاعوا ، ورأى « شابور » ، وهو من بني جنسهم وقد طالت إقامته بمكة ، أن يحتفل بوداعهم قبل أن يغادروا مكة إلى بلادهم ، فجمع إلى حفله « درامة » المغنية و « عاتكة » الراقصة في كوكبة من حاشيتها .. إنها ليلة احتشد فيها بارعات الفن ، وتصدرها صناديد قريش وأعيانها .

ألم أقل لك إن أصحاب القيم في مكة لم يحجروا على متعة فيها ، ولم ينكروا أية لذة تستباح ؟ أتقول لي : ولكن كيف تغيرت هذه المعايير بين عشية وأخرى ، ونسي المنحلون سائر ترهاتهم .

لا أحسبني أتكلف الرد عليك فأنت أفضل من يعرف ما قاساه « ابن مكة » سيد الخلق ، وما بذله لكبح جماحهم وهدم مقاييسهم ، وإنارة الطريق أمامهم .

وعساني أستطيع وإياك في أعقاب هذا أن ندلج مع الدالجين في ركاب سيد الخلق صلوات الله عليه لنتتبع في بعض المشاهد بعض ماعاني في سبيل هدايتهم ليكونوا « خير أمة أخرجت للناس » في ظل أقدس بيت رفعت قواعده في مكة .

(٦)

ألا تمشي ؟

لا .. لا يهولك هذا الغبار المنعقد فليس لنا به من شأن .. وإذا بدا لك إلا أن تكشف عن قصته فدونك هذه الربوة .. إنها تطل على سوق الحزورة حيث تتشابك الدروب لتنحدر في جادة واحدة إلى مساقط المسفلة .

أترى ؟ إنهم نفر من آل صيفي يتواثبون في فم الدرب الذي أفضى بنا يوم أمس إلى باعة الأصنام ..

إنها دون شك حمية الجاهلية ربما أثارتها قينة من فتيات صقلية أو بنات الروم ، فهن كثيرات في مداخل هذه الدروب المتفرعة من سوق الحزورة .. ربما عشق الرجل من آل صيفي ذات دل منهن ، فتأبى حميته إلا أن يمنعها عن غيره .

وتستطيع الآن أن تفهم .. فهذا النفر من بني عبد العزي يتجمهرون أمامك تحت سقيفة الحناطين في العدوة الأخرى من السوق ، لعل بعضهم حاول مغازلة الفتاة ، فثار غريمها من آل صيفي ، وثار لثورته من قومه هذا النفر الذي تشهد كما ثار من بني عبد العزى لصاحبهم من ترى . فاحتدم الجدال واشتبك القتال الذي انعقد غباره قبل أن ينفض . وأحسب أنه ما انفض إلا ليستأنف من جديد ، بدليل هذه الحركات الهستيرية التي تشهدها بين العدوتين على حواشي السوق .

ألم أقل لك قبل اليوم إنه مجتمع محلول ؟ وإنه رغم مميزاته الحضارية كان ينتظر من ينقذه من ترهاته ومباذله .

وسألتني قبل اليوم عن قصة هذا الدرب (درب باعة الأصنام) في تجاهل من يعرف أن قصاد « مكة » وحجاجها من سائر الأطراف في بوادي العرب كانوا لا يودعونها قبل أن يتزودوا من أصنام هذا الدرب بجملة ، ينصبون بعضها في بيوتهم ليتوجهوا بعبادتهم إليها ، أو يهدون منها إلى من يرونهم بعبادتها من ذوي قرابتهم وأهليهم .

لك أن تضحك من كل هذه المهازل ، على ألاّ تنسى موقف النبي - صلوات الله عليه - من أباطيلها . لقد آلمه ما يرى فأحس إحساساً صادقاً أنه مسئول عن القضاء عليها . وكان لا يملك من دنياه إلا إيمانه ، وإلا إحساسه بأنه مختار لأعمال هذا الإنقاذ .

هوذا على صخيرات أبي قبيس في مدارج الصفا : « يا بني عبد المطلب يا بني عبد مناف ، يا بني زهرة ، يا بني تميم ، يا بني مخزوم ، يا بني أسد ، إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين » .

كانت صيحة ، ولكنها صيحة من لا يملك إلا أن ينذر نفسه لها ، لقد تقاذفته السخرية يومها ، وتنادته الأصوات المغرضة ، وأهاب به أبو لهب من جوف الوادي : « ألهذا جمعتنا ؟ ! » « تبت يدا أبي لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب » .

ترى هل يفت في عضده مثل هذا الصدى العاتي ؟ ! لا ، فهو أكبر من هذا وأرفع .

ثمة فرق بين أن تبز أقرانك وتبدو عظيماً في أمتك وبين أن تطبع هؤلاء الأقران بطابعك وتصنع أمتك من جديد . فأنت في الأول عظيم في التاريخ ، وأنت في الثانية صانع للتاريخ .

وعظماء التاريخ حفل التاريخ بهم ، واحتشدت بسيرهم فصوله المطولة ، أما صانعوا التاريخ فأولئك هم الندرة التي لا يجود بها الدهر في مئات الأجيال ولا يظفر بهم التاريخ إلا مرة بعد ملايين من فصوله .

وسيدنا العظيم ، الذي غضب لترهات مرت بك في مكة ، كان صانعاً للتاريخ ، بل وأكثر من صانع إذا شئت ، فهو لم يطبع جيلاً واحداً ، ولم ينشىء أمة واحدة ، ولم يصبغ قلمه قارة واحدة في خارطة العالم . إنه طبع دهوراً بكاملها ، دهوراً انطوت فيها أجيال ، وستنطوي فيها أجيال وأجيال ، ولا يزال لطابعه جدته ، كما لو لم تمض عليه إلا ساعة من نهار .

وأنه أنشأ على سطح الأرض أمماً لا تحصى ألوانها ، ولا تعد لغاتها ولا تستقصي أبعاد مساحتها ، أنشأهم إنشاء جديداً أفنى فيه كل ماورثوا من أديان ، وما عرفوا من عادات وأخلاق ولغات .

وإن قلمه مضى على ثلثي خارطة العالم في أقل من مائة عام مضيًا استحالت بعده آلاف الكنائس ، ومئات البيع ، ومئات الألوف من الهياكل الباطلة إلى مساجد يذكر فيها اسم الله وحده لا شريك له .

إنه ابن آكلة القديد بمكة .. كأنه بين عيني الآن ـ عليه السلام ـ بين هضاب أبي قبيس يرسل الصيحة يهتز لها أبو قبيس ، وتدوي لها شعاب الهواشم .

كـأنه بين عيني الآن يرسل الصيحة في هذه القفار القاحلة بين المروتين فيسمع صداها يدوي في الهـنـد والتركستان إلى روسيا و بولونيا و بلاد البلقان والترك وفي برقة والجزائر ومراكش إلى أدغـال إفـريـقـيـا جنوباً إلى أطراف أوربا شمالاً .. دوياً يهيب بالأديان فتخر طائعة بين يديه ، والـعـقائد الموروثة فتستحيل أمامه هباء ، والعصبيات القبلية والجنسية واللغوية واللونية فتأتي إليه صاغرة يصوغها كما يشاء ، ويطبعها بما يشاء .

أتسألني ؟ ؟

دونـك إذن رأيـي ، فأنا ممن يعتقد أنه إذا اعتبر تقدير هذا السيد في أي بلد من العالم إيماناً فإنه بالنسبة إلينا ونحن بني هذه القفار التي أقلته يجب أن يعتبر تقديره لدينا أكثر من إيمان .

أتستغرب ؟ ؟

لم يـا صـاحـبـي ؟ ؟ وأنـت تعرف أن نحو خمسمائة مليون مسلم تتجه اليوم نحو بلادنا نتيجة لما بـذل سـيـدنـا العظيم ، ونحو خمسمائة مليون مسلم تنطق اليوم شهادة الإسلام بلغتنا نحن ، استجابة لصيحته التي دوى صداها من فوق الصخور التي تظللنا .

تمضي إلى اليوم أربعة عشر قرناً ونحن لا نزال في مكانتنا ، تقدس بلادنا هذه الملايين وتنظر إلينا بإكبار ، نتيجة لصنيع قرشي واحد ، لا تزال بنيته المقدسة قائمة بيننا .

أتسمعني ؟ ؟

يـذكـرنـي هـذا بيوم عاصف ماطر اضطرتنا فيه قسوة الطريق في بلد شقيق إلى أن نلجأ إلى خـبـاء فلاح صادفنا . وإنا لكذلك وإذا العواصف تسوق إلينا سيدة من شمال أوربا عاق سيارتها ما عـاق رحـلـتـنـا فاقتحمت الخباء علينا . واشتهت فيما يبدو أن تقطع الوقت بالحديث معنا ولكنها كـانـت لا تجيد غير لغة بلادها ، ولم يكن بيننا من يعرف لغتها ، فبدأت لغة الإشارة تؤدي دورها بيننا .

كـان يهمها أن تعرف البلاد التي ننتمي إليها ، فقلنا إننا عرب . وحاولنا أن نضغط على كل حـرف مـن كـلـمـتـنـا على أمل أن تكون قد درست في الجغرافيا ما يساعدها على فهم الكلمة أو قـرأت فـي صـحـف بلادها بعض ما يقرب لها معناه ، ولكن جهودنا باءت بالفشل فآثرت وآثرنا معها الصمت .

ولم تمض إلا لحظات حتى عمدت إلى « ألبوم » كان في محفظتها ، فشرعت تقلب بين الرسوم والصور التي اكتظ بها ، فإذا بينها صورة رجل يصلي . فأسرع أحدنا وكان يجلس إلى جانبها ، فأشار لها بكلتا يديه إلى الجهة التي يصلي إليها الرجل ليفهمها أننا أهل هذا البلد الذي يتجه إليها المصلي . فما راعنا إلا صوتها يندّ عن فرحة صارخة « مكة .. محمد .. محمد .. مكة » .

أي .. أنها « مكة » وانه « محمد » .

ومن غير « مكة » حرى بهذه الشهرة ، ومن غير « محمد » قمين بهذا الصيت الحي .

فلنكبر فضل محمد ، وتعاليمه ونواهيه فينا ، وقبلته بين أيدينا ، أكثر مما يكبره كل ناطق بالشهادتين في تاريخ الأرض .

و بعد .. أتراني يا صديقي بالغت ؟ ؟

كنت أتمنى لو اتسع النطاق اليوم أمامي ، إذن لاستعرضت وإياك بعض المواقف العظيمة التي امتاز بها صلوات الله وسلامه عليه في لقطات خاطفة لتتبين العظمة على حقيقتها ولكن جلستنا اليوم شارفت على نهايتها .

لا .. لا تظنني أنوي سرد ما ترجم له في فصول مستوفاة منظمة ، فذلك سبيل عني به فطاحل ، وتوسعت فيه أقلام وأقلام ، واكتظت به أسفار وأسفار .

ولكنها لقطات ولقطات خاطفة ، فإلى جلستنا يوم نستأنفها .

(٧)

فجر النبوة

كأنه بين عيني الآن ..

ما أروع ما أرى !

ما أروع هذه الانطلاقة !

ما أروعها وهي تستصفيه صلوات الله وسلامه عليه ، لتمعن به بعيداً عن زيف الحياة !

ما أروعها وهي تسمو به بعيداً عن مباذل قريش .. بعيداً عن ضلالها وعن ترهاتها وأوشابها !

ما أروعها وهي تحلق به في فضاء الله الواسع ، وقد سجا الليل ، ولمعت نجومه في وميض خافت لا يتبين فيه الطريق إلى حراء إلا بالكاد .

ها هو ذا .. وقد طواه الغار في إطراقة طويلة !! لم يطو إلا جسمه . أما روحه ، وتأملاته التي لا تنتهي بنهاية ، فقد انتقلت بعيداً عن الغار تعانق ما بين الأفق والأفق .

ترى فيم خلق كل هذا ؟ وما حكمة صنعه ؟ ترى أي سر يندلع في هذا الوهج الذي تشع به هذه الكواكب ؟ وأي يد جبارة دحت هذه الغبراء ، وبنت هذه السماء ، ومدت بينهما في هذا الأفق الذي لا يتناهى ؟

« ربنا ماخلقت هذا باطلاً سبحانك » !

..

هذه الانطلاقة في ملكوت الله الأعلى استصفته للحقائق العالية ، وشغلته عن شهوات الحياة ، وهدته إلى هدم عقائد أمته الضالة ، وأعدته ليصنع من جديد تاريخ الحياة ، بعد أن أضاء الإلهام ما بين جنبيه ، وبدأت الرؤيا الصادقة تتبلج أمام ناظريه تبلج الشمس في عالية الضحا .

إذن ليبدأ خطوته الأولى ، و « ليصدع بما يؤمر ويعرض عن المشركين » .

وأي مشركين هم ؟ ! لقد كانوا رغم نضج العقلية السائدة فيهم لا يحجرون على متعة ، ولا ينكرون على مستبيح لذة .

كانت القيم الأخلاقية تزن الأشياء بمعايير خاصة . فليس من السمو الأخلاقي في مقاييسها أن تهادن في عصبية ، أو تنحاز إلى غير قومك مهما كان ظلمهم ، أو أن تنسى ثأرك مهما كان لونه ، أو تسلم بقاعدة يكون الفخر فيها لغير بني أبيك .

أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يصدع بما يؤمر في وسط يعتنق هذه المبادىء و يدين بها ، كما يدين العابد بأقدس ما يعتقد ، فلم يكن على النبي أن يقاوم ما عبدوا من أوثان أو نسكوا من منسك فقط ، بل عليه أن يصمد لهذه القيم الأخلاقية التي تسود المجتمع حوله ، والتي لا تستسيغ الوحدة تضيع فيها معالم القبلية .

أمر النبي أن يصدع بما يؤمر وهو رجل من بني هاشم . فأي دعوة هذه التي ينقاد لها بنو عبد مناف ، و بنو زهرة ، و بنو تميم ، و بنو مخزوم ، و بنو أسد ، وسائر البطون من قريش ، والفخوذ من كنانة ، والقبائل من عدنان ؟

إنها الاستهانة بكيان الأفخاذ وأمجادها في عرفهم وإنها الاستكانة لداع سيحوز الفخر لبني هاشم دونهم !

فما بالهم لا يقاومون ؟ ما بالهم لا يتكبرون على الدعوة ، و يكابرون في الحق ضنا بكيان الفخذ وكرامة القبيلة ؟ وما بالهم لا يجافون هذا الإعداد الذي يصهرهم غداً في بوتقة تنسيهم تراث آبائهم وتقضي على معالم كل ما ورثوا ؟

لا تستغرب ما أقول .. وإذا بدا لك أن تتثبت ، فالأمر لا يكلفك إلا أن تتبعني .

أترى هؤلاء المتجمهرين في فم شعب الهواشم ؟ إنهم صفوة القوم من قريش يتهادى في طليعتهم عظيم مكة أبو سفيان .

أتسألني : فيم القوم ؟

إنهم منذ الأمس في مرج عظيم ، غصت دار الندوة بكبارهم ، يبحثون الجلل ، و يدرسون خطره الداهم ، و ينتدبون في نهاية جلساتهم بعض صفوتهم ، تحت إمرة أبي سفيان ، لتيداركوا

عند أبي طالب بعض ما أصابهم . دونك فانظر .. إنهم في هذا يتجمهرون في فم الشعب . فهلا تمض في ساقتهم ، لعلنا نتسقط بعض ما يدور .

أتسمع ؟ .. إنه صوت أبي سفيان : يا أبا طالب إن ابن أخيك سب آلهتنا فإما أن تكفه عنا ، أو تخلي بيننا و بينه .

ترى هل يكفه عنهم ؟

لقد تسامعت قريش أن أبا طالب ردهم رداً جميلاً .. وأن أبا سفيان ما لبث أن أعاد الكرة في رهط من كبار قومه يستنجز الوعد : يا أبا طالب إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا . وقد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا . لتكفه عنا أو ننازله ، وإياك ، حتى يهلك أحد الفريقين .

ترى هل نهاه عنهم ؟

لقد تسامعت قريش أن أبا طالب مشى في نفر من أهله إلى بيت محمد صلى الله عليه وسلم ، وقال له : ابن أخي ابق على نفسك وعليّ ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق !

قالها في نبرة معبرة ولهجة سافرة . ولكن محمداً عليه الصلاة والسلام ، صانع التاريخ ، لم يتلكأ ولم يدار ، بل أرسلها قوية صارخة : « والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ، ما تركته » .

قالها في حروف ناطقة وأسلوب صريح لا محل فيه للمواربة .

فما ملك العم الشيخ إلا أن جمع أطراف عباءته ، وهو يشد على يده : اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء تكرهه .

وتمضي الأيام آخذة برقاب بعضها البعض ، ويمضي معها محمد دائباً في دعوته كما تمضي قريش ممعنة في أذاه ، حتى يقف به عتبة بن ربيعة ، مندوباً من قريش ، فيهيب بهذا الطود الشامخ : إنك منا يا ابن أخي حيث قد علمت من المكان في النسب ، وقد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم ، فاسمع مني أعرض عليك أموراً ، لعلك تقبل بعضها ، إن كنت تريد تشريفاً سودناك علينا ، فلا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً من الجن تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب ، و بذلنا فيه أموالنا حتى تبرأ .

أرأيت يا صاحبي كيف تساق العروض الهادئة ، وكيف يوطأ لها بالفرش الوثير الناعم .

المال يا صاحبي .. زينة الحياة والجاه نهاية الرغائب فيها .

المال والجاه .. ما أكثر ما يبعث بهما همم ، وما أكثر ما خفرت من أجلهما ذمم ! وما أكثر ما نسيت في سبيلهما مبادىء ، وضاعت بإغرائهما مذاهب وعقائد !

ولكن محمداً ، رسول رب العالمين ، يجيبه : « دونك يا عتبة آيات من ـ التنزيل تحضرني الآن » .

ثم يتلو عليه سورة السجدة حتى نهايتها ، فتأخذه روعة ما يسمع ، ويترك فيه الإعجاز أفكاراً بالغة الأثر . فلا يلبث أن ينصرف إلى قومه ، بغير ما توجه : أرى يا قوم أن تتركوا محمداً للعرب . فإن تغلبوا عليه استرحتم ، وإن اتبعوه افتخرتم .

ألا تراها قولة حكيمة ، ورأياً بالغ السداد ؟ ! وأنه كان في مكنتهم أن ـ يتحاشوا الكثير ، وأن يظفروا بما لا يحلمون .

* *

أسمعك تسميه عناداً .. إيه يا صاحبي فهو عناد ، وهو بعد العناد أو قبله إن شئت .. كفر وتضليل وحسد .

ما معنى أن يعترض الرسول الكريم علج من أعلاج البادية . فيسفي التراب على وجهه الشريف ؟ !

وما معنى أن يصادفه فدم من فساق العرب وهو يصلي ، فيعمد إلى كرش يفرغ فرثه عليه في فظاعة لا تطاق ؟ !

أتحسبهم يرون أن قسوتهم ربما صرفته إلى طريقهم ، أو فتت في عضده وفلت من عزيمته ؟ !

إن الحادثة التالية تنبئنا بم نجيب :

دخل مرة صلوات الله وسلامه عليه إلى مخدع فاطمة ، ابنته ، على أثر عدوان من هذا اللون المقيت . فما أن رأت فاطمة أثر العدوان على وجهه الشريف ، حتى ذرفت دمعتها . فما زاد على أن ربت كتفها قائلاً : « لا تبكي يا بنية فإن الله مانع أباك » !

هذه نفوس كبيرة لا تقيس الكرامة بالمقاييس التي تعترض حياتنا العامة ، وهذه أحاسيس لا يجرحها سفيه أو علج يعترضها ، أو غوغاء يتألبون على أذاها . وهذا إخلاص من نوع خاص ، لا يألم كما نألم في سبيل غاياتنا ، ولا يثنيه ما يثنينا عن مآربنا في الحياة .

أتدري ؟

لقد مضت قريش أشد ماتكون عناداً ، واغلظ ماتستطيع قسوة ، فلم يثنه كل ما فعلوا قيد شعرة عما أراد .

وقال قائل منهم ما يمنعنا أن نقاطعه وأصحابه فلا نخالطهم ، ولا نؤاكلهم ولا نبايعهم ، بل ولا نتحدث إليهم .

فعقدوا خناصرهم على هذا الرأي ، وهم يرجون أن يدب اليأس فيهم فيتخاذلوا وما علموا أن للإيمان حصانة عديمة النظير .

عقدوا خناصرهم على ما رأوا واستوثقوا من أنفسهم بصك ضمنوه اتفاقهم ، فانحاز محمد وأصحابه إلى أحد شعاب مكة يطوون أنفسهم على الحرمان والجوع ، دون أن يبالوا بآلام ما انطووا عليه .

ظل محمد كما هو محمد ، وظل أصحابه (أصحابه .. ليس منهم من لانت قناته ، أو عجم عوده ، أو تراخى تحت تأثير ما يقاسي .

وكان محمد مع هذا ، ورغم هذا ، ينسل من بين الفجاج الوعرة ، كلما آذنت الأشهر الحرم إلى مواقف الحجيج ، ليصرخ في رواد مكة من حواشي الجزيرة « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني » .

يا لجلال هذه العظمة ، ويا لقوة هذا الثبات النادر .

(٨)

عزم وثبات

أو عجبت أن يصمد محمد لكل ما حدثتك من ألوان الأذى ؟ إذن فاسمع : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . بسم الله الرحمن الرحيم .

« و يوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً . يا و يلتا ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً . لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولا » .

ذلك هو عقبة ابن أبي معيط تبع النبي صلوات الله عليه وسلم فيما أمره به ، فاستاء صديقه بن خلف ، فحلف ألاّ يكلمه . فارتد عقبة ، وشرع يؤذي النبي ليثبت أنه على دين آبائه ، و يرضي فلاناً خليله .

وأحسبني لست في حاجة لأن أصور لك مبلغ الأذى وقد طالعتك نماذجه . لا ولست في حاجة لأن أحدثك عن مدى ما توسعت قريش في نطاقه ، فأنت ـ ولا أشك ـ قد قرأت قصص أصحابه الضعفاء ، وما نالهم من ألوان التعذيب في أساليب يشيب لهولها الولدان .

ألم يأتك الذين كانوا يجرجرون إلى البيوت ليجلدوا بالسياط حتى يغيب صوابهم ؟

ألم يأتك نبأ الذين يصفدون بالحديد و يعذبون بالكي ؟

ألم يأتك نبأ المرأة التي جالدت تحت مطارق التعذيب حتى أسلمت لله روحها ؟

ألم يأتك نبأ بلال وما قاساه من ثقل الصخر فوق صدره وما عاناه من جمْارة القيظ في جسده العاري ؟

ألم يأتك نبأ أبي بكر وما كان يحز في نفسه وهو يشهد تعذيب الموالي فلا يملك إلا أن يغري سادته بالمال ليشتريهم فيعتقهم ؟

أولئك صفوة سمت أرواحهم وفنت حقائقهم في ملكوت أعلى مما نتخيل .

والآن .. هل لك أن أمضي وإياك لنتابع بعض مباذل قريش السفيهة .

ولعلك تسألني إلى أين ؟

سوف لا أكلفك عنتاً ، فهذه دائرة الوليد بن المغيرة المخزومي على كتف هذه الثنية الصاعدة أمامنا إلى مطالع قعيقعان .

أترى هذا الجمع الحاشد من صناديد قريش يترجل على بابه ؟ !

إنهم ولا ريب في أمر جلل ، فقد بات يقض مضاجعهم أمر محمد ، و باتوا ولا حديث لهم إلاّ أن يبتّوا في شأنه بأمر حاسم ، وإلا ضاعوا وضاعت آلهتهم .

لا ، لا تتلكأ .. وهلم لنختلط بهم من حيث لا يشعرون ، فدارة الوليد مفتوحة لكل طارىء ، ومجلسه لا يفرق بين غريب أو قريب .

ما بالك تتردد .. هذه الأريكة الدنيا ... تعال نقتعدها ، ودونك فاسمع ما يتحاورون :

- يا ابن المغيرة ما يمنعنا أن ندع أن محمداً كاهناً .

- لست أرى هذا فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه .. أفلا ترى هذا يا كعب ؟

- أرى ما تقوله حقاً ، فدعونا ندع أن محمداً مجنون .

- لا .. ولا هذا ، فقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنسه ولا سوسته . هات ما عندك يا أبا سودة .

- عندي أن نقول هو شاعر .

- لا .. ولا هذا ، فقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه ، وقريضه ، ومقبوضه ، ومبسوطه . لا .. إنه ليس بشاعر . فما تقول أنت يا مناذر ؟

- أرى أن نشيع أنه ساحر .

- مهيم .. ما هو والسحر ؟ لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفثهم ولا عقدهم .. وهل عندك ما تقوله يا حازم ؟

ـ أرى أن أقرب القول ما قاله مناذر فأشيعوا أن ما يقوله هو السحر يفرق به بين المرء وأبيه وأمه وأخيه .

أرأيت يا صديقي كيف تحاك المؤامرات ، وكيف تدس الدسائس ألا صدق الله فيما يقول ، جل شأنه :

« فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون . أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون . قل تربصوا فإني معكم من المتربصين . أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون » .

نعم إنهم طاغون .. فهيا ولنغادرهم .

ولكن إلى أين ؟

أحسبك ضقت بمكة ، كما ضاق المبتلون بها من أصحاب النبي ، فأنت لا تمر بسقيفة أو عرصة أو تدلف إلى سوق حتى تصادفك مآسي المعذبين من ضعفاء المؤمنين .

ومع هذا فليت الأمر يقتصر على مكة ، فقد حدث محدث أن رسول الرحمة عقد آماله بهداية ثقيف ، فركب طريقه إليهم وهو يرجو النصر لدين الله ، فلقي منهم أنكى مما لقي من مشركي مكة .

واستطاع سدنة (اللات) أن يستفزوا عبادها ليتجمهروا ضده و يثيروا من الشتائم الشنيعة ما لا تطاق .

قال المحدث : وتضاعفت إساءات سفهائهم يوماً فتطاول جهلاؤهم وعبيدهم عليه بالسباب وأخذوا يرمونه بالحجارة والحصي ، وصاح بهم صائح من أو باشهم : « أما وجد الله من يرسله غيرك » ؟ .

ولم يجد مناصاً إلا أن يلجأ بحائط لعتبة بن ربيعة في المثناة ، فعمد إلى ظل شجيرات فيه وراح يشكو حزنه إلى مولاه : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين . أنت رب المستضعفين وأنت ربي . إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي » ! !

أسمعت يا صاحبي .. إنه لا يبالي .. لا يبالي جوعاً ، ولا يبالي أذى ولا ـ هواناً !! لا .. ولا يبالي ملء السموات والأرض خلقاً يتضافرون على كيده أو يجتمعون على حربه ! !

هذه قلوب عامرة ، وهذا إيمان لا يتذوق حلاوته إلا نذر من المصطفين الأخيار لا يبالي سوى غضب ربه ، وهو رسوله وصفيه ، وقد دان له كل ذي طول ، واعترف به سيّد كل ذي حول في أكثر أقطار الأرض . ولو تمنى على ربه أن يطبق عليهم الجبال لفعل .

قال المحدث : وأشرف أبناء لربيعة من نافذتهم على الموقف ، فأخذتهم الشفقة على ما يعاني ، فأهابوا بغلامهم النصراني « عداس » أن يحمل إليه قطفاً من العنب .

ومضى « عداس » فيما أهابوا فما كاد يضع العنب على يديه ، حتى استفتح رسول الله عند أول لقمة بإسم الله .

وهال « عداس » ما سمع فما عهد من يقول هذا في كل من عرف من قبائل الطائف .

وتبين النبي دهشته فيما رأى من ملامحه ، فسأله أن ينتسب . فقال : أنا نصراني من أهل نينوى .

قال النبي : تلك قرية الرجل الصالح « يونس بن متى » .

- وما يدريك ما يونس بن متى ؟

- ذاك أخي كان نبياً وأنا نبي !!

فترك هذا أثره في نفس « عداس » ، فلم يملك أن انكب على النبي يقبل كتفيه ويديه .

وراع ألامر أبناء ربيعة فصاحوا بعداس أصبأت يا هذا ؟ أم استطاع صرفك عن دينك ؟

ولكن عداس كان أثبت من أن يأخذه الصياح ، فظل ذكره حياً بحياة التاريخ .. وهذا أثره يعيش اليوم في « المثناه » شاخصاً في صورة مسجد يطلقون عليه مسجد عداس ، بعد أن اندرس أسياد عداس ،وامحى ذكرهم ، ونسي الناس كل ما له علاقة بأمرهم .

وبعد ، فهل ضاقت بك الطائف أم ضقت بها ؟

لنستأنف إذن عودتنا إلى مكة ، فقد توافرت أخبار القبائل عن أحداث جديدة بدأت تموج في بطحائها على أثر عودة النبي إليها .

لنبدأ إذن بالمسجد ، نتنسم أخبار ما حدث قبل أن نستقبل بيوتنا .

انظر .. ماذا أرى ؟ إنهم يتجمعون حلقات في ظل الكعبة . لا أحسبهم إلا في أمر جلل .. فتعال نستدرج أخانا البدوي هذا القادم إلينا .

- ما خطبهم يا أخا العرب ؟ أنزلت بهم نازلة أم حاقت بهم حاقة ، أم أوذوا في أوثانهم وأهينوا فيها ؟

- أبداً .. فالأمر أيسر من هذا ، لقد أسرى بالنبي وعرج به إلى السماء ، فما كاد أن يعود حتى شرع يصف لهم ما رآه في السموات . وزاد فدلّل على إسرائه بإبل .. رآها في طريق عودته . وقال إنها ستصبح من الغداة في مكة . رغم أنها أصبحت ، فبرهنت على صدق دعواه ، أبى أبو جهل إلا أن يجعل من الأمر أحدوثة ، وأن يجمع القوم تلو القوم ليسخر بما سمع !!

وها قد مضت أيام ، وهم يعيشون في هذا المرج بين مكذب ومصدق .. إلا ساء ما يفعل الظالمون !!

مكة وما حولها

في مكة ومشاعر الحج

أنت الآن على أبواب مكة !

لقد نهبت السيارة بك الأرض نهباً فلم تستغرقك المسافة من جدة إلى حيث انتهيت من مشارف مكة إلا نحو ساعة .. وكانت تستغرق آباءك من قبلك يومين كاملين فحمداً لله على سلامتك .

ستضع الآن قدميك حيث وضع النبي صلى الله عليه وسلم قدميه وستمشي في الدروب التي مشاها ، فحاول أن تكون أكثر خشوعاً مما أنت عليه . حاول أن تستغرقك الذكريات العظيمة التي لابست حياته عليه صلوات الله وسلامه ، وأن تستذكر جهاده الفذ وما قاساه بين هذه الأزقة التي تلتوي أمامك وتنعطف .

هذا فم الشعب ، شعب الهواشم ، وأنت تنظر ، فإذا « مكتبة مكة » تقوم اليوم على أنقاض الحجرات التي ولد النبي فيها .

خفف الوطء وأنت ترود مدخل الباب ، فعلى هذا المنبسط الصغير حبا النبي أول ما حبا قبل أن تحمله حليمة السعدية إلى منازل قبيلتها من بني سعد لترضعه وتشرف على نشأته .

من هذه الثنية كان ينحدر بعد أن يفع ، وعاد إلى مسقط رأسه .. هوذا يأخذ طريقهُ بين مباذل قريش وترهاتها على حوافي سوق الفاكهة ، فيمتعض لما يسمع و يألم لما يرى ، فيغذ في سيره على أمل أن يشرف على الكعبة فتتفتح لها مغاليق نفسه .. ولكن مطاف الكعبة يواجهه بأوثان منصوبة وعبّاد عري ، خلعوا ثيابهم وشرعوا يتبتلون في هراء لا يقبله ضمير .. فلا يلبث أن يبتئس .

أنت تدري أنه قضى سني صباه وصدراً من شبابه ينكر الترهات دون أن يقوى على مجابهتها .

و بنى على خديجة ، فتغير دربه من طريق سوق الفاكهة .. وإذا لذ لك أن تعرف بيت خديجة فلا أكثر من أن تعرج على سقيفة « اللبانين » وهي اليوم سوق الصاغة .. هناك تطالعك مدرسة

تحفيظ القرآن ، وقد بنيت اليوم في المكان الذي كانت تسكنه خديجة . وفيه بني عليها الرسول صلوات الله عليه وسلامه ، وفيه أولدها فاطمة الزهراء ، فما أروع هذه الذكريات ، وما أشجاها للنفس المؤمنة .

هنا بات طريقه يأخذ الدرب من سقيفة « اللبانين » « إلى زقاق الحجر ليخرج إلى الساحة التي نسميها اليوم باب النبي » فيتجه منها إلى الكعبة المشرفة لتطالعه نفس المظاهر التي كان يشمئز منها حول الكعبة .

إذن فما يمنعه أن يبعد وأن يغذ في البعد .. ما يمنعه أن يختار من جبال مكة ما يقصيه عن غوغاء الحياة ، و يتيح له الإستغراق والتأمل .

هذا جبل حراء ما أعلى ذروته وأشق مصعده .. هنا على كتفه الأقصى ، الذي تنشق الصخور عن فجوة مترّبة نسميها غار حراء ، وجد النبي صلى الله عليه وسلم راحته النفسية فيه تحت سماء تغيب في غياهب الأفق ، ونجوم تشع في جمال أخاذ .

إنه جبل لا يكلفني أن أميزه لك وأنا في طريقي إلى منى ، إلا أن أشير إلى يساري إلى أعلى ذروة بين الجبال لترى إلى أي مدى أبعد صلوات الله عليه وسلامه في عزلته وأي مرتقى قاسي وعورة مسالكه . لست معك اليوم لنتابع سيرة سيد الخلق ، فلذلك مظانه الواسعة .. إنما نحن هنا لنتابع آثار خطوه في هذا البلد الكريم .

نحن هنا في أعالي مكة على نجوة من الجبل الشامخ ، جبل حراء . ولكن ثمة ما هو أبلغ شموخاً ، وأصعب مرتقى تستطيع أن تشهده عن كثب إذا راق لك أن تستأنف عودتنا إلى أسفل مكة .

ذلك هو جبل ثور .. وفيه الغار الذي ضمه وصاحبه يوم الهجرة ، يوم آلت قريش إلا أن تضع حداً لثورته على آلهتها فأخفقت « ثاني اثنين إذ هما في الغار إذا يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا » .

لا أريد أن أتلو عليك أسباب هجرته ، فكتب السيرة قد فاضت بمئات الفواجع التي لا تدانيها فواجع ، وحسبك مني أن أقف بك في ذيل الصفا على البيت الذي كانت الفواجع تدفعه إليه في أشد أيامه قسوة وأعنفها ضراوة .

هوذا دار الأرقم حيث كان يجتمع النبي صلى الله عليه وسلم في نفر من حمايته ، بعيدين عن

أنظار قريش ، محتمين بجداره القوية من شرارهم . ولدار الأرقم قصص لها أثرها في أحداث الإسلام الأولى . كان يتعيّن عليّ أن أسردها أو بعضها في حوادث ما قبل الهجرة . لو كنت هنا لأؤرخ .. وإنما أنا هنا لأتابع معك آثار النبي بين شعاب مكة وجبالها .

ولعلّ من أروع ما تذكرني به هذه الدار في ذيل الصفا قصة إسلام عمر .. وأنت تعرف من هو عمر حدة و بأساً وشكيمة .

أغراه شبابه باقتحام دار الأرقم على من فيه . ليقضي على الدعوة المحمدية في عقر دارها ، فلقيه في الطريق إليه رجل من قريش كان لضعفه يكتم إسلامه ، فمال عليه عمر يصفعه و يهزأ به « أهذا أنت يا نعيم .. منذ متى صبأت » ؟ فصاح به نعيم : « أليس من الحزم أن تسأل أختك مثل هذا السؤال » ؟ .

ارتاع عمر للخبر وانطلق يجري إلى بيتها ، فإذا أخته تقرأ القرآن ، فما ملك أن علاها بسيفه ، وهو يتهدد : « أصدقيني وإلا قتلتك » ! قالت : « سأصدقك ولك أن تفعل ما تشاء . لقد حبب الإسلام إلى قلبي ، فأسلمت ، وإذا استطعت أن تهدأ فدونك هذه الصحيفة تتلو ما فيها » .

أخذها عمر وشرع يقرأ ، فإذا آيات تأخذ بمجامع قلبه ، فما كاد ينتهي حتى أعلن إسلامه ، وانفك يجري حتى جاء دار الأرقم ، فأيد إسلامه ، ولحق بنوادي قريش يهيب بهم : « ألا إني قد أسلمت ، فمن لم يرضه هذا فليلحقني بظهر الوادي » .

أخشى أن يكون السياق ـ قد حاد بي عن آثار النبي ومواقف الحج في مكة ، فهلم بي ندفع مع الحجيج إلى عرفات ، ثم نزدلف إلى المزدلفة ، وننحدر إلى منى .

إن موقفنا من عرفات يذكرني بحدث كان له شأنه .. كان نقطة انطلاق في تاريخ الإسلام . كما ظل أثره إلى اليوم سياجاً مانعاً يحيط بمكة .

« أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين . فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين . وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله ، فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله ، و بشر الذين كفروا بعذاب أليم . إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين . فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم

واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلّوا سبيلهم إن الله غفور رحيم . وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ، ذلك بأنهم قوم لا يعلمون » .

كان ذلك في السنة التاسعة للهجرة عندما وفد إلى مكة حجاج المدينة من المهاجرين والأنصار والقبائل تحت إمارة أبي بكر الصديق . وانتهوا إلى عرفات ، وفيها المشركون يؤدون من مناسكهم على ما ورثوا من تقاليد آبائهم . فانتحى أبو بكر بالمسلمين جانباً من عرفات يلبي بهم على ما سن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، وترك المشركين في جانب آخر ينسكون منسكهم الموروث الضال دون أن يعارضهم ، رغم أن مكة باتت بعد فتحها محكومة للإسلام . وللإسلام شريعته التي لا تقبل الترهات الضالة .

وإنهم لكذلك . وإذا بعلي بن أبي طالب يقف على خيام المسلمين موفداً من المدينة يحمل في رحاله أوامر جديدة نزلت بها سورة براءة بعد أن فصل حجاج أبي بكر عنها . ورأى أبو بكر أن يؤجل إعلانها إلى منى . فازدلف الناس إلى المزدلفة . وطاف المشركون بالمشعر الحرام . يلهجون بذكر آبائهم . ووقف المسلمون على نجوة منهم يذكرون الله . كما علمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وما انتهى الحجيج إلى منى حتى أعلن كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مشفوعاً بما نزلت به سورة براءة . وفيها أن لا عهد لمشرك ولا ذمة إلا لمن كان له عند رسول الله عهد ، وعهده إلى مدته . وأن الله أمر بجهاد الشرك ممن نقض من أهل العهد الخاص . ومن كان لا عهد له فأجله أربعة أشهر . يرجع فيها كل قوم إلى مأمنهم ثم لا عهد لمشرك بعدها .

وفيها أن لا يحج بعد عامهم هذا مشرك . وهي نقطة الإنطلاق في تاريخ الإسلام التي استصفت مكة دون مدن الأرض للمسلمين دون سائر الملل ومنعتها إلى اليوم أن يطيف بها غير المسلم مهما كان ظرفه .

وبعد .. ألا ترى وقد انتهينا إلى « منى » أن نعرج على بعض آثار النبي فيها ؟

أمامك الآن وعلى خطوات من مستشفى « منى » الكبير يقع مسجد « الخيف » وقد أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه صلى في مكانه . وإذا تراءى لك أن تمد خطوك إلى سفح الجبل خلف المسجد . فسوف تطالعك صخرة كبيرة يستظل تحتها بعض الحجاج ، وفي ظلها غار المرسلات الذي ذكروا أن النبي صلى الله عليه وسلم مكث به بعض الوقت في أيام منى .

وتستطيع أن تنحدر إلى أسفل « منى » لتنتهي إلى مسجد صغير يقع بين الجمرة الأولى والوسطى ، على يسارك وأنت تنحدر .. إنه مسجد « المنحر » وقد ذكروا أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى فيه الضحى ، ونحر هديه في مكانه . وقد ظل هذا المكان منحراً إلى عهد من

التاريخ ، وكان الخلفاء في عهود مضت ينحرون هديهم فيه . وعلى غير بعيد منه في السمت نفسه في زقاق ضيق يقع مسجد « الكوثر » ، وفيه نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم سورة الكوثر .

وإذا كان قد فاتني أن أشير لك إلى بعض المواقع الأثرية في مكة فلا يجب أن يفوتني الآن ونحن نفيض إلى مكة لنطوف بالكعبة للحج :

ستواجه بانفصالك عن منى إلى مكة شعباً ينعطف على يمينك يسمونه شعب البيعة وفيه بايع النبي صلى الله عليه وسلم جماعة الأنصار ، حضره عمه « العباس » . وتواجه على خطوات منه ، وفي السمت نفسه ، مسجداً يسمونه « الإجابة » ذكروا أن النبي صلى فيه .

ويمضي بك الطريق إلى مكة في استقامة واحدة ، لتنتهي إلى مسجد « الراية » فيما يسمونه بسوق « الجودرية » وإذا تياسر بك الطريق عند بيت النبي ، الذي حدثتك عنه ، فستجد مدرسة للتعليم الليلي كان يقوم في مكانها البيت الذي يسكنه علي بن أبي طالب ، كما كانت تقوم حوله عشرات البيوت لكثير من بني هاشم .

وتنحدر في طريقك إلى المسجد لتواجه دار العباس وقد دخلت أنقاضها في عمارة المسعى .

وعلى خطوات منها إلى الشمال دار أبي سفيان ، وفيها أمر النبي صلى الله عليه وسلم يوم الفتح بأن ينادي : « من دخل دار أبي سفيان كان آمناً » .

وإذا بدا لك أن تتجه إلى أسفل مكة فستواجه المكان الذي كان يقوم فيه دار حمزة بن عبد المطلب ، وعلى غير بعيد منها كانت تقوم دار لأبي بكر الصديق .

* * *

أرأيت إنها جولة باتت اليوم بعد ان مهدت بلادنا للسيارات لا تكلف المستقصي إلا دقائق .
وتسوقني قصة تمهيد البلاد للسيارات إلى التمهيد العام الذي تميز به عهدنا اليوم عن عهود مضت . فبلادنا اليوم تحفل بكثير من مرافق الحج التي تؤمن للحجيج راحتهم ومستشفياتنا تنتشر في مدن البلاد وقراها ، وبين خيام الحجاج ، حيث ينزلون بشكل لا يتسع له مثل حديثي هذا .

وكان الحجاج إلى عهود قريبة يشكون عدم الأمان وقلة الماء ، فبات الأمان عندنا مضرب الأمثال وخدمت مصادر المياه بصورة أوفت على الغاية ، أو كادت .

ولم يقف الأمر عند هذا ، فما زال المعنيون يواصلون الجهد على أمل أن يحققوا للبلاد والحجيج أفضل ما يرجون من نتائج .

المسجد الحرام في التاريخ

عـنـدمـا أتم خـلـيـل الله ابراهيم عليه السلام بناء الكعبة تنفيذاً لأمر الله باتت بين يديها ساحة تحيط بها ظلت متعبداً للمؤمنين من ذرية ابراهيم .

وظـل الأمـر عـلـى هـذا طـيـلة عهد « جرهم » وعهد « خزاعة » حتى جاء قصي بن كلاب فأجلاهم وجمع العرب من كنانه فخطط لهم مدار الكعبة وأمرهم أن يحيطوا ساحتها ببيوتهم فاستقام بطن المدار كمسجد أفرد للمتعبدين والطائفين والمتفيئين ظل الكعبة من المخبتين .

وأشرق الإسلام بنوره ثم كان الفتح فظل المدار حول الكعبة على أمره مسجداً تقام فيه فريضة الإسلام .

كـان المدار يستوعب المصلين طيلة حياة النبي صلى الله عليه وسلم وخليفته أبي بكر الصديق رضـي الله عـنـه حـتـى كانت أيام الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأصبح المسجد لا يتسع للـمـصـلين فـأمـر عـمـر في عام ١٧ هـ بتوسعته بضعة أمتار فقومت بعض البيوت الملاصقة للمسجد وهدمت وأضيفت أرضها للمسجد .

و يـذكـر التاريخ أن بعض أصحاب البيوت رفضوا التنازل عن أملاكهم فأمر الخليفة أن تهدم وتقوم أثمانها ثم تودع في بيت المال لذمة أصحابها .

*** أول سقف للمسجد ***

وفـي عـام ٢٦ هـجـريـة وكـان المسجد قد شرع يزدحم بالمصلين أمر الخليفة عثمان ابن عفان رضـي الله عـنـه بـزيـادة الـتـوسـعـة فزيدت وأمر أن تظلل بعض جوانبه فسقفت و بذلك كان أول سقف للمسجد في الإسلام .

وفـي خـلافـة عبد الله بن الزبير ظهرت الحاجة لتوسعة جديدة فأمر بها و زاد في تظليل المسجد من جوانب أخرى .

و يـقـدر أبـو الـولـيد الأزرقي مؤرخ مكة أن سعة المسجد بعد توسعة ابن الزبير بـ ٣٢٤٠٠ ذراع مربع .

* إدارة الصفوف حول الكعبة *

وعاد المسجد ليضيق بالمصلين في عهد بني أمية فرأى المسئولون كعلاج موقت أن تدار الصفوف حول الكعبة وكانت الجماعة لا تصلى قبل ذلك إلا إلى جهة واحدة من الكعبة فأديرت الصفوف ولكن هذا لم يخفف من الزحام فرأوا أن لا بد من توسعة جديدة ورفعوا الأمر بذلك إلى الخليفة عبد الملك بن مروان ولكن عبد الملك رأى في عام ٧٥ هـ أن يضيف إلى تظليل المسجد مساحات واسعة وأن يجدد بعض جداره و يز ينها وأن يقيم جميع الأسقف قديمها وحديثها على سواري من الرخام ضببت رؤوسها بصفائح الذهب .

وكتب في عام ٩٠ هـ إلى الوليد بن عبد الملك بأن جانباً في المسجد بدأ يتطرق إليه بعض الخلل وفي عام ٩١ هـ أمر بنقض أكثر جوانب المسجد وأن يعاد البناء بصورة أمتن وأن يسقف من جديد بخشب الساج على عقود جلب لها أساطين الرخام من صعيد مصر من بلدة تسمى « أخميم » وأزر المسجد بالفسيفساء .

كل هذه الإصلاحات كانت في حدود التوسعة التي انتهى إليها المسجد في عهد ابن الزبير رضي الله عنه .

* عمارة المسجد في العهد العباسي *

وما أن وافى عهد المنصور الخليفة العباسي حتى ظهرت حاجة المسجد إلى زيادة التوسعة لشدة ازدحامه بالمصلين فأمر الخليفة في عام ١٣٧ هـ بهدم بعض الدور في الجهة الشمالية من المسجد والشمال الغربي فاتسع المسجد إلى نحو الضعف ، كما زخرفه بالفسيفساء وزينه ببعض النقوش المذهبة وأناط المرمر بجدار حجر اسماعيل .

وفي عهد الخليفة المهدي وكان قد حج في عام ١٦٠ فرأى المسجد ضاق بالمصلين رغم زيادة المنصور فأمر بزيادة التوسعة وأن تهدم البيوت القائمة بين المسجد والمسعى فتضاف أرضها إلى المسجد كما تضاف أرض المسعى إليه ثم تمهد الأرض التي تلي ذلك للسعي كما أمر بهدم البيوت في الجهة الغربية مما يلي باب العمرة و باب ابراهيم لتضاف أرضها إلى المسجد فنفذ القائمون بالعمل أمره حتى بات المسجد في السعة . التي رآها .

ولكنه لم يقنع فقد عاد للحج في عام ١٦٤ وصعد على جبل أبي قبيس لينظر ما انتهى إليه أمر المسجد فتراءى له أن الكعبة لم تتوسط المسجد وأنها أصبحت أقرب إلى جهته الجنوبية منها إلى

الشمال فألزم المهندسين أن يهدموا الدور الجنوبية ليضيفوا أرضها إلى المسجد لتتوسط الكعبة المسجد فلما استبعدوا ذلك لأن مجرى السيل في وادي ابراهيم سيحول دون ذلك لم يثنه ذلك عن عزمه وأبى أن يحول مجرى السيل من مكانه مهما كلف الأمر فلم يسعهم إلا أن يمتثلوا . و بذلك اتسع المسجد إلى الحد الذي كنا نراه فيه توسعة آل سعود إذا استثنينا زيادة باب الزيادة و باب ابراهيم التي طرأت بعد عهد المهدي كما سنبينه .

وزيدت مساحة الأروقة في المسجد في هذه التوسعة كما زيدت أعمدة الرخام وقامت عليها الأسقف من طبقتين بينهما فجوة قدرت بنحو ذراعين لتخفيف وطأة الحرارة على المصلين .

وعقد السقف الأعلى بالدوم والجريد والذي يليه بخشب الساج المنقوش وضببت رؤوس الأعمدة بالذهب وحليت بعض الجدر بالفسيفساء والألوان البراقة .

ولم تطرأ زيادة على المسجد بعد الخليفة المهدي إلا ما كان من دار الندوة فقد كان متصلاً بالمسجد من جهته الشمالية فلما تقادم عهده وانتابه الخراب رؤى هدمه وإضافته إلى المسجد فكان باب الزيادة في عهد الخليفة المعتضد العباسي سنة ٢٨١ هـ .

*** عمارة المسجد في العهد العثماني ***

ولما كان عهد السلطان سليم العثماني رفع إليه أن الرواق الشرقي من المسجد اختل سقفه ومال إلى الأمام ميلاً خطيراً فأصدر أمره بوجوب هدم جميع أروقة المسجد وما عليها من سقوف وأن تحل محلها قباب عالية متينة البناء وندب السلطان من يتولى أمر ذلك فبدأ العمل في عام ٩٨٠ بهدم الضلع الشرقي من المسجد وكانوا يحافظون على أساطين الرخام التي كانت قد استعملت في عمارة الخليفة المهدي للإستفادة منها في العمل الجديد وعندما رؤي أنها لا تكفي لدعم القباب بالشكل المطلوب استعانوا بأسطوانات صنعوا بعضها من الحجر الشميسي الذي اقتطعوه من جبال في الحديبية بجوار بئر شمس على أميال من مكة كما صنعوا البعض الآخر من الحجر الصوان الذي اقتطعوه من الجبل المعروف بجبل الكعبة في حارة الباب وسمي جبل الكعبة لأنهم استفادوا من حجارته أيضاً لدعم الكعبة في بعض العهود وقد ظهر لهم فيما بعد أن استعانتهم بالحجر الشميسي والحجر الصوان كانت دعامة لها قيمتها في إرساء القباب وتثبيتها بشكل قوي يصمد لتوالي حوادث الزمان .

وانتقل العمل من ضلع في المسجد إلى ضلع آخر وآخر . و بينما العمل جار على حدته إذ وافتهم أخبار الآستانة بوفاة السلطان سليم وتولية ابنه السلطان مراد عرش الخلافة وتعميد المكلف

بعمارة المسجد أن يواصل عمله لإتمام العمارة على الصورة التي اتفق عليها في عهد السلطان سليم فاستمر العمل على حاله إلى أن انتهى بنهاية عام ٩٨٤ تقريباً وهي العمارة المشاهدة اليوم داخل المسجد الحرام ذات القباب .

*** التوسعة السعودية ***

وقد طرأت بعدها العمارة الجديدة ذات الطابقين التي أمر بإنشائها الملك سعود وأتمها الملك فيصل دون أن تمس عمارة السلطان سليم لتبقى أثراً من شواهد التاريخ .

وكانت هذه العمارة عمارة آل سعود ضرورة لا بد منها فإن المسجد الحرام الذي كان يضرب المثل باتساعه بين مساجد العالم الإسلامي أصبح لا يؤدي مهمته بالنسبة لتضاعف عدد الحجاج وتكاثرهم فقد أمنت السبل إليه بشكل منقطع النظير وتيسرت وسائل السفر إليه بحراً و براً وجواً كما أن العالم الإسلامي أخذت أعداده تتزايد بصورة ملحوظة فترتب على هذا زيادة توافد حجاج بيت الله فبات المسجد الحرام لا يستوعب هذه الكثرة الكاثرة .

ولقد حاولت الحكومة قبل فكرة التوسعة أن تستفيد من أجزاء المسجد المكشوفة فأقامت مظلات أتوماتيكية على جزء كبير منها تظلل تحتها ألوف الحجاج فرأت أنه لا بد من عمل حاسم يقضي على الزحام قضاء تاماً .

وشكلت اللجان لخدمة الموضوع واستعين بكبار المهندسين وصدرت الأوامر العليا بوجوب أن تكون التوسعة تضاهي مساحتها مساحة المسجد القديم وأن يرفع فوقها دور آخر له مثل هذه المساحة وأن تضاف المسعى إلى أعمال التوسعة لتدخل من الصفا إلى المروة في مساحة المسجد وكانت طوال سني حياتها خارج المسجد تحتضنها دكاكين الباعة من كل جانب و بهذا تكون الزيادة الجديدة بما يوازي ضعفي المسجد القديم .

ولم تقتصر الأوامر على هذا بل لحقتها تأكيدات أخرى بضرورة عمل ميادين واسعة خارج المسجد من جهاته الأربع فكان لا بد من هدم ألوف البيوت ومثلها من الدكاكين حول المسجد ولا بد من تحويل بعض الشوارع عن مسارها إلى طرق أخرى لتأخذ التوسعة في المسجد مآخذها .

إعتماداً على هذا تشكلت لجنة لتقييم البيوت والدكاكين بالأسعار التي تتفق وقيمة موقعها من المسجد الحرام وقد جاء في الإحصاء الرسمي أن مجموع ما دفع ثمناً للمنازل والدكاكين بلغ نحو ٢٤٠ مليون ريال ومجموع ما صرف على العمارة ٨٠ مليوناً .

ثم بدأ الهدم في ربيع الثاني من عام ١٣٧٥ هـ وامتد إلى أواخر شعبان من السنة نفسها حيث احتفل بوضع حجر الأساس ومن ثم بدأت مراحل البناء بصب قواعد الأسمنت التي أقيم عليها الجدار الخارجي الجديد .

ومضى العمل في بناء الطابق الأرضي ضلعاً بعد آخر في ذلك أرض المسعى التي باتت متصلة بداخل المسجد ثم شرعوا في بناء الطابق الثاني أو بالأصح الثالث لأنهم هيأوا تحت الأرض بدروما واسعاً إتخذوا فيه عشرات الغرف لخدم المسجد وسقاة زمزم .

واتسع حجم العمل حتى أصبح يعمل فيه نحو ثلاثة آلاف عامل عدا المهندسين والمراقبين والكتبة والمشرفين وما كادت العمارة تتم في بعض مراحلها حتى كان المختصون بتحلية المسجد قد بدأوا يكسون جداره من الداخل والخارج بالمرمر الناصع و يحلون سقوفه وعقوده بالحجر الصناعي اللامع مما زاد في روعة البناء و بهائه .

وكانت مساحة المسجد القديم حوالي ٣٠ ألف متر مسطح فأضافت التوسعة إليه ١٦٠ ألف متر مسطح و بذلك أصبح المسجد في عمومه يتسع لستمائة ألف من المصلين .

*** ملتقى العلماء وحلقات الدرس ***

و يهمنا بعد هذا أو قبله على الأصح أن لا ننسى أن المسجد الحرام عاش حياته مجمعاً علمياً واسع النطاق .. كان مفتاحه الرائد الأول عبدالله بن العباس ، بحلقته العلمية الواسعة التي كان يضرب إليها بآباط الإبل إلى جانبه حلقات وحلقات لكبار الصحابة وأفذاذ التابعين .

وكان بعض كبار الصحابة ربما عادوا من الغزوات ليستجموا من القتال في سبيل الله .. ربما عادوا إلى المدينة أو مكة فإذا هم يملأون الحرمين بمعارفهم و يتحلق حولهم آلاف الطلاب ينهلون من ينابيعهم الغزيرة .

وكان الحج يجمع المئات منهم في أركان المسجد الحرام يجلسون للفتاوى وتدريس العلوم وكذلك فعل التابعيون من كبار الفقهاء وأصحاب الحديث ورجال التفسير حتى ذكر أن المسجد الحرام كان يغص في عهد الأمويين والعباسيين من بعدهم ، بحلقات العلم هذا يفسر القرآن وذلك يروي الحديث متصلاً برسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك يفصل مسائل الفقه وعلى غير بعيد منه إمام في العربية والشعر يتلو الشواهد ليثبت الحرف الأصيل والكلمة الفصيحة مستنداً إلى آية من كتاب الله أو رواية عن رسول الله أو منقول عن عربي أصيل .

كان المار بالمسجد لا يترك حلقة حتى تطالعه حلقات يأخذ بعضها بأذيال بعض في سلسلة إذا عرفت أولها لا تكاد تعرف نهايتها .

وكان خلفاء الإسلام في دمشق و بغداد يبرون علماء الحرمين و يجودون عليهم بالعطايا في سخاء تشجيعاً لهم لقاء مايبذلون حتى خلفاء المماليك الأتراك ومماليك الشراكسة كانوا حريصين على تشجيع علماء المسجد الحرام وتنشيطهم و بذلك كان المسجد لا ينفك آناء الليل وأطراف النهار يموج بالعلماء والمتعلمين وكان كثير من علماء الآفاق يفرون من آفاقهم اتقاء الفتن التي كانت تستعر في بلادهم فلا يجدون ملجأ آمن لهم من بيت الله الحرام يستوطنونه و يبثون فيه علومهم ومعارفهم .

*** المدارس الملحقة بالمسجد ***

ولقد بلغ من حرص بعض مماليك الأتراك والشراكسة أن أنشأوا مدارس خاصة ملحقة بالمسجد الحرام ومنهم من جعل لكل مذهب من المذاهب الأربعة مدرسة لها أساتذتها ولها طلابها وأفردوا لكل مدرسة مساكن يأوي إليهاالطلاب وفرضوا لكل طالب مرتباً يكفي عيشه ونفقته عدا المرتبات التي كان يتقاضاها أساتذة المدارس والمشرفون والبوابون والخدم فكان المسجد في بكور الأيام وأضاحيها وأصائلها يضيق بالعلماء والمتعلمين حتى إذا عتم الليل كان المسجد لا يخلو من الدارسين والمراجعين على ضوء الشمع أو فتيل الزيت وربما اجتمعت الجماعة لنقاش باب في الفقة أو بحث في اللغة أو رواية في حديث وليس لهم إلا شمعة واحدة تتزاحم مناكبهم حولها .

ولم يدخر العثمانيون وسعهم في الأخذ بيد المسجد من علماء وطلبة ففرضت المرتبات و بنيت المدارس والملاجيء ملحقة بأركان المسجد فظل المستفيدون طوال العهد العثماني الأول يتزاحمون بحلقاتهم في سائر أروقة المسجد وردهاته وزواياه حتى خلف من بعدهم خلف نسوا الله فأنساهم مجد الإسلام والعروبة وزين لهم تتريك العرب فتضاءلت جهود العلماء وفتر نشاط الطلبة وكاد المسجد الحرام أن يفقد ميزته العلمية إلا من حلقات لا تذكر باتت تتقاسم بعض أطراف المسجد في ضآلة تبعث على الأسى .

إلا أن آمالنا الجديدة بدأت تتبلور بعد أن تكشفت الغيوم وسطعت الشمس بنورها و بدأت الجهود الجديدة تعمل في جد لاستئناف المسيرة بين أروقة الحرمين الشريفين وأخذ البذل والتشجيع يعمل لاستعادة المجد القديم لا في المسجد الحرام وحده . ولا في الحرمين الشريفين فحسب بل في بيوت تحفيظ القرآن ومعاهد الحديث والسنة ومدارس المعارف العامة وجامعة العلوم بشتى فنونها .

مصادر البحث

البداية والنهاية للحافظ بن كثير
أخبار مكة لأبي الوليد الأزرقي
الجامع اللطيف للقاضي ابن ظهيرة القرشي
منائح الكرم للسنجاري
توسعة المسجدين لوزارة الإعلام
تاريخ مكة لصاحب البحث

مسجد الراية ـ وبركة الماجل

قرأت من أيام في إحدى صحفنا المحلية اقتراحاً يرجو فيه صاحبه توسعة مسجد الراية .

وقد لاحظت أن في اقتراحه ما يشير إلى أن مسجد الراية بالقرب من المعلاة وأن بجواره بئر الكمالية التي سماها بئر جبير بن مطعم وهو تقرير درج عليه الناس من زمن بعيد فأطلقوا على المسجد والبئر أسماء لا علاقة لها بالمسميات .

والواقع الذي يدل عليه التأريخ أن المسجد والبئر اللذان أشير إليهما بالقرب من المعلاة لا علاقة لها بمسجد الراية و بئر جبير بن مطعم .

إن مسجد الراية ـ إذا أردنا تصويب الخطأ الشائع من عهد طويل ـ هو المسجد الواقع في (الجودرية) إلى جوار الزقاق الذي تخرج منه إلى الشارع العام ـ أمام العمارة التي تسكنها إدارة شركة كهرباء مكة وقد ركزت في مكانه راية النبي صلى الله عليه وسلم يوم الفتح .

ونستدل على هذا بعدة أمور :

أولا : من المعروف أن عمران مكة في العهد الجاهلي كان لا يتجاوز رأس المدعاة عند مقراة الفاتحة ثم امتد في صدر الإسلام وعهد الأمويين صوب بئر جبير بن مطعم في الجودرية وكان حجاج الآفاق إلى هذا العهد ينزلون بخيامهم في الآماد الخالية حول البئر بئر جبير بن مطعم وخلفه .. يقول عمر بن أبي ربيعة :

نزلت بمكة من قبائل نوفل ... ونزلت خلف البئر أبعد منزل
حذراً عليها من مقالة كاشح ... ذرب اللسان يقول ما لم يفعل

ثانياً : ينقل مؤرخ مكة القطبي في كتابه الأعلام عن الفاكهي وهو من مؤرخي مكة القدامى أن الناس كانوا لا يتجاوزون في بنيانهم في العهد القديم بئر جبير .

وليس من شك في أن العهد القديم الذي يعنيه الفاكهي هو عهد الأمويين من قبله .

وفي هذا ما يؤيد ما نقلناه عن ابن أبي ربيعة الذي نزل خلف البئر أبعد منزل حذراً عليها من مقالة كاشح .

ثـالـثـاً : بعد أن ثبت لنا أن عمران مكة كان لا يتجاوز بئرجبير ونطلق معه اسم مسجد الراية على المسجد بجواره قريباً من المعلاة .. فإننا لا نختلف مع ابن أبي ربيعة وهو يجعله أبعد منزل ولا نختلف مع الفاكهي والقرطبي وهما يؤكدان أن ـ العمران كان في العهد القديم لا يتجاوز البئر والمسجد .

وهو اعتراض له وجاهته ولكن مؤرخنا القطبي لم يتركنا نهبا لمثل هذا الإعتراض فقد خطط أمامنا علامات ناطقة تضع أيدينا على موقع مسجد الراية وجاره البئربصورة لا تترك منفذاً لمعترض .

فقد جاء في نهاية بحثه عن حدود العمران في مكة ما نص عليه بالحرف الواحد . يقول : أما في زماننا ـ وزمانه أوائل العهد العثماني ـ فقد تجاوز العمران كثيراً مسجد الراية صوب المعلاة .. انتهى .

ونحن نفهم أن تجاوز العمران كثيراً صوب المعلاة يؤكد أن مسجد الراية كان بعيداً عن المعلاة وإذا ليس لنا أن نفترض المسجد الذي في سوق المعلاة هومسجد الراية لأن مدى المسافة بينه وبين المعلاة قصير ، ولا يحتمل المعنى الذي يقوله القطبي . أما مسجد الراية وقد تحقق موقعه في الجودرية فيتسع لقول القطبي : « تجاوز العمران كثيراً صوب المعلاة » فهل لمعترض أن يناقش هذا ؟ ؟ .

وقرأت في صحفنا المحلية إعلاناً منشوراً جاء فيه ذكر بركة « ماجن » هكذا بالنون وهو خطأ شائع يتطرف به بعض الذين لا يوافقون على تسميتها بركة « ماجل » هكذا باللام ذلك أن المأمون العباسي عندما بنى في مكة خمس برك اختار أحدهما في المسفلة .

وكان في المسفلة ماجلان إثنان يملكها أبوصلابة والماجل في اللغة هومنخفض طبيعي تجتمع فيه المياه فعمد المأمون إلى أحد الماجلين فجعل منه بركة فكانت بركة الماجل باللام وخففها الناس فاستقام اسمها بركة ماجل .

وادي العقيق
أحد مظاهر الترف الحجازي

نحن إذ نقرأ ما رواه التاريخ من أخبار العقيق وطرائفه وما توسع في نقله بعض أصحاب الصناعة من كتاب القصة والرواة تتسع أمامنا آفاق البحث في مسارات لها مساس بالروح الأدبية التي سادت الحجاز في تلك الفترة من ذلك العصر مضافاً إليها حياة الترف والبذخ التي أراد أصحاب السلطان في بني أمية ثم في بني العباس أن يعيشها الحجاز ليلهو بها عن أطماعه السياسية مضافاً إلى ذلك طبيعة الظرف وحب الدعابة في نفس الحجازي .

ونحن نعلم أن روح الشاعرية سادت الحجاز في هذا العصر الذي ندرسه بشكل قليل النظير وأن الذوق الفني العالي هيمن على حياتهم وفاض حتى اتصل بخدور النساء فأزاح بعض ستورها وأبرزهن من ورائها أنصاف سافرات وأن بعضهن بلغ من غرامه بالشعر أنهن كن يتناشدنه في المسجد الحرام و يتدارسن أخباره وأن منهن الشواعر والأديبات وناقدات الشعر .

ذكروا أن سكينة بنت الحسين كانت مولعة بالأدب محبة للشعر وأنها كانت تعقد للشعراء مجالس يفدون إليها و يتناشدون في حضرتها فتستمع إليهم وتنقد ما ينظمون وتروى بعض أشعارهم وتفاضل بينهم وأنها أنشدت شعر الحارث بن خالد المخزومي فنقدته ووفد عليها جرير وأنشدها شعره فنقدته وكذلك فعلت بالفرزدق .

كما ذكروا أن عائشة بنت طلحة كان يجلس إليها الشعراء وأن عمر بن أبي ربيعة كان يعترضها في الطريق وهي تركب بغلتها فينشدها شعره وأنها كانت تقف لتستمع إليه وأنه كان يناقشها فيما تلاحظ وتنقد .

ولا نستطيع أن نستقصي أسماء كل الأديبات والمغرمات بالشعر في هذا المحيط الذي ندرسه فذلك فوق ما يتسع له مثل هذا الحديث ولكننا نريد أن نخلص من هذا إلى نوع من التدليل على الروح الشاعرية التي سادت الحجازيين حينذاك وعلى مبلغ تعشق نسائهم لهذا اللون من الحياة لعلنا نستطيع أن نفسر على ضوء ذلك أخبار العقيق ونذهب فيه مذهباً لا يبعد كثيراً عما نتحراه من الدقة في البحث .

وادي العقيق يصدر من أحضان بعض الهضاب في جنوب المدينة على مسافة خمسين كيلومتر منها ثم يمضي في انحداره حتى يحاذي جبل عير بقرب المدينة ثم يلتوي شمالاً ليحيط بضواحي المدينة من ناحيتها الغربية و يحاذي حرة الوبرة حتى يصب في زغانة .

وتنحدر السيول الصادرة من أحضان الهضاب والهابطة من مزدلفات الجبال حول فتحيل فيه نهيرا تصطخب أمواهه وتتلاطم أمواجه فيفيض على ما حوله من جداول يسقي نخيلها و يروى بساتينها وتجتمع المياه في بعض منحدراته في برك تتسع أو تضيق باتساع أو ضيق الخلجان في الوادي فيهرع أهل المدينة في زمر وأفواج إلى شواطئه يمتعون أنظارهم ببهجته و يتنزهون بين غياضة و ينفرد المستحمون ببعض ما التوى منه في حواشي الوادي ليبعدوا عن أنظار المتطفلين والمتفرجين .

يروى أبو الفرج أنه سال العقيق ذات مرة فخرج أفواج المتنزهين من المدينة لائذين به وخرجت سكينة بنت الحسين إليه في زمرة من جواريها حتى جاءت السيل فجلست على جرفه ومالت برجلها فيه .

وتمضي مواكب المتنزهين في حواشي الوادي فترى الرجال تحف بهم أخلاؤهم وندماؤهم والنساء تتبعهن حاشيتهن أو جواريهن يلبسن القمص الإسكندرانية الرقيقة والثياب القاهرية المعصفرة مسدولة عليها الملاءات اليمانية الفضفاضة المرقشة و يرتفع في هذا المراح صوت ابن عائشة .

ومن عجب أني إذا الليل جنني — أقوم من الشوق الشديد وأقعد
أحن إليكم مثل ما حن شائق — إلى الورد عطشان الفؤاد مصرد
ولي كبد حري يغذيها الهوى — ولي جسد يبلى ولا يتجدد

و يستزيده المستمعون فى صخب ونشوة فلا يلبث أن يمتنع ثم يستأنف غناه من جديد .

خرجن لحب اللهو من غير ريبة — عفائف باغي اللهو منهن آيس
يردن إذا ما الشمس لم يخش حرها — خلال بساتين خلاهن يابس
فلا يلبث اذ الحر آذاهن لذن بسرحة
كما لاذ بالظل الظباء الكوانس

و يحتشد النساء لصوته و يجلسن على كثب منه يستمعن إلى إنشاده في نشوة وطرب .

وتمضي الدواب الفارهة في أعناقها القلائد المذهبة بأصحابها من جلة القوم وعليهم في أقبيتهم المطرزة بالوشي تحت الثياب الرقيقة المصبغة من الكتان أوالقز بعضها أطول من بعض

كأنها المدارج تقوم قياماً من شدة الصقال متنقلين جماعات الشعراء . وحلقات المنشدين ومجالس المتندرين وأصحاب المجون .

هذه حلقة (جميلة) مولاة الأنصار وقد نزل بها ابن سريج والغريض وسعيد بن مسجح وفوداً من مكة وصحبهم إلى العقيق معبد وابن عائشة حيث يتبارون جميعاً في أصواتهم ويحتكمون إلى جميلة فيما ينشدون فيسمعونها تقول : أنت يا ابن سريج تضحك الثكلى برقة غنائك وأما أنت يا معبد فليس كجودة تأليفك وأما أنت يا ابن مسجح فلك أولية هذا الأمر .

وتحتشد الحلقة بكل غاد ورائح ويبدو موكب عمر بن أبي ربيعة مقبلاً فيخف الحشد إلى استقباله وترتفع الأصوات في جنبات الحلقة تتمنى على جميلة أن تسمعها من شعر عمر فتنشد :

ما أنس لا أنس يوم الخيف موقفها	**وموقفي وكلانا ثم ذو شجن**
وقولها للثريا وهي باكية	**والدمع منها على الخدين ذو سنن**
بالله قولي له في غير معتبة	**ماذا أردت بطول المكث في اليمن**
إن كنت حاولت دنيا أو نعمت بها	**فما أصبت بترك الحج من ثمن**

وتتوجه الأنظار ملتفة إلى عمر فإذا عمر مطرق برأسه إلى الأرض في هيئة الحزين وإذا دمعه ينحدر قبيل لحيته وثيابه .

وهذا مجلس الشعراء يجمع نصيباً وكثيراً والأحوص يستمعون إلى إسماعيل بن يسار وهو يترنم :

لقد لمتني ظلماً بلا ظنة	**وأنت فيما بيننا ألوم**
أخافت المشي حذار العدا	**والليل داج حالك مظلم**
ودون ما حاولت زرتكم	**أخوك والخال معاً والحم**
وليس إلا الله لي صاحب	**إليكم والصارم اللهذم**

وتصدح على غير بعيد أصوات المعازف كأنها ترتل ترانيم الشعراء وتهزج بأهازيجهم وينحدر الممشى بالمتفرجين إلى ما يشبه الخور على حافة السيل فإذا شاب من أحفاد معاوية في طيلسان من الديباج الأخضر يتوشح بمطرف من الخز قد استند إلى جذع نخلة باسقة وراح يبث أرغوله تباريح جواه في نغمات شجية يسيل بها النسيم الرفاف إلى مسامع المتجمهرين فتحتشد زمرهم حوله في هدوء وتلصص يستمعون إلى نغماته ويئنون ـ لتوجعاته .

هذا مسيل العقيق كمتنزه عام نستجلي فيه صورة واضحة من صور الحياة في ذلك العهد الزاخر بالترف .

جزيرة العرب بين المد و الجزر

من أبرز ما تميز به الإسلام أول ظهوره في جزيرة العرب توحيد أقطارها الشاسعة . وضمها إلى علم واحد تحت قيادة رجل واحد .

كان العربي الأصيل لا يدين بولائه لأكثر من مجموعة خيام تحدها عشيرته أو سلسلة هضاب تمثل منازل قبيلته .. ثم لا يمتد بصره بعد هذا إلى ما وراء التخوم إلا إذا أراد أن يهجو منافسيه . أو يتطاول عليهم بمتدح قومه ، وسموق جبالهم التي تعز على من رامها وتطول .

كان لا يفهم من معاني العروبة ما فهمه حفيده بعد الإسلام . وكان لا يدور بخلده شيء عن حدود الجزيرة التي عرفها خلفه بعد الإسلام .. ولا أدل على هذا من تراثه الخالد في الشعر فقد تغنى فيه بكل شجونه في الحياة دون أن يذكر العروبة أو يشير إلى حرف من معانيها .

ولا عبرة بما وضعه القصاصون عن مجالس العرب في بيت كسرى . وما أوردوه عن حكايات مشابهة .. تبدو فيها الصنعة وتتهافت حقيقتها عند الإستقراء .

وجاء الإسلام فمضت بنوده تتخطى الحواجز بين القبائل وتدك الفوارق الفاصلة بينها واستطاع النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته بعده أن يحيلوا تلك الأشلاء إلى جهاز له كيانه وله آفاقه المترامية من قلب الجزيرة إلى أبعد من حدودها .

وورث خلفاء بني أمية هذا الكيان المتسع ـ كيان العرب ـ وحافظوا على مجده و بالرغم من انتقالهم إلى مشارف الجزيرة في الشام ظلوا وثيقي الصلة بمواطن أجدادهم في داخل الجزيرة حفيين بمقدراتها إلى حد .

وانتصرت مبادىء الفرس على أثر هذا في حدود العراق وربح العباسيون المعركة بسيوف أخوالهم من العجم فبدأت إبرة الميزان تتأثر بحركة التيار وشرعت كفة العرب تشيل بفعل الثقل في حدود الفرس وشرع نفوذهم في الدولة يتقلص في تدريج بطيء .

مضى العباسيون في عهدهم الأول يحتفون بأخوالهم في فارس أكثر مما يحتفون بأعمامهم في جزيرة العرب وما انتهوا إلى عهدهم الثاني حتى صاهروا الأتراك ... فأحلوهم المكان الأول قبل الفرس واستغنوا عن العرب فأدرجوهم في ذيل القائمة .

وعرف العرب في الجزيرة مركزهم من بلاط الخلافة في بغداد فبادلوهم الإستهتار وشرعوا يناوئونهم باسم العلوية مرة والقرامطة أخرى وغيرها في غير ذلك حتى ألفوا الإستهتار بالسلطان واستمرؤوه وعادوا إلى سيوفهم يحكمونها في كل خلاف . وبذلك نسوا جامعتهم في الإسلام وعادوا إلى ما يشبه الجاهلية الأولى يمعنون في الفوضى ويشيعون الفتنة فتفككت عراهم ونسوا سلطان الخلافة فيهم وشرع انقسامهم على الخلافة يعلمهم الإنقسام على دينهم وعلى أنفسهم .

وقضت الفوضى التي ترددوا إليها على كثير من مميزاتهم فنسوا فضائلهم وعلومهم وآدابهم ونسوا قيامهم في مستوى الحياة .

وتلك فرصة كانت تستحق اغتنامها فقد وجد الترك من قبائل السغد والفراعنة والشاس وما وراء النهر أن الظروف تواتيهم وأن هجرة السابقين منهم إلى بلاط بغداد هيأتهم لأخطر المراكز في بلاد العرب .

فشرعوا يعبرون بحر الخزر إلى أذربيجان والجزيرة أو نهر بخارى إلى خراسان وفارس ثم يتجهون إلى تخوم العرب ويتغلغلون في أنجادها فيجدون الطريق أمامهم معبداً إلى مناصبها في قصور الخلافة والجيش .

وبقدر ما تكللت هجرتهم بالظفر مني العرب في أوطانهم بالخسران .. استطاعت قبائل الترك أن تمد نفوذها إلى قصور الحكم ثم ما لبثت أن هيمنت على الحاكم نفسه فأصبح الخليفة العربي في بلاطه رهن إشارتهم لا يضع توقيعه إلا على ما يكتبون ولا يصدر أمره إلا بما يرتأون .

وتتابعت فصول الرواية حتى رأيناهم ينشئون الدويلات ثم الدول ورأينا جحافلهم تبني عروشاً لمماليكهم من الأتراك والشراكسة من أبناء عثمان .

كل هذه الإنتصارات كانت على حساب العرب وما ظلم الترك العرب ما ظلم العرب أنفسهم فالحياة سباق لا يظفر فيها المتواكل إلا بقدر ما يظفر الراعي إذا نام عن قطيعه من الماشية وترك الذئاب ترعاها .

مكة بين الماضي والحاضر

أترانا في حاجة للإشارة إلى النهضة العظيمة التي نهضها قصي في تضاريس هذا الوادي وما تمخض عنها من أمجاد في عهد قريش ؟؟؟

أم ترانا في حاجة إلى الإشارة بجلال الحركة التي اضطلع بمهامها محمد بن عبدالله صلوات الله عليه وما ترتب عليها من نتائج في أكثر من نصف المعمور في أقل من قرن واحد ؟ ؟

إننا غنيون عن استقصاء هذه الروائع بما سجله التاريخ في صحائف أجدادنا بقدر ما نحن فقراء إلى دراسة ما أصاب نهضتنا من نكس ... دراسة دقيقة تحلل أهم العوامل الرئيسية فيما أصبنا .

إنني أعتقد أن أبرز هذه العوامل كان منجماً في مراحل تتلو واحدتها الأخرى .

فقد شرع هذا البلد يفتح الأمصار لينشر دينه ، ولغته وعلومه فدفع بجلة أبنائه إلى مواطن الفتح .. فشغلت مواطن الفتح عدداً لا يستهان به منهم ففقدت فيه هذه البلاد عاملاً هاماً من أهم العوامل في نهضتها العظيمة .

وإذا كان هؤلاء المفقودون قد أحسنوا إلى نشر الإسلام في آفاق الأرض واستطاع خلفهم أن يبينوا لمجده حكومة في الشام وأخرى في بغداد وغيرها وغيرها في الأندلس والمغرب ثم في مصر فإن مما يحز النفس أن أكثر هذه الحكومات كادت أن تنسى حقوق موطنها الأول أو نسي بعضها بالفعل كما نرى فيما يلي من تفصيل .

وأصبنا في المرحلة الثانية يوم نجاح معاوية في الشام ، فقد كان رضي الله عنه فذاً في سياسته العالية استطاع أن يجتذب وجوه الحجازيين بما كان يغدقه من أمواله الطائلة على المهاجرين منهم إلى مملكته الجديدة واستطاع أن يحسن معاملتهم ويغري نوابغهم بالبقاء في الشام ففقدت البلاد عدداً جديداً لا يقل عن سابقه أهمية وجدارة .

وبزغ نجم العباسيين في بغداد فشعروا أن لبني عمومتهم بين مكة والمدينة شأواً له خطره على الخلافة وأن نفوذ العلويين من أهليها لا يجب أن يستهان بنتائجه فنشطوا للعمل لمراكزهم فانتدب السفاح ثم المنصور جيوشهما للقضاء على الروح المبثوثة في هذه البلاد ثم جاء الرشيد فاشترى

البقية الباقية بصدقاته وأعطياته حتي بلغ عطاؤه بين الحرمين في إحدى السنوات مليونا ونصف مليون دينار ، فكانت المرحلة الثالثة في سبيل الانتكاس أجل فإن بلادنا يعلوها السيف ثم يغمرها الإحسان لا يجب أن ترجوها لخير .

وأدرك الفاطميون والأيوبيون والزنكيون سر سياسة العباسيين في هذه البلاد كما أدركها بعد ذلك مماليك الأتراك والشراكسة والعثمانيون فأذاقوها سيوفهم مرة وأطعموا البطون فيها مرات فظفروا في ضياع هذه البلاد ليأمنوا على مراكزهم من خطر شأوها في نظر المسلمين .

اعتلوها بسيوفهم حتى إذا استكانت لهم بذلوا فيها المنح وأكثروا الهدايا ورتبوا المرتبات ثم لم يكفهم حتى نظموا صدقات الغلال التي كانت تشمل جميع البيوت بما يكفيها من العام إلى العام فلم يتركوا حتى أفنوهم في شخصيات الخلفاء وتركوهم (تنابلة السلاطين) لا هم لهم في الحياة إلا أن يكنسوا المسجد و يطوفوا الحجاج و يدعوا للخاقان بالنصر فكانت المرحلة الرابعة .

ومست الغيرة بعض رجالات المسلمين في الهند من نحو نصف قرن فغضبوا لجهل البلاد وتأخر المعارف فيها فبذلوا من جهودهم ما استطاعوا أن يؤسسوا به بعض المدارس التي لا تكفي لتثقيف البلاد ولكنها استطاعت أن تعرض فيها نماذج لها قيمتها في الحياة .

وقلدهم بعض المرتزقة فشرعوا يؤسسون إلى جانبهم ما يشبه المدارس ليتصيدوا في شراكها مبرات الحجاج باسم الثقافة والعلم فاستطاعوا رغم دجلهم أن يضيئوا ما يشبه الذبالة في غمار الظلام المخيم .

وغضب على أثر الفريقين مواطن غيور من آل زينل فخطا بأوسع ما تتسع له خطا الأفراد في غمرة الظلام واستطاع أن يؤسس أكثر من مدرسة لخدمة الثقافة في البلاد .

وجاءت النهضة نهضة الحسين فبدأت آثارها تلمع ثقافياً فيما شيد لها من مدارس محدودة و بدأت روح الشباب تتوثب للعمل في آفاقها ولكن ... ولكن بعض رجال النهضة كانوا لا يزالون مرتبطين بعقائد بالية لا تتيح التقدمية إلا إلى حد خشية أن تنال قداستهم فاكتفوا بما خطوا كماساعدت قلة الموارد على القناعة بما قدموا .

ونحن اليوم على الرغم مما حدث في بواكير النهضة لا يجب أن ننسى أنها كانت ارهاصاً أعد البلاد لما تستقبله في العهد الحاضر بعد أن درت إخلاف الرزق علينا من حيث لا نحتسب وإلى رجالنا وأصحاب قيادتنا ألا نقف حتى نثبت وجودنا إلى جانب الأمم الحية في الأرض .

نحن اليوم نستقبل في كل عام طلعاً جديداً مما ندفعه إلى مناهل العلوم وفي استطاعتنا أن

نحكم بأن خطانا ستصل مسددة نحو الهدف ما بقي الخلاص والجد رائدنا .

على أن نهضتنا سوف لا تستوفي كيا لها ما لم ندخل في حسباننا الشمول الثقافي ... فشعوب الأرض اليوم لا ترى في الثقافة التي نهدف إليها إلا وسائل ومحاولات تهييء للمجال الأوسع .. إنها اليوم تنمي الملكات الفكرية وتشجع عليها وتهييء للمثقفين حقولاً تساعد على التجارب الواسعة المدى .. وهي اليوم تميل في ثقافتها إلى التصنيع الآلي والهندسي والكيميائي وتحبس على مجالهم أكبر قسط في إمكانياتها لأنها تعلم أن مركزها في الحياة وقف على ما تبرز به في أمثال هذه الميادين .

إننا لا نحب أن نستعجل الأمور قبل أوانها ، ولا نريد أن ننسى أن أمراضنا بعد أن جنت عليها أحداث عشرة أجيال لا يكفي لشفائها لمسة ولكننا نبسط آمالنا لمن تنعقد على رؤوسهم الآمال ونرجوا إليهم أن يختصروا الدروب التي مشاها من سبقنا من شعوب الأرض .. فقد جدت اختزالات تصل القطب بالقطب في أقصر مما عرف في دوائر الأرض من مسافات .

عندما صام الخليفة الرشيد في مكة

في رمضان عام ١٧٣ هـ وصل الرشيد إلى مكة المكرمة معتمراً وما إن انتهى من أداء النسك حتى جلس للناس في داره التي أمر ببنائها بين الصفا والمروة وكانت الدار شارعة على المسعى وكانت في الفخامة بشكل جعلها أحدوثة مكة وقد سماها الناس دار القوارير ولعلها سميت بذلك لأن الزجاج كان يقفل على نوافذها .

جلس الرشيد للناس يستمع إلى شكاواهم وكان أهم ما يشكون منه قلة الماء لأن الآبار العديدة التي كانت تسقي مكة من عهد جاهليتها نضب ماء أكثرها .. كما نضبت ماء العيون التي أنشأها معاوية رضي الله عنه في عهد خلافته وهي عيون ذكرها المؤرخون . وعين أبو الوليد الأزرقي مواقعها وقال إن عدتها كانت عشرة وكانت لها مناهل يراها الناس ومن أهمها عين كانت تمر في بطن مكة تحت الأرض وينتهي مجراها في المسفلة حيث يستقي منه الناس .. جفت آبار مكة على كثرتها كما خفت مجاري العيون التي أنشأها معاوية كما قل منسوب ماء زمزم لكثر ما فتح الناس منها .. ولا أستبعد أن تكون كل هذه الأخبار انتهت إلى بلاط الرشيد فرأى أن يواجهها شخصياً وأن يدرسها على الطبيعة فشد رحاله إلى مكة ليصلها في رمضان ويرى بعينه حاجة الناس إلى الماء في شهر تشتد فيه الحاجة إلى الماء بصورة لا تدانيها الحاجة في أي شهر آخر من شهور السنة .

لم تكن هذه أول رحلة للرشيد إلى مكة فقد كان هو أكثر الخلفاء من بني أمية والعباس ولعا بالحج ذكروا أنه حج ست حجج كانت في سنة ١٧٠ و ١٧٣ و ١٧٤ و ١٧٥ و ١٧٧ و ١٧٩ كما ذكروا أنه كان يحمل إليه الثلج إلى مكة إذا اشتد القيظ في بعض سنواتها .. وما كان يبلغ مكة في جميع المرات التي حج فيها إلا قبيل أيام الحج إلا في عام ١٧٣ فقد رأيناه يبادر إلى مكة ليبلغها في رمضان إستجابه لما بلغه من شكاوى الماء في رمضان في مكة كما يبدو لكل مدقق يتتبع حوادث التاريخ ويعرف من عناية الرشيد بالمرافق العامة ما لا ينكر .. وما إن جلس الرشيد مجلسه لأهل مكة حتى قنع بما يقاسونه و بدأ أوامره بأن أباح بئر القصر الذي ينزله لعامة الناس يستقون منه وكان بئراً غنياً بالماء إذا قيس بغيره احتفره جبير بن مطعم فيما احتفر من آبار قبل الإسلام وسماه الناس سحلة ولعل لاسمه نصيب من معناه فالسحل في اللغة هو المطرد الجود .

وكان أمير مكة يومئذ عامل الرشيد عليها أحمد بن اسماعيل فاقترح البحث عن العيون التي كان قد أنشأها معاوية في عهده وأن يعملوا على إصلاحها فبدأ البحث بصورة جدية أنفق الرشيد

عليها أموالاً طائلة حتى عرفوا مكانها فشرعوا في إزاحة ما طمرها وأخذوا في إصلاح مجاريها ثم صرفوا مياهها في عين واحدة سموها عين الرشا وعندما بدأ العمل يأخذ دوره الجدي وكان قد انسلخ من رمضان أقل من نصفه غادر الرشيد مكة إلى المدينة ليقضي بقية صيامه فيها و بمغادرته مكة أمر بأن توافيه أخبار العمل في الماء تباعاً ليطمئن على سيره وظل في المدينة حتى وافته أخبار نهايته فاستأنف عودته إلى مكة وظل فيها حتى انتهى موسم الحج في ذلك العام واستوثق من نتيجة ما فعل وتلك مزايا الرشيد التي سجلت له بالفخر .. على أن الماء ما لبث أن بان عجزه فعملت زبيدة زوجة الرشيد بالأمر فأمرت بالبحث عن مصادر أخرى للماء فكانت عين زبيدة .

نفوذ الشراكسة في مكة

من المعروف أن مكة عاشت تابعة للأمويين على أثر انتقال الخلافة إلى الشام ثم تبعت العباسيين على أثر انتقال الخلافة إلى بغداد .

وعندما فتح الفاطميون مصر أرادوا أن يهيمنوا على مقدرات مكة فاتصلوا بأحد أشراف مكة من بني عمومتهم أو اتصل الشريف بهم كما يذكر بعضهم . واستطاع هذا الشريف أن ينهض بمكة و يستقل بمقدراتها بدعم من الفاطميين لقاء أن يدعو فوق منبر مكة للخليفة الفاطمي وأن يقدم الفاطميون جميع المساعدات المادية والأدبية لحاكم مكة الجديد كما هو الشأن اليوم عند ساسة الأمم المعروفة .

ولكن العباسيين فطنوا للفكرة فاتصلوا بشريف مكة وحاكمها يعرضون عليه استقلاله بالأمر ومساعدته بكل ما يطلب لقاء أن يدعو فوق المنبر للخليفة العباسي بدلاً من الخليفة الفاطمي فقبل مرة أخرى فعاش المنبر حائراً بين القوتين في مصر و بغداد .

في تلك الأيام عاشت نظرية لا ندري كيف ابتدعت . تقول هذه النظرية إن نفوذ الخلافة لا تكمل عناصره في نظم الأمم الإسلامية ما لم يؤيده الدعاء للخليفة القائم فوق منبر مكة لهذا عانت مكة من جراء هذه البدعة و يلات لا نهاية لشدتها فكان كل ثائر على الخلافة في أي بلد قصي لا يرى عناصر النصر تكمل إلا إذا هاجم مكة وفرض الدعاء لاسمه على منبرها كخليفة جديد .

فرض العباسيون اسم خليفتهم على منبر مكة ردحاً من الزمن كما فعل الفاطميون في مصر ، كما فعل الرسوليون في اليمن كما فعل الأيوبيون في مصر كما فعل القرامطة يوم هاجموا مكة وأذاقوا المسلمين فيها ما لا يطاق كما فعل الأخشيد كما فعل مماليك الأتراك ثم مماليك الشراكسة يوم حكموا مصر كما فعل غيرهم وغيرهم مما يطول مجاله هنا .

و يهمنا هنا دراسة علاقة الشراكسة بمكة وكانوا قد اتصلوا بها في أواخر القرن الثامن الهجري اتصال صديق أو عميل أو حليف بادىء ذي بدء ثم ما لبثوا أن حكموها كما حكموا مصر بقوة الجيش وظلت هذه العلاقة طيلة القرن التاسع الهجري ونحو ٢٥ عاماً من القرن العاشر الهجري إلى اليوم الذي امتد فيه نفوذ العثمانيين إلى الحجاز في عام ٩٢٣ م وقبل شريف مكة بركات بن محمد بهذا النفوذ سليماً و به فرض الدعاء على منبر مكة للخليفة العثماني .

عندما سقطت حكومة المماليك الأتراك في مصر وقام على أنقاضهم مماليك الشراكسة بقيادة أبي سعيد برقوق الذي نادى بنفسه ملكاً على مصر . في هذه الأثناء كان يحكم مكة الشريف أحمد بن عجلان من أحفاد أبي نمي الأول فما لبث أن اتصل بأبي سعيد برقوق . قدم تهانيه وعرض صداقته وأن يدعو له على المنبر لقاء تقديم المساعدات والمخصصات التي كانت تقدم في عهد مماليك الأتراك فأجيب بالموافقة .

استمرت علاقة الشراكسة بمكة سنوات طويلة كانت لا تتعدى فيها إسداء النصح لا أكثر لقاء دعاء المنبر وتقديم المساعدات دون أن يتدخل النفوذ الشركسي في أي شأن من شؤون الحكم في مكة كما يفعل بعضهم اليوم إلا أن منازعات الأشراف في مكة ما لبثت أن دفعت بعضهم للإستعانه بالشراكسة لتأييدهم ضد مناوئيهم فكانت فرصة لحكومة الشراكسة استطاعت استغلالها فأرسلت من جنودها حامية تقيم في مكة لتوطيد الأمن فيها و بهذا تم وضع اليد و باتت مكة في حكم التابع للنفوذ الشركسي في مصر .

يذكر المؤرخون أن مكة استفادت كثيراً من حامية الشراكسة في مكة فقد كانوا أصحاب غنى و وجاهة وأن هذا الغنى فاض في مكة بشكل واسع فقد كانوا أصحاب جود و بذخ لهذا نمت ثروات مكة وتوفر النقد فيها وكان المتصلون برؤساء العسكر ير بحون أر باحاً طائلة ظهرت آثارها في الأسواق والمتاجر .

ومما يذكره التأريخ في هذا العهد أن علماء مكة اجتمعوا على توقيع عريضة طلبوا فيها إلغاء بدع المؤذنين وما يتغنون به من المدائح النبوية فوق المآذن وإلغاء الإحتفال بليالي ختم القرآن في رمضان ومنع إيقاد مشاعل المقامات في ليالي رمضان وهلال ر بيع الأول ورجب فقبل ما عرضوه وصدر الأمر بإلغاء جميع ذلك .

وفي هذا العهد رتب الملك المظفر الشركسي ألف أحمر سنوياً علاوة على المخصصات السنوية تقدم إلى شريف مكة حسن بن عجلان لقاء أن يلغي المكوس الخاصة بالخضار في مكة .

وسجل السلطان محمد الأول الشركسي بعض الأوقاف ترسل غلتها إلى فقراء الحرمين فكانت أول غلة ترسل للفقراء بصورة علمتهم الإستكانة والإعتماد على ما يصلهم من إحسان .

وفي هذا العهد كان لا يعين بوابو المساجد إلا من الفقهاء والعلماء والقضاة ولكن الأمر ما لبث أن ظهر فيه بعض القصور فأحيلت وظائف الأبواب إلى غيرهم من عامة الناس والمحتاجين .

وفي هذا العهد بدأت مراكب الهند تتوارد إلى جدة بكثرة كانت الأولى من نوعها ففرض الشريف بركات بن حسن بن عجلان رسوماً على حجاجها وظل يتقاضاه لنفسه لكن السلطان برسباي الشركسي لم يعجبه هذا فأرسل يطلب أن ترسل نصف الواردات إليه في مصر كما أرسل يطلب إرسال عشرة آلاف دينار سنوياً تحسم من مصالح خزانة مكة المالية وطلب إليه ألاّ يتعرض لعشور البضائع في جدة بل يتقاضاها موظف مختص يبعث بها إلى خزانة مصر وهذا يدلنا على مبلغ ما انتهى إليه نفوذ الشراكسة في مكة ولنا أن نعجب للتوفيق بين المخصصات التي كانوا يمنحونها مكة وأميرها وبين هذه الأوامر . وبين الغنى الذي يقول المؤرخون أنه ساد مكة وبين هذه الفروض التي كانوا يفرضونها على خزينتها .

ومما يذكره التأريخ من مناقب الشريف بركات أمير مكة يومها أن السلطان جقمق استدعاه لزيارة مصر فلما وصلها خرج السلطان للقائه وأن القاهرة ارتجت للقائه واستقباله وخرجت العذارى من خدورهن لرؤيته وكان يوماً مشهوداً .

ويقول العلامة السخاوي كنت ممن لقيه في مصر أنا والقلقشندي والبقاعي والسنباطي وسمعنا عليه بإجازته من الزين العراقي والهيثمي عشرة أحاديث وسمع غيرها غيرنا لعلوسنده وقد أجاز كثيراً منهم .

وفي هذا العهد استوردت مكة أول مطبعة للنقود استوردها أمير مكة الشريف علي بن عنان وضرب عليها النقود باسمه .

ومن طريف مايذكره التأريخ عن علاقة مكة باليمن في هذا العهد أن ملك اليمن أحمد بن اسمعيل كتب إلى الشريف بركات بخروجه إلى الحج وطلب إليه إخلاء البيوت الكبيرة في مكة وأن يتلقاه عند الحدود فغضب بركات لهذه العنجهية وكتب إليه يقول :

قل لمن رام بنا ديناً ومن	رام يأتي بيتنا مغتصبا
لا يحج البيت إلا خاضعاً	دافعاً عشراً لنا ثم جبا
وإذا ما كان رأساً لم يعد	عندنا يا صاح إلا ذنبا

في قصيدة طويلة استاء لها ملك اليمن فتخلف عن الحج .

وكانت التجارة مع اليمن نشيطة كانت مكة تستورد الحبوب على أصنافها وأنواعاً كثيرة من المنسوجات وكانت موانيء الحجاز الجنوبية تغص بالسلع والبضائع اليمنية من كل نوع حتى قيل

إنها في بعض السنوات كانت تزاحم جدة بكثرة ما تستقبله من بضائع اليمن ودوابها وماشيتها وكان الطريق البري لا تنقطع سلسلة الأحمال من بواديه وكان تجار مكة دائمي الإتصال بتجار اليمن وكانت بيوت الوكالات التجارية في مكة وثيقة العلاقات بالوكالات والمتاجر الكبيرة في اليمن كما كانت النقود السائدة في اليمن تحتفظ بأسعارها في مكة كما كانت النقود السائدة في مكة تجد رواجاً وافياً في أكثر مخاليف اليمن ومدنها الكبيرة .

وفي هذا العهد حج السلطان قايتباي الشركسي فندب أمير مكة من يستقبله في قرية الحوراء وهي بالقرب من أملج شمالي ينبع وأنهم مدوا له سماطاً عربياً كان من بين أنواعه صنف من الحلوى أعجب به السلطان فسأل عن اسمه فقيل له أن اسمه (كل واشكر) .

و بوصول السلطان إلى مكة أغدق من خيراته على سكانها الشيء الكثير الذي لا يحصى ومن طريف ما يذكره التاريخ بهذه المناسبة أن الشيخ محب الدين الطبري إمام المسجد الحرام لم يكن بين مستقبليه خارج مكة فوشى به بعض حساده فعاتبه قايتباي في ذلك فقال إني أستقبلتك في أشرف بقعة وهي المسجد الحرام فسر لجوابه ثم أبلغه أنه لا يتقاضى شيئاً لوظيفة الإمامة فقال إني فرضت مائة دينار شهرياً لقاء إمامتك فقال إمامتي حسبة لله لا أقبل عليها شيئاً ثم ما لبث أن انسل من المجلس دون أن يستأذن ومع هذا فقد أكبره السلطان وعندما عاد إلى مصر أرسل أمراً بتعيينه رئيساً للقضاة فوصل الرسول إلى مكة وأراد تسليم الأوامر إلى الشيخ نفسه فلما انتهى إلى بيته قيل له إنه ذهب يحمل عجين بيته لخبزه في فرن في أقصى الشارع فوقف ينتظره حتى حضر فسلمه الأمر فأهداه الشيخ رغيفاً من خبزه فصعب ذلك على الرسول وقال له إن مثل هذه التعيينات لا تقل مكافأتها عن الألف فأعاد الشيخ إليه أوراق التعيينات وقال تفضل فأعدها إلى سلطانك فأنا لا حاجة لي بها .

وأحسبني أن أؤكد أن الطوافة نشأت أول ما نشأت في هذا العهد في القرن التاسع ذلك أن الشراكسة بحكم جهلهم باللغة العربية وميلهم إلى الأبهة والبذل كانوا يفضلون أن يعتمدوا على من يخدمهم و يدلهم على مشاعر الحج و يتلو أمامهم أدعيته .

ولعل أول مطوف مارس الطوافة هو قاضي مكة إبراهيم بن ظهيرة فقد تقدم لتلقين السلطان قايتباي أدعية الطواف في هذا العهد ولم يذكر التاريخ فيما قرأت اسم مطوف كان يلقن الحجاج أدعية الطواف قبل ابراهيم بن ظهيرة .

و بمناسبة الحديث عن ابن ظهيرة لا يفوتني أن أذكر أن آل ظهيرة وهم قرشيون من مكة كانوا

بيت علم وأنه ظهر من بينهم عدة علماء كانوا يضطلعون بالتدريس في المسجد الحرام جيلاً بعد آخر كما أنجب آل الطبري كثيراً من العالمات المتفوقات كان من بينهن أم سلمة بنت المحب الطبري وأنجب آل النويري مثلهن وكان من بينهن خديجة النويرية كانت في بيتها تقدم الفتاوى في أدق المسائل الفقهية وآل القطبي وآل العتيقي وفي هذا العهد اشتهر الشيخ مجد الدين بن يعقوب الفيروز أبادي صاحب القاموس وقد ألف كتابه القاموس في منزله بمكة بجوار الصفا واشتهر غير هؤلاء كثيرون يطول البحث بنا لو حاولنا استقصاء أسمائهم أو أسمائهن .

من قصص الخلفاء والملوك في الحج

يستقصي « تقي الدين أحمد بن علي المقريزي » عدد المرات التي حج فيها خلفاء الإسلام ، ويروي لنا « ابن الأثير » و « الطبري » ، و « الأزرقي » و « الفاسي » وجمهرة من المؤرخين كثيراً من عجائب القصص التي كانت تصادف حجاجنا من الخلفاء أو الملوك عبر التاريخ في ثنايا الحج .

فما نستخلصه مما يرويه الطبري ، وهو مؤرخ ملتزم يسلسل حوادث الأعوام كل عام على حدته ، إشارته في آخر حوادث العام عن الخليفة أو الملك الذي يشد رحاله إلى الحج ، وربما توسع القزويني بتفصيل أكثر في وصف القافلة التي مشت في ركاب الخليفة أو الملك ، ويسهب ابن الأثير أو الازرقي في اخبارها .

ونحن هنا لنلخص أهم هذه الروايات سنجد مما يروونه أن الخلفاء الراشدين أبا بكر وعثمان رضي الله عنهم ، حرصوا على أداء أعمال الحج في سائر السنوات التي تولوا فيها الخلافة إلا سنة واحدة لكل منهم على خلاف في بعض الأقوال ، أما علي كرم الله وجهه ، فقد حالت الحروب بينه وبين ذلك .

وحج من خلفاء بني أمية خمسة هم معاوية ، وعبد الملك ، والوليد ، وسليمان ، وهشام .. حج معاوية وعبد الملك أكثر من مرة ، ولم يحج الثلاثة الباقون إلا مرة واحدة .

أما خلفاء بني العباس في بغداد فلم يحج منهم إلا ثلاثة من خلفاء العصر الأول وهم المنصور ، والمهدي ، والرشيد . ولم يحج من خلفاء العصر العباسي الثاني أحد ، لأن حياة الترف التي يرويها القزويني بالإضافة إلى سيطرة الفاطميين على مقدرات الحجاز وثورات القرامطة التي أشعلت الفتن في الطريق إلى مكة ، واحتلالهم مكة نفسها كانت كلها عوامل ذات أثر حجبت الخلفاء عن مكة ومنعتهم من أداء فريضة الحج .

وامتنع خلفاء الأندلس جميعاً عن الحج لسيطرة خلفاء المشرق على الحجاز ، ولأنه كان يتعذر على الخليفة الأندلسي أن يجد طريقه إلى مكة آمناً .

ويمضي بنا القزويني في إحصائه فيذكر لنا أسماء من حج من ملوك الإسلام بعد أن

انقسمت الخلافة إلى دويلات ، فيقول أنه حج من ملوك اليمن سبعة هم : محمد الصليحي وملكان من أيوبي اليمن ، ثم الملك المسعود ، ثم ثلاثة من ملوك بني رسول .

كما حج من ملوك الشام ثلاثة : نور الدين بن زنكي ، وعيسى بن العادل ، والناصر بن داود .

ولم يحج أحد من ملوك بني أيوب في مصر لانشغالهم بالجهاد ضد الصليبيين وقد ذكروا أن صلاح الدين الأيوبي أعد عدته للحج ، ولكن المنية عاجلته .

وحج من ملوك مصر الظاهر بيبرس ، والناصر محمد بن قلاوون ، والأشرف شعبان .

وتوسع القزويني في استقصاء أسماء الملوك الحجاج ، فذكر أن من حجاج ملوك بلاد التكرور : منسا بن ماري ، وساكبورة ، ومنسا بن موسى . وبلاد التكرور هذه يصح أن نطلقها اليوم على ممالك واسعة في جزء كبير من قارة إفريقيا .

وإذا تتبعنا رواة التاريخ ممن ذكرنا في صدر بحثنا ، وتابعناهم فيما يروون من قصص الخلفاء والملوك في الحج طالعتنا حوادث وقصص لها دهشتها .

فمما يروونه عن أبي عثمان الهندي أنه قال « رأيت ابن الخطاب يرمي الجمرة وعليه إزار مرفوع بقطعة من أدم » .

ويروون عن علي بن أبي طالب أنه قال : « رأيت عمر يطوف بالكعبة وعليه إزار فيه إحدى وعشرون رقعة بعضها من أدم » .

وعن سعيد بن المسيب أنه قال : حج عمر ، فلما كان بضجنان قال : « لا إله إلا الله المعطي من شاء ما شاء ، كنت أرعى إبل الخطاب بهذا الوادي في مدرعة صوف ، وكان فظاً يتبعني إذا عملت ، ويضربني إذا قصرت ، وقد أمسيت وليس بيني وبين الله أحد » ! !

ويروي صاحب الأعشى أن معاوية حج فسأل عن امرأة من بني كنانة كانت تنزل الحجون يقال لها « الدارمية » فجيء إليه بها ، وكانت سوداء مكتنزة اللحم ، فقال : ما حالك يا ابنة حام ؟ قالت : لست لحام أدعي ، إنما أنا امرأة من كنانة . قال : صدقت .. أتدرين لم أرسلت لك ؟ قالت : لا يعلم الغيب إلا الله . قال : بعثت إليك لأسألك علام أحببت علياً وأبغضتني ؟

ووالـيتـه وعـاديتني ؟ قالت : أوتعفيني يا أمير المؤمنين ؟ قال : لا أعفيك . قالت : أما إذا أبيت فـإنـي أحـبـبـت علياً على قتالك من هو أولى بالأمر منك وطلبك ما ليس لك بحق . قال : ولذلك انتفخ بطنك وعظم ثدياك . قالت : يا هذا بهند كانت تضرب الأمثال ، لأبي ! !

قـال : يـا هـذه أربـعي ، فأنا لم نقل إلا خيراً ، ثم قال : كيف رأيت علياً ؟ فقالت : رأيته لم يفـتـنـه الملك الذي فتنك ، ولم تشغله النعمة التي شغلتك . قال : صدقت ، فهل لك من حاجة . قـالـت : وتـفـعـل إذا سـألتك ؟ قال : نعم ! قالت : تعطيني مائة ناقة حمراء فيها فحلها وراعيها . قـال : تـصـنـعين بها ماذا ؟ قالت : أغذي بألبانها الصغار ، واستحيي بها الكبار ، وأصلح بها بين الـعـشـائـر . قـال : فـإن أعطيتك ذلك ، فهل أحل عندك محل علي ؟ قالت : ماء ولا كصداء ، ومرعى ولا كالسعدان وفتى ولا كمالك . قال : يا سبحان الله أودنه ؟ ثم قال : أما والله لو كان علي ، ما كان أعطاك منها شيئاً . قالت : والله ولا وبرة واحدة من مال المسلمين .

وورد عـن الـولـيـد بن عبد الملك أنه حج ، ثم انتهى إلى المدينة وكان قد أمر ببناء مسجدها ، فـعـن لـه أن يـتـفـقد البناء ، فأخلي له المسجد حتى لم يبق فيه غير « سعيد بن المسيب » فلم يجسر أحد من الحرس أن يخرجه . فقيل له : لو قمت فقال : « لا أقوم حتى يأتي الوقت الذي كنت أقوم فيه فقيل : لو سلّمت على أمير المؤمنين . قال : والله لا أقوم إليه .

قـال عـمـر بن عبد العزيز : فجعلت أعدل بالوليد في ناحية المسجد لئلا يراه ، فالتفت الوليد إلـى القبلة فقال : من ذلك الشيخ ؟ أهو سعيد ؟ قال عمر بن عبد العزيز : نعم ، ومن حاله كذا وكـذا ، ولـو عـلـم بمكانك لقام فسلم عليك ، وهو ضعيف البصر ، فقال الوليد : قد علمت حاله ، ونحن نـأتـيـه . فدار في المسجد ، ثم أتاه ، فقال : كيف أنت أيها الشيخ ؟ فوالله ما تحرك سعيد ، بـل قال : بخير والحمد لله .. فكيف أمير المؤمنين وكيف حاله . ثم لم يلبث أن انصرف الوليد وهو يقول لعمر : هذا بقية الناس ! !

وفي هذه السنة ، وعلى أثر ما شاهد الوليد وعثاء الطريق إلى الحجاز ، كتب إلى جميع البلاد بـإصلاح الطرق وعمل الآبار بطريق الحجاج .. ومنع المجذومين من الخروج على الناس ، وأجرى لهم الأرزاق .

ويـذكـرون عـن الخـلـيـفـة الرشيد أنه حج فاستدعى الفضل بن الربيع ذات ليلة ليقول له : ويحك قـد حاك في نفسي شيء فانظر لي رجلاً أسأله ، فقال : ههنا الفضيل ابن عياض . قال : أمـض بنا إليه . قال : فأتيناه فإذا هو قائم يصلي يتلو آية من القرآن يرددها ، فقال : إقرع الباب ،

فقرعت الباب ، فقال : من هذا ؟ قلت : أجب أمير المؤمنين ، قال : ما لي ولأمير المؤمنين . فقلت : سبحان الله ، أما عليك طاعته ؟ أليس قد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ليس للمؤمن أن يذل نفسه » ؟ فنزل ففتح الباب ، ثم ارتقى إلى الغرفة ، فأطفأ السراج ، ثم التجأ إلى زاوية من زوايا البيت . فدخلنا فجعلنا نجول عليه بأيدينا ، فسبقت كف هرون إليه قبلي . فقال الفضيل : يا لها من كف ما ألينها إن نجت غداً من عذاب الله عز وجل . فقلت في نفسي ليكلمنه الليلة بكلام من قلب تقي .

قال هرون : خذ لما جئناك له ـ رحمه الله ـ فقال : إن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة دعا من يعظه ، فكان مما قيل له : « إن أردت النجاة فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك ، وأكره لهم ما تكره لنفسك ، ثم مت إن شئت » . فبكى هرون بكاء شديداً حتى غشي عليه . فقلت له : أرفق بأمير المؤمنين . قال : يا ابن الربيع تقتله أنت وأصحابك ، وأرفق به أنا .

فلما أفاق الرشيد ، قال : زدني رحمك الله . قال : يا محسن الوجه أنت الذي يسألك الله عن هذا الخلق يوم القيامة ، فإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غش لأحد من رعيتك .

فبكى هرون . وقال له : عليك دين ؟ قال : نعم دين لربي لم يحاسبني عليه . قال : إنما أعني دين العباد . قال إن ربي عز وجل لم يأمرني بهذا ، وإنما أمرني أن أصدق وعده ، وأطيع أمره . فقال له : هذا ألف دينار خذها فأنفقها على عيالك . فقال : سبحان الله أنا أدلك على طريق النجاة ، وأنت تكافئني بمثل هذا ؟ سلمك الله ووفقك . ثم صمت فلم يكلمنا ، فخرجنا من عنده .

وبخروجنا دخلت عليه امرأة من نسائه ، فقالت : يا هذا قد ترى ما نحن فيه من ضيق فلو قبلت هذا المال فتفرجنا به . فقال لها : مثلي ومثلكم كمثل قوم كان لهم بعير يأكلون من كسبه ، فلما كبر نحروه فأكلوا لحمه . فلما سمع الرشيد هذا الكلام ، قال : ندخل فعسى أن يقبل المال . فلما علم الفضيل خرج ، فجلس في السطح عند باب الغرفة ، فجاء هرون فجلس إلى جانبه ، فجعل يكلمه فلم يجبه ، فبينا نحن كذلك إذ خرجت جارية سوداء ، فقالت : يا هذا قد آذيت الشيخ منذ الليلة ، فانصرف رحمك الله . فانصرفنا .

ويذكرون عن الرشيد أنه حج في بعض سنواته ماشياً من مكة إلى منى فعرفات وشهد بقية المشاعر ماشياً . وأنه كان يطوف بين المغرب والعشاء ثلاثة عشر أسبوعاً ولا يطيق ذلك أحد ممن كان معه .

كما يذكرون أن زبيدة زوجة الرشيد شهدت أكثر المشاعر ماشية ، وهي التي أمرت بجلب العين إلى مكة ، وأنفقت مئات الألوف في سبيلها عندما رأت ما يقاسية الأهالي والحجاج من قلة الماء .

ويذكرون عن صاحب اليمن الملك المسعود ، أنه هاجم مكة في عام ٦١٩ هـ يمنع الدعاء على منبرها للعباسيين ويؤيده للأيوبيين في مصر ، وأنه ما لبث أن رجع إلى اليمن بعد أن استناب عليها أحد نوابه ، ثم عاد إليها بعد سنوات ليؤدي فريضة الحج ، فأصيب فيها بمرض الفالج الذي مات به . وقد قيل أنه لما أحضرته الوفاة لم تطب نفسه لما لديه من أموال ، وأنه لذلك طلب إلى فقير مغربي أن يتصدق عليه بما يكفي لكفنه .

والملك المسعود هذا هو أول من جعل مقام ابراهيم ثابتاً في مكة ، وبنى عليه القبة التي أزيلت من عامين . وكان مقام ابراهيم قبله ربما نقل إلى جوف الكعبة أو أحد أركان المسجد إذا ازدحم المسجد بالحجاج .

ويذكرون أن ملك مصر الظاهر بيبرس انسل من جيوشه في أحد الثغور سراً ليؤدي فريضة الحج ، فلما انتهى إلى مكة لم يشعر بوصوله أحد ، لأنه اختلط بعامة الحجيج ، وشاهده بعضهم يوم غسل الكعبة يشارك العامة في غسلها ، ورمى إليه أكثر من واحد بأردية الاحرام ليغسلها لهم في ماء غسل الكعبة ، فكان يغسلها ويعيدها إليهم ، ليتسلم غيرها . وكان يعطي خاصته جملة أموال ليوزعوها في الناس سراً . وعندما شرع المختصون ينيطون بالكعبة كسوتها الجديدة شاركهم في أعمالهم دون أن يشعروا به إلا خواصه .

وحجّ الملك الناصر قلاوون في عام ٧١٩ هـ ، فشارك في غسيل الكعبة وتعليق ثوبها والإحسان إلى أهلها . ومما ذكر عنه أن بدوياً من الأعراب لجأ به في حاجة ، فامتدت يده إلى لحية الملك - على عادة الإعراب - ليتوسل بها إليه ، فصرخ فيه أحد حراس الملك ليتأدب ، ويرفع يده ، فتبسم الملك ، وقال : هذه عادة العرب فلا ضير فيما فعل .

ومما يرويه المؤرخون أن احمد بن اسماعيل ، ملك اليمن ، نوى الحج ، فكتب إلى أمير مكة ، الشريف بركات ، يطلب إليه إخلاء عدة بيون عيّنها بجوار المسجد ، وأن يتلقاه عند قرية حليّ ، فاستاء بركات لعنجهية الطلب ، فكتب إليه يقول :

بالقنا الخطي والبيض الظبا ... وبخيل تتبارى سربّا
وبأبطال إذا ما استعرت ... نار حرب ولظاها التهبا

نحمي ذا البيت ونحمي جدة ... وربا حلّيّ وأكناف قبا

إلى أن يقول :

قل لمن رام ينادينا ومن ... رام يأتي بيتنا مغتصباً

لا يحج البيت إلا خاضعاً ... دافعاً عشرالنا ثم جبا

فلما انتهت إلى ملك اليمن تخلف عن الحج ، وأضمر الشر لبركات بصورة كان لها ما بعدها مما لسنا بصدده هنا .

وكان من عادة ملوك الإسلام وسلاطينهم في أكثر أقطارهم أن يأمروا بالنداء للحج ابتداء من غرة رجب ، فتقام الاحتفالات وترفع الرايات ، وتنصب الزينات . وعندما ابتدعت عادة المحمل في عصر المماليك كانوا يحتفلون بخروجه في مصر والشام ، وأحياناً في اليمن ، يمر بشوارع المدينة ، ويقف في ساحاتها ، يحف بموكبه أصحاب الطبول والمزامير ، ويتقدمه أصحاب المراتب الرسمية .

فإذا بدأ الإستعداد لمسيرة القوافل شرع المرتبون لها يعدون ما يلزم للمسيرة الطويلة .. كانوا يعنون أكثر ما يعنون بأحمال الدقيق ، والبقسماط ، والروايا ، والقرب ، والأشربة . وإذا حج الأمير أو السلطان عين العربان المتوجهين معه والقادة المحافظين عليه ، وأمر بترتيب المنازل على طول الطريق الذي يسلكه إلى مكة وخصص لها من يقوم عليها في انتظار وصوله ، وربما كلف الخولة ليهيئوا أحواضا من خشب تزرع فيها المباقل والخضروات والرياحين والمشمومات ، فتحمل على الجمال وتسقى طول الطريق للإنتفاع بها . كما يكلف الخبازون والقلاؤون وضاع (الكماج) والحلوى أن يجهزوا أفرانهم للسفر ، ويعدوا أدواتهم .

وعندما حج الملك الناصر قلاوون جهز من الشام خمسمائة جمل تحمل الحلوى والسكردانات التي تحفظها وجلة كبيرة من الفواكه التي لا يسرع إليها العطب ، كما جهز ثمانين جملاً لحمل ما يحتاج إليه المطبخ ، وكانت تحمل فيما تحمل ـ ثلاثة آلاف دجاجة وألف طائر وعشرات القدور ، وصحبه إلى الحج خمسون أميراً ، وكان كل أمير يقود نحو المائة يتسلم نفقاتهم وأعلاف دوابهم ، قبل أن يبدأ رحلته في موكب الملك .

وكان المنفق على الموسم ينظم بنوده قبل الرحيل ، لتتسع للصدقات والاعانات ومرتبات العربان في طريق السير وحفر الآبار إذا أعوزهم الأمر ، وتوزيع ما يجب توزيعه على فقراء الحرمين وأصحاب الرواتب المفروضة في سجلات القصر الملكي أو بيوت المال .

وبنى لبعضهم القصور في الطريق إلى مكة لينزلوها ، واتخذوا لها المصانع ، وزرعوا حولها ما ينفعهم كزاد للطريق الطويل .

وكان الطريق إلى مكة يبدو أكثر طولاً وأشد مشقة لعوام الحجاج ، فقد كانت أكثر أقطارهم تفد إلى مصر .. يفدون إليها من إفريقيا والأندلس والمغرب براً أو بحراً في طريق شاقة ، كما يفدون إلى الشام من بلاد الترك والقوقاز وبخارى والقرم وشمال روسيا وسيبيريا وجزائر البحر الأبيض ، ثم ينحدرون من الشام إلى مصر ليستأنفوا منها إرهاقاً جديداً .

وكان يتجه بعضهم إلى السويس ، حيث تقلهم المراكب الشراعية إلى جدة ، ويمضي الكثيرون مصعدين في الصعيد إلى « قوص » برا ، أو من طريق النيل ، ويستغرق ذلك نحو عشرين يوماً ، ثم يتجهون إلى « عيذاب » أو « القصير » في أعلى الصعيد على شاطىء البحر الأحمر ، حيث ينتظرون المراكب التي تقلهم إلى جدة ، وقد يستغرق انتظارهم في الميناء نحو شهر ، كمايستغرقهم السفر منها إلى جدة عشرة أيام .

وكانوا يستقلون مراكب غير محكمة ، وأشرعتها من حصير ، وأصحابها يتعسفون في معاملة الحجاج ، ويشحنون فيها أكثر من حمولتها ، ولذلك كانوا يتعرضون لأخطار البحر ، كما أن بعض المراكب كانت تغرق بالفعل .

وكان بعض عرب البجاة يتولون نقل الحجاج في صحراء الصعيد فوق جمالهم وفي البحر إلى جدة على مراكبهم الشراعية ، وكانوا يرهقون الحجاج باستغلالهم ، وربما عرضوهم للطريق المعطش ليموتوا ، فيستولوا على متاعهم .

إذا قيس هذا بمواصلات اليوم الميسرة وأمانها المطمئن تعين الشكر لله على نعمه وحسن توفيقه .

المكوس في تاريخ مكة

عاشت مكة إلى منتصف القرن الخامس الهجري لا تعرف فرض المكوس على حجاج بيت الله الحرام ، فقد كانت تتبع الحكم الأموي ثم الحكم العباسي وكان خلفاء الدولتين لا يضنون عليها بالمساعدات المادية التي تغنيها عن المكوس بل كانوا في الأغلب الأعم يتولون الإنفاق على مرافقها دون أن يتقاضوها أو حجاجها شيئاً غير نصيبها الشرعي من غلال الأرض في بوادي الحجاز أسوة بغيرها من الأقاليم التابعة لحكم الخليفة .

وعندما حاولت الطبقة الأولى من الأشراف أن تستقل بشئونها في مكة في عهد الفاطميين حوالي منتصف القرن الخامس الهجري شعروا ـ فيما يبدو ـ بحاجتهم إلى أحداث المكوس فأحدثوها دون أن يبالوا بنقد الحجاج أو يأبهوا لصرخات الإحتجاج .

وكان الفاطميون في مقدمة الناقدين الذين ساءتهم بدعة هذا الحدث ولكنهم عجزوا عن منع الأشراف منعاً باتاً عن مقاضاة الحجاج تلك المكوس لأن الأشراف كانوا يحتجون بحاجة البلاد إلى ما تنفقه في مرافق الدولة وتأمين الأمن فيها .

كان الفاطميون يبذلون لهم من العون المادي ما يحسبونه كافياً لمرافق البلاد ولكن الأشراف مضطرون لإنفاق أكثر هذه المبالغ في تحصين البلاد من خصومهم ـ وخصومهم أبناء عمومتهم في الغالب ـ فكان العجز يحالف موازناتهم في استمرار ، وكانت حاجتهم إلى تغطية النفقات لا تقف عند حد فليس لهم إلا أن يصروا على مقاضاة الحجاج ما يفرضون من مكوس .

وربما أعفى بعض الأشراف من أصحاب الحكم في مكة الحجاج من المكوس في بعض السنوات بدافع من ورع الحاكم وتقواه وقدرته على ضغط النفقات أو بسبب يمت إلى ضعفه وخوفه من سطوة الفاطميين إلا أن هذا لا يلبث أن يزول بزوال الحاكم التقى أو الضعيف لتستأنف المكوس بعده سيرتها من جديد .

ولا يعجز الفاطميون عن فرض سلطانهم على حاكم مكة لأنهم عاجزون عن فرضه بقوة السلاح ولكنهم كانوا ينافسون بغداد في شراء رضائه و يحاولون ألا يحظى العباسون عنده بالدعاء على منبر مكة دونهم .

وكان الأشراف يكلون استيفاء رسوم الحجاج في الغالب إلى حكام القرى التي توالي حدودهم فلا يستطيع الحاج أن يتخطى الحدود إلى الحجاز حتى يؤشر على أوراقه بالتسديد وإذا استطاع الحاج أن يفلت من الوكلاء أو يخلف الطريق المقرر فإن المسئولين في جدة يمنعونه من مواصلة السفر إلى مكة حتى يوفي ما عليه من مكس .

وقد حج العلامة ابن جبير في القرن الخامس الهجري فذكر المكوس المفروضة على الحجاج وقال إن أشراف مكة يكلون أمر استيفائها إلى قبيلة من عرب البجاة كانت تسكن صعيد مصر الأعلى بين عيذاب والقصير وهما من شواطىء الصعيد على البحر الأحمر فكان رئيس القبيلة يستوفي الرسوم المفروضة لأشراف مكة ويؤشر بذلك في أوراق خاصة تقدم إلى المسئولين في جدة ليمنحوا رخصة المرور إلى مكة .

ودامت المكوس طوال عهد الفاطميين والأيوبيين إلا أنها لم تتخذ شكلاً موحداً مستمراً فقد كان بعض حكام مكة يعفي الحجاج من بعضها ثم لا يلبث غيره أن يعيدها إلى ما كانت أو يضيف إليها غيرها .

وكان بعض رؤساء الدويلات الإسلامية في ذلك العهد يتطوع بأهداء الأشراف مبالغ من الأموال تقوم مقام المكوس ليتنازلوا عن جبايتها من الحجاج فيجري العمل بذلك سنوات تطول أو تقصر ثم يستأنف الحال سيرته القديمة ويعود الحجاج إلى دفع المفروض عليهم .

ومن أشهر المتطوعين لافتداء الحجاج من رسوم الحج صلاح الدين الأيوبي فقد حج في عهده أحد أعلام الإسلام ولما وصل إلى جدة أبى أن يرضخ لما تقرره المكوس وأعلن العودة إلى بلاده إذا أصر المسؤولون على استيفاء رسوم الحج منه فرثى التنازل عن مقاضاته احتراماً لمركزه الديني ، وعندما انتهى إلى مكة استرضاه حاكمها وأوضح له فقر البلاد وحاجتها إلى ما تنفقه في مرافقها فقنع بذلك .

وعندما عاد من الحج استطاع أن يجتمع بصلاح الدين الأيوبي وأن يقنعه بتخصيص مبالغ من الأموال تغني أشراف مكة عن المكس فكتب الأيوبي إلى مكة يعرض مساعدته لقاء إعفاء الحجاج من الرسوم فقبل شريف مكة واتفق الطرفان على تسجيل ذلك محفوراً في أحد أساطين المسجد الحرام وقد ظلت الأسطوانة قائمة في المسجد حتى أزالتها بعض الإصلاحات في عهد العثمانيين .

ولم يدم إعفاء الحجاج من الرسوم في عهد الأيوبيين طويلاً لأن موارد الأيوبيين ما لبثت أن ضعفت على أثر الانحلال الذي دب في صفوفها فعجزت عن موالاة إرسال المساعدات إلى مكة فاستأنف الأشراف فرض الرسوم .

ولما لمع نجم المماليك واتصلت أسبابهم بمكة واستطاعوا أن يفرضوا سلطانهم في بعض السنوات على أشرافها استطاعوا إلغاء المكوس بعد أن رتبوا على أنفسهم مقادير من الغلال والأموال يرسلونها إلى مكة ليساعدوها على الإنفاق وتطوع بعضهم فأوقف لصالح الحرمين أراضي زراعية واسعة الأطراف متعددة المواقع كما أوقف غيرهم قصوراً شاهخة وقرى كاملة بما تحتوي من دور ومزارع إلا أن ذلك لم ينتظم أمره في أسلوب مطرد فقد كانت صلة المماليك بمكة تتعرض لكثير من ألوان الخلاف فلا تلبث أن تمنع عن مكة فيعود حكامها إلى فرض الرسوم نكاية بالمماليك أو نزولاً عند حاجتهم الملحة إلى الإنفاق .

وعندما ورث العثمانيون حكم البلاد الإسلامية في الشرق العربي واستطاعوا أن يهيمنوا على مقدرات مكة نظموا شؤون الحقوق التي أوقفها المماليك على مكة ورتبوا لها وكلاء يستوفون غلاتها سجلات خاصة ثم زادوا فاقتنوا الأراضي الشاسعة والمزارع الواسعة واشترى بعضهم عدة قرى في نواحي قليوب من القطر المصري وأضافوا جميع ذلك إلى أوقاف الحرمين على أمل أن يغنوا سكانها وأشرافها عن مقاضاة الحجاج وقد بدت آثار ذلك مفيدة نافعة إلى نحو نصف قرن ثم تغيرت الأحوال وبدأت بعض الأيدي تتلاعب بأوقاف الحرمين وغلاتها . وقد ظل التلاعب يتطور بتطور الأيام حتى كان عهد محمد علي مؤسس الأسرة العلوية في مصر الذي رأى أن يحسم الأمور فيلغي جميع الوقوف على الحرمين ويحيل غلاله إلى خزانة مصر ويصدر أوامره إلى الخزينة أن تتولى الإنفاق على صنع كسوة الكعبة وأن تقرر ما يلزم تقريره من الصدقات التي ترسل إلى مكة لتوزع على أهليها إلى جانب الصرر والمعاشات والعوائد المقررة لأصحاب النفوذ فيها من أعيان وكبراء وحكام .

لقد خاب أمل المماليك فيما أوقفوا على مصالح الحرمين كما خاب فأل العثمانيين ... ومن غريب ما يذكر في هذا أن العثمانيين الذين ساعدوا على تنظيم الأوقاف وأضافوا إليها ما ضمن لمكة وحكامها غنى عن جمع المكوس ما لبث أحفادهم أن عادوا إلى التغافل عن جرأة حكام مكة في إعادة المكوس بل أن بعض هؤلاء الأحفاد كانوا يقرون تلك الأعمال وربما أصدروا أوامرهم الشاهانية بالموافقة عليها وتقرير أعيانها ومقاديرها ووسائل استيفائها .

وبذلك اكتسبت المكوس على مر الأيام صبغتها الرسمية ونالت تأييد ديوان الخليفة ككل نظام نافذ الكلمة ساري المفعول .

وفي حديث آخر نستطيع أن نتابع بشيء من التفصيل بعض القواعد التي ترتب عليها تنظيم المكوس بصورة يتقاضاها حكام مكة بعد موافقة الباب العالي في الآستانة وأن نخلص من ذلك إلى عهد حكومتنا التي تفضلت بإلغاء تلك القواعد وإبطال ما ترتب عليها من مكوس .

من التراث



١ ـ نشاط الهيئة الدينية

٢ ـ الطبقات العاملة في الإسلام

٣ ـ صلاح الدين

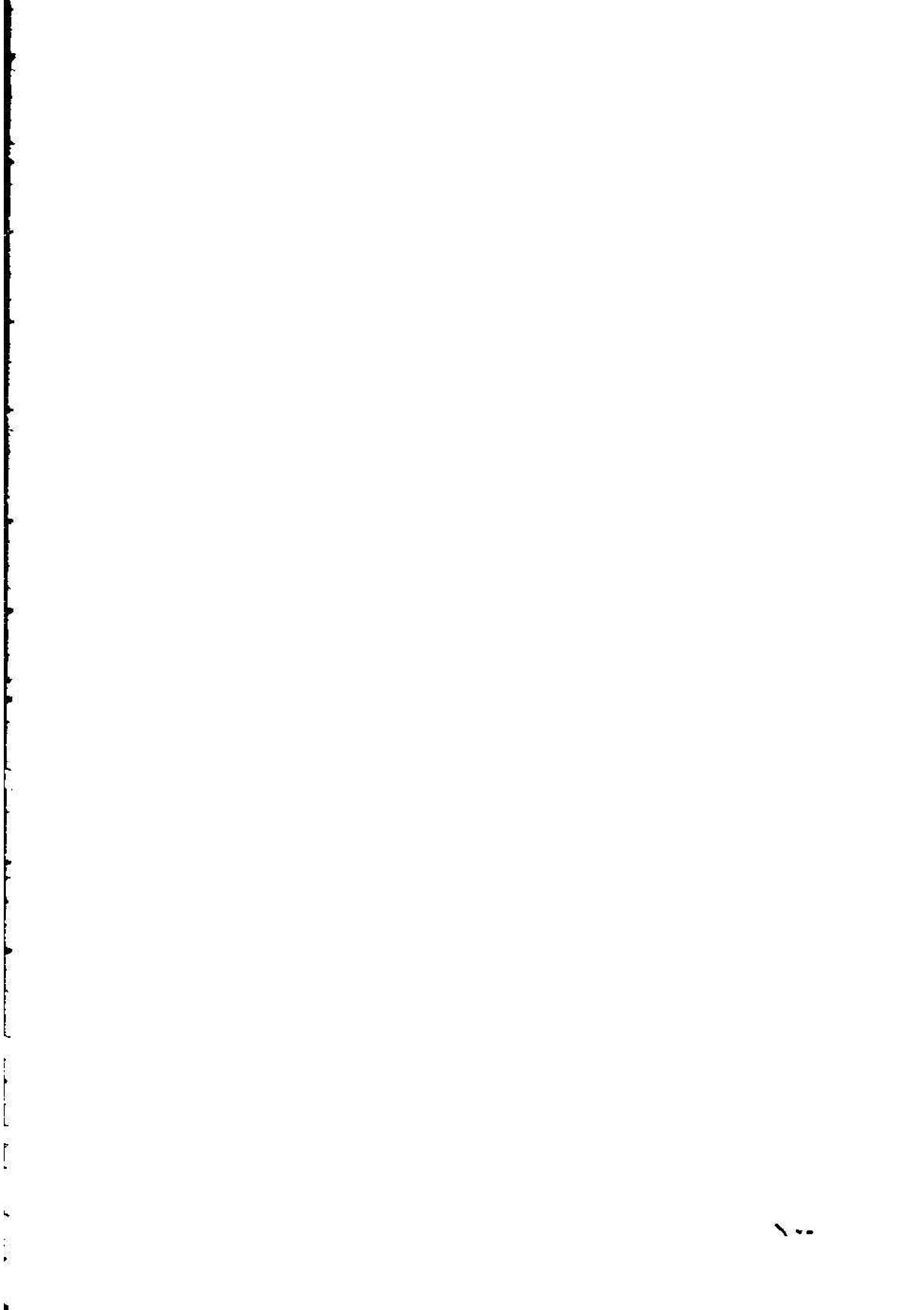
٤ ـ نبوءات كاذبة

٥ ـ أبو عبدالله البخاري

٦ ـ أبو يوسف القاضي

٧ ـ سوق عكاظ لماذا أطلق عليه هذا الإسم

٨ ـ كيف بدأ سوق عكاظ وكيف انتهى



الطبقات العاملة في الإسلام

من أروع مايدهش له متتبع الآثار في الدولة الإسلامية القديمة نشاط الهيئات الدينية في خدمة علومها من سائر الأصناف .

ولا يعوزنا الدليل الملموس على هذا فإن نظرة واحدة إلى كتب التراجم المطولة يضع أيدينا على ألوان من الجهود الجبارة التي كان رجال السلف يبذلونها في سبيل استقرائهم لأحوال رجال الحديث وشرح المميزات التي أهلتهم للرواية والحفظ .

لم يكن سبيل أصحاب التراجم سهلاً ميسوراً فقد انطوى جيل النبوة عن مئات الألوف ممن عاصروا النبي صلى الله عليه وسلم وصحبوه وحفظوا عنه ثم تلتهم مئات الألوف كانوا معنيين بالنقل عمن سبقهم ليبلغوه إلى من خلفهم طبقة بعد طبقة وجيلاً بعد جيل .

فلما ندب أصحاب التراجم أنفسهم فيما بعد لتحري حقيقة المحافظين والناقلين كان عليهم أن يدرسوا أحوال هؤلاء فيضبطوا أنسابهم وتواريخ ميلادهم وأن يعنوا بأحوال كل شخص على حدة عناية تفرز حقائقه العلمية والاخلاقية والعقلية وتعين درجته من الجرح والتعديل ليستوي حكمهم على حقيقة ما نقل أو روي فاقتضاهم ذلك جهوداً عديمة النظير .

كان بعضهم يسهر الليالي الطويلة بين التنقيب والبحث وتكلف بعضهم الأسفار الشاقة بين الأقاليم النائية والبوادي البعيدة سعياً وراء الكشف عن حقائق الرجال من رواة الحديث وتعقيباً على خلة سمعوها عن أحدهم لها قيمتها في تجريحه أو تعديله .

تلك مشاق لم يسبقوا إليها في تأريخ الأمم وهي عناية لم تثبت لغيرهم في جميع الأديان والنحل .

استطاع المجدون من هذا النوع بما بذلوا من راحتهم وأوقاتهم أن يغربلوا ما تناقل إليهم من ألوان الأحاديث المروية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم غربلة تعزز في درجاتها وتعطيها قيمتها من الصحة فابتكروا لها من الألقاب والكنى ما يعين حقيقتها فمن حديث صحيح إلى حسن إلى مرسل إلى غير ذلك من ألقاب تواضعوا عليها ليتفقوا على درجاتها من الكمال .

وتصدى بعضهم لأكثر من هذا فتعقبوا الأحاديث المختلفة وتفننوا في دراسة وجوه النقص فيها وبذلوا الكثير في استقصاء رواتها واستقراء مواطن الضعف فيهم وإعلان ذلك في براءة ووضوح أفادت المشتغلين بعلم الحديث وساعدتهم على تصنيف الجيد والرديء .

وجاء المجدون من رجال اللغة العربية يتقفون آثار رجال الحديث ويقلدونهم في استقصاء رواة مفردات اللغة ويغربلون رواياتها ويبحثون عن رجال السند المتصل في الرواية الواحدة سعياً وراء الكشف عن حقيقة الناقل وتعيين درجته من الجرح أو التعديل .

كان المعنيون بهذا لا يبخلون بجهودهم في سبيل فنهم فرحل أكثرهم إلى الأطراف البعيدة في البادية وتوغلوا إلى منازل العرب على حدود الصحراء ليناقشوهم في كلمة مفردة أو لفظ مركب وكانوا يتعقبون رواة الشعر مهما نأت بلادهم ليحققوا أصول المفردات ويبحثوا عن رجال السند من رواتها كما فعل أصحاب الحديث .

وأغرم الخلفاء والأمراء بهذا اللون من الفن فكانوا يكلفون روادهم أو عمالهم أن ينقلوا إليهم أخبار الرواة أو يرحلوا إلى عواصمهم شخصاً بعينه إذا ظنوه مصدراً لرواية بيت من الشعر أو كلمة من مفردات اللغة فيطوي الرواية آلاف الأميال تلبية لنداء الخليفة وسخاء بما عنده من منقول وكانت العطايا تجزل لهؤلاء الملبين في أرقام خيالية تدل على مبلغ عناية الخلفاء بمركز اللغة العربية منهم .

وحذا عشاق النحو حذو هؤلاء وأولئكم فصنفوا انفسهم في مذاهب قلدوا فيها البصريين أوالكوفيين أو غيرهم من أعلام النحو وراحوا في سبيل ذلك يتبارون فكانت كل طريقة تؤيد مذهبها وكل مذهب يأبى إلا أن يحقق قواعد ما رأى مستنداً على ما نقله من ثقاة العرب وما درسه من قواعد لسانهم ولم يدخروا جهداً في سبيل ما تعشقوا فقد ساهر بعضهم نجوم الليل مكباً على ما جمعه من فنون القول ونشط بعضهم للسعي وراء ما يحقق من أطراف الجزيرة إلى أطرافها .

ومضى الفقهاء بعد هذا مضي رجال الحديث واللغة والنحو فكرسوا جهودهم لاستنباط أمهات المسائل من الكتاب والسنة واضطرتهم مذاهب التفسير لما استنبطوا أن يتعقبوا رجال اللغة وأصحاب القول من النحويين ليستنتجوا ما يصح استنتاجه عندهم و يبينوا ما أدى إليه اجتهادهم على أسس صحيحة من لغة العرب وقواعدهم في الإعراب حتى برز منهم الفقهاء الأفذاذ والقضاة اللامعون وأصحاب التحقيق العلمي من مختلف الطبقات .

واتسعت آفاق النشاط في هذه الحقبة الطويلة من تأريخ الإسلام فامتدت عدواه إلى رجال المغازي والسير ومؤلفي التأريخ ورواة القصص من يجود بنفسه و يتبرع براحته في سبيل دراسة غزوة عن غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم أو تحقيق حالة من حالاتها تتعلق بتحقيق موقعها الجغرافي أو التأريخي وقد يتسع نشاطه فيأبى إلا أن يتعقب أسماء المشهورين من رجالها أو فرسانها فيترجم حياتهم و يسرد أنسابهم و يدرس مواطن القوة أو الضعف فيهم ثم يعلق على هذا بما تراءى له من أسباب وما ترتب على ذلك من نتائج .

و يتسع النشاط إلى أبعد من هذا فإذا أصحابها الرحالون من جوابي الآفاق يتأبطون كراريسهم و ينيطون محابرهم وأقلامهم إلى مواقع النطاق من أوساطهم ليسيحوا في أقاليم الأرض من مشرقها إلى مغربها ويطئوا قاراتها وأقسامها من التخوم إلى التخوم ليدرسوا أصول البشر وأنواعها وألوانها ولغاتها و يتعرفوا عاداتها ودياناتها وطرائق حياتها ثم يسجلوا ما شاهدوه في فصول مبوبة لها قيمتها إلى اليوم عند علماء الجغرافيا وأساطين التاريخ ورجال البحث من المتخصصين في علوم الإجتماع .

وتمتد عدوى النشاط إلى طبقات أخرى من صفوف المسلمين فإذا بينهم من رجال الفلك من يعتد بجهوده في أحدث بيئة فلكية تعيش اليوم بيننا ، وإذا بينهم من رجال التنجيم من ترك آثاراً لا يضاهيها مثلها ، و بينهم من رجال الهندسة من شهدت قواعده بكعبه العالي ، و بينهم من رجال الطب والصيدلة من بز أساتذته من اليونان والفرس وأدخل على ما ورث من مذاهب الطب طرائق لا يصدقها عقل .

و بينهم من رجال الوزارة والكتابة والحساب من تفنن وأتقن واخترع من وسائل الفكر والخيال والإبداع ما تدل عليه مخلفاتهم وتشهد به آثار أقلامهم .

لسنا عظاميين نريد أن نتكل على فخارنا بأمثال هؤلاء الأجداد فتلك خلال العاجزين .. إنما نحن هنا لنثير أمثال هذه الذكريات أملاً في أن تشحذ الهمم ونهيئها للعمل فيما يليق بها على ضوء هذا المجد الأثيل .

إننا هنا لنقنع الجاحدين ممن تنكروا لآبائهم وجهلوا حظ أسلافهم من ألوان المجد وحسبوا أن أمتهم لا تملك من المؤهلات ما يعدها لمواجهة الحياة التي يعيشها معاصرونا اليوم .

إننا نريد أن نقول لأمثال هؤلاء إن أرضاً أنبتت قبل اليوم أمثال هؤلاء الرواد لا يمكن أن تبخل اليوم بأمثالهم إذا صدقت العزائم وصحت النوايا .

إننا لا نبدع جديداً ونحن نتطلع إلى حياة أفضل فقد أثبتت تجارب القدامى من أمتنا أن في خلالنا ما يهيئنا لأفضل ألوان الحياة وأسعدها .

صلاح الدين الأيوبي

حديثنا الليلة يتناول سيرة بطل من عظماء الأبطال في الإسلام بدأ حياته مجنداً في خدمة إحدى دويلات الإسلام ثم ما لبث أن برز بين صفوف المجاهدين واستطاع بعد لأي أن يبني لنفسه عرشاً يسيطر على أهم عواصم الإسلام في بلاد المشرق العربي .

ذلك هو صلاح الدين الأيوبي الذي بدأ خدمته في جيش الدولة الزنكية تحت قيادة أخيه أسد الدين . وكان الزنكيون قد أرسلوا جيشهم إلى مصر ليساعد الفاطميين على رد عدوان الصليبيين فأبلى الجيش في الدفاع عن مصر بلاء حسناً واستطاع صلاح الدين تحت قيادة أخيه أن يترك أثراً في أعمال الدفاع .

ورأى الخليفة الفاطمي العاضد وهو آخر الخلفاء الفاطميين في مصر أن يستعين بكفاءة أسد الدين وأخيه صلاح الدين فاستوزر الأول واستفاد من خبرته وعندما عاجلته المنون وضع ثقته في صلاح الدين وأضاف إليه جميع أعمال الوزارة .

ونشط صلاح الدين لأعمال الوزارة واستطاع أن يبسط نفوذه قوياً على مهامها وأن يملك ثقة أصحاب الحل والعقد في مصر فنادوا به ملكاً على البلاد و بذلك تأسست دولته الأيوبية على أنقاض الحكم الفاطمي في مصر عام ٥٦٧ الهجري .

على أثر هذا تفرغ صلاح الدين لتوطيد الحكم في مصر بعد أن أرهقته الفوضى واستطاع أن يستميل المناوئين بما أشاعه من ألوان العدل وأن يعقد القلوب على حبه في إجماع قليل لنظير . ثم شرع ينظم شئون الدفاع و ينشيء الحصون و يدعم الأسطول البحري و يخدم الثقافة في سائر أنواعها .

ثم ما لبث أن تخطى نفوذه حدود مصر فأشرف على بلاد الحرمين ودانت له أكثر بقاع الشمال وشمل حكمه جزءاً كبيراً من بلاد الأرمن .

وكان الصليبيون يعيثون في بلاد الشرق فساداً و يملكون ما يستضعفون من مدنه بعد أن استغلوا فرصة تخاذل الدويلات الإسلامية في الشرق العربي فعقد صلاح الدين عزمه على التصدي لحملاتهم وإجلائهم عن الممتلكات الإسلامية التي استطاعوا احتلالها وإذلال أهليها .

وحملة الصليبيين على بلاد المشرق العربي فاجعة لا يجهل أهوالها مطلع على تاريخ الإسلام فقد تواطأ دعاة المسيحية في أكثر ممالك الغرب على مهاجمة المسلمين واحتلال بلادهم فأبلت جيوش المسلمين في دفاعهم إلى الغاية التي تهيأ لهم فيها البلاء ولم تستطع أن تحرز النصر حتى دعم الدفاع صلاح الدين الأيوبي بما هيأ لجيوش المسلمين من أسباب الظفر .

يذكر المؤرخون في أسباب تألب دول أوربا على الإسلام أن بعض المتنطعين من السلاجقة أساءوا بعض الإساءة إلى حجاج بيت المقدس من النصارى وكان في الإمكان علاج أمثال هذه الإساءات علاجاً فردياً ولكن المسيحيين في أوربا رأوا أن يستغلوا الفرصة للتألب على ممالك الإسلام واحتلال أراضيها فاستنفروا بذلك راهباً فرنسياً يدعى بطرس الناسك وكلفوه أن يطوف ممالك أوربا للدعوة إلى التألب على المسلمين في صور تلهب الحماس وأن هذا الراهب استطاع أن يجمع الممالك في أوربا على حرب المسلمين فاندفعت جيوشهم من كل صوب تسيل إلى بلاد الشرق فعاثوا فساداً في كثير من المدن واحتلوا من أراضيه بلاداً شاسعة .

ولم يتوان المسلمون في الدفاع عن ممالكهم ولكن انقسامهم إلى طوائف ودويلات متنافرة ساعد العدو على ما أحرزه من النصر في جولاته الأولى .

وقد دامت الفتن بين الشرق والغرب من عام ٤٨٩ هجرية إلى عام ٦٦٩ نحواً من (١٨٠) سنة كاد الغرب فيها أن يحتل سائر بلاد الشرق العربي لولا جهود المبرزين من أبطاله .

وكانت أبرز الجهود الفعالة في هزيمة الصليبيين وأبعدها أثراً في انكسارهم هي جهود بطلنا الشاب صلاح الدين الأيوبي في أواخر القرن السادس الهجري .

نذر صلاح الدين نفسه لصد هجمات الصليبيين فأعد قواه في جيوش عظيمة سيرها إلى حدود الشام فاشتبكت مع الأعداء في مواقع حامية الوطيس كان من أشهرها واقعة حطين التي أحرز فيها النصر الباهر واستطاع أن يأسر فيها قائدهم الأعلى .
ثم توالت حروبه الظافرة فاستخلص عكا والرملة ويافا وبيروت وفتح بلاد القدس بعد أن قضى على جيوش الأعداء فيها واتصلت أنباء فتوحاته بملوك أوربا فثار ثائرهم وقام دعاتهم في كل صقع يستأنفون إثارة النفوس على ما نال جيوشهم من هزائم ومشت الرسل بين ملوك بريطانيا وفرنسا وألمانيا وامبراطور الرومان فاجتمعت كلمتهم على توحيد القوى وتجنيد الجيوش فانثال المحاربون من قلب أوربا وأطرافها في جيوش جرارة واتفق ملوكهم على البذل السخي الذي يهيىء المحاربين لخوض المعارك الدامية ويضمن لهم الظفر على جيوش الأيوبيين .

وقد جالد صلاح الدين في رد عدوان الغزاة واستبسلت جيوشه في جميع المواقع التي حوصرت فيها فقد امتد الحصار في بعض البلاد إلى أكثر من عامين قاسى الجند في خلالها من أهوال الحرب ما لا يحتمله جلد ومع هذا لم يظفر الصليبيون بما يتكافأ مع القوى التي حشدوها لهزيمة الإسلام في شخص صلاح الدين الأيوبي .

وانقشع الغبار بعد أهوال كابدها المغيرون والمدافعون على السواء انقشع عن صلح أقر المسلمين في حكم بيت المقدس إلى جانب حكمهم في كثير من بلاد الساحل لقاء تأمين طريق حجاج النصارى إلى المقدس .

و بذلك أضيف صلاح الدين الأيوبي إلى قائمة الأبطال في الإسلام وخلد التاريخ اسمه إلى جانب أمثاله من الأفذاذ .

أبو عبدالله البخاري

إذا افتخرت الأمم بالعاملين من رجالها الممتازين ففي تاريخ الإسلام من رجال العلم من تجلّ جهودهم عن الوصف وتسمو مراتبهم فوق كل افتخار .

يحدثنا تاريخ الإسلام عن أمجاد أبي عبدالله محمد بن اسماعيل البخاري فتتولانا الدهشة ويستثيرنا العجب لهذه المواهب التي استطاعت أن تحشد قواها وتركز جهودها نحو الهدف الذي اختارت حتى استطاعت أن تبرز فيه بتفوق نادر المثال قليل الشبه .

درج أبو عبدالله البخاري بين أقرانه الدارجين في الكتاب ولكنه ما كاد يناهز عامه الحادي عشر حتى بدت طلائع تفوقه تتراءى للفقية فقد ذكروا أن مراجعته لما يقرره الفقيه كانت مثاراً للعجب .

وضاق به الكتاب في سن مبكرة فألحقوه بحلقات العلم فشرع ينهل من منابعه بين طبقات العلماء وذاعت شهرته بين الطلاب والعلماء .

ذكروا أنه عندما بلغ السابعة كان بعض جلة الشيوخ يسمعون عنه وأنه بدأ يؤلف تاريخه المشهور قبل أن يتجاوز الثامنة عشرة .

ونزعت نفسه إلى السياحة على أثر هذا طلباً للعلم وسعياً وراء المعروفين من كبار المحدثين فزار أكثر الأمصار الإسلامية وتغلغل في مدن العراق و بلاد العجم والشام والحجاز ومصر فاتسعت آفاقه واجتمعت له مئات الألوف من الأحاديث التي سمعها مشافهة من أشهر المحدثين في عصره .

وكان يعاني في سياحته من شظف العيش وضيق ذات اليد ما لا يقوى على احتماله شخص عادي ولكنه إنسان وهب نفسه وآلى عليها إلا أن يثابر فلم يضايقه ما عانى من الشدة ولم يثنه ما لاقاه من الضيق .

قيل إن زملاءه من الطلبة افتقدوه أياماً فأخذوا يبحثون عنه حتى وجدوه في بيت وهو عريان وقد نفد ما عنده ولم يبق معه شيء فاتفقوا على جمع الدراهم حتى اشتروا له ثوباً يكسوه و بذلك استأنف كتابة الحديث معهم .

ومضى به كده حتى استوى في عصره من كبار الأعلام فقد تتلمذ له مئات الألوف من طلبة العلم وقصد مجلسه من أجلة العلماء من لا يوفيهم الحصر وجلس بين يديه الإمام مسلم صاحب الصحيح جلسة السائل المتعلم وقد عدّ من سمع الحديث عنه بنحو تسعين ألف رجل وكانوا يتهيبون مجلسه و يتطامنون في حضرته كأنما يظلهم جبل شامخ .

و بلغ في انشغاله فيما كرس لهنفسه أنه ظل حياته لا يأبه لشيء من أمور دنياه ومعاشه فقد ذكروا أنه لم يشتر شيئاً في حياته ولم يبع وأن أدواته من الكاغد والحبر والقلم كان يلتمس غيره في قضائها حرصاً على ثمين وقته وضناً بدقائقه الغالية .

و بلغ من انشغاله بفنه المفضل أنه كان لا ينام الليل إلا لماماً وقد شهد من رآه أنه كان يستيقظ في الليلة الواحدة بضع عشرة مرة فيوقد السراج و يبدأ في الكتابة والتدوين .

وقد أخرج صحيحه المشهور بصحيح البخاري من ستمائة ألف حديث وكان لا يدون الحديث الواحد إلا إذا اغتسل وصلى ركعتين .. وذكر عن نفسه أنه كتب عن أكثر من ألف شيخ كان أكثرهم بالغ الثقة رفيع المقام .

و بلغ تقدير الناس لفضله أنه كان لا يهبط حواضر الأمصار حتى يتنادى الناس بمقدمه وكان لا يمر بقرية أو دسكرة حتى يسبقه صيته إلى جميع القرى المجاورة فتنثال الجماهير من كل صوب ظامئة إلى رؤيته والإستماع إلى روايته حتى إن مجالسه في الحواضر و بين مجامع القرى كانت تزيد عن عشرين ألف مستمع .

وكان أهل المعرفة في أكثر الأمصار التي ينزلها يتعقبونه في الطرق و يعدون خلفه حتى يجلسونه كرهاً ليملي عليهم مما حفظ من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفي القصة التالية تبدو لنا مواهب أبي عبدالله البخاري جلية واضحة وترتسم أمامنا صورة ناطقة لنبوغه النادر ومقدرته الفائقة .

يقول ابن عدى سمعت عدة مشايخ يحكون أن محمد بن اسماعيل البخاري قدم بغداد فسمع به أصحاب الحديث فتآمر بعضهم على امتحانه في أسلوب شاذ لا ينجح فيه إلا موهوب له مثل كفاءة أبي اسماعيل وقدرته الفائقة .

ذلك أن جماعة عمدوا إلى مائة حديث فقلبوا متونها وأسانيدها فجعلوا متن هذا الإسناد لإسناد آخر وإسناد هذا المتن لمتن آخر ودفعوه إلى عشرة رجال لكل رجل منهم عشرة أحاديث وأمروهم

إذا حضروا مجلس البخاري أن يلقوها عليه ليمتحنوا بذلك معرفته و يميزوا خبرته .

و بذلك طلبوا إليه أن يوافيهم إلى مجلس اتفقوا على موعده فلما حضروا اطمأن المجتمعون وكانوا خلقاً كثيراً بينهم كبار رجال الحديث من أهل بغداد وخراسان و بعض الأمصار الأخرى تقدم إليه أحد العشرة فسأله عن الحديث المتفق على تغيير سنده فقال البخاري لا أعرفه فابتدره الثاني بمثل ما فعل الأول فقال البخاري لا أعرفه فأعقبه الثالث والرابع إلى نهاية الرجل العاشر في مثل الطريقة التي ابتدره بها الأولون فلم يخرج البخاري عن قوله لا أعرف .

وعندما ظهر له أنهم قد فرغوا التفت البخاري إلى السائل الأول فصحح له إسناد حديثه وفعل مثل ذلك للرجل الثاني والثالث ولم يترك عشرتهم حتى رد إلى كل متن سنده وإلى كل إسناد متنه . فاستولت الدهشة على جميع الحاضرين وأقروا له بقوة الحفظ وكمال الفضل .

ولم يكتف حساد البخاري بهذا فقد كان معرضاً في أكثر مجالسه لعنت المناضلين وقسوة المناظرين وعناد الممتحنين ولكنه كان دائم الظفر لم يخنه النجاح في أشد المواقف حرجاً ولم يستطع مناوئوه أن ينالوا من مكانته أو يبلغوا غايتهم من كفاءته الفذة ومقامه الممتاز .

بعد صيت الشيخ على أثر هذا النجاح المطرد وظفر بثقة عامة قلما ظفر بها مثله من شيوخ المسلمين وشرع طلاب العلم يحجون إليه من مصر إلى مصر و يتبعون أخبار تنقلاته بين ممالك الإسلام ليشدوا رحالهم إلى حيث توجه أو ينتظرون وصوله حيث نوى .

كانوا يلقبونه أمير المؤمنين في حديث سيد المرسلين ولكن أمراء المؤمنين من جميع الأنواع في عصره كانوا لا يظفرون بالنتيجة التي يظفر بها البخاري ولا يقابلون أينما رحلوا بالحفاوة التي كان البخاري يقابل بها كلما ألقى عصا تسياره في بلد أو مصر وكان مع هذه الحفاوة يأبى أن يطمع إلى ما في أيدي الناس أو يتقرب إلى وجهائهم من أصحاب السلطان أو أرباب الغنى في تزلف يعود عليه بالنفع أو يضمن له الفائدة .

كان يقتنع من أسباب الحياة باليسير السهل ولا يتكلف في دنياه إلا ما يحفظ عليه مروءته ودينه .

وعندما بلغ الغاية من الشأو الذي يتمناه كل طامح كان لا يستنكف أن يجالس صغار المنتفعين بعلمه ولا يبخل بما يعرف على كل مستفيد مهما قل شأنه أو تضاءلت منزلته .

وقد ترك شظف العيش الذي قاساه في باكورة حياته أثراً في أخلاقه العامة فقد ذكروا أنه

عاش بقية حياته يحدب على الضعفاء ويساعد طلاب العلم ولا يبخل على أصحاب الحاجات بما يعينهم على قضاء مآربهم .

ولم يفتر عزمه عن طلب المعرفة حتى في أيامه الأخيرة فقد كان كثير الدأب طويل السهر واسع الإطلاع وكان يلتمس المعرفة مهما بعد طلابها أو صعبت وسيلتها وكان يبلغه أمر الحديث فيشد رحله إلى أقصى البلاد ليلقي راويه فيسمع عنه وكان تحقيق الأسانيد ربما كلفه أسفاراً طويلة . وجهداً شاقاً فلا يبالي في سبيل ذلك مشقة ولا يثنيه جهد .

ومات رحمه الله بعد أن ورث المسلمين في جميع أصقاع الأرض ذخائر قلما يطاولها شبيه ماثله في صحيحه المشهور بين سائر طبقات المسلمين .

من أبطال علماء الإسلام

ونمضي في ذكر الأبطال من رجال المجد العلمي الذي خلدوا أسماءهم في تاريخ الإسلام بأروع ما تخلد به أمجاد العلم .

كان أبو يوسف القاضي من نوابغ الفقه الإسلامي في عهده ومع هذا فقد قيل إن الفقه كان أقل علومه .

كان رحمه الله يحفظ التفسير والمغازي وأيام العرب وكان حجة في الإستنباط والمقارنة وكان الفقهاء ولا يزالون إلى يومنا هذا يعرفون أنه لا تكاد توجد مسأله من مسائل الفقه في جميع أبوابه ليس لأبي يوسف رأي فيها .

استقضاه الرشيد العباسي وليس من يجهل براعة الرشيد في انتقاء قضاته وقد أثبتت الأيام صدق هذه البراعة فإن أبا يوسف ما كاد يباشر أعمال القضاء حتى أبدى تفوقاً عديم النظير وحتى استطاع أن يبرهن على كفاءة نادرة المثال .

وعندما واجهت الرشيد ألوان من مشاكل الحكم اقتضاها تطور الحياة في عصر الإسلام الذهبي نفر الرشيد كنانته فلم يجد من يعتد به في الأزمات المعقدة غير أبي يوسف .

جند أبو يوسف مواهبه لخدمة التشريع الإسلامي واستطاع أن يستنبط الأحكام لجميع المشاكل التي وجدت في محيط المسلمين وأن يرتب أعمال القضاء و يبوب أحكامه في نظام شمل جميع المرافق بدون استثناء .

استطاع أبو يوسف أن يستمد جميع أحكامه من الكتاب والسنة وأن ينال بما فعل إعجاب الرشيد الذي أولاه ثقته وجعل إليه رئاسة القضاة في مملكة الإسلام الواسعة .

كان أبو يوسف معروفاً بنباهة الرأي وحضور البديهة وقوة الحجة وقد شهد له معاصروه بالتفوق في فنون المناظرة فذكروا أن جميع المجالس التي اتفقت على مناظرته كانت تعترف بمهارته وتفوقه .

يقول ابن عمارة إنه رأى أبا يوسف يناظر زفر في إحدى مسائل الفقه بين يدي أبي حنيفة وقد طال مجلسهما من طلوع الشمس إلى أن نودي بالظهر فلم يظفر زفر بشيء أمام أبي يوسف ولما انتهى المجلس ضرب أبو حنيفة على فخذ زفر وقال لا تطمع في الرياسة بأرض يكون بها أبو يوسف .

وخلد التأريخ الإسلامي بين أصحاب المجد من العلماء الذي خلد أسماءهم إبراهيم النجفي فقيه الكوفة فقد ذكروا أن رئاسة العلم في الكوفة انتهت إلى النجفي .

ومن أروع ما عرف عنه أنه برز في مسائل الفقه على أساتذته وهو لم يتجاوز الثامنة عشرة وفاضت شهرته بعد العشرين فكان لا يخلوا كتاب من كتب العلوم الإسلامية من ذكر اسمه وكان مع هذا يتوقى الشهرة و يحاول ألآ يظهر حيث يحتشد الناس لانتظاره تواضعاً منه وهو يعلم أنه مهاب الطلعة .

ومن علماء الإسلام الذي فاضت شهرتهم وتركوا آثارهم مشرقة بين ثنايا تأريخ الإسلام إياس بن معاوية قاضي البصرة .

وكان من فحول العلماء وكانوا يقولون عنه إنه كفي بالرأي متانة أن ينسب إلى إياس وكفى بالقضاء حقاً أن يكون قضاء أياس .

وكان ولاة الأمر يحاولونه ليتولى القضاء اعتماداً على كفاءته المعروفة ونباهة ذكره عندهم ولكنه كان يستعصي على جميع المحاولات حتى كتب الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى واليه على العراق أن اجمع بين إياس بن معاوية والقاسم بن ربيعة الجرشي فول قضاء البصرة أنفذهما فلما جمع بينهما قال إياس للأمير سل عني وعن القاسم فقيهي المصر الحسن البصري ومحمد بن سيرين لتقع على حقيقة الأمر بيننا

كان إياس يعرف أن صنوه القاسم يختلف إلى فقيهي المصر ابن سيرين والبصري فقدر أن شهادتها مضمونة لمن يعرفان وأنه بحكم قلة اتصاله بهما لا يحكمان له فأدرك القاسم مرمى إياس وخاف أن يمتحن بالقضاء إذا شهد له ابن سيرين والبصري فقال للأمير لا تسأل عني ولا عنه فوالله الذي لا إله إلا هو إن إياس بن معاوية أفقه مني وأعلم بالقضاء فإن كنت كاذب فما يحل لك أن تولينى وأنا كاذب وإن كنت صادقاً فينبغي لك أن تقبل قولي . فقال إياس للأمير إنك جئت برجل أوقفته على شفير جهنم فنجى نفسه منها بيمين كاذبة يستغفر الله منها و ينجو مما يخاف فقال الأمير لإياس أما إذ فهمتها فأنت لها واستقضاه بعد أن أباحه حرية القضاء من غير أن يعقب عليه معقب أو يستأنف أحكامه بحال .

وأثبت إياس في مباشرته للقضاء ألواناً من الذكاء نادرة المثال واستطاع أن ينفذ إلى أعمق القضايا المعقدة بحكمة قلما تيسرت لغيره .

وإذا أردنا أن نمضي في سرد أبطالنا من رجال المجد العلمي في الإسلام فلدينا الواقدي وقد عرف أنه من أعلم الناس بأمور الإسلام وقد كان يقول عن نفسه ما أدركت رجلاً من أبناء الصحابة وأبناء الشهداء ولا مواليهم إلا سألته هل سمعت أحداً من أهلك يخبرك عن مشهده وأين قتل فإذا أعلمني مضيت إلى الموقع فأعاينه .

وكانوا يذكرون أن للواقدي ستمائة قطر كتباً ومع هذا فقد قيل إنه كان يقول ما من أحد إلا وكتبه أكثر من حفظه وحفظي أكثر من كتبي .

واتصل الواقدي بالمأمون العباسي فقدر المأمون علمه وعرف له مكانته ولكن الواقدي كان يتحاشى أن تغمره صلات المأمون .

فلما علته الديون اضطر إلى الكتابة إلى المأمون في ذلك فوقع المأمون على ظهر رقعته يقول : فيك خلتان السخاء والحياء فأما السخاء فهو الذي أطلق ما ملكت وأما الحياء فهو الذي منعك من إطلاعنا على ما أنت عليه وقد أمرنا بكذا وكذا فإن كنا أصبنا إرادتك في بسط يدك فإن خزائن الله مفتوحة .. وأنت كنت حدثتني وأنت على قضاء الرشيد عن محمد بن إسحاق عن الزهري عن أنس بن مالك .. أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للزبير : يا زبير إن باب الرزق مفتوح بباب العرش ينزل الله على العباد أرزاقهم على قدر نفقاتهم فمن قلل قلل له ومن كثر كثر له .. قال الواقدي وكنت نسيت الحديث فكانت تذكرته إياي أحب إلي مما وصلني به المأمون .

ومن أبطال المجد العلمي أبو علي القالي فقد رووا عنه أنه كان يحفظ ثلثمائة ألف شاهد في القرآن الكريم .. وقيل له قد أكثر الناس في محفوظاتك فكم تحفظ قال أحفظ ثلاثة عشر صندوقاً وقد ألف في غريب الحديث نحو عشرة آلاف ورقة ووضع كتابه شرح الكافي في حوالي ألف ورقة وقبله كتاب الجاهليات عدا جملة من الكتب كانت معروفة إلى عهد طويل بعد العصر الذي عاش فيه .

واشتهر شمس الأئمة السرخسي بدأبه على التأليف وغزارة اطلاعه ومما رووا عنه أنه سجن لجرأته على الولاة فكان يقضي أوقات السجن في إملاء مؤلفاته دون أن يحتاج إلى ما يحتاج إليه غيره من المراجع وبلغ مجموع ما أملاه من كتابه (المبسوط) نحو خمسة عشر مجلداً وقد قال في نهاية شرح العبادات هذا ما أملاه المحبوس عن الجمع والجماعات .

وكان يحيى بن معين من أقطاب العلم المشهورين بالنشاط الفكري فقد ذكر عن نفسه أنه كتب بيده ستمائة ألف حديث وكتب له المحدثون مثلها وترك بعد وفاته مائة قمطر من الكتب .

وكان أبو عمرو المعروف بغلام تغلب أحد المنقطعين للعلم والمبرزين وقد ذكروا أن اشتغاله بالعلم حال دون عنايته بالتكسب فقضى معظم حياته مضيقاً عليه وكان لسعة علمه يملي أكثر تصانيفه من غير أن يحتاج إلى غيره من المراجع كما قيل إنه أملى من حفظه ثلاثين ألف ورقة في اللغة .

سوق عكاظ .. لماذا أطلق عليه هذا الإسم ؟

أترانا نستطيع أن نوفي هذا الشباب في « رعاية الشباب » حقه من التقدير بعدما وصلنا من نهوضه وعلى رأسه سمو الأمير فيصل بن فهد ليقشع الغبار عن تراث عكاظ بعد أن فات علينا ذلك نحن جماعة الشيوخ كما فات على مئات الأجيال قبلنا .

أما أنا فعلى أن أعترف بما نالني من كسوف لما فرطت في جنب الموضوع كفكرة كما أني أعترف أني لو دبجت عشرات الصفحات في تقدير هذا الشباب الناهض وعلى رأسهم الأمير لما وفيت بما يجب عليّ نحوهم .

ودعنا الآن نمضي تجاوباً مع أصحاب عكاظ (الجريدة) لنستعرض بعض ما نعرفه عن عكاظ (السوق) .

تقول اللغة عكظ فاخر ، وتعاكظوا ازدحموا .. إذن فقد كان السوق مزدحماً ولكن فيم هذا الزحام ؟ أكان زحاماً للأدب وفي سبيل الأدب أم كان الأدب طرفاً في هذا الزحام .

الذي يتبادر إلى فهمي أن السوق كان تجارياً قبل أن يكون أي شيء آخر .. كان مجمعاً لقبائل العرب يردونه في طريقهم إلى الحج ليعرضوا ما عندهم من سلع و يستعرضوا ما عند غيرهم .

كان السوق فرصة سنوية يتبادلون فيها منافعهم ويروجون منتوجاتهم ولهذا كان يكثر زحامهم وتتنوع قبائلهم وكان يترتب على هذا الزحام إحتكاك لا بد منه بين القبائل .

وإذا احتكت القبائل تنافرت وتفاخرت وحاولت كل قبيلة أن تبرز أمام الملأ بشيء يميزها فكان الأدب وكان الشعر وكان الخطباء المفوهون .

كانت القبيلة لا تزهو بشيء زهوها بشاعر ينبغ بين خيامها أو فارس يشتهر بسيفه بين تلاعها أو كريم يفيض جوده حتى يملأ الأسماع .

من هنا كان للشعر كيانه الواسع في سوق عكاظ .. كانت الفرصة جد متاحة لكل شاعر

ينبغ في قبيلته فلا تكاد القبيلة تحط رحلها في طرف من جنبات السوق حتى تدفع شاعرها إلى شرف يرتقيه أو ناقة يمتطيها ليصدح بآخر قصيدة بناها وربما بادره في نهايتها صديق أو حليف أو خصيم ليباريه أو يجاريه أو يلاحيه .

ربما اضطرب السوق بمن فيه لكلمة صارخة أو بيت في الشعر ثائر .

ربما اهتزت أعطاف صاحب سيف بثأر فصاح يا للثارات فلمعت السيوف وجردت السمر العوالي .

ولا تستبعد في ثنايا كل هذا أن يهيب بالناس متنسك وعاقل : « أيها الناس اسمعوا وعوا من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آت آت » ثم لا يزال يضرب بعظاته في كل صوب حتى ينفث ما في الصدور فتهدأ الثائرة وينطفىء الوقود وقد يزيد اضطراماً .

وربما نادى في المائجين فتصالح المتخاصمون .

على أن للسوق زوايا ربما لاحت لك فيها نابغة بني ذبيان أو غيره من نقاد الشعر .. يهرع الشاعر الحديث السمعة أو المفاخر إلى إحدى هذه القباب ليمتزبما يقول الناقد في شعره .

إذن هو سوق للتجارة .

سوق للتعاكظ والاحتكاك .

سوق لما يولده الاحتكاك من مباراة .

سوق للمباريات الشعرية والمبادرات القتالية .

سوق للإرشاد والوعظ ، كما هو سوق لتقييم الشاعر ونقده ، كما هو سوق للمباهاة يتجلى فيه سخاء أغنياء العرب وأجوادهم .

أو كل هذا في السوق ولا أكثر ؟

لا .. فالتجمع على هذا النحو من طباعه أن يعطي الفرصة واسعة لأصناف من المؤانسة والمجون والتسالي واللهو بكل أسبابه ولا سيما مجتمع عكاظ لا يهيمن عليه حاكم ولا يحكمه قيد .

وبعد فهل لنا أن نعرف موضع السوق ونحدد موقعه بين باديتنا .

الواقع أن الروايات تختلف في هذا اختلافاً بيناً فمنهم من جعل موقع السوق في عشيرة ومنهم من جعله في وادي الحمد (أو الحمض) ومنهم من قال إنه في وادي عقرب على غير بعيد من الطائف ومنهم من أبعد فادعى أنه على طريق اليمن من الطائف وهو قول لابن رسته صاحب كتاب الأعلاق النفسية .

وحاول الأستاذ حسين هيكل صاحب كتاب (في منزل الوحي) أن يحقق موضع السوق وكان في صحبة فضيلة الشيخ عبد الحميد الحديدي وسعادة الأستاذ صالح القزاز .. أقول وحاولوا تحقيق موضع السوق فتراءى لهم أن تعيينه في قرية السيل الكبير أو السيل الصغير ربما كان أقرب إلى الصحة سيما وأن بدوياً معمراً في السيل الكبير استطاع أن يقودهم إلى أطلال عمارة قديمة ظلت آثارها باقية على غير بعيد من السيل الكبير فاستنتجوا أنها ربما كانت نزلاً لسادة السوق .

أما أنا فقد عشت أميل إلى اعتماد السوق في قرية السيل الكبير دون الصغير لأن أشهر الروايات فيما قرأت كانت تقول أن عكاظ تقع بين نخلة والطائف على مسيرة يوم بالإبل من الطائف .

وإذا كانت نخلة هي « الزيمة » فإن السيل الكبير يقع بينها وبين الطائف وهي على مسيرة يوم بالإبل من الطائف .

ولا نكران في أن السيل الصغير يقع بين نخلة والطائف إلا أن المسيرة بينه وبين الطائف لا تزيد على مسيرة نصف يوم إلى الطائف .

هذا إلى أنّ انفساح الأرض في السيل الكبير قابل كل القبول لاستيعاب أكبر عدد من خيام القبائل مهما توافر عددها ويؤكد لي هذا الميل أن ثمة صخوراً كبيرة مبعثرة في أرض الوادي صالحة في رأيي لأن يتسنمها شعراء السوق ووعاظه أضف إلى هذا جو الوادي المشبّع بالماء فإن سيله لا يكاد ينقطع في أكثر فصول السنة .

إن ميلي إلى هذا لا يزيد عن حدس يصح أن يتحقق غيره إذا توافرت الجهود على البحث والتحري وقامت الأدلة الناصعة على تحديد صحيح .

علينا بعد هذا أن نحدد تاريخ السوق متى بدأ وكيف انتهى وما هي أهم وقائعه وما مدى أثره في مجالي العروبة ولغاتها أو لهجاتها المتفرعة . فإلى عدد قادم .

كيف بدأ سوق عكاظ..
وكيف انتهى؟

أكثر الأقوال على أن عكاظ اتخذت سوقاً عام ٥٤٠ للميلاد أي قبل ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم بسنوات اختلفوا في عددها كما اختلفوا في السنة التي ولد فيها النبي صلوات الله وسلامه عليه .

وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم حضرها أكثر من مرة .. حضرها صبياً وحضرها فتى وحضرها شاباً ورجلاً قبل البعثة و بعدها ومما روي عنه في قصة وفد قبيلة إياد أنه لما قدم عليه الوفد ليعلن إسلام القبيلة سألهم عن قس بن ساعدة الأيادي وكان من وعاظ سوق عكاظ . فقالوا مات يا رسول الله . فقال رسول الله : كأني أنظر إليه بسوق عكاظ على جمل له أورق وهو يتكلم بكلام عليه حلاوة ما أجدني أحفظه فقال أحدهم إني أحفظه يا رسول الله وتلا عليه بعض خطبه في سوق عكاظ .

وشهد النبي صلى الله عليه وسلم في سوق عكاظ حرب الفجار وفيه يقول صلوات الله وسلامه عليه ـ « لقد حضرته مع عمومتي و رميت فيه بأسهم وما أحب أني لم أكن فعلت » .

وحرب الفجار كانت بين قريش وهوازن أرادت هوازن أن تاخذ بثأر قتيل لها قتله البراض بن قيس وكانت عكاظ ميدناً لقتال القبيلتين .. كانوا يضعون أوزا الحرب إذا انتهت أيام السوق ثم يستأنفونها في عام قابل وظل أمرهم على هذا عدة سنوات .

ومن هذا نفهم أن عكاظاً كانت ميداناً للقتال كما كانت سوقاً للتجارة ومجالاً للأدب .

ولقد أثار حرب الفجار عشرات القرائح فشهد السوق إلى سنين طويلة من يتغنى بشعره مفاخراً بما أبلى قومه من صنوف الشجاعة في قصائد ظلت ذكرى لأحداث حرب الفجار إلى عهد طويل .

ومن طرائف خدمات عكاظ الشعرية ما رووه عن النابغة الذبياني وقد وفد عليه حسان بن ثابت والأعشى والخنساء يحتكمون إليه في شعرهم :

قالوا وقد أنشد حسان قصيدته التي مطلعها :

لنا حاضر فعم وباد كأنه　　　شماريخ رضوى عزة وتكرما

وكان منها هذا البيت :

ولدنا بني العنقاء وابن محرق　　　فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما

وأنشده الأعشى قصيدته التي مطلعها :

ما بكاء الكبير بالأطلال　　　وسؤالي وما مرد سؤالي

وكان منها هذا البيت :

إن يعقب يكن غراماً وان　　　يعط جزلا فإنه لا يبالي

ثم أنشدته الخنساء قصيدتها التي مطلعها :

قذى بعينيك أم بالعين عوار　　　أم ذرفت إذ خلت من أهلها الدار

وكان منها هذا البيت :

وإن صخراً لتأتم الهداة به　　　كأنه علم في رأسه نار

فقال لها النابغة لولا أن أبا بصير ـ يعني الأعشى ـ سبقك لقلت إنك أشعر من بالسوق فغضب لذلك حسان فقال له : « أضعفت فخرك . إذ فخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك .

يبدو لنا من هذا مبلغ خدمة السوق للشعر العربي على أن هذه الخدمة اتسع مداها إلى أكثر من هذا .. استطاعت عكاظ أن تقارب بين لهجات قبائل العرب وأن تهذب الحوشي من الألفاظ التي كانت شائعة بين بعض القبائل .

كان شعراء السوق وخطباؤه ووعاظه يتبارون في ابتكار المعاني الراقية ويتخيرون الألفاظ السهلة المسلسلة والتراكيب الرشيقة التي تمس نياط القلب فاستقامت لأهل السوق تعابير مهذبة جزلة ربما استفادت أكثر ما استفادت منها بطون قريش حتى باتت لغتها سائدة بين أكثر قبائل العرب وحسبها فضلاً أن القرآن نزل بلغتها .

وقد استمرت عكاظ على منوالها لا تألوا في خدمة اللغة والأدب إلى أواخر العهد الأموي فقد هاجم مكة في عام ١٢٩ أبو حمزة الخارجي وهو من حضرموت وتذكر بعض الروايات أنه حضرمي من شيعة علي رضي الله عنه يدين بالمذهب العلوي .

كان يتصل بمكة في مواسم الحج عاماً بعد آخر كداعية للعلويين ضد بني أمية وفي مكة لقي عبدالله بن يحي الكندي وكان يدعو لنفسه باسم العلوية فحسن له أن يخرج معه إلى حضرموت . وهناك استطاعا تجنيد جيش كثيف من أنصار العلوية دخلا به مكة بعد قتال مرير . و به مالوا على أطراف مكة وهاجموا عكاظاً في إبان موسمها عام ١٢٩ - فكانت مقتلة تركت أثرها سيئاً في أهل السوق فتفرقوا بدداً وكان ذلك آخر عهد بالسوق ظلت القبائل بعده تتحاشى القرب من السوق .

في هذه الموقعة قتل أبو حمزة و يلقبونه (المختار) بسيوف الجيش الأموي فقد حوصر في وادي القرى ففر إلى مكة ببعض جيشه المهزوم فسبقته خيالة الجيش الأموي .. و بادره بعضهم من جهة المعلاة حتى طوقه آخرون من جهة المعلاة حتى أوقعوا به فأسقط في يده وكانت آخر أيامه .

بهذا عاشت عكاظ نحو ١٧٠ سنة ملتقى العرب . كان موعدهم فيها هلال ذي القعدة يقيمون بها عشرين يوماً ثم تنصرف قبائلهم إلى مجنة يقيمون فيها أسواقهم التجارية . وقل أن يتبارى شعراؤهم فيها . ومجنة بأسفل مكة على بريد منها - كما يقول الأزرقي - والبريد عشرون كيلومتراً تقريباً .

وذو المجاز سوق لهذيل عن يمين الموقف في عرفة على فرسخ من الموقف والفرسخ يوازي ثلثي مساحة البريد .

وقد عفا الزمان على مجنة وذي المجاز ونسي الناس أمرهما على أثر ما حدث في عكاظ .

محاضرات



١ - طرائف من تاريخ مكة
٢ - طرائف من تاريخ جدة
٣ - الرجولة بين خيام العرب
٤ - عبدالله بن الزبير
٥ - أما لهذا الليل من آخر
٦ - منبر المسجد الحرام
٧ - نشأة الأدب في الحجاز
٨ - حضارة الإسلام
٩ - نهضة الإسلام في الأندلس

طرائف من مكة القديمة (١)

حفلت كتب التاريخ بالكثير المثير من حوادث مكة والرائع والطريف من قصصها لنستمتع ببعض ما ذخرت به هذه الكتب للعظة .. والذكرى ولترويح النفس .

حديث الدرامية مع معاوية :

ما أحلى أن نبدأ قصصنا بحديث (الدرامية) سيدة من بني كنانة كانت تنزل الحجون ... وأي حجون هو ؟ .. إنه الحجون الإسلامي ولا نزال نطلق عليه إلى اليوم إسم الحجون الأصلي في عهد العرب الأوائل فهو الجبل المطل على برحة الرشيدي في الجهة المقابلة لمسجد الجن وكان حجوننا اليوم يسمى عندهم ثنية المدنيين .

ونعود بعد هذا إلى السيدة (الدرامية) فقد حج معاوية واشتهى أن يلقاها فجيء إليه بها وكانت سوداء مكتنزة اللحم فقال : ما حالك يا ابنة حام فقالت لست لحام أدعى إنما أنا امرأة من كنانة فقال : هل لي أن أسألك لم أحببت علياً وأغضبت معاوية ؟ .. لم واليت علياً وعاديت معاوية فقالت أوتعفيني فقال لا أعفيك قالت أما إذا أبيت فخذ :

أحببت علياً لعدله في الرعية وقسمه بالسوية وأبغضتك لقتالك من هو أولى بالأمر منك وطلبك ما ليس لك بحق قال : ولذا انتفخ بطنك وعظم ثدياك .. قالت يا هذا بأمك كانت تضرب هذه الأمثال لأبي .. قال يا هذه اربعي فانا لم نقل إلا خيراً ثم قال كيف رأيت علياً . فقالت رأيته لم يفتنه الملك الذي فتنك ولم تشغله النعمة التي شغلتك قال صدقت فهل لك من حاجة قالت وتفعل إذا سألتك قال نعم قالت تعطيني مائة ناقة حمراء فيها فحلها وراعيها قال تصنعين بها ماذا قالت : أغذي بألبانها الصغار وأستحيي بها الكبار وأصلح بها بين العشائر قال فإن أعطيتك ذلك فهل أحل عندك محل علي قالت فتى ولا كمالك قال يا سبحان الله او دونه ثم قال أما والله لو كان علي ما أعطاك ـ منها شيئاً قالت والله ولا وبرة واحدة من مال المسلمين .. فلم يضق صدر معاوية بما سمع فقد ضحك وأمر بها بما سألت .

حدثت هذه القصة في المسعى :

وقصة الرشيد مع عبدالله بن عمر بن عبد العزيز في المسعى لا تقل روعة عن قصة الدرامية

فقد صاح بالرشيد وهو يمضي إلى الصفا يا هارون .. فقال لبيك يا عم .. قال ارق إلى الصفا فلما رقي قال إعلم أن كل واحد من هذه الخلائق يحاسب عن خاصة نفسه وأما أنت وحدك فتسأل عنهم أجمعين فبكى هارون بكاءً شديداً ثم قال له : وأخرى أقولها لك إن الرجل إذا أساء التصرف في ماله حجر عليه فكيف بك وأنت تسرف في أموال المسلمين وتسيء التصرف فيها وأنت محاسب عليها بين يدي الله فازداد بكاؤه . وأراد جنده أن يطردوه فكفهم عنه .

أبو الفتوح شريف مكة في أوائل القرن الرابع الهجري :

ذكروا أنه كان يتمتع بقوة نادرة كما أن له أختاً تضاهيه في ذلك و يروون أن من غرائب ما صح عن ذلك أن أخته أرسلت إليه ببعض الدراهم ليشتري لها شيئاً من الحنطة فأخذ الدراهم وفركها بين يديه فامحى رسمها ثم بعث إليها الحنطة مصحوبة بالدراهم ليوهمها أن دراهمها زائفة فأدركت النكتة في ذلك فعمدت إلى قبضة من الحنطة وفركتها حتى صيرتها دقيقاً ثم أرسلت بها إليه تقول إن هذه الحنطة لا تصلح فكانت بليغة في ردها كما كانت نادرة مثله في فرط قوتها .

أم الحسين :

ومن روائع ما يعجبني من مواقف السيدات العربيات في التاريخ موقف أم الحسين بن علي بن قتادة ..

كانت أمه سوداء قيل أنها حبشية وكانت معروفة بالبيان مشهورة بالبسالة وأصالة الرأي .. ذكروا أن الحسين ابنها وكان يتولى إمارة مكة في منتصف القرن السابع الهجري ساقته الظروف إلى موقف حربي حرج وكأن سنه لا يزيد على الثامنة عشرة فخافت أن يخور أو يتراجع إذا تأزم الموقف فمضت في هودجها تسرع السير الجاد حتى أدركته فقالت يا بني إنك تقف اليوم موقفاً إن ظفرت به قال الناس ظفر ابن بنت رسول الله وإن فشلت قالوا فشل ابن الأمة السوداء فانظر لنفسك فإنه لا موت قبل فراغ العمر فكان ذلك من أسباب ظفره في الموقعة .

وفي ذلك ما يذكرنا بروعة موقف أم الزبير من ابنها وهي قصة يمنعنا من سردها أنها رائعة مشهورة .

كيف كان المكيون يحتفلون بعمرة رجب :

ومن طرائف ما يذكره ابن جبير احتفال المكيين بعمرة رجب في القرن السادس ـ الهجري فهو يقول : إنه رآهم ليلة رجب يحتفلون بالعمرة فيخرج النساء إليها بالهوادج تسيل بها أباطح مكة حتى لا يبقى في مكة من أهلها إلا من خرج للعمرة وقد زينت الهوادج بقلائد من الحرير

الفلفل في مكة :

ومن طرائف ما قرأت في تاريخ مكة قصة الفلفل فقد ذكروا أنه عز وجوده في مكة عام ٨١٥ هـ كما عز، وجوده في مصر وأن صاحب مصر أرسل يطلب شراءه من مكة فصدر له ما يطلبه بسعر غريب ذلك أن وسق البعير بلغ ثمنه نحو عشرين ومائتي مثقال من الذهب .. ماكانت مكة تزرع الفلفل ولكنه كان يردها من الهند طبعاً ولم تكن هناك بواخر فكان طريق الفلفل يطول في سفر المركب إلى جدة فلم لا يبلغ هذا السعر .

النقود في مكة :

ومما يذكر لتاريخ مكة أن مكة استطاعت في فترة من الزمن أن تطبع نقودها على مطبعة خاصة بها في مكة أنشأها لها أميرها علي بن عنان في ٨٢٧ هـ ولم يذكر التاريخ شيئاً عما آلت إليه المطبعة وكيف أمحت آثارها .

بركات بن حسن :

ومن طريف مايروون في ترجمة بركات بن حسن بن عجلان من أمراء مكة في القرن التاسع الهجري أن أحمد بن اسماعيل ملك اليمن كتب إليه أنه ينوي الخروج إلى الحج وطلب إليه إخلاء بيوت في مكة عينها لإقامته وأن يتلقاه عند حلى وهي قرية معروفة قريبة من حدود اليمن فأجابه بركات بقصيدة أنشأها عفيف الدين بن قاسم من شعراء مكة فيما يزيد على ٣٠ بيتاً وفيها يقول :

بالقنا الخطي والبيض الظبا ... وبخيل تتبارى شزبا
وبأبطال إذا ما استعرت ... نار حرب ولظاها التهبا
نحمي ذا البيت ونحمي جدة ... وربا حلي وأكناف قبا

إلى أن يقول :

قل لمن رام ينناوينا ومن ... رام يأتي بيتنا مغتصباً
لا يحج البيت إلا خاضعاً ... دافعاً عشرا لنا ثم جبا
وإذا ما كان رأساً لم يعد ... عندنا يا صاح إلاّ ذنبا

الحاج قايتباي :

ومن طريف ما يذكر عن الحج : أن قايتباي الملك الشركسي المعروف بخبراته حج عام ٨٨٤ هـ ولم يحج غيره من ملوك الشراكسة فندب له صاحب مكة محمد بن بركات من يستقبله في

وفاضت عليها الأستار المزركشة التي تسحب أذيالها على الأرض ثم يقول وفي صباح رجب يخرج الأمير إلى العمرة في حشد عظيم و يخرج المعتمرون قبيلة قبيلة وحارة حارة فرساناً و رجالاً يتواثبون و يتشاقفون الأسلحة حراباً وسيوفاً في مهارة عجيبة .. وكانوا يرمون السيوف في الهواء ثم يتلقفونها قبضاً على قوائمها كأنها لم تفارق أيديهم بالرغم من شدة زحامهم فإذا عاد الأمير من العمرة هرع إلى المسجد وشرع يطوف في حشده العظيم .

طواف أمراء مكة :

وطواف الأمير في ذلك العهد له غرابته وقد وصفه ابن جبير كما شهده يقول أن للأمير قراء يتقدمون موكبه إلى الطواف يتقدمهم رجال الحرس من السودان شارعين حرابهم فإذا بدأ الطواف شرع مؤذن صبي يبلغ العاشرة وهو أخو المؤذن الزمزمي يرعد فوق قبة زمزم داعياً للأمير بالسعادة الدائمة والنعمة الشاملة ثم يصل ذلك بكلام مسجوع مطبوع حفيل بالدعاء ثم يختمه ببعض من أبيات الشعر في مدحه فإذا شرع في الشوط الثاني اندفع بدعاء حار و وصله بأبيات من الشعر وظل على ذلك إلى نهاية المطاف .

رمضان في مكة :

و يصف ابن جبير عادة صيام رمضان في مكة فيقول ما خلاصته : إن دبادب الأمير أخذت تضرب في مكة ليلة الشك إيذاناً بصيام يوم الشك و بدأ المسجد يتلألأ نوراً وللمسجد فرقعة يضرب بها في الهواء ثلاث ضربات عند الفراغ من أذان المغرب ومثلها عند الفراغ من صلاة العشاء فتحدث صوتاً مدوياً (والفرقعة نوع من الكرابيج يضرب بها في الهواء فتحدث هذا الدوي) .

و يتولى التسحير في مئذنة باب علي المؤذن الزمزمي قريباً من دار الأمير ومعه أخوان صغيران يجاوبانه و يقاولانه في أصوات رقيقة ـ وقد نصبت في أعلى المئذنة خشبة طويلة أنيط بطرفيها قنديلان يطفآن إذا حان الإمساك وأهل مكة في سطوحها المرتفعة البعيدة من المسجد يمسكون إذا أطفيء القنديلان .

الأذان في مكة :

و يذكرنا هذا بما فعله العباسيون في سبيل إشاعة الأذان في مكة فقد بنى الرشيد في القرن الثاني الهجري فوق الجبال منائر تشرف على فجاج مكة و رتب لها المؤذنين فكان مؤذن المسجد لا يكاد يرتفع صوته حتى تتابع الأصوات بعده من جبل إلى آخر حتى تعم مكة من سائر أقطارها وفجاجها و بذلك كان الصائم لا يغيب عليه وقت الإفطار أو السحر ولكن هذه المنائر ما لبثت أن أهملت بتقادم الأجيال وخربت ولم يبق منها أثر ـ فاستعاضوا عنها فيما يبدو بالفرقعة .

فأعاد الشيخ إليه أوراق التعيينات وقال : تفضل فأعدها إلى سلطانك فإنه لا حاجة لي بها .

ومن روائع ما نقل عن الحسن بن أبي نمي أنه كان شديد الفراسة فارط الذكاء يتولى أمر مكة في أواخر القرن العاشر الهجري ذكروا أن من نوادره أنه وجد حبلاً نسيه أحد اللصوص في مكان سرقته فاستدل من رائحته أن السارق عطار ثم ما لبث أن تحري عن العطارحتى عرفه.. وفي مرة أخرى اختصم شامي ومصري على جمل فأمر بذبحه ونظر فرأى مخه معقوداً فحكم به للشامي وأمر بتغريم المصري وقال : إن الشاميين يعلفون جمالهم « الكرسة » وهي تعقد المخ بينما يعلف المصريون جمالهم الفول وهو يعقد الشحم .. ووجد مرة عصا في مكان مال مسروق بالمزدلفة فعرف من شكلها نوع القبيلة فاستحضر جماعة منهم وتحرى عن صاحبها حتى عرفه .

وكان إلى جانب هذا جواداً وكان يشجع المؤلفين ويمنح الشعراء .. ومن طريف ما يروى عن الحسن أن الشيخ عبد الرزاق جد آل الشيبي المعروفين وكان فصيحاً رائع النكتة دخل على الحسن يستأذنه في السفر إلى الهند فأنشده الحسن بيت الغرائي المشهور :

فيم اقتحامك لج البحر تركبه   وأنت تغنيك عنه مصة الوشل

فأجابه الشيبي من القصيدة نفسها :

أريد بسطة كف أستعين بها   على قضاء حقوق للعلى قبلي

فاستحسن بديهته .. وكان ثمن البيت من الشعر المحفوظ في رأيه ألف دينار فأمر له بها .

طغيال بن عتيق :

ومن أغرب المفارقات أن يكون للحسن بن أبي نمي شهرته من البراعة والفراسة ثم يمنى بوزير جريء على الباطل متفنن في ألوان الظلم يتسلط على حكم البلاد دون أن يرد له أمر أو يسمع الحسن ضده أي شكوى .

ذكروا أن وزيره عبد الرحمن بن عبدالله بن عتيق الحضرمي وإليه ينسب باب العتيق في المسجد لأنه كان يسكن بجواره .. ذكروا أنه كان يستأصل أموال الموتى من الأهالي والحجاج فيحرم ورثتهم . وكانت له حيلة غريبة فيما يستأصل

كان يجمع أختام المتوفين من قضاة مكة ونوابهم فإذا قضى أحد كبار الأغنياء أقام دعواه على تركة المتوفي بمبلغ يستغرق التركة أو يزيد عنها وكلف من كتاب المحكمة من يزور له حجة بذلك

الحوراء وهي بالقرب من أملج شمال ينبع وأنه مد له فيها سماطاً عربياً كان من بين أنواعه صنف من الحلوى أعجب بها السلطان فسأل عن اسمها فقيل له إن اسمه « كل واشكر » وفي هذا ما يدل على عنايتها بالأسمطة وأنواعها من ذلك العهد وفي تسمية الحلوى « كل واشكر » ما يدل على لون من العاطفة الدينية .

و بعد أن يذكر القطبي كيفية استقبال قايتباي والاحتفاء بدخوله إلى مكة يقول إنه عندما انتهى موكب السلطان إلى باب السلام الخارجي تخطى عتبته بفرسه وفي هذا يقول ابن فهد القرشي إن ذلك كان تأدبياً من الله فقد كان يتعين عليه أن يدخل محرماً مكشوف الرأس .

أول مطوف :

ثم يذكر القطبي أن القاضي ابراهيم بن ظهيرة القرشي طوف الملك قايتباي و يتراءى لي شخصياً أن قاضينا هذا كان أول مطوف في مكة و رثنا عنه هذه المهنة التي خربناها ونسأل الله إصلاحها في نظامها الجديد . .

قايتباي وإمام الحرم :

وقصة إمام المسجد الشيخ محب الدين الطبري المكي مع السلطان قايتباي في حجه هذا قصة بلغت الذروة في روعتها وهي تدل على مبلغ احترام علمائنا في ذلك العهد أنفسهم .

تتلخص القصة في أنه وشي بإمام الحرم أنه لم يكن من مستقبلي السلطان خارج مكة فأمر به فحضر فعاتبه في ذلك فقال : إني أستقبلك في أشرف بقعة في المسجد الحرام فسر لجوابه ثم علم أنه لا يتقاضى شيئاً لوظيفة الإمامة فقال له إني فرضت مائة دينار شهرياً لقاء إمامتك فقال إمامتي حسبة الله لا أقبل عليها جزاء ثم ما لبث أن انسل من المجلس دون أن يأذن له قايتباي وقال وهو يخرج سلام عليكم فعلق بعض الوشاة على ذلك وقال للسلطان أنه أراد الآية « سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين » فلم يسمع السلطان الوشاية وقال انني تصورته أسداً قوي الشكيمة في أول مقابلته لي . . ولما عاد السلطان إلى مصر أرسل أمراً بتعيين الشيخ رئيساً للقضاة ومشيخة والإفتاء والتدريس والحسبة فوصل الرسول إلى مكة وأراد تسليم الأوامر إلى الشيخ نفسه « ليحنى يده طبعاً » فلما انتهى إلى بيته قيل له إنه ذهب يحمل عجين بيته ليخبزه في فرن في أقصى الشارع فعجب الرسول من ذلك واستخف بعمله ثم انتظر إلى جوار البيت حتى حضر وسلمه الأوامر وانتظر الحنا فلم يخيب الشيخ رجاءه في الحنا فقد قدم إليه رغيفين مما يحمله من الخبز فكانت دهشة لم يقدرها سيدنا الشيخ فما كان من الرسول إلا أن قال : إن مثل هذه التعيينات لا تقل مكافأتها عن الألف .

سلطانة بنت الشسيخ :

وأنقل عن هذا العهد قصة لها طرافتها فقد ذكروا أن الشريف أحمد بن عبد المطلب أمير مكة في عام ١٠٣٧ هـ كان يجاهر بعدائه للشيخ عبد الرحمن المرشدي مفتي مكة وفي هذه الأثناء رغب الأمير خطبة فتاة اسمها سلطانة بنت الشيخ علي شهاب فاحتال أبوها حتى خلص معتذراً . وتزوجت الفتاة غيره فلما كانت حفلة العقد طلب إلى مفتي مكة أن يتفضل بإجراءاته فاستفتح خطبة العقد بقوله : (الحمد لله الذي أعز سلطانه وهو اسم الفتاة) .

الحمد لله الذي أعز سلطانه وأدحض شيطانه فكانت نكتة الموسم ولكن أمير البلاد ما كاد يصله خبر النكتة حتى تصيد للمفتي ما أوفي بالثأر .

بدعة شرب القهوة :

وحدث في هذ العهد ما يستحق الدهشة وعهدنا هذا هو القرن الحادي عشر الهجري حدث أن شاع شرب القهوة في مكة كبدعة جديدة انتقدها العلماء وأفتى بعضهم بتحريمها وقال أنها خمرة مسكرة فصدر الأمر بجلد بائعها وشاربها وطابخها فكان بعض الناس يتعاطونها في أقبية بيوتهم وأحب شيء إلى الإنسان ما منع وكان المكلفون يهاجمونهم ويسحبونهم بالعنف إلى ساحة عامة ويضربون رؤوسهم بأوانيها حتى تدميها وكانت أوانيها من الفخار وربما قضي بعضهم من هول الضرب وربما اكتفوا عن ذلك بجلدهم بالسوط ثم ما لبثوا أن تهاونوا في شأنها ، فكثر شيوعها لندركها اليوم وهي أفضل أنواع التحايا ليتنا ونحن نتلذذ بنكهتها نذكر الثمن الغالي الذي تكلفه آباؤنا في سبيل هذه النكهة قبل أن تصل إلى مجالسنا .

عقد الركب في مكة :

وشيء كنت أتمنى لو فلسفه أطباؤنا الشباب فقد حدث في هذا العهد أن شاع مرض غريب أسموه عقد الركب كان الرجل يخرج من بيته سليماً فيعود إليه محمولاً معقود الركب لا يستطيع القيام عليها من غير داء يشكوه فكانوا يتخذون له شراب ماء الليم مع السكر بعد أن ينضجوه على النار في قشرته .

فهل مر بأطبائنا مثل هذا الوباء وهل يسلموا بعلاقة الليم بشفائه أم يحلو لهم أن يتفلسفوا على آبائهم .

في ركاب الطواشي :

ومن غريب ما قرأت أن بشير آغا الطواشي من مماليك السلطان مراد حج عام ١٠٤٩ وكان

المبلغ ثم ختم الحجة بأحد الأختام المحفوظة لديه باسم القضاة السابقين ثم وقعها بشهادة شهود يقتنصهم ثم تذيل الحجة بهذا النص « تأملت هذه الحجة فوجدتها مسددة وشهد بذلك فلان وفلان » وبذلك تكتسب الحجة قيمتها الشرعية ويستطيع بموجبها أن يستولي على تركة المتوفي عن آخرها وكان بعض الناس يقرأونها ويعرفون أسلوبها في التزوير ولكنهم يعجزون عن أن ينسبوا ببنت شفة .

إنها مأساة أستطيع أن أفهم منها أن الطريق إلى أمير البلاد يومها لم يكن مفروشاً بالرمل الناعم برغم حبه للعدل وشهرته به .. أستطيع أن أفهم أن الجريء من رعاياه لا يكفيه أن يكون جريئاً على المكاشفة ما دام لا يجد طريقة تمهد لها ويعرف بالتجارب أنه سيظفر بعد المكاشفة بحصانة يأمن معها غائلة الأقوياء ولو أعد أمير البلاد يومها رعاياه للمكاشفة وتركهم يجربون حصانته من الغوائل لما عدم النفوس الحية من صفوف بني عمومته الأشراف أو من يليهم من أعيان الأهالي أو عامة الشعب

ويؤيدنا في هذا أن ابنه أبا طالب لم يجرؤ على مكاشفته رغم علمه بالحوادث واستيائه منها بدليل أنه ما كاد الحسن يلقي ربه حتى أسرع أبو طالب إلى القبض على ابن عتيق وإيداعه السجن .. وشعر الجاني بفداحة ما ينتظر فاحتال حتى سرق جنبية الحارس وقضى على نفسه بها .

وما شاع الخبر حتى نقلت جثته إلى حفرة في طريق جدة دون أن يغسلوها أو يصلوا عليها واجتمع الناس فشرعوا يرمونه بالحجارة والنعال حتى دفنوه بها وعمد الأمير الجديد بعد هذا إلى تصفية أمواله وتوزيعها على مستحقيها .. وهجاه الشعراء في مكة وأكثروا في ذلك ومما قال بعض أدبائهم :

أشقى النفوس الباغية	ابن عتيق الطاغية
نار الجحيم تعوذت	منه وقالت ماليه

منشور الإمارة :

وبهذه المناسبة يطربني أن أقرأ لكم بعض عبارات المنشور الذي صدر من الآستانة بتولية أبي طالب بعد وفاة أبيه الحسن بن أبي نمي كنموذج لأسلوب المحسنات اللفظية التي سادت في ذلك العصر في أكثر بلاد الشرق وقد جاء فيه ليعلم كل من كحل بصره بإثمد منشورنا الكريم وشنف مسامعه بلآليء لفظه العظيم أن إمارة تلك المعاهد « يعني مكة » وما فيها من عساكر وما أحاطت به من الأصاغر والأكابر مفوضة إلى السيد السند الشريف أبي طالب إلى أن يقول فتح الله له بمفاتيح السر كل مغلق من الأبواب وما سقطت من أكف الثريا الخواتم ورقت على منابر الأغصان خطب الأئمة الكرام ..

يحمل تفويضاً من السلطان بعزل وتولية من يرى عزله أو توليته من أمراء البلاد التي يمر بها فلما انتهى إلى مصر خرج واليها للقائه في ظهرها وقبل ركبته ومشى بين يديه إلى أن أذن له بالركوب فلما انتهى خبر ذلك إلى الشريف زيد في مكة عز عليه أن يمشي في ركاب الطواشي فاستشار الشيخ عبد الرحمن المحجوب ، وكان من رجال العلم الصالحين فقال أسأل الله أن يكفيك ذلك فاستجيبت دعوته لأن بشير أغا ما كاد يصل إلى مكة حتى سبقه خبر بوفاة السلطان مراد و بذلك بطل مفعول التفويض الذي يحمله . ودخل بشير أغا فقابله الشريف زيد مقابلة عادية وصافحه ثم ركض بفرسه حتى تقدم عليه وعزاه في السلطان فتضاءل بشير أغا لأنه كان يظن أن خبر الوفاة مجهول في مكة .

هدميات قديمة :

ولعل أخانا الكوشك وزميلنا شيخ المجلس البلدي يعرفان أنهما مسبوقان إلى هذه الهدميات التي تراها في مكة فقد أمر أحمد باشا نائب الشرع . بلكات العسكر الإنكشارية في عام ١٠٩٨ أن يمروا من باب الصفا إلى المروة ليزيلوا النواتيء والظلل ثم ركب في أثرهم فدخل إلى السويقة والشامية وأمر بإزالة نواتيء الدكاكين فيها .

في تنظيفات مكة :

ومن أطرف ما قرأت في حادثة أخرى أن المكلف بالتنظيفات منع من إلقاء القمائم في الشوارع ثم مر ببعضها فوجد قمائم بجوار أحد البيوت فكلف صاحب البيت وكان من الوجهاء أن يجمعها في جبته إلى المرمى العام .

جمل فوق المنبر :

ولعلكم تستغربون إذا ذكرت لكم أنه في صباح أحد الأيام من عام ١٠٩١ فوجيء الناس بجمل يتربع في أعلى المنبر لقد حدث هذا فهل تصدقون ؟ أرى قوماً بينكم ينغضون إلى رؤوسهم في عجب و يقولون كيف كان .. كانهذابسبب وإذا عرف السبب بطل العجب سال وادي ابراهيم على أثر مطر عظيم واقتحم السيل المسجد الحرام حتى استقر به على المنبر فلما انكشف الماء في الصباح وجدوا الجمل في مكان في أعلى المنبر .. لا تسألوني ماذا صنعوا به فهذا خلاصة ما قرأته وأحلف أني لم أشاهد الواقعة بعيني .

بدعة الدخان :

ومنيت مكة بعد سنوات من هذا الحادث ببدعة شرب الدخان وقد قيل إنه انتقل إليها من مصر أول ما انتقل في عام ١١١٢ ثم ما لبث أن ظهر شرب التنباك والمعروف عن بعض المؤرخين

أن شجرة الدخان ظهرت أول ما ظهرت في عام ٩٩٩ هجرية .

واشتد النكير على الدخان فلم ينفع النكير وفي عام ١١٤٩ غضب العلماء لانتشاره فحاربوه في إصرار وأصر يومها أمير مكة الشريف مسعود بن سعيد من ذوي زيد أمر بمنع التظاهر بشربه فكان المكلفون يتعقبون الناس في جميع الطرقات ويعاقبون كل من يشربه .. قيل إن الشريف مسعود كان يعتقد تحريمه كما قيل إن الدافع إلى ذلك هو تبذير الناس وإسرافهم .

وحورب بعد هذا ثم حورب في أيامنا ومع هذا فقد ظلت سيئاته تغشانا .

التنويم المغناطيسي :

ولا أدري هل عرفت مكة القديمة شيئاً عن التنويم المغناطيسي فقد قرأت أن الشريف سعيد بن سعد من ذوي زيد مرض في عام ١٢٢٨ مرضاً حار فيه الأطباء فجيء إليه برجل يدعي الكشف فطلب إحضار شخص ساذج لإجراء تجاربه فلما حضر كتب على جبينه شيئاً فغاب الشخص عن وعيه وشرع يتكلم عن حقيقة المرض ويصف العلاج وهو أسلوب يختلف كثيراً عما نسمعه من أعمال المنومين ووسطائهم .

المظلوم في جدة :

ونحن نسمع عن حارة المظلوم في « جدة » وربما يتساءل بعضنا من هو المظلوم وما ظلامته والقصة كما يرويها التاريخ تتلخص في أن تابعاً لأغوات المدينة أراد أن ينخرط في سلك الجندية فحيل بينه وبين ذلك فغضب لأجله الأغوات وأغلظ بعضهم في القول لرجال الحامية فثارت فتنة تحصن الأغوات فيها بالمسجد في المدينة فأراد قاضي المدينة أن يتوسط في الصلح فامتنع الأغوات من الحضور إلى مجلس القاضي فاعتبرهم القاضي عصاة للشرع وأمر بقتالهم فقاتلوهم ثم ما لبث الأغوات أن طلبوا الأمان فأبى رجل الحامية إلا بتقديم كبارهم إلى مكة ليري الحاكم رأي الشرع فيهم فقبلوا ذلك ولما ثبتت إدانتهم عوقب بعضهم ونفي البعض الآخر .

ثم استأنف الأغوات دعواهم وأثبتوا أن سبب الفتنة كان سعاية أشخاص في المدينة على رأسهم الشيخ عبد الكريم البرزنجي فصدر الأمر بقتله ففر إلى جدة فقبض عليه وقتل في جدة ودفن في الجهة التي نسميها اليوم حارة المظلوم .

حادثة الشهيد :

حادثة الحسين الشهيد بن محمد بن عبد المعين حادثة تستحق الرواية فقد تولى إمارة مكة في

شعبان عام ١٢٩٤ وكنا من سنوات نشهد آثار قصره لا تزال ماثلة أمام أعيننا خلف الزاهر إلى يمين الطريق الذاهب من الزاهر إلى جدة ونسميه قصر الشهيد .

تولى الحسين الشهيد إمارة مكة على أثر إقصاء الخليفة العثماني السلطان عبد العزيز وإعلان الدستور وقد قيل أن الحسين يعتنق رأي الدرستوريين فوجهوا إليه إمارة مكة .

ولكن ما كاد يستقر في مكة حتى تمكن السلطان عبد الحميد من زمام الأمور ، واستطاع أن يعد عدته لإلغاء الدستور و يقبض على مناصريه .

في هذه الأثناء كان الحسين الشهيد في طريقه إلى جدة تلبية لمأدبة أقيمت لتكريمه فلما انتهى إلى حيث ترجل عند دار الشيخ عمر نصيف تقدم إليه رجل في شكل الدراويش يطلب تقبيل يده فما كاد يلمسها حتى سبقه بطعنة خنجر في خاصرته فقضت عليه من فوره .

قبض على القاتل وحاولت السلطة أن تنتزع منه أي اعتراف يحقق أسباب الإغتيال أو يشير إلى الأيدي الدافعة فلم تظفر منه بحرف واحد رغم ما أذاقوه من ألوان التعذيب .

قالوا إنه أفغاني وإنه من المتحمسين لمبادىء الخلافة ولكن وجيه جدة الشيخ محمد نصيف وهو ابن أخي الشيخ عمر نصيف الذي اغتيل الحسين عند باب داره ذكر لي أنه سمع من بعض المقربين أن القاتل لم يكن أفغانياً بل هو من داغستان وأن أخاً له اسمه الشرواني باشا كان يخدم في الجيش العثماني في مكة فاغتاله بعض كبار المسئولين فجاء هذا إلى مكة معتزماً الأخذ بثأر أخيه فلما لم يجد غريمه أراد أن يضرب بأكثر مما يجب للثأر فاحتال حتى واتته الفرصة عند دار نصيف في جدة فقضى على الشهيد بالكيفية التي ذكرناها و بوفاته صدرت الأوامر الشاهنية بتولية الشريف عبد المطلب إمارةمكة ليقضي بحزمه على أنصار الدستور في مكة وكان قد تقلد الإمارة قبل ذلك مرتين واقتضت سياسة عبد الحميد أن يقبض على زعماء رجال الدستور في الآستانة وعددهم ١١ شخصاً على رأسهم زعيمهم مدحت باشا وشيخ الإسلام في تركيا ثم ينفيهم إلى مكة ليسجنوا فيها تحت إشراف عبد المطلب فنقلهم عبد المطلب إلى الثكنة العسكرية في الطائف وقد مات مدحت و بعض رفاقه في الطائف ودفنوا بها وظل جثمانهم فيها حتى أوفدت أخيراً الجمهورية التركية في عام ١٣٧٠ لجنة تولت نقل الرفات من الطائف إلى أنقرة .

فتنة القبوري :

ثورة القبوري وهي قصة كان آباؤنا يتناقلون أخبارها إلى عهد قريب وتتلخص في أن رجال الدستور العثماني بعد أن قضى على آمالهم في عهد السلطان عبد الحميد ، عادوا فانتعشوا مرة

أخرى واستطاعوا الإستيلاء على السلطة وكانت أوامرهم تصل إلى مكة كمقاطعة تابعة لهم ولكن مكة بيئة غير صالحة لأكثر تعاليم الدستور .

كان من بين هذه التعاليم أنظمة يبلغها شيخ القبوريين تتعلق بأعمال الدفن فلم يهضمها شيخ القبورين وخرج من دار الحكومة ليصيح بأعلى صوته الجهاد يا مسلمين .

ووجدت صيحته أثرها في جماهير مكة التي كانت تعتقد أن لوائح الدستوريين تخالف الشرع الشريف فخرج الناس بأسلحتهم ينادون بالثورة على الدستوريين الأتراك فاشتبكوا في عدة مواقع من الأسواق وقتل وجرح من الفريقين عدد كثير ولكن بعض الأشراف والأعيان سعوا لإخمادها وتوسطوا بين الفريقين .

أول جريدة في مكة :

وما دمنا في صدد أعمال رجال الدستور فن العدل أن نذكر أنهم كانوا أول من وضع لبنة الصحافة في مكة دعتهم ظروفهم لإنشاء جريدة في مكة تعبر عن آرائهم فكانت الجريدة التي سموها (الحجاز) وكانت تطبع في أجياد في مطبعة كانت تدار باليد وظلت المطبعة في مكانها خلف إدارة المالية وهي لا تزال تعيش بين المطابع والآلات الجديدة في مطبعة الحكومة .

وكانت جريدة الحجاز تطبع باللغتين العربية والتركية .. وأصدر احد موظفي الأتراك إلى جانبها جريد أسماها (شمس الحقيقة) ظلت تصدر إلى عهد الحسين بن علي قبل الإستقلال ولكنها كانت تتناول أكثر المسئولين بالنقد فتعثر سيرها ثم تعطلت بينا ظلت جريدة الحجاز توالي صدورها إلى أن ثار الحسين في مكة فانتقلت طباعتها إلى المدينة أيام حصار الحسين بالمدينة وظلت كذلك إلى أن سلمت المدينة وكان يتولى رئاسة تحريرها بالمدينة الوجيه المعروف السيد حمزة غوث .

طرائف في تاريخ جده القديم

أجدة هي أم جدة ؟

تعود لساني أن يقول جدة بالكسر .. وهذا لا يرضي أستاذي المحقق الشيخ عبد القدوس الأنصاري فقد عني بتحقيق الاسم ودرس ما قيل في شأنه دراسة طويلة انتهى منها إلى أنها جدة بالضم لا جدة بالكسر .

وأنا رجل كثير العثار ولا يطاوعني لساني في غير ما ألفت إلا بتكلف ومن يعرف أستاذي الشيخ عبد القدوس الأنصاري يعرف قوة إساره فيما يعتقد .. يعرف غضبته لما تقرر عنده وشدة شكيمته .

وأنا رجل أخاف غضبه لأني إنسان بطبعي (خواف) فهل بينكم من يسندني إذا جد الجد .. هل بينكم من يقيل عثاري .. هل بينكم من يستطيع مواجهته إذا ادلهم الأمر ..

لا .. لا أريد أن يحتد الأمر إلى نطاق يصل إلى الزعل فهو الرجل الغالي عندي ولا يرضيني زعله بحال إنه محق فيما يغضب فقد تعودنا غضب العلماء وحدتهم فيما لا يعجبهم من آراء الناس .

أذكر مرة وكنت فتى يافعاً أني مررت بالمسجد الحرام وتحت إبطي كتاب المنجد للأب لويس اليسوعي فصادفني فضيلة الشيخ عمر حمدان وليس من يجهل الشيخ عمر حمدان كبير مدرسي المسجد الحرام في وقته فراعه أني أحمل كتاب المنجد وفي المنجد أن عيسى ابن الله .. قلت وما علاقتي بمثل هذه الكلمات وأنا أعرف أن الله لا يلد .. إنه كتاب علم والعلم كالحكمة أو هو الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطها قلت هذا ولكن الشيخ غيور لما يعتقد غضوب إذا وجد العصى فما كان منه إلا أن شرع عصاه وتحفز ليضربني كنت يومها خفيفاً لا يثقلني هذا اللحم المكتنز الذي تراكم اليوم ولا يعثرني هذا الترهل الذي يعوقني وكنت إلى هذا مشدود العضلات قوي المفاصل وكنت خفيفاً في الهزيمة كالغزال فلم ينلني من عصاة الشيخ ما أخاف أن ينالني اليوم فيما ترون .

ومع هذا فأنا إلى جانب إصراري على ما ألفت أجدني أستطيع أن أستأنس في شأن جدة برواية ذكرها أبو الوليد الأزرقي وأيدها تقي الدين الفاسي .. تقول هذه الرواية أن الميناء قبل

جدة كان في الشعيبة أو الشعيبية كما في رواية أخرى وأن سكان الشعيبة وهي على مسافة ليست قصيرة من جنوب جدة شكوا إلى الخليفة عثمان بن عفان ما يلاقونه من صعوبة مينائهم وكثرة صخوره ونحن لا ننسى أن الشعيبة في اللغة من تشعب عن البحر أو النهر أي تباعد .. شكوا إليه الشعيبة وقالوا إن بالقرب منها شاطئاً أسهل مورداً وطلبوا إليه أن يأذن لهم في الإنتقال إليه فشد الخليفة عثمان رحله حتى انتهى إلى الشاطىء الذي اختاروه فسر به . تقول الرواية أنه اغتسل في مائه ودعا له بالبركة وأذن لهم أن ينتقلوا إليه فكانت جدة هنا لا أستبعد ما يقال في اللغة جد الشيء جدة صار أو كان جديداً وما يقال لجدة شاطىء البحر أو النهر .

رواية قرأتها أترك أمر التعليق عليها للأستاذ عبد القدوس الأنصاري لعله أن يأذن لي بها لتكون مستندي وأنا أقول جدة بالكسر .

وإذا كان المفهوم مما حققه الأستاذ في شأن جدة أنها أقدم من عهد عثمان وأنها كانت موجودة لعهد الرومان أو قبله فأنا لا أستبعد أنها كانت موجودة بدليل الحفر التي كانت تتجمع فيها الأمطار لسقيا البلدة إلى عهد قريب وهو تقليد روماني قديم ولكن هذا لا يمنع من يقول ربما كانت قديمة ثم درست ثم أعيدت إليها الحياة في عهد الخليفة عثمان فهي والحال هذه جد الشيء فهي جدة في رأيي وهي أقرب إلى ما ألفت .

لعل بينكم من يشايعني على هذا الرأي ولعل بينكم من يتراءى له أن يسميها جدة بالفتح والجد هو الحظ ولو جاز لي اليوم أن أخترع لها اسماً له نصيب من واقعها الحالي لسميتها جدة لا لما زعموا من قبر حواء بل لأن الجد هو الحظ وهي اليوم محظوظة بمن اجتذبت من أصحاب الكفاءات في مكة والمدينة ومن امتصت من رجال حتى تركت مكة وتركت المدينة تأسى لفراقهم وتتحسس بعدهم ما تركوا من فراغ .

أحسب أن توطئتي طالت إلى أكثر مما كنت أقدر وأخشى ما أخشاه أني فيما فعلت أثقلت عليكم .. دعوني أستميحكم العذر رغم أن الذنب ذنب ناديكم المحترم قبل أن يكون ذنبي فقد كان يتعين عليه أن يحسن اختيار المحاضرين لهذا المنبر .

و بعد هل لنا أن نشرع في قصصنا عن بعض ما صادف جدة في قرونها الأخيرة .

لا نريد أن نسلسل الحوادث بتسلسل السنين فليس هذا من طبيعة هذا الموقف وإنما هي شذرات من هنا أو هناك تتداعى بتداعي المعاني والسباق .

نحن الآن على أبواب القرن العاشر الهجري وإذا أبينا إلا التحديد فنحن في عام ٩٠٨ .

ماذا حدث ؟

لقد مضى نحو أسبوعين لم يستقبل ميناؤنا فيها مركباً واحداً من مراكب الجنوب أسمعت ؟

قيل من أيام أن مركباً لرجل من الحوراء شمال ينبع رسا في جدة ثم أبحر منها متوجهاً إلى عدن فما لبث أن عاد وقد سئل الناخوده فقال إنه ما كان يشرف على القنفذة حتى وافته أخبار سيئة أن القتال يستعر في المحيط الهندي وأن مداخل البحر الأحمر ابتدأ من خليج عدن إلى ما يلينا من جنوب الجزيرة تعج بالإستعداد للدفاع بعد أن ترامت إليهم هجمات البرتغاليين واكتساحهم بعض البلاد الهندية في طريقهم إلى البحر الأحمر .

أسمعت ؟ - رسا اليوم في الميناء مركب مصري مثقل بمئات الجند من الشراكسة والأتراك والمغاربة قيل إنهم طلائع جيش لجب استنفره ملك الشراكسة في مصر دفاعاً عن جدة . سيتوالي وصول المراكب في مدى الأيام الثلاث الآتية .

أسمعت ؟ - صدرت اليوم أوامر قائد الجيش حسين الكردي بترحيل الشيوخ والصبيان والنساء إلى مكة ليستعد شباب جدة للدفاع عنها في جناح الجيش المقاتل .. لقد شهدت بعيني زحام الأسر في سوق الحمارين وساحة الجمال وقد تفاقت أسعار أجور المركوب إلى مكة بصور لا تطاق .

ولو كانت لهم صحف يومها وصحفيون من أمثال إخواننا أصحاب الضجة إياهم لقرأنا في الصفحة الأولى هذه المنشآت - البرتغاليون يزحفون إلى البحر الأحمر - مذابح رهيبة في جزر المحيط الهندي - شهود عيان يصفون وحشية البرتغاليين في البلاد التي اجتاحوها .

وكأني تعرضت لما لا يحسن أن أتعرض له من أمر الصحفيين .. فعفوا .. ولنمض .. فهذه جموع الأهالي من مختلف الطبقات في جدة تساق قسراً إلى بناء سور لجدة يحصنها من غارة البرتغاليين طبقاً لقرار الجيش كما تقرر أن يجند الأهالي من كافة الطبقات للعمل في البناء .

أسمعت ؟ - لقد فاجأ العمل اليوم قائد الجيش حسين الكردي فلاحظ أحد البنائين يصل متأخراً عن موعده فأمر به أن يقيد إلى السور ويبني عليه فمات في جوف السور .. إنها قسوة جبار .. فهلم نسرع إلى عملنا في السور .. وإذا رأيتم أن تسرعوا فهيا بنا .

لكن الأخبار ما فتئت وافت بتراجع البرتغاليين عن البحر الأحمر وكفى الله المؤمنين شر القتال ومع هذا ظل حسين الكردي صاحب الكلمة في جدة حتى سقط حكم الشراكسة في مصر ودخلها العثمانيون وانتقلت طلائعهم إلى جدة فأسلمت جدة قيادها إليهم فدخلوها وأمروا بقائد الشراكسة حسين الكردي فأغرق في البحر حتى مات وترك جدة طعاماً للأسماك .

لكن الأخبار ما فتئت وافت بتراجع البرتغاليين عن البحر الأحمر وكفى المؤمنين شر القتال ومع هذا ظل حسين الكردي صاحب الكلمة في جدة حتى سقط حكم الشراكسة في مصر ودخلها العثمانيون وانتقلت طلائعهم إلى جدة قيادها إليهم فدخلوها وأمروا بقائد الشراكسة حسين الكردي فأغرق في البحر حتى مات وترك جدة طعاماً للأسماك .

نحن الآن في مستهل عام ٩٢٣ هـ ، وكان مندو بو سليم الفاتح قد اتصلوا بمكة يحملون رسائل السلطان إلى شريف مكة بركات بن محمد بإقراره إمارة مكة إذا وافق على ـ الدعاء له كخليفة للمسلمين فوق منبر مكة وكان قد رأى أن لا مانع إذا ظلت التبعة غير مباشرة واستطاع أن يستفيد من معوناتهم لنفسه و بلاده .

صك الحجل في الرجل بركات في دست إمارته يديرها كما يشاء وظل ابنه أبو نمي بعده على مثل منواله وظل الأشراف بعدهما متعاقبين على الحكم بالوراثة أو يتغلب بيت منهم على الآخر .

وندب العثمانيون فرقة عسكرية ترابط في جدة لحماية الثغر ولم يبيحوا لقائدها أن يتدخل في شوؤن البلاد الداخلية بل تركوا أمر ذلك إلى حاكم مفوض من شريف مكة كانوا يسمونه وزير جدة كان يفصل في قضايا الأهالي و يضطلع بسائر الشؤون الإدارية .

ولكن العثمانيين ما لبثوا أن أضافوا إلى قائدهم في جدة وظيفة مشيخة الحرمين ليشرف عن كثب على شؤون التعميرات في المسجدين .. اهتبلوها فرصة جرياً على العادة المعروفة .. ولم لا يفعلون ما داموا قد استطاعوا بخبراتهم أن يتعهدوا الحرمين بالإصلاح في بلاد فقيرة .. (أدهن الفم تخجل العين ! !) . كان الأمير في مكة يتسلم زمام الإمارة عن وراثة أو شطارة ثم يكتب إلى الخليفة فلا يملك الخليفة العثماني إلا أن يؤيد الواقع . حسبه أن يوافق الأمير الجديد على الدعاء له فوق المنبر .. ثم (تشقى لما تلقى ! !) ما دام الدعاء مضموناً له فوق منبر مكة .

ظل قائد الجند المرابط في جدة لا يريم عن جدة ولا يتوسع في اختصاصه إلى أكثر من الأشراف على تعميرات المسجدين ولكنه ما لبث بتوالي السنين أن توسع نفوذه فأصبح يراقب الأعمال الإدارية و يكتب إلى السلطنة بمقترحاته .

واتسعت الخطوة عندما كتب قانصوه قائد الجيش في جدة في عام ١٠٤٠ إلى الخليفة العثماني يشجب النظام السائد في شأن واردات الحجاز من المكوس والحجاج التي كان يتولاها شريف مكة فينفق منها على شؤون إمارته و يوزع الباقي على بني عمومته من الأشراف و يقترح أن تضم إلى خزينة الدولة .. وأن يخصص للموظفين رواتب معينة يتقاضونها فصدرت الشاهانية بذلك وامتثل لها الشريف مسعود بن إدريس فقد كان محباً للسلام .

والذي يلاحظه المتتبع لتاريخ علاقة الحجاز بالعثمانيين أن نفوذ العثمانيين عاش نحو مائتي سنة يتراوح بين المد والجزر تحت تأثير القصور الحاكمة في مكة .. كان الشريف القوي المراس يقف حائلاً دون شيوع النفوذ العثماني و يحدد صلاحية قائد الجيش في جدة حتى إذا تولى شريف مسالم أو ضعيف عاد النفوذ إلى مده وشرع القائد في جدة يتوسع في اختصاصه إلى أبعد حد تواتيه فيه ملابسات الضعف .

وكان بعض أمراء مكة من الأشراف يستعينون بقائد الجيش في جدة ضد من يناوئهم من بني عمومتهم فيغتنمها القائد فرصة له ولمركزه و يعرض جدة لاضطرابات لا نهاية لها .

حدث في عام ١١١٦ أن اختلف أمير مكة الشريف سعيد بن سعد من آل زيد مع جماعة من بني عمومته فخرجوا عليه .. تجمعوا في وادي فاطمة وأعلنوا عصيانهم ثم ندبوا من يفاوض قائد الجيش في دخولهم جدة فاغتنمها القائد فرصة وأباح لهم أن يعلنوا إمارة من اختاروه في جدة فدخلوها ونادوا بإمارة عبد المحسن من آل زيد فيها وكتبوا بذلك إلى قبائل حرب وقبائل الجنوب والشمال فأطاعوا فتقدمت جموعهم ونشط سعيد للدفاع فاستنفر الأهالي والقبائل الموالية وطلب إلى قاضي مكة ليصدر فتواه في شأن العصاة في جدة فصارت فتواه بأنهم ملزمون بالطاعة وكتب إلى قائد الجيش يطلبه إلى مجلس الشرع ليقيم عليه الدعوى لمساعدته قطاع الطرق إلى أن يقول : فإذا لم تمتثل بالحضور إلى مجلس الشرع كفرت ! !

وليس هذا الكفر هو الأول من نوعه فقد عاش يدور رأننا .. عشنا حقوباً طويلة نسمي حكام الأمس قطاعاً كما نسمي القطاع غداً إذا انتصروا حكاماً شرعيين ونجد في مجالس القضاء مجالاً لإقرار ما نفيناه ونفي ما أقررناه .

وتقابل الفريقان في ذي طوى على مسافة كيلومترات من مكة . مقاتلة جدة على رأسهم سنجق جدة أو قائد جيشها ، ومقاتلة مكة وفي جيشها فرقة مصرية وأخرى يمنية وثلة من الأتراك الإنكشارية و بعض الموالين من القبائل وأهل الحارات و بعد أن دام القتال أربعة أيام استطاع

جيش جدة الهاجم أن يقضي على إمارة سعيد وأن ينادي مناديه في مكة بإمارة عبد المحسن فمضى عبد المحسن إلى المسجد في موكب حافل و بعد أن طاف بالكعبة قرىء مرسوم سلطاني جاء فيه أن السلطنة فوضت القائد سنجق جدة سليمان باشا فاختار عبد المحسن ثم نهض الشيخ عبد المعطي الشيبي فدعا للأمير بالتأييد وصوّت المبلغ فوق قبة زمزم يؤمن على ما يقول .

ولم ينته الأمر عند هذا الحد فإن عبد المحسن أميرنا الجديد ما لبث أن اختلف مع مشايعه سنجق جدة فتنازل عن الأمر لأحد بني عمومته عبد الكريم وما كاد يستقر الأمر لعبد الكريم حتى فاجأه جيش سعد بقوة جديدة في مقدمتها ثلة من الأتراك الإنكشارية و بعض القبائل على رأسهم والده الشريف سعيد فأعلن سنجق جدة النفير العام واستطاع أن يستصدر حجة شرعية بوجوب الدفاع واعتمدتهم الحجة طبعاً أصحاب البلاد الشرعيين كما اعتمدت خصومهم قبلهم وأفتت بوجوب قتال قطاع الطرق الذين كانوا قبل أيام شرعيين ـ وهكذا تدور صكوك الشرع بدوران الأيام وتؤيد اليوم ما رفضته بالأمس أو حكمت بكفره واستطاع جيش سعد أن يعيد الأمر إلى نصابه بعد أن بذلت القبائل و بذل الأتراك الإنكشارية من الجهد ما لا يقدر .. بويع لسعد بالإمارة فدعا الناس إلى اجتماع عام في المسجد ونادى فيهم : ماذا ترون في أعمال العصاة في جدة فصاحوا باطل .. باطل .. في أسلوب جماهيري تعودته الحياة فالجماهير إذا تجمهرت لا تصدر في صياحها الكثير السائد إلا عن غوغائية لا تعقل فيها ولا روية .

ونحن هنا إذا أشرنا إلى جهود الأتراك الإنكشارية وما تميزوا به من إقدام في انتزاع النصر رب سائل يسأل ما الإنكشارية هذه وهل الإنكشارية أتراك من نوع خاص ؟ الواقع أننا نسميهم أتراكاً مجازاً هم أجناس متفرقة جمعتهم تربية تركية خاصة هي فرقة أسسها ثاني سلاطين آل عثمان (أورخان بن عثمان) .. كان يأتي بالأحداث من أسرى النصارى فيربيهم على الإسلام تربية ينشأون فيها على خدمة الدولة والعناية بحمايتها عسكرياً والتفاني إلى الموت في سبيلها وكان السلاطين في ذلك العهد يكلون إلى هذه الفرقة أهم نواحي الدفاع في سائر أقطار الدولة واعتماداً على ما يبثونه في أفرادهم من روح وهو تقليد روماني قديم .. تألفت الفرقة أول ما تألفت من ألف جندي ثم ما لبثوا أن نموا وتكاثروا وأصبحوا أصحاب كيان خاص في الدولة يعتزون به كما كان العثمانيون يباهون بهم و يرهبون بشدة بأسهم دول العالم و ربما استدعت بعض القبائل في بعض أقطار الدولة الإستعانة بهم فكانوا يندبون ثلة منهم لتثبيت قواعد الحكم و بذلك كان للحجاز نصيب منهم في بعض سني العهد العثماني .. كانوا يندبونهم للإقامة في جدة أحياناً وفي مكة أحياناً أخرى حسب مقتضيات الأحوال .

وقد ظلت هذه الفرقة عماد العثمانيين قروناً طويلة ثم رئي أن أمرها قد استفحل وأن تربيتها

الخاصة علمتها التعصب لما أنشئوها عليه من مبادىء وأنها ربما عصت أمر السلطان في سبيل ما اعتقدت .. ذكروا أن السلطان سليم رأى في عام ١٢٠٣ أن حاجة العصر تدعو إلى تحسينات جديدة في الشؤون العسكرية فأسس نظامه الجديد الذي عصاه فيه الإنكشارية وهم معذورون فالمتعصب لا يستطيع أن يتعقل كل جديد على ضوء ملابسات العصر وهو في أكثر أحواله ينسى أن قديمه كان في أحد الأيام جديداً وأنه نشأ مرفوضاً من قيم اجتماعية كانت أقدم منه .. ينسى أن قيم الحياة لا تستقر على ثبات وأن كل قيمة نشأت على وجه الأرض من يوم خلقت الأرض كانت يوم نشأتها جديدة وكان في الميدان من أصحاب القيم القديمة من يستنكرها في حماس ثم ما لبث هذا الجديد أن أخذ مع الأيام دوره في الصدارة بين القيم التالية واستطاع أن يكتسب صيغة القديم لينشأ عليه من يغضب لتغييره وربما وصفه بأشنع الأوصاف المنكرة .

هذا الغضب للقديم في غير روية ولا تعقل ولغير داع إلا أنه موروث أثار ثائرة أصحاب السلطان في الدولة فصدر الأمر بقتالهم فقاتلوهم حتى أفنوهم وفناؤهم كلف الدولة أموالاً ورجالاً لا يحصى عددها .

والتعصب ضد الجديد يذكرني بقصة القهوة وما كان لها من شأن في جدة وكيف انتقلت إلى مكة ؟ فأثارت ثائرة القدامى فأعلنوها حرباً عواناً ضدها .

ذكروا أن عادة شرب القهوة انتقلت من القطر اليمني إلى الحجاز في أوائل القرن الحادي عشر الهجري .. انتقلت إليه عن طريق جدة .. ذلك لأن جدة سباقة فيما يبدو إلى كل جديد جريئة في اصطناع كل (موضة) وطالما جرينا وراءها وتعثرنا فيما سبقنا من مودات بينما مضت في (مودتها) لا تلوى ولا ترتد .

هذه شيش الجراك عهدنا بمكة في صبانا لا نعرفها كما لا نعرفها إلا إذا نزلنا جدة ورأينا شيش الجراك طويلة النجاد يكاد ليّها لفرط طوله أن يصافح باب الزقاق وبالمناسبة كنا يومها لا نعود من جدة إلا مثقلين بأنواع من الهدايا حلاوة دبية ، حبال من السلك ، شكة من الحوت ، هذه قيم لا بد منها ولا يزال شيوخ جدة يعرفونها فأين ذهبت .. إنها قيم اقتضتها ظروف العصر وحاجات العصر ثم ما لبثت حاجات وظروف عصر آخر أن قضت عليها دون أن تتكلف لها أي عناء . ما لنا ولهذا الإستطراد .. كنا في موضوع القهوة التي فشت أول ما فشت في جدة كمودة جديدة ثم ما لبثت أن انتقلت إلى مكة نتعثر في عواقبها ونقاسي من أجلها بينما تمضي جدة لتتمتع بما فنت دون اعتراض .

أفتى علماء مكة أن القهوة شراب مسكر واستطاعوا أن يستصدروا أمراً بجلد بائعها وطاحنها

وشاربها فكان الناس يتعاطونها في أقبية بعض البيوت فإذا هاجمهم المكلفون سحبوهم بالعنف إلى ساحة عامة وضربوا رؤوسهم بأوانيها وكانت من الفخار حتى تدميهم وربما قضى بعضهم من هول الضرب وربما اكتفوا في ذلك بجلدهم بالسوط .

ومما يذكر للعثمانيين في تاريخ جدة أن أوامرهم صدرت بجلاء النصارى عن جدة في بعض السنوات تبلغ الأمر قائد الجيش في جدة عام ١١٠٠ فنادى مناديه بألاّ يبقى في جدة غير المسلم وأمر من يتعقب ذلك فغادرها غير المسلمين من سائر الملل إلا بعض الشطار الذي اقتضت مصالحهم أن يعلنوا إسلامهم ليعيشوا في جدة .

كانت جدة يومها لا تعرف التمثيل الأجنبي فإن أول ممثل سياسي عرفته جدة كان في أوائل القرن الثالث عشر الهجري وإذا أردنا التحديد ففي عام ١٢١٦ هـ فقد وصل أول قنصل إنكليزي لمباشرة أعمال القنصلية في جدة فاتخذ داراً خاصة بذلك رفع فوقها راية البريطانيين .. فكانت أول راية أجنبية ترفع في أفق جدة مما أثر دهشة المحافظين في جدة ودعا إلى استنكارهم وسياق التمثيل الأجنبي هنا يذكرني بحادثة مهولة لا أرى بأساً من أن تخطي عشرات الحوادث في عشرات السنين لأروي حكايتها المروعة قبل فوات مناسبتها .

بدأت قصة الحادث في عام ١٢٧٤ بتاجر من جدة اسمه صالح جوهر .. كان صالح هذا يملك مركباً بحرياً وكان يرفع على ساريته علماً انجليزياً لأسباب لم توضحها رواية القصة .. قصارى ما روته القصة أن صالحاً هذا عن له في أحد الأيام أن يستغني عن العلم الإنكليزي بعلم عثماني فما كاد يفعل حتى بلغ القنصل الإنكليزي ما حدث فاندفع إلى المركب مستشيطاً على غير عادة الإنكليز ولعل للبيئة أثرها أو لعل إحدى جداته كانت من سلالة عربية .. إندفع إلى المركب فأنزل العلم العثماني وأهانه وأعاد في مكانه العلم الإنكليزي .. وهنا جاء دور الدم العربي في أعلى فورته فقد تسامع الناس في جدة بالخبر فثارت ثائرتهم وهجموا على بيت القنصل فقتلوه ونهبوا بيته .

ترى كم يساوي دم صاحب السعادة .. لا سيما إذا عرفنا أن الدولة العثمانية بدأ ميزانها الدولي في هذا العهد يتضاءل عما كان بينما شالت الكفة الأخرى بشكل محسوس .

تقول القصة أن المولى العثماني نامق باشا ما كاد يتبلغ الخبر حتى أسرع إلى إلقاء القبض على المتهمين بالحادث وسجنهم ثم كتب إلى دار السلطنة بما حدث .

ومضى شهر و بعض شهر .. طبعاً لا روتر .. ولا وكالة صحف ولا مذياع .. وكدت أقول ولا تلفزيون ولا طيارات ولكني خفت أن تتهموني بالمبالغة ؟ .

مضى شهر و بعض شهر فإذا الناس يستيقظون في أحد الأصباح على أصوات قنابل يدوي هزيمها فلما استوضحوا الأمر علموا أن مركباً حربياً إنكليزياً - كده وإلا بلاش - على كثب من الميناء يقذفه بقنابل مهلكة ففزع الأهالي بجدة وخرجوا هاربين في جموع كثيفة إلى مكة .

واتصلت الأخبار بالناس وهم في منى أيام التشريق فعم الفزع واشتد القلق ودعا نامق باشا كبار الأهالي والأشراف إلى مجلس لبحث الأمر فأشار المجتمعون عليه فاستنفر القبائل من

كل نواحي الحجاز لقتال المعتدين .. (يحسبوها هوشة) فلم يعجب نامق هذا الرأي وأشار بأن تصحبه لجنة منهم إلى جدة لمقابلة قائد المركب الحربي ومفاوضته في الأمر فقبلوا .

وانتهت اللجنة إلى جدة واجتمع أعضاؤها بالقائد واستطاعت إقناعه بتأجيل الأمر حتى تصدر أوامر الخليفة بما يجب .

ومضى شهر و بعض شهر - طبعاً ما في طيارات - فإذا لجنة مختلطة من بعض الأتراك والإنكليز والفرنسيين تصل إلى جدة تحمل أمراً من الخليفة إلى نامق باشا بتفويضها في تحقيق الحادث وتنفيذ ما تحكم به حكماً قاطعاً دون أن يراجع فيه الباب العالي .

وأظهر التحقيق أن باعث الحركة هو الشيخ عبدالله المحتسب وكبير الحضارم سعيد العامودي - وهو طبعاً غير أستاذنا اليوم - وقاضي جدة عبد القادر شيخ والشيخ عمر باديب والشيخ سعيد بغلف وشيخ السادة عبدالله باهارون والشيخ محمد عبد الغفار والشيخ يوسف باناجة فحكمت اللجنة بقتل المحتسب والعامودي كبير الحضارم ونفي بقية الأشخاص إلى خارج البلاد كما جرى الحكم بقتل (١٢) شخصاً من عامة الناس أدينوا باشتراكهم في إثارة الفتنة .

و بموجب هذا نفذ الإعدام فيمن ذكر على ملأ من الناس في أوائل ربيع الأول عام ١٢٧٥ هـ كما نفذ حكم النفي في الباقين .

ومما يذكر على هامش الخبر أن اللجنة ما كادت تغسل يدها من دم القتلى حتى قابلت أمير البلاد لتستأذنه في زيارة مكة فلم تظفر منه بطائل .

وتتداعى المعاني الدامية أمامي فأتذكر من حوادث جدة قصة أخرى مثل هذه الروعة القصة التي نحن بصددها من قبيل (يفعلوها الصغار و يقع فيها الكبار) .. تبدأ القصة في المدينة المنورة بين أغوات المسجد النبوي وتنتهي هنا في جدة و بالتحديد في حارة المظلوم .. و بهذه النهاية سميت الحارة حارة المظلوم .

تقول القصة أن رجلاً من توابع الأغوات أراد الإنخراط في الجندية فحيل بينه و بين ذلك فغضب لأجله اغوات المسجد (كذا من الباب للطاق) غضبوا له وأغلظ بعضهم القول لرجال الحامية فثارت الفتنة كان ذلك في عهد الشريف مبارك بن أحمد بن زيد حوالي عام ١٣٣٠ هجرية .

ثارت الفتنة وتحصن الأغوات بالمسجد النبوي فأراد قاضي المدينة أن يتلافى الأمر و يتوسط

للصلح .. ولكن أغواتنا أبوا ذلك عليه . طلب إليهم أن يندبوا من يحضر مجلس القضاء فأبوا ذلك عليه فاستاء القاضي واعتبر امتناعهم عصياناً للشرع وأمر بقتالهم في المسجد فقاتلوهم فيه ولذلك عطلت صلاة الجماعة . ثم ما لبث الأغوات أن طلبوا الأمان فأبى رجال الحامية التركية إلا أن يقدموا كبارهم إلى مكة ليرى الشر يف مبارك رأي الشرع فيهم فقبلوا ذلك وتقدم كبارهم خمسة أو ستة أشخاص اعتقلتهم الحامية وأرسلتهم إلى الشريف في مكة فثبتت إدانتهم وحكم على بعضهم بالعقوبة وعلى البعض الآخر بالنفي .

وأراد الأغوات أن يثأروا لأنفسهم فاتصل بعضهم بعاصمة الخلافة في تركيا وأقنعوا المسؤولين بأنهم كانوا مظلومين وأن أسباب الفتنة كانت سعاية بعض أهل المدينة على رأسهم عبد الكريم البرزنجي وكان من جملة علمائها فصدر أمر الخليفة بقتل المذكور و بعض المتهمين معه ففر البرزنجي إلى جدة وقبض حاكم جدة على عبد الكريم البرزنجي ونفذ فيه حكم الإعدام شنقاً ثم تركه مسجى في بعض الشوارع حتى توسط له بعض المقربين ودفنوه في الجهة التي تسمى اليوم باسمه حارة المظلوم نسبة إليه .

والحادثة التالية تروي لنا لوناً مما كانت تقاسيه جدة من جراء احتكاكها بأحداث مكة أو بأحداث حكام مكة بوجه أصح .. تتلخص الحادثة في أن مساعد بن سعيد وهو من أشراف ذوي زيد وكان قد تولى أمر مكة في عام ١١٨٢ اشتد خلاف مساعد هذا مع جماعة من أشراف ذوي بركات وهما بيتان عريقان في مكة كانا يتناوبان إمارتها بالتغلب أو التعيين وهما غير أشراف العبادلة فالعبادلة بيت ثالث آل إليهم الأمر في أواخر أيام العثمانيين وكان منهم الشريف عون صاحب النهضة لحسين بن علي وهو جد الحسين ملك الأردن اليوم .

ما لنا ولهذا اشتد الخلاف بين مساعد وآل بركات فأصر آل بركات على إجلاء مساعد وآل بيته من ذوي زيد فجمعوا جموعهم في وادي فاطمة وقرروا الهجوم على جدة ليحتلوها كخطوة نحو القضاء على حكم مساعد أحاطوا بسور جدة فتحصن أهلها فرموهم بالكبريت المشتعل جعلوه في نشابات وأخذوا يقذفونهم به فاحترقت العشش حول السور ومع هذا لم يظفروا بطائل .

قرّ قرارهم أن يستعينوا بثائر مصر يومها محمد علي بك يلوط .. وأقول ثائر مصر لأن محمد علي بك يلوط كان قائداً للحامية العثمانية في مصر فعن له أن يثور على العثمانيين و يستولي على مصر وقد فعل وكتب له نجاح الإستيلاء ووجد في مندوب الأشراف من آل بركات فرصته ليستولي على الحجاز لهذا أجاب طلبهم على الفور ولكن حملته لم تظفر بطائل وعن له أن يستأنفها بعد سنوات فمضى قائده أبو الذهب إلى ينبع فاحتلها والي جدة

فتحصن أهلها بسورهم واستماتوا في الدفاع فتركوهم وسورهم ومضوا إلى وادي فاطمة ثم انحدروا إلى مكة فأجلوا ذوي زيد .

ثم ما لبث ذوو زيد أن أستأنفوا الكرة ففر المصريون إلى جدة وقد قيل أنهم وجدوا في جدة من أعانوهم على دخولها ليتحصنوا بسورها فما انتهى الخبر إلى ذوي بركات حتى جمعوا جموعهم ومضوا حتى عسكروا في غليل واستطاعوا أن يقتحموا جدة وما أن احتلوها حتى هاجموا بيوت التجار ومخازنهم فنهبوها فباتت جدة لا تجد تموينها واشتد غلاء الأسعار وعم الكرب معظم البادية حول جدة حتى أكل بعض أهل البادية الهررة والدم المسفوح من شدة الجوع وكان الرجل في جدة يقضي يومه بحثاً عن رغيف في أسواقها فلا يجده كان ذلك في أواخر الآخرة من عام ١١٨٤ وقد دامت الشدة إلى نهاية ذي الحجة من ذلك العام قاسى فيها أهل جدة ما لا يوصف من أنواع الكروب علاوة على القتل الذي استعر بين أعيانها وخاصة أهلها بصورة لم ينج منها إلا الفارون الذين استطاعوا ركوب البحر إلى البلاد الآمنة .

وبهذا استقر الأمر لذوي زيد في الحجاز وكان على رأسهم الشريف أحمد بن سعيد ولكن الخلاف ما لبث أن نشب بين أحمد وابن أخيه مساعد بن سرور وكان لجده دورها فيما ترتب على هذا الخلاف من نتائج كان وزير الأمير في جدة الشيخ يوسف قابل وكان قد بات قطنه ارتياب عندما فتحت جدة بابها للمصريين فرأى الشريف أن يعزله ولكن عزله لا يتم بالسهولة التي يتوخاها لمكانته بين أهل جدة فماذا يفعل .

كتب كتاب العزل وسلمه إلى شريف من خاصة بيته وعززه بقوة تقبض على الشيخ وتقوده مكبلاً إلى مكة في غفلة من أنصاره .

ترامى الخبر إلى الشريف سرور بن مساعد فوجدها فرصة سانحة يستطيع أن يخدم بها نفسه فامتطى دابة مسرعة سبقت مندوب الأمير إلى جدة و بوصوله أسر الأمر إلى الشيخ يوسف واستطاع أن يهيئه للأمر ، سأتولى يا يوسف حشد الجموع .. وتتولى الإنفاق عليها .. سنقضي على إمارة أحمد في مكة ونستولي على زمامها ولقد كان .. قد تركا في جدة بعض أنصارهما وأخذا طريقهما إلى وادي فاطمة حيث حشدا كثيراً من رجال البادية واستنفر بعض القبائل من عتيبة وتابعا بهم السير إلى العابدية على كيلومترات من عرفة ثم دفعا إلى المنحنى .. وهاجما مكة فاستوليا عليها ونودي بسرور أميراً فيها في نحو منتصف القعدة عام ١١٨٦ هـ .

ومع هذا لم يستقر الأمر بالشريف سرور طويلاً فقد كان أحمد عنيداً طويل النفس طل يحشد

القبائل فيكر على سرور المرة تلو المرة ليجليه عن مكة حتى بلغت كراته نحو عشرين مرة دامت نحو سبع سنوات قاسى خلالها أهل مكة كما قاسى أهل جدة من الآلام ما يجل عنه الوصف ولم يهدأ الأمر حتى ظفر سرور بعمه أحمد وأودعه السجن في جدة تحت إشراف الشيخ يوسف قابل وظل في سجنه حتى وافته المنية .

ومن الحوادث التي روعت جدة حادثة قتل الحسين الشهيد أمير مكة وهو يترجل عند باب الشيخ محمد عمر نصيف والحسين الشهيد هو أمير مكة الشريف الحسين بن محمد بن عون تولى أمر مكة في عهد الدستور العثماني وعندما استطاع السلطان عبد الحميد أن يلغي الدستور قيل إنه أراد أن يضع حداً لإمارة الحسين الشهيد فقد كان من أنصار ثورة الدستوريين فأوعز كما تدعي الرواية إلى بعض جواسيسه ليقضي على الحسين فتربص به حتى علم أنه مدعو لوليمة خاصة في جدة في بيت الشيخ عمر نصيف فاندس في زي درويش بين المستقبلين عند باب آل نصيف وتقدم إليه يطلب تقبيل يده وما كاد حتى طعنه بخنجر مسموم كانت فيه القاضية كان ذلك عام ١٢٩٤ هـ .. روع الحادث جدة وروع أهلها ووجهاءها وأعيانها بشكل خاص فقد كان المظنون أن تحوم الشبهة حولهم فيقال إنهم دبروها مكيدة ضد الأمير .. دعوه إلى وليمة أحد أعيانهم ودسوا له من يقضي عليه وزاد الإيقاع واشتد أساه عندما علموا أن السلطة الحاكمة شرعت تذيق القاتل ألواناً من التعذيب المفرط ليبيح لهم عن سر الجهة التي عمدته وأسماء شركائه في الجريمة فقد تخيل لهم أن فرط التعذيب ربما حمل القاتل على اتهام أقرب جهة يتراءى له أن يتهمها ليتخلص مما يقاسي وليس أمامه أقرب من اهل البلدة التي دعي إلى وليمتها ولكن الرجل كان أصلد من أن ينبس بحرف كاذب كان قراره رغم ما قاسى من أنواع التعذيب أنه ليس ثمة دوافع إلاّ من نفسه وأنه لا شريك له فيما أجرم وعندما حكم على الرجل بالإعدام بعد أن ثبت أنه المسؤول وحده عن فعلته شملت الفرحة سائر الطبقات في جدة وشوهد أعيانها يحتفلون بفرحهم في ولائم أقيمت في أكثر حاراتها ووزعت الصدقات بشكل واسع وظل ذلك دأبهم طوال أسبوع كامل .

وقد تراءى لي وأنا أكتب عن الحسين الشهيد في تاريخ مكة أن باعث الجريمة فكرة مغلقة وأنه ربما ترتب عليها سبب سري يحسن أن يكشف عنه التاريخ فعن لي أن أزور كبير جدة ووجيهها فضيلة الشيخ محمد نصيف لعلي أجد عنده ما يفسر معميات الأمر وهو دون شك خير من يستطيع تفسيره فقد كانت الوليمة في بيت عمه عمر نصيف وإذا كان هناك ما يمكن استنتاجه فإن آل نصيف أقرب لصحة الإستنتاج من غيرهم .

ولم يبخل الشيخ محمد علي برأيه في الموضوع وشرع يحدثني بما يعتقده باعثاً للجريمة كما فهمه من بعض المختصين قال :

إن عبـدالله عن محمد بن عون شقيق الشهيد كان في عهد إمارته قد اغتال محمد. شرواني باشا الـداغستاني والي مكة فأراد أخو المقتول أن يثأر لأخيه فلما انتهى إلى مكة كان عبدالله بن محمد بن عون قد توفي فطعن أخاه الحسين أخذاً بالثأر .

أحسبني أطلت ومشائخنا القدامى رحمهم الله كانوا يقولون في التطويل كلت الهمم وعجائزنا وما أحكم عجائزنا أحياناً يقولون : خف تعوم .. ما أحلى أن أعوم والسلام عليكم .

الرجولة.. بين مضارب البادية القديمة!

تطربني قصص الرجولة وتلذ لي وربما هزت أعطاف كل شاب تابع حوادثها المثيرة بين مضارب العرب ومنازلهم .

بلغ من طربي لهذه القصص أنني تحدثت في المذياع عن جانب قصير منها ثم تداعت المعاني فإذا أنا أمام آفاق من البحث لا تستوعبها الدقائق التي يقننها المذياع لمثل هذه البحوث .

لهذا جئت اليوم لأصدح بالغريب من الكثير الذي قرأت .

إنها فكرة ستروقكم .. تروق شبابنا أحفاد أولئك الأشاوس . حرى بهم أن يستعيدوا ذكر الرجولة رجولة أجدادهم ليعرفوا إلى أي حد بلغت بهم هذه الشمائل التي كانت تتمثل في آبائهم ، في نخوتهم في مروءتهم ، في صبرهم على المكاره في مقاومتهم لأعتى الشدائد ابتداء من مضاربهم وخيامهم التي كانوا ينزلونها في أحضان الجبال أو معارج الوديان إلى أن انطلقوا يركزون رايتهم ، فوق أعلى حصون الدنيا و يفرضون كلمتهم على أقوى دولتين كانتا تقتسمان العالم .

لا نريد أن نكون عظاميين نفخر بأحداث عفا عليها الزمان أو عظام باتت نخرة ولكنه درس يتعين علينا أن نتعرف على ضوئه نوع المكان الذي يجب أن نتبوأه لندلل على أهليتنا كورثة لأولئك الأشاوس الأبطال .

لقد غزتنا مدنية الغرب بنفاياتها حتى شاع الانحلال بين كثير من صفوفنا ونسينا كثيراً من معاني النخوة والمروءة وقوة الكفاح وهي من أهم شمائل الرجولة التي ازدهرت يوم كان أجدادنا يعتزون بحيوتهم ولا يحبون الخمول الذي يسودنا اليوم .

نحن لا نشك في أن مدنية الغرب حكمت الطبيعة في شتى صورها فحلقت في آفاق عالية لا نعرف كيف نتخيلها وغاصت في أعماق لا ندري ما نهايتها واخترعت لمرافق الحياة ما لا مزيد عليه لمستزيد . لا ننكر هذا ولا ننكر أنهاما فعلت وطأت لنا حياة لينة حياة انسقنا وراءها دون أن نتكلف لها ولا يفسد حياة الأمم شيء مثلما يفسدها العيش الطري والبلهنية الرخوة .

لقد شاد الغرب مدنيته على أساس من النظريات العلمية والمبادىء التكنية فأمعن فيما شاد ونظر حتى نسي في غمرة ذلك ما وراء المادة من مزايا روحية ومثل أخلاقية وبات كائناً يتميز بكثير من مميزات الوحش الضاري فاستطاع في النهاية أن يستعمر .. لم يستعمر الأرض وحدها بل استعمر العقول والمفاهيم حتى إذا شد رحله من هناك أو هنالك إلى غير رجعة ترك المفاهيم الملوثة وراءه لتتلوث عقول الأمم . لقد فتن الغرب بما هيأت له اختراعاته من ظفر فاضطربت بين يديه المقاييس وضل سبل الخير والجمال أصبح مبلغ فهمه في الحياة أن يعبث بما في الحياة من فضائل فانحلت أخلاقه واستباح لشهواته أكثر مما ينبغي .

واستطاع أن يغرينا بما يلمع من حضارته وما يتألق من كفاءته فأكبرنا مع كل أسف لمعته وألقه فمظاهر القوة تغري كل ضعيف وتهيئة للاقتباس والتقليد وربما أنسته ضعفه وما يقاسيه من طغيان القوى لا . بل بيننا من يقلد حتى أو باشه في سفاسف الأمور فالشاب الغاوي يترك سوالفه تطول وشعره يتنافر كقطن منبوش لماذا ؟ ليقال إنه خنفس .. مسكين يا هذا ألا تدري أن الخنفس الأصلي يعيش سبهللاً يحرم على نفسه الصابون والماء وينام عند أول رصيف مهما كانت قذارته وربما صادفته في الطريق فأزكمت أنفك رائحته تنبعث من ثيابه بشكل لا يطاق .. لم كل هذا لأنه فيلسوف يرى أن يعيش الحياة على طبيعتها دون أن يتكلف أي شيء .

مسكين يا هذا إن ثوبك المصقول وبزتك المكلينة لا تتفق مع الشعر المنبوش . وهو أسلوب لا يقره أستاذك الخنفس .

أخشى ما يخشاه كل غيور أن تنسى أمة العرب ما مضى من أمجادها تحت تأثير التقليد الأعمى ، وانسياقاً وراء بلهنية العيش فيظلوا حياتهم أسرى لمن يملكون نواصيهم وليس بينهم وبين أن يغضبوا لكرامتهم إلا أن يدرسوا ما تعشق آباؤهم من معاني الرجولة بشتى شمائلها من أمجاد تميزت بها عصورهم الذهبية .

أيقال ان طغمة من طغام اليهود كنا نسميها عصابة استطاعت أن تطأ أرضنا ، وتضع أيديها على ممتلكاتنا وتشرد رجالنا وتستبد بالبقية الباقية منهم فتملي إرادتها عليهم ونحن نفوقهم عدداً يتخطى أضعاف الأضعاف .

أين رجولة العربي أين حميته أين شمائله التي كانت لا تخضع للهوان ولا تقبل الصغار ؟

أين منا رجولة الرجل الجزل عمرو بن كلثوم الذي ثارت ثائرته لصوت أمه عندما شعرت بالذل وهي في ضيافة عمرو بن هند .

قالوا إن أم ملك الحيرة ، تركتها تجلس في صفوف الخدم ونسيت أنها ضيفة . وقالوا إنها أشارت إليها لتؤدي خدمة من نوع ما وكأنها جهلت أنها أم عمرو بن كلثوم فلم تتمالك الأم أن صرخت غاضبة .. يا لثعلب . واذلاه فوثب ابن كلثوم إلى سيفه وأسرع يستوضح أمرها فلما علمه لم يتوان ولم يتردد حتى وضع السيف بين لحى عمرو بن هند فقتله وفي هذا يقول ابن كلثوم :

بأي مشيئة عمرو بن هند — نكون لقيلكم فيها قطينا
بأي مشيئة عمرو بن هند — تطيع بنا الوشاة وتزدرينا
فإن سيوفنا يا عمرو أعيت — على الأعداء قبلك أن تلينا
إذا ما الملك سام الناس خسفاً — أبينا أن نقر الذل فينا
لا لا يجهلن أحد علينا — فنجهل فوق جهل الجاهلينا

أين منا شمائل هذا الفتى الجزل ونحن نشهد رجالنا ونساءنا وأطفالنا يسامون سوء الخسف في فلسطين وفي كثير من بلاد العرب والإسلام .

ليس لنا إلا أن نعيدها جذعة لا تحول دونها قرارات تصدرها الأمم المتحدة ولا يثنينا عنها أي حل يزعمونه ليحتالوا علينا بتنازلات تثلم شرفنا .

ليس لنا إلا أن نستعيد ذكرى رجولة العربي وشمائله وغيرته .

يقول المتلمس وهو من أشهر من عرف بالرجولة بين مضارب العرب :

ألم تر أن المرء رهن منية — صريع لعافي الطير أو سوف يرمس
فلا تقبلن ضيما مخافة ميتة — تموت بها حراً وجلدك أملس
وما الناس إلا ما رأوا وتحدثوا — وما العجز إلا أن يضاموا فيجلسوا

عاش العربي في خيمته أول ما عاش حتى قبل أن ينطلق تحت راية محمد صلى الله عليه وسلم لا يضام فيجلس وكان يرى من العار أن يحني رأسه للشدائد بل عليه أن يقتحم غمراتها .

عاش العربي فتوة في خيمته رياضياً يباهي بقوته يباهي بمضائه وعزه وقد يتخطى دور الشباب ولكنه مع هذا تأبى فعاله إلاّ أن تدرجه مدارج الشباب الرياضي يقول شاعرهم :

يا عز هل لك في شيخ فتى أيد — وقد يكون شباب غير فتيان

عاش العربي فتوة في خيمته بين متاهات الصحراء فتركت الصحراء أثرها في جبلته ..

عاش لا يمتد بصره إلا إلى جبال جرداء ورمال تموج بشواظ يتلظى ورياح تعصف فلا تبقي ولا تذر فانطبع بهذه القسوة وألف خشونتها .

عاش لا تضعضعه الكوارث مهما بلغت شدتها ولا تخيفه الأهوال مهما اشتدت رهبتها وهذه أخلاق الرياضي والكشاف .. يقول سويد اليشكري :

كم قطعنا دون سلمى مَهْمَا نازح الغور إذا الآل لمع
في حرور ينضج اللحم بها يأخذ السائر فيها كالصقع

عاش العربي في خيمته فتوة حسبه من الطعام كسرة .. عاش لا يعرف الإسراف لا يعرف البشم الذي نعرفه اليوم عاش يطحن ما تهيأ له من حبوب الذرة والشعير والقمح ويعتمد إلى جانبه اللبن أو مشتقات اللبن أو تميرات تقمن صلبه فلا يفرط ولا يتفنن ولا يطمع في تلوين كما يفعل المتخمون أمثالي ممن ترهلت أجسامهم وتعددت أمراضهم يقول شاعرهم :

فتى قد قد السيف لا متضائل ولا رهل لباته وأباجله
إذا جد عند الجد أرضاك جده وذو باطل إن شئت أرضاك باطله
يسرك مظلوماً ويرضاك ظالماً وكل الذي حملته فهو فاعله

عاش العربي في خيمته لا يرضى أن يضمه قصر يحد ، من رحابة صدره فهو معتز بكفاءته جد في الذود عن حياضه وما يملك من إبل وماشية .

عاش بشرف في خيمته على سهول مترامية أو صحراء شاسعة يرهف سمعه لكل حركة فتعلم يقظة الحس وتمرس على مراقبة الخطر وليس كنهاء الحس ما يعد الرجل لأهوال الحياة يقول شاعرهم :

لا مترفاً إن أرخى العيش ساعده ولا إذا حل مكروه به خشعاً
لا يطعم النوم إلا ريث يبعثه هم يكاد حشاه يقطع الضلعا

عاش العربي في خيمته يهدده الجوع فلا يبالي الطوى ويشتد به العطش فلا يبالي ألم العطش وتصهره السموم فلا يبالي لظى السموم وتحدق به الأخطار فلا يبالي ما تحدق الأخطار ومع هذا :

فإذا نظرت إلى أسرة وجهه برقت كبرق العارض المتهلل

صعب الكريهة لا تنال جنابه ... ماضي العزيمة كالحسام القصل
يحمي الصعاب إذا تكون كريهة ... وإذا هموا نزلوا فأوى القيل

كان العربي إلى جانب ثقته بنفسه وصبره في الملاقاة يهمه أن يعني بعدته ليملك ناصية الظفر ومن أهم عدته إذا جد الجد فرسه الأصيل ففي رأيه :

الخير ما طلعت شمس ولا غربت ... معلق بنواصي الخيل معقود

بلغ من عنايتهم بالفرس الأصيل أن يحتاطوا لنتاجه لئلا يتدنى نتاجه أو يحفظوا نسبه كما يحفظ الرجل المذكور سلالته ، التي ينحدر منها وهنا نسمع العامري يهيب بقومه :

بني عامر مالي أرى الخيل أصبحت ... بطاناً وبعض الضر للخيل أمثل
بني عامر إن الخيول وقاية ... لأنفسكم والموت وقت مؤجل
متى تكرموها يكرم المرء نفسه ... وكل امرىء من قومه حيث ينزل

ومن يقرأ بلوغ الأرب للألوسي أو العقد الفريد لعبد ربه يعجب لإعزازهم الخيل فقد كانوا لا يقرون رجولة الرجل منهم إلا اعذا حاز فرساً أصيلاً لا يقعقع بالشنان ولا يهاب حلبة الميدان وقرع السلاح بالسلاح .

يستطيع الفتوة المقدام ، أن يحتمي بظهر فرسه وأن يهوي به إذا ازدحمت المناكب كأنه الصقر .

وللفتوة بعد هذا سيف بتار ورمح لدن وقوس مطواع ولكن البسالة في أسمى معانيها أن يمتطي فرساً لا يزور ليرمي بغرة وجهه أعتى مقدام . وأن يشهر سيفاً يقد الدروع بذلك يخوض المعمعة ولا يحسب لها حساباً ولا يعوقه عن الإقدام عائق مهما بلغت خطورته وهو أكثر مضاء ، عندما يدافع عن عرينه أو يقف دون عرضه أو شرف قومه وربما بلغت ثقته بنفسه ، أن يتعرض للخطر في خيلاء من لا يخاف عدواً يترقب أو صاحب ثأر يترصد .

هذا فتوتنا طريف بن تميم كان يحس إذا نزل عكاظاً أن بعض القبائل ترسل بعض عرفائها ليتحققوا من وجوده ولكنه لا يبالي . لنسمعه يقول :

أو كلما وردت عكاظَ قبيلة ... بعثوا إليّ عريفهم يتوسم
فتوسموني أنني أنا ذاكم ... شاك سلاحي في الحوادث معلم
تحتي الأغر وفوق جلدي نثرة ... زغف ترد السيف وهو مثلم

فعودة يا شباب العرب إلى شمائل أجدادكم عودة إلى التقشف وإلى مواجهة الحياة في شجاعة الباسل وقوة الرياضي وصبر الكشاف .

إن بلهنية الحياة و يسرها تميت حوافز الكفاح وتقتل في النفس عوامل الغيرة .

لا أقول إن الخيل جنة الشجاع اليوم ولا أقول أن السيف عمدة الفتوة في ميادين النضال فثمة إعداد لا نهاية لإشكاله إعداد يعتمد أول ما يعتمد على الثقة بالنفس وتمرينها على مواجهة الحوادث بقلب جريء وعزيمة ماضية وعقل يتبصر الأمور و يعرف كيف تؤكل الكتف

ولا يحسب الذين يسمعون أنباء أصحاب الفتوة أنهم كانوا إخوان شر تغريهم شجاعتهم بتحدي الناس أو أذاهم فتلك شراذم من قطاع الطرق وأصحاب السلب والنهب وكانت لهم سيئاتهم . كانوا منبوذين وكانت السلطات حرباً عليهم فكانوا يتسترون ما واتهم التستر في مغارات الجبال وكهوفها ولا يظهرون إلا عندما يغيرون أو ينهبون .

أما العربي الفتوة فظاهر المأوى واضح القصد لا يعتدي إلا إذا تحداه مغير أو استضعفه متجبر أو احتكت به قبيلة معادية أو ناداه ثأر، لا سبيل لنسيانه . وهومع ذلك كان على مزايا نبيلة لها قيمتها بين جلال الفضائل . كان لا يطعن خصمه المدبر ولا يجهز على عدو تعثر أو سقط سلاحه ولا يحقر أسيراً إذا خانه طالعه ولا يقتحم مخابيء النساء ليؤذيهن و يعرف للشجاع مكانته ولو كان من ألد خصومه .

وهنا نسمع عيد الشارق الجهني ينصف أعداءه :

فلما لم ندع قوساً وسهماً مشينا نحوهم ومشوا إلينا

هذه أخلاق رياضية نتمناها لشبابنا الرياضي على الأقل عند اللقاء . يقول :

فلما لم ندع قوساً وسهماً مشينا نحوهم ومشوا إلينا
وشدوا شدة أخرى فجروا بأرجل مثلهم ورموا حوينا
وكان أخي حوين ذا حفاظ وكان القتل للفتيان زيناً
فآبوا بالرماح مكسرات وأبنا بالسيوف قد انحنينا

ما أحلى أن نقول : والله دوخناهم لكن كمان دوخونا . والله هم شطار ـ بس الهوا ما جاء سوا ـ وكان أصحاب مسلك الفتوة كرماء إلى جانب ما تقدم فلا يكاد ينزل الضيف بأول خيمة

يصادفها في القبيلة حتى يجد ما يحتاجه من الطعام والماء مبذولاً وربما ذبح أصحاب الخيمة شاتهم للضيف رغم أنها ذخيرتهم ، في الحياة يقتاتون وأطفالهم من لبنها .

ولا يقتصر الكرم على مثل هذا فقد كانوا يفتحون بيوتهم لكل لاجيء أو محتم يطلب الجوار قبل أن يسألوه عن جريمته .

وقد يكون اللاجيء مجرماً خطيراً ولكن الشهامة الرياضية شهامة الفتوة لا تتيح له أن يمنع حمايته بعد أن دخل في حماه مهما عرضه ذلك للأخطار . بل أن بعضهم تمادى في كرمه فقبل حماية خصمه أو أحد أعداء قبيلته لأنه لجأ ونزل في حماه .

وكانوا إلى هذا يلبون دعوة المكروب و يغيثون طالب النجدة إذا طلبها ولو كان الأسير يستجير بهم فلا يخيبون أمله يمدونه بأموالهم أو وجاهتهم حتى إذا عجزوا بادروا بإنقاذه بسيوفهم وهنا نستمع إلى دريد بن الصمة :

أعاذل إنما أفنى شبابي	**ركوبي في الصريخ إلى المنادي**
مع الفتيان حتى كل جسمي	**وأقرح عاتقي حمل النجاد**
أعاذل عدتي بدني ورمحي	**وكل مقلص شكس القياد**
ويبقى بعد حلم القوم حلمي	**ويفنى قبل زاد القوم زادي**

هي ذي بعض شمائل المعروفين بالرجولة بين خيام العرب تمرسوا عليها من نعومة أظفارهم فنشأوا على الرجولة فليت شبابنا وهو يتمرس على ألعاب الكرة على الأقل يقدر أنها ليست لعبة وإزجاء للفراغ بقدرما هي تمرين على الرجولة بأرقى معانيها في أسمى مجالاتها .

ونحن هنا بدأنا بالعربي في خيمته لأن الخيمة كانت أول نشأته ولو اتسع الوقت لجئنا بالكثير والكثير والعجيب عن العربي بعد أن انطلق ليذب عن حياض الإسلام و يقتحم الصفوف في ظل راية القرآن .

عبد الله بن الزبير
صاحب فكرة في تاريخ مكة ..

كلكم يعرف أن يزيد بن معاوية ما كادت تتم له البيعة في الشام على أثر وفاة معاوية حتى كتب إلى واليه بالمدينة ليأخذ له البيعة من المعارضين فيها فأرسل الوالي يستدعي الحسين بن علي وعبدالله بن الزبير فطاولاه حتى خرجا إلى مكة في جملة من أنصارهما كل في قافلة .

أما الحسين فقد توافدت إليه رسل الشيعة من العراق يطلبون إليه أن يبادر بالذهاب إلى العراق فشد رحله إليه في جملة من آله وأتباعه فما كاد ينتهي إلى كربلاء حتى أحاط به جيش بني أمية وقضوا عليه وعلى آله وأتباعه بصورة مفزعة تجدها مفصلة في مظان التاريخ مما لسنا اليوم بصدده .

وهنا يأتي دور ابن الزبير في مكة .. ولتحقيق هذا الدور علينا أن نعود إلى سنوات مضت .

لقد عاش عبدالله بن الزبير يحس إحساساً عميقاً بأهليته للخلافة من أول يوم أمره عثمان بن عفان على داره أيام الثورة ضده وعاش يؤلمه انتقال الخلافة إلى غير مثولها من بلاد الشام و يرى أن مكة كفيلة للمسلمين يجب أن تضطلع بشؤون الخلافة وأن تكون مركزها الدائم .

سكت ابن الزبير يوم ولي المسلمون علياً خلافة المسلمين ثم ما لبث أن انضم إلى حزب خالته عائشة أم المؤمنين ثم سكت عندما تناقلت الأخبار أن جيوش الشام بايعت معاوية .. ورأى بعينه الأمصار تنضم إلى هذه البيعة بما فيها من أجّله قريش وكبارها وعندما رأى معاوية يترضاه و يبالغ في التودد إليه « مرحباً يا ابن عمة رسول الله وابن حواريه .. يا غلام احمل إليه مائة ألف .. وارفع إليّ بجميع حوائجه » .

سكت كل هذه المدة الطويلة ورأى أن يدخل فيما دخل فيه المسلمون ولكنه ما لبث بعد لأي طويل أن وافته أنباء عزم من بالشام مبايعة يزيد بولاية العهد فهاله الأمر و بدأ يستقبل بعض المعارضين في داره بجوار باب الدريبة اليوم .. واتصلت أخبار أجتماعاته بعمرو بن سعيد بن العاص والي مكة للأمويين ولكنه لا يملك إلا أن يتغافل عنها لعلمه بمنزلة ابن الزبير بين عامة الأهلين في مكة كما اتصلت بالخليفة معاوية رضي الله عنه في الشام فشرع يعالجها بحلمه و يقابله بمعروفه و بره .

ومـات مـعـاويـة وبـويـع ليزيد في عام ٦٠ هجرية فأرسل يزيد كما أسلفنا إلى واليه بالمدينة لـيـأخـذ الـبـيـعة من الحسين وابن عمر وابن الزبير فكان ما كان ورأينا الحسين يمضي إلى العراق ليلقى حتفه وابن الزبير يظل في مكة ليوالي اجتماعاته .. والآن وقد جاءت الأنباء بوفاة الحسين بـن عـلي وكانت منزلته تطغى على منزلة ابن الزبير مما يمنع ابن الزبير أن ينهض على قدميه ويرفع صوته بالدعوة .

نحن الآن نصعد في منعرجات وعرة في جبل الفلق .. كانت مسالكه وعرة قبل أن يفلقه ابن الزبير ويمهـد دربـه وبـذلـك سـمـي جبل الفلق .. أترى هذه الأنوار الخافتة تلقى أضواءها على الـشـجـر الملـتـف في ذيل الجبل إنه بستان ابن الزبير مما يلي الحلقة القديمة اليوم .. هلم وانظر .. أتـرى ؟ .. مـا شـأن هذا الذي يتسلل أمامنا منحدراً بين شعاب الجبل النائية عن الدرب أحسب أنـه أحد عيون الأشدق والي مكة الأموي الجديد الذي اختارة يزيد ليترصد ابن الزبير .. تعال .. تعال .. نخالفه فلا شأن لنا بما يحدث .

الـواقـع أن الأشـدق والـي مـكة ما كان ليغفل عن حركات ابن الزبير المريبة ولكن ما عساه يـفـعـل إزاء رجـل لـه شأنه في مجامع قريش ربما قال الكلمة في طريقه إلى النقا فامتشق لها ألفا حـسـام مـن حـلـة المـعلاة إلى بركة الماجل في أطراف المسفلة ، حفل الأشدق بالأمر فبث العيون حول أنصار ابن الزبير ورتب الجواسيس ليحصوا حركة أتباعه وسن ما يشبه نظام مراقبة الأجانب لـيـتـعـرفـوا هـويـة الـقـادمين ويحققوا علاقتهم بابن الزبير دون أن يبيح لنفسه التعرض لأعمال ابن الـزبير خـشـيـة أن يـغـضبوه أو يثيروا حماس أتباعه .. ولكن ما أهل عام ٦١ هـ حتى بدأ ليزيد بن معاوية أن يؤدب ابن الزبير فجهز جيشاً من ألفي مقاتل أمر عليه عمر بن الزبير فسار الجيش حتى عـسـكـر بـعـضه في الأبطح وبعضه في ذي طوى فقابلهم ابن الزبير بمجموعة وأبادهم ثم أسر أخاه عـمـر وهـي أول حملة تأديبية ضد ابن الزبير .. واتصلت أخبار انتصارات ابن الزبير بالمدينة وكان قـد أثـيـرت فيها الإضطرابـات ضد اليزيد فكتب أعيانها إلى ابن الزبير يقولون (لما إذ قتل الحسن فليس مـن يـنـازعـك) وعـلـم يـزيد بالأمر فجهز جيشاً اقتحم المدينة وأباحها لجنده ثلاثة أيام .. فأضيفت بذلك مأساة جديدة إلى قتل الحسين في كربلاء .

مـا كـاد جيش يزيد في المدينة ينتهي من أعماله الحربية فيها حتى صدرت الأوامر إلى قائده مسلـم بـن عـقـبـة أن يتوجه إلى مكة للقضاء على ابن الزبير .. ولما كان في بعض الطريق توفي الـقـائد فأوصى بالقيادة للحصين بن نمير فمضى بالجيش حتى انتهى إلى مكة في أواخر سنة ٦٤ هـ في ظاهرها .

وخرج إليه ابن الزبير في جموعه من مكة و بعض القبائل من أطرافها ومن التحق به من أشراف المدينة فكانت المناوشات والتقى المبارزون .. وظلوا على ذلك حتى بدأ الجند بالشام نصب المنجنيق فنصبوه و رموا التحصينات بالنفط والحجارة فاحتك ذلك بالكعبة واحترقت كسوتها وتصدعت حيطانها و يذكر بعض رواة الأخبار أن أصحاب ابن الزبير كانوا يوقدون النار وهم في الكعبة فعلقت النار في بعض أستارها فسرت النار إلى سقفها فاحترقت وهي رواية كانت أقرب إلى الإعتدال . فالأمويون لا يرمون الكعبة وهم يستقبلونها في صلاتهم وظل القتال على حاله حتى وافت الأخبار بوفاة يزيد ففتر الحماس في صفوف جند الشام و رأى الحصين بن نمير أنه يقاتل منذ اليوم إلى غير غاية فطلب إلى ابن الزبير أن يجتمع به في ظاهر مكة وكان من رأيه « أن يزيد قد هلك وأنت يا ابن الزبير أحق بهذا الأمر فهلم وارحل معي إلى الشام فوالله لا يختلف عليك اثنان » .

ولكن ابن الزبير حسبها خدعة فرد عليه رداً أساءه فنفر منه ابن نمير ـ وفي رواية أن ابن الزبير ندم على ما كان من غلطته ـ فبعث إليه « أما الشام فلا آتيه لكن خذ لي البيعة من هناك إن شئت » و يعلق صاحب تاريخ الإسلام السياسي على هذا فيقول إن ابن الزبير كان متأثراً بالفكرة القومية وهي إعادة النفوذ والسيطرة إلى بلاد الحجاز كما كان في عهد النبي (صلعم)وأبي بكر وعمر وعثمان ولهذا أبى أن يغادر الحجاز .

وإني لا أستبعد تأثر ابن الزبير بالفكرة القومية فقد كان من أشد معاصريه تحمساً لها ولكني أفهم أن ذلك لا يمنعه من الرحيل إلى الشام لأخذ البيعة ثم العودة إليها بعد أن تستقر له الأمور وتستقر شؤونها . إذن فلا بد من عامل كان له أثره في امتناع ابن الزبير ولا أستبعد أن يكون ذلك هو خوفه من الخدعة التي أشارت إليها الرواية السالفة وليست الخدعة غريبة على مثل ابن نمير فقد يكون أرادها ليحمل خصمه إلى الشام غنيمة باردة لمن يتولى الأمر فيها وليس غريباً على مثل ابن الزبير وهو يضطلع بمهام خطيرة أن يكون حريصاً .

ومهما كان الأمر فقد اختلف الفريقان في هذا الإجتماع السلمي و رأى الحصين بن نمير أنه لا حاجة له في قتال لا يعرف غايته ففك الحصار ورجع إلى الشام أو قل بدا له أنه سيعاني طويلاً في مناجزة صناديد ابن الزبير .

و بهذا استتب الأمر لابن الزبير في مكة وما والاها و بايعه الناس فيها وفي المدينة ثم بايعه أهل البصرة والكوفة وأرسل إلى مصر واليمن فبايعه أهلها كما أرسل إلى خراسان فبايعوه واتفقت فرقة كبيرة من الخوارج على بيعته كما بايعه أهل حمص وفلسطين والعراق وسائر بلاد الشام إلا

دمشق .. ومن يتتبع تراجم الرجال وسير أعمالهم في مظانها لا يستغرب اتفاق الأمصار على بيعة عبدالله بن الزبير فقد كان رحمه الله ابن حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمه بنت الصديق وخالته عائشة وكانت نشأته نشأة القانتين المتمسكين بطاعته كان إذا سجد وقفت العصافير على ظهره تصعد وتنزل لا تراه إلا جذم حائط .

لا يستغرب أن يصمد ابن الزبير لدعوته و يثبت وقد عرف بالجلد وقوة العزيمة والصبر. حدث عمر بن عبد العزيز قال قلت يوماً لأبي سليكه صف لي ابن الزبير فقال : ما رأيت جاداً قط ركب على لحم ولا لحماً على عصب ولا عصباً على عظم مثله ولا رأيت نفساً ركبت بين جنبين مثل نفسه ولقد مرت أجرة من رمي المنجنيق بين لحيته وصدره فوالله ما خشع ولا قطع لها قراءته ولا ركع دون ما ركوع .

وكان إلى هذا ذا ألفة وكانت له نفس شريفة كما كان فصيحاً قوي البيان جهوري الصوت إذا خطب تجاوبه أصداء أبي قبيس .

هذه المزايا ساعدت على نجاح دعوة ابن الزبير والتفاف المسلمين في الأمصار حولها إلا أنه كان لا يحفل بمجاملة كبار القوم ولا يرضيه أن يغدق من أموال الله على أصحاب الأطماع الكبيرة .. كان يرى أنه يجاهد في سبيل غاية نبيلة فيجب أن يظاهره على العمل في سبيلها نبلاء لا تغريهم المادة ولا تجتذبهم إلى العمل وهي كما نرى أفكار مثالية ولكنها لا تماشي واقع الحياة . لهذا سنرى أن هذا النجاح بالرغم من جميع مقوماته لم يلبث طويلاً حتى مني بالفشل .

توفي يزيد بن معاوية في الشام كما أسلفنا فبويع معاوية بن يزيد فما كاد يتقبل البيعة حتى أعلن « أيها الناس قد رأيت أمركم وأنا ضعيف عنه وقد تركت لكم أمركم فولوا عليكم من يصلح لكم » . ووقف الضحاك بن قيس الفهري وهو من أصحاب رسول الله على أثر هذا في إحدى المناسبات فخطب خطاباً جامعاً دعا إلى مبايعة ابن الزبير .

ورأى مروان بن الحكم أن الأمر أخذ ينتظم لابن الزبير في الشام وفي أكثر الأمصار فعزم على الرحيل إلى مكة لمبايعة ابن الزبير ولكن نفراً من بني أمية اعترضوه في الطريق وأثنوه عن عزمه « أنت يا مروان كبير قريش وخالد بن يزيد بن معاوية غلام وعبدالله بن الزبير كهل وإنما يقرع الحديد بالحديد فلا تناوئه بهذا الغلام ، وارم بنحرك في نحره ونحن نبايعك .. أبسط يدك فبسط يده فبايعوه بالجابية في ٣ ذو القعدة عام ٦٤ هـ .

ثم سار بمن معه من بني أمية فالتقوا بأنصار ابن الزبير من أهل الشام على رأسهم الضحاك بن قيس فنشب القتال بينهم عنيفاً فقتل الضحاك وتفرق أصحابه واستقر الأمر لبني أمية في الشام بينما استقر في بقية الأمصار لابن الزبير و بويع فيها خليفة على المسلمين .

وربما تعين علينا البحث هنا أن نتتبع أسباب الخلاف في بلاد الشام بين أنصار ابن الزبير وأنصار بني أمية إن الأمر في هذا سيبدو أعمق مما تراءى بين الأمويين والزبيريين فالمعروف أن بلاد الشام كانت تنزلها سلالات هاجرت أصولها القديمة من اليمن قبل الإسلام بعهود طويلة فطال استيطانها ثم ما لبثت أن طرأت عليها مع الفتح الإسلامي قبائل حجازية شاركتها الإستيطان وقد عرفوا باسم العدنانيين أو ـ النزاريين ثم غلب عليهم اسم القيسيين وقد تكاثر اليمنيون والقيسيون فعموا بلاد الشام بما فيها الأردن وفلسطين ولا شك في أن اليمنيين كانوا يتيهون على القيسيين بأصولهم فقد كانوا في أحد أدوار التاريخ سادة الجزيرة العربية وكان الخزاعيون حكام مكة قبل قريش من اليمن كما كان الأوس والخزرج في المدينة يمنيين مثلهم كما لا نجهل أن القيسيين وهم سلالة الفاتحين في صدر الإسلام يتيهون على اليمنيين بأنهم هداة البلاد فكان لهذه المفاخرة أثرها في التحيز للعصبية التي نهى عنها الإسلام .

لقد شعر معاوية أن في الشام احتكاكاً بين القيسية واليمنية فدارى ذلك في سياسة عديمة النظير وجاء يزيد بعده فلم تعجزه المداراة كثيراً ولكن ما إن قضى عليه حتى عادت القبيلة إلى الإحتكاك واستطاع مروان بن الحكم أن يستفيد من احتكاكهم استطاع أن يستعين بسيوف اليمنيين وهم كثرة هائلة على القيسيين الذين أرادوها رمحاً لمكة في شخص ابن الزبير قبل أن تكون رمحاً للزبير نفسه .

نجح مروان بن الحكم في إخضاع أنصار ابن الزبير في الشام واستطاع أن يستصفي الخلافة له في جميع بلاد الشام ثم ما لبث أن جرد جيشاً قوياً قاده بنفسه إلى مصر لطرد عامل ابن الزبير وجيشاً آخر إلى جهة العقبة بقيادة ابنه عبد العزيز وقد نجح الجيشان .. واستولى مروان على مصر كما استولى على موقع استراتيجي في مدخل البحر الأحمر كما جهز جيشاً إلى العراق وآخر إلى الحجاز ولكنه مات قبل أن تصل إليه نتيجة أحدها .

لما تولى الأمر بعده ابنه عبد الملك استطاع أن يقضي على بعض الفتن التي أثارها بعض الزبيريين في بعض بلاد الشام واستطاع أن يستولي على العراق و يطرد عامل ابن الزبير ولم يبق أمامه ما يمكن أن يسمى خطراً هاماً إلا مشكلة مكة في شخص ابن الزبير .. ولقد كانت سياسة بني أمية حكيمة عندما تركت ابن الزبير يذوب تدريجياً في بعض أحنه فإن شيعة العراق

اختـلفت مع ابن الزبير في بعض مبادئه .. وأعلنت عصيانها فندب سويدا أخاه ليقضي على الفتن يـناجز هؤلاء وأولئك بجيش اتسعت عليه الميادين وطالت آمادها فأضنته وأرهقه إمساك ابن الزبير فـأطـفأ جذوته واستطاع الأمويون أن يطوقوه وأن يتركوا بدر الأموال تمشي في طلائعهم إلى قواد مصعب وعذب الأماني ينثال إلى صفوف رؤسائهم حتى حققوا من النصر ما هيأهم للزحف على الحـجـاز انـثـالت جيوشهم تقطع القفار الوعرة في طريقهم إلى الحجاج بن يوسف الثقفي وقد رأى الحـجـاج أن يـبدأ بالطائف مسقط رأسه .. فاحتلها وشرع يرسل سراياه إلى عرفة فتقابله سرايا ابن الـزبير ثم لا تـلبـث أن تنهزم فـزحـف الحجاج إلى منى وعسكر فيها . وأهل عام ٧٢ هـ فاستطاع الحجـاج أن يـتـقـدم بجيـشـه إلـى الحجون فلاذ الزبيريون بالمسجد يتحصنون بالكعبة فأمر الحجاج بـنصب المنجنيق وشرع يرمي بها بعض المتحصنين فنالت بعض الأحجار بعض جدار الكعبة للمرة الثانية في عهد ابن الزبير . اشتد الحصار وطال أمد الكرب ولكن هذا لم يفت في عضد ابن الزبير فـالـشجاع لا يصيخ لنداء العقل في أكثر أحواله وسورة الأعصاب التي أسلمت المسلمين مع كل أسف فـي كـثير مـن أزمـنة التاريخ إلى الأخطاء والكبائر تنسي في أكثر الأحيان قدسية المشاعر وحرمة دماء المسلمين .

لـقـد كان ابن الزبير شجاعاً وكانت شجاعته من نوع ممتاز حسبنا أن نعلم أن الأمويين كانوا يحـمـلـون على باب من أبواب المسجد فيشد عليهم ابن الزبير وليس معه أحد حتى يخرجهم منه إلى الحـجـون كما يـذكـر الـرواة ولـقد اجتمع عليه بعض كبار مناصريه وكلموه في شأن الصلح فأبى فضاقوا به وأخذوا يتسللون إلى الأبطح طالبين الأمان .

وضربت أمه بشجاعتها مثلاً لم يسبق إلى مثله :

ـ أماه لقد خذلني أنصاري وتفرق عني أقرب الناس إليّ .

ـ ولـداه : إن كـنـت تـعـلـم أنـك على حق فاصبر عليه فقد قتل عليه أصحابك ولا تمكن من رقبتك يلعب بها غلمان بني أمية .

ـ أمـاه : هـذا والله رأيـي .. ولكنني أحببت أن أعلم رأيك .. فانظري يا أماه فإني مقتول في يومي هذا ولا أخشى شيئاً إلا أن يمثلوا بي .

ـ ولـداه اخرج إلى غايتك حتى أنظر ما يصير إليه أمرك وما عليك أن يمثلوا بك فالشاة لا تبالي بالسلخ بعد موتها .

هذه تضحية لا توصف بالثبات لا .. ولا توصف بالشجاعة إنها في رأيي أرقى من هذا وأكبر. إنها شيء فذ كأني بأي تاريخ يتحدى معجمات اللغة لتعطيه تفسيراً يؤدي هذه المعاني أداء صحيحاً فلا تستطيع .

مضى ابن الزبير على أثر هذا فصلى الفجر في ثبات لمطمئن ثم حث الأقلية الباقية حوله على الصبر و بادر القتال وأصحابه بحملات قوية كشف فيها مقاتلة الأمويين عن باب المسجد حتى أعادهم إلى الحجون فأصابته أجرة في وجهه ففلقت رأسه فلما وجد سخونة الدم تمثل :

ولسنا على الأعقاب تدمي كلومنا　　　ولكن على أقدامنا تقطر الدما

ثم أغمي عليه وسقط على الأرض فأسرعوا إليه فقتلوه و بقتله سقطت حكومته في مكة ودخل الأمويون المسجد فطافوا بالكعبة وتعلقوا بأذيالها حامدين شاكرين لله ساجدين وكان ذلك في ١٧ جمادى الأولى عام ٧٣ للهجرة .

وأمر الحجاج بابن الزبير فصعد على ثنية كدا عند الحجون بأعلى مكة وأرسل الحجاج إلى أسماء أم ابن الزبير أن تأتيه فأعاد إليها الرسول لتأتيني أو لأبعثن إليك من يسحبك من فروتك فأبت وقالت : والله لا آتيه حتى يبعث إليّ من يسحبني من قروني .. فانطلق الحجاج حتى دخل عليها فقال : كيف رأيتني صنعت بعبد الله ؟ قالت : رأيتك أفسدت عليه دنياه وأفسد عليك آخرتك وفي رواية أن ابن الزبير ظل مصلوباً حتى أمر الحجاج بدفنه فدفن في الحجون بعد أن غسلته أمه وكفنته وطيبته وأقام الحجاج في مكة بعد أن أخذ البيعة من أهلها لعبد الملك بن مروان ولم يحجم عن التنكيل ببني هاشم وكان يبالغ في ذلك لولا أن عبد الملك بن مروان منعه من ذلك ـ وعندما غادر مكة إلى الشام اصطحب معه نفراً كبيراً من الصحابة والتابعين إلى الشام فبايعوا عبد الملك مكرهين .

أما عبدالله بن العباس فقد اعتزل الأمر قبل أن يستفحل وغادر مكة إلى الطائف وظل فيها بعيداً عن مجرى السياسة حتى توفي بها .

و بذلك انهارت الفكرة التي تعتقد أن ابن الزبير أبلى في سبيلها ما أبلى ليعيد لمكة نفوذها الديني ومركزها في خلافة الإسلام و رب سائل بعد هذا يسأل عن ثنية كدا التي صلب عليها ابن الزبير عند الحجون .

لقد تعارفنا وتعارف الناس من أجيال سحيقة قبلنا على تسمية هذه الثنية الماثلة أمامنا

الحجون والواقع أنها سميت بذلك بعد الإسلام فقيل عنها ثنية الحجون الإسلامي وكانت في عهد قريش قبل الإسلام تسمى ثنية المدنيين إذن فأين الحجون الجاهلي وأين ثنية كدا عنه .. هنا تختلف روايات المؤرخين ولعل أقرب شيء في رأيي إلى الصحة أن تكون الثنية أو الجبل الصغير المتصل بشعب عامر أمام الحجون الحالي على يمين الصاعد إلى أعلى مكة هي ثنية الحجون وإلى جوارها ثنية كدا ـ بالفتح ـ وهناك فيما يبدو لي قبور الجاهلية في سفح الجبل الصغير بجوار بيت الرشيدي وربما كانت الساحة أمام بيت الرشيدي تتصل بالقبور أو هي جزء منها وقد بلغني أن بعض الحفريات لتأسيس بعض البيوت في تلك الجهة كشفت عن آثار قبور قديمة .

ولا أستبعد أن قبور المسلمين عندما نقلت إلى المعلاة أطلق على الثنية المطلة على القبور ثنية الحجون استعارة من اسم الحجون الذي كان يطل على قبور الجاهليين .

وربما قيل عن الجبل المجاور لقبور المعلاة إنه جبل كدا ـ بالفتح ـ ومبلغ معرفتي أن كدا في شعب عامر بجوار الحجون القديم وجبل كدا ـ بالفتح ـ ومبلغ معرفتي أن كدا في شعب عامر بجوار الحجون القديم وجبل كدا ـ بالفتح ـ غير كدا أو كدى بالضم وهما يقعان في نهاية مكة من جهة المسفلة وهما غير كداء (بالهمزة وضم الكاف) وهو جبل يقع عند مقبرة الشيخ محمود في أوائل جرول .

هذا ما استطعت استنتاجه مما قرأت ولعل غيري يرجح غيره فأستفيد .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أما لهذا الليل من آخر

لسنا ننكر أنه ما من أمة واجهت الشمس عالية الرأس رفيعة الجانب إلا هبط ميزان الحرارة في جسمها على مر الأيام طالت هذه الأيام أم قصرت .

ذلك أن بناة حياتها يوم بدأت تبني كان عزمهم مصروفاً إلى البناء بصورة واكدة وربما خلف بعدهم وبعدهم من نشأ على نهجهم بتأثير ما نفث البناة الأول في أرواحهم .

ولكن هذا التأثير لا يلبث أن تهبط حرارته من جيل إلى جيل حتى يحل محل البناة الأول وتابعيهم ممن ورثوا عزمهم خلف لا يدري من شئون البنيان وما بذل أصحاب البنيان إلا أن يتمتع هذا الخلف بظلاله الوارفة ويترف في بحبوحة ما ورث .

ويخلفه جيل ينشأ على لين العيش ويستكين لطراوته فيفسد اللين تربيته ..

ولا تنفك الأجيال على هذا النحو تتوالى .. كلما جد جيل هبط في سلم البناء درجة عما قبله حتى ينتهي آخرهم إلى الحضيض فيستنيم لظلامه الدامس وليله الغافي .

ولكن أليس لمثل هذا الليل من آخر ؟

بلى .. وأنا اقول : بلى وأنا أعتقد أنه ليس بين وجوه أمتي - أمة الإسلام إلا من يقول بقولي : بلى .. ليس بين أصحاب الحضيض وبين أن ينقشع ليلهم الغافي إلا أن تتأذى أحاسيس بعض أصحاب الإحساس المرهف فيغضبون لكرامتهم غضبة صادقة يدوي صداها بين صفوف النائمين فتقض مضاجعهم وتبدد أحلامهم وتفتح عيونهم على واقع الحضيض هذا الذي هم فيه ، واستناموا إليه .

تعالوا يا قوم نستنطق التاريخ فيما زعمنا من حياة الأمم تعالوا نستنطق تاريخنا كمسلمين لنعرف الأدوار التي مرت بنا في أكثر من جولة صافحنا فيها وجه الشمس ثم تردينا لنعانق التراب ثم تأذت أحاسيس المرهفين منا فغضبوا لكرامتهم الغضب الصادق الذي دوى صداه بين النائمين فأقض مضاجعهم وفتح عيونهم فاستفاقوا واستأنفوا مسيرتهم حتى صافحوا وجه الشمس ثم عادوا فتراجعوا حتى هزتهم الصيحة فاستأنفوا صحوتهم من جديد على غرار ما سن الله للكون ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

ألم يأتنانبأ بلادنا يوم كانت تغمرها جهالة الوثنيين وترهاتهم وانحلالهم وشتات كلمتهم .

لقد غضب لكل هذا رجل واحد .. لا نشك أنه كان موهوباً مؤيداً إلى جانب هذا كان مرهف الحس ، كان يأخذ طريقه من شعب الهواشم في مكة حيث يسكن عليه السلام إلى سوق الرطب فيما نسميه اليوم القشاشية فيأخذ نظره الباعة المطففون والتجار المرابون .

وكان ينحدر في طريقه إلى الكعبة بين دور لآل عدى من ثقيف لبني عامر من لؤى فيأخذ الطريق عليه غبار المتنازعين من الفريقين وهم يتواثبون مشرعة رماحهم مخضبة سيوفهم تسيل بينهم دماؤهم في قلق لا يعدو خلافاً على امرأة أو نزاعاً على صاع من أقط .

ويمضي به الطريق صلى الله عليه وسلم في ألم ممض ليصافح الكعبة فيصافحه في ظلها العراة والعاريات لا يفصل بينها فاصل ولا يستر سوأتهم ساتر وتطالعه في ركنها الجموع الحاشدة تتمسح بأقدام هبل وتبتهل إلى سادنه ليستقسم لهم بأزلامه فيأمرهم بما تأمر الأزلام وينهاهم عما تنهاهم عنه .

كل هذه مهازل آلمت إحساس النبي صلوات الله وسلامه عليه فآلى أن يقشعها وأن يضرب بيد من حديد عجرها و بجرها بتوفيق الله .

كان يعلم أن أمة يتقاسمها وثنيتها وانحلال أخلاقها وموت ضمائرها وتتنازعها شتات كلمتها فتمتشق الحسام في امرأة داعر أو خلاف في صاع من إقط لا يرجى لها بقاء ولا يناط ببقائها أمل .

وكان يعلم إلى هذا أنه مختار وأن قوة لا يملك عصيانهاقد ندبته ليغضب وليصيح صيحته المدوية : الله أكبر ..

هوذا على درج الصفا :

يا بني عبد المطلب يا بني عبد مناف يا بني لؤى يا بني تميم يا بني مخزوم ، يا بني كنانة ، إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين ..

فتتقاذفه السخرية وتتحامل عليه وجوه القبائل .. ولكنه الرجل .. الرجل .. إنه لا يبالي في سبيل الله سخراً .. ولا يقف دون غايته تحامل ولا يعوقه عائق ولا يثنيه إغراء .. والله يا عم لو

وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته .

نبرة حاسمة يجمع العم الشيخ في نهايتها عباءته لينصرف وهو يشد على يديه : إذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت فوالله لا أسألك شيئاً تكرهه .

و يذهب ، يذهب ليمضي في دأبه إلى نهاية الشوط .. يذهب لا ليقضي على ترهات مكة وأباطيلها فقط ، بل لينشئها خلقاً جديداً ، و يمشي على رأس صناديدها ليفتح العالم ، ليقضي على طغيان الأباطرة وعتو القياصرة .. يذهب ليرسم للأرض خارطة جديدة تدين لهذه البطحاء بوثبتها وتتوجه في أشد الأزمات إلى قبلتها وتعتز في أحلك الأوقات بكلمتها : الله أكبر .

لقد استطاع أن يواجه الشمس .. استطاع أن يرفع رأس أمته عالياً وأن يترك كلمتها تدوي بين الأفق والأفق ـ الله أكبر ـ

وأنا لست في حاجة لأن أقول خلف بعده من نشأ على نهجه بتأثير ما نفث فيهم و بث في أرواحهم وليس بيننا من يخفاه طرف ولو ضئيل مما بذلوا لبناء الإسلام وتوطيد أركانه .

ولكن هل لي أن أسأل : متى هبط هذا المستوى ؟ مبلغ علمي أنه هبط أكثر من مرة في أكثر من ظرف ولكن العناية تأبى إلا أن تهيىء لكل حالة لبوسها ممثلاً في مؤمن غيور مرهف الحس لا يلبث أن يغضب لإسلامه فيثيرها جذعة يقض بها مضاجع قومه و يفتح عيونهم على واقعهم حتى يستفيقوا و يستأنفوا مسيرتهم فيصافحوا وجه الشمس في مسيرة رجل واحد يهتف باسم الله .. الله أكبر ..

تحضرني بهذه المناسبة ونحن لا نزال مرضخين إلى حين تحت وطأة النكبة في فلسطين قصة الغضبة التي أثارت صلاح الدين فصاح صيحته التي دوى صداها بين مضاجع النائمين فأيقظتهم بل قل فتحت عيونهم على واقعهم .

وأي واقع هو :

كانوا قد استكانوا لطراوة الحياة فهبط حظهم في سلم البناء حتى كاد أن يستوي والحضيض فاهتبلها البيزنطيون فرصة واستطاعوا أن يشعلوها صليبية وأن يتواطأوا مع أشد أمم الإفرنج عداوة للإسلام فانسالت جيوشهم الجرارة حتى احتلت مدن الشام وفلسطين ولبنان وأحالتها إلى مستعمرات تعيث فيها بما شاء لها الطغيان .

كانت دولة العباسيين ـ كما تعلمون ـ قد شاخت يومها كما هزلت دولة الفاطميين وقامت على أنقاض الدولتين دويلات منقسمة على نفسها تتربص الدوائر ببعضها .. أثار الحيف الطاغي غضبة صلاح الدين فصاح صيحته المدوية : الله أكبر .

ومشى فيما يملك من عتاد يقود فيالق أرهقتها النوائب ليلقى جيوشاً أسكرتها خمور النصر وضاعفت نشوتها .. مشى في عزيمة المؤمن الصادق بعد أن بايع قواده على الموت وآلى أن ينتصر أو تتقاسم جثمانه الوحوش .

وكان لعزيمته أثرها الفعال في كل ميدان يخوضه أو لقاء يقتحمه حتى دانت أمامه الصعاب وفتحت في وجهه المدن مدينة بعد أخرى وأدرك المسلمون في طول البلاد التي شرع يفتحها أنهم وجدوا ضالتهم في شخص منقذهم العظيم فالتفوا حوله مستسلمين فتكاثرت جموعه وتوسعت إمكانياته لكثرة ما غنم .

واستطاع أن يمضي في زحفه المستميت حتى استعاد هيبة الإسلام ورفع رايته فوق أعلى سارية في بيت المقدس .

هي ذي غضبة المؤمن الصادق الذي تتأذى أحاسيسه لواقع أمته فلا يلبث أن يهيب بهم في ضجة مدوية ليستفيقوا ليستأنفوا يقظتهم ليفتحوا عيونهم على واقع الحضيض الذي هووا فيه واستناموا إليه .

يا قوم إننا اليوم في أشد الحاجة إلى الأحاسيس المرهفة التي تغضب للإسلام وفي الإسلام فتدوي صيحتها عالية لتوقظ الأحاسيس الغافية لتفتح عيوننا على الطراوة التي استنمنا إليها .

أصبنا في فلسطين ، أصبنا في الفليبين ، أصبنا في الأفغان أصبنا في الصومال ، أصبنا في الحبشة ، أصبنا في قبرص ، أصبنا في أندونيسيا ، أصبنا في كثير من بلاد أفريقيا ، أصبنا في الصين ، أصبنا في ممالك وممالك من شرقي أوروبا تكالبت علينا الدول الكبيرة فناصبتنا العداء أو ظاهرت علينا .

ما بال إخوان لنا وبينهم المثقفون والواعون وحاملوا الدرجات العالية تنطلي عليهم أباطيل الشيوعيةافينسون مواهبهم وحظوظهم من الإستقلال الفكري ويستسلمون لدعاوات لا تثبت أمام الإستقراء والتطبيق العلمي .

فما بالهم لا يطبقون الأقوال العريضة على واقع الحياة خلف الستار الحديدي حيث يصادر

الرأي وتحارب الكلمة ويقيد الحر فلا يتنفس إلا في إطار من الرسميات المفروضة بقوة النار والحديد .

هل أغرتهم بوعودها وفات على ذكائهم ما جرت مثل هذه الوعود على غيرهم قبلهم وكيف استدرجتهم حتى أسلمتهم لقيودها وفرضت أغلالها على سائر بلادهم .

يا قوم ، ما حك جلدك مثل ظفرك .. فإذا لم نتول أمورنا في حذر وإذا لم نحقق الصديق قبل الطريق ، وإذا لم نعمل لجمع شتاتنا في مسيرة واحدة فسنظل في مكاننا من الحضيض .. سنغري بنا من ينتقصنا ونعطيه الفرصة لينتقص أطرافنا في كل يوم طرف حتى يحين الحين ، من الدهر فإذا بنا وكأن لم نكن شيئاً مذكوراً على خريطة الأرض .

يا قوم إن داءنا الدوي في شتات كلمتنا واختلاف مشاربنا .. يا قوم إن بيننا من سكت عنا كمسلمين في قضايا الأفغان وانحاز لغيرنا في مشكلة قبرص وساعد علينا في مآسي اليمن يوم مآسيها وظاهر علينا في أكثر من بلد إفريقي ولم يتبرع بكلمة لما أصاب المسلمين في أندونيسيا والصومال والحبشة وغيرها من بلاد الإسلام .

أهازلون نحن أم جادون وليس بيننا من يجهل وميض البرق الخلب ..

ليس بيننا من يجهل أن حاجتنا اليوم ماسة إلى أن نغير أسلوبنا في الحياة ، ليست الحياة أقوالاً فقط ننمقها ولا أشعاراً نترنم بها ولا منابر تهتز لأصواتنا ولا مجالس تنظم عقودها لتنفض عن قرارات نملأ بها دفاترنا وحفائظنا . لا .. وليست صحفاً نبرز عناوينها بالقلم العريض الأحمر ولا مراسلين يموهون علينا حقائق الأحداث ولا وكالات تصوغ الأنباء كما يملي عليها ولا إذاعات تجيد تصنيف القول وتوضيبه .

ليست الحياة في شيء من هذا إلا إذا أعقبته النية المخلصة والوثام الصادق والعمل الفعال وردد صداه السيف البتار .

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

منبر المسجد الحرام
وأثره في تاريخ مكة السياسي

مضت بلادنا في طليعة الصفوف يوم حشد النبي (صلعم) صفوفه لخطوته العظيمة نحو المجد . وجاء صحابته فبذلوا لها الرعاية التي يستحقها كل مجاهد بذل نفسه وأولاده في سبيل إعلاء كلمة الله .

وكان على هذه الصفوف أن تترك وراءها في مختلف الأمصار صفوة من أفذاذ العلماء ليضطلعوا بإعلان الدين ونشر المعرفة ، وعدداً وافراً من رجال السيف الصناديد ليقودوا الحركة و يضمنوا نجاحها ، وجملة مختارة من الولاة ليقروا أمن البلاد و يثبتوا قواعد الحكم الصالح فيها .

تخلف كل هؤلاء في أمصار الإسلام فكان لا بد لهذا التخلف من رد الفعل الذي ترك أثره إلى اليوم .

كان لهذا التخلف أثره في كتابة تاريخ هذا البلد من ألف وثلاثمائة سنة . وكان لهذا التخلف أثره في ألوان من المد والجزر عصفت بالبلاد وطوحت بها بعيداً عن مركزها الحقيقي .

كان لهذا التخلف أثره في تقهقر البلاد من مركزها في مقدّمة صفوف الأمم الإسلامية إلى حيث استكانت في نهاية الصفوف وراء المؤخّرة .

قالوا إن رجلاً من بلاد الحرمين ، أراد أن يفاخر صديقاً له من أمصار الإسلام في بعض عهودنا الماضية ، فقال إن العلم خرج من بلادنا ، فأجابه ـ أن نعم ولكنه خرج ولم يرجع . وفي هذا جواب مفحم يقر حقيقة الواقع ، فقد خرج العلم وخرج رجال العلم كما خرج أعلام القيادة يوم خرجوا دون أن يفكر أكثرهم في العودة .

لقد أحدث تخلف أعلام العلم في الأمصار فراغاً علمياً لم تتعوضه البلاد (رغم ما بذلت و بالرغم من جميع المحاولات التي كان يكابدها العاملون في حلقات المسجد) . ودليلنا على هذا أنه ما كادت تنتهي نهاية القرن الأول من الهجرة حتى كانت بلادنا تسأل العلم شحاذة من الآفاق التي تتلمذت عليها .

أما في القرون التي أعقبت ذلك ، ثم في القرون التي تلتها ، فقد كان الشراكسة وكان

مماليك الأتراك ، يندبون لبلادنا من يعلّمنا أصول الفتوى وأحكام الدين .

لسنا في هذا نريد أن ننابذ أحداً .. فليس العلم وقفاً على الهاشمي دون الزّنجي ، ولكننا نريد الإشارة إلى مبلغ تقهقرنا في عهود سبقنا فيها إلى علومنا ولغتنا أبعد الناس عنها . ولم يقتصر الأمر على هذا ، فإن ظروف هؤلاء الأعلام من القادة والسادة أبناء الحرمين وأحفادهم المخلصين في الأمصار ، هيّأتهم في مراكز تعيّن عليهم فيها ، أن يسوسوا بلادهم الأصلية . هذه سياسة خاصة لا أعرف مبلغ نواياهم فيها ، ولكني أعرف أنها لم تكن صائبة على كل حال .

نجح الأمويون في الشام ، ثم ورثهم العباسيون في بغداد ، كما نجح الأدارسة في المغرب ، والفاطميون في مصر ، والرسوليون في اليمن ، وكل هؤلاء كانوا ينتمون إلى سلالات من أقيال الحرمين . وكان بنو عمومتهم بمكة ، يزاورونهم في جميع العهود التي مارسوا فيها نجاحهم ، وكانت علاقاتهم وثيقة الأواصر بجميع البيوت التي يشاركونها النسب في هذه البلاد ، فهل أبرّوا هذه البيوت ؟ وهل عرفوا حقوق الأرض التي أنجبت آباءهم ؟ . الواقع أنهم عرفوا حقوقها وربما أبروا أهلهم فيها ، على طريقتهم التي حسبوها غاية في البر .

نجح الأمويون في الشام ، فتراءى لهم أن استمرار هذا النجاح رهين برضى البيوت البارزة في مكة والمدينة . كما تراءى لهم أن بين صناديد هذه البيوت من يرشحه مركزه للخلافة دونهم ، فما يمنعهم أن يبذلوا الأموال في سبيل الترضية ، وأن يبالغوا في العطايا والمنح ليغدقوا عليهم من زينة الحياة ومتعها ما يصرفهم عن حقائق الحياة .

انثالت الأموال على مكة ، في مبالغ يباهي بعضها البعض فخامة وجلالاً فأينعت الحياة وازدهرت حواشيها واستطاعت البيوت البارزة أن تملك إلا القطاعات الواسعة ، في بلاد الحرمين وغيرها من آفاق الأرض ، وأن تتوسع في بذخها وتقتني لبيوتها الجواري من كل لون ، وأن تستكين في ظل النعيم إلى أمد ليس بالقصير .

وعندما استعصى كبار النفوس على العيش ، في ظل العطايا والمنح . ونهض على رأسهم ابن الزبير يطلب للبلاد حقوقها المغبونة ، وتطوع الشباب للعمل في جيشه من أكثر بقاع الإسلام ظفر بكثير من النجاح ، واستطاع أن يعيد لمكة كثيراً من هيبتها خلال ذلك ، فقد بايعه بالخلافة أكثر الأمصار كما تعلمون ، ودانت له أكثر مدن الشام معقل الأمويين . إلا أن الأمويين ما لبثوا أن استيقظوا لسلطانهم واستطاعوا أن يثبتوا وأن يعيدوا الكرّة ، وأن يقضوا على آمال ابن الزبير في مكة .

و بذلك عادت مكة إلى التقهقر وعاد المسئولون عن سياسة بني أمية إلى شراء الرضا من أقيال مكة بالعطاء الوافر والمنح .

أهل مكة وروح الشيخين

لا أعتقد أن بلاداً يعلوها السيف ثم يغمرها الإحسان يمكنها أن ترتجي الخير . يبدو لي أن الأمر في مكة لم يقتصر على فشل ابن الزبير .. بل كان له من رد الفعل ما ترى أثره في الروح السائدة بين المكيين ، فأخمد جذوتها وأطفأ شعلتها وأحال المواطنين فيها من جديد ، إلى أناس يعيشون على هامش الحياة ، بعد أن كانوا منها في الصميم .

كان المكيون مأخوذين بالروح التي تسود في عهد الشيخين ، أبي بكر وعمر ، و بخيال الظل الذي تألق فيا بعد في صورة ابن الزبير ، فلما أسقط في أيديهم ولما فاجأتهم الحوادث بغيرما يتخيلون ، أذهلتهم المفاجأة فظلوا في سكونهم ينعمون بمايغدق عليهم من أموال المحسنين ، ولا ينظرون إلى الحياة بغير نظر العابث الساخر الذي لا يواجه الحقائق بقدرما يزوغ منها ، وأسلمهم هذا إلى لون من اليأس مشوب بلون من القناعة فيما يبدو لي . وقد أسلم هذا بعضهم إلى لون من الزهد فكان منهم المتعبدون والورعون . وقد شاعت تراجمهم في مظانّها من كتب التاريخ ، كما أسلم بعضهم الآخر إلى نوع من المجون ، فيه شيء من الفن وشيء آخر من اللعب واللهو :

سمرن يقلن ألا ليتنا ... نرى ليلنا دائماً أشهرا
ويغفل ذا الناس عن هونا ... ونسمره كلّه مقمرا

* * *

قالت لَوَنّ أبا الخطاب وافقنا ... اليوم نلهو وننشد فيه أشعارا

شاع الغنى في مكة على أثرما أسلفنا ، وشاع بشيوعه الترف كما شاع التظرّف الأدبي فأنتج لنا عمربن أبي ربيعة وعبدالله بن قيس وكثيراً غيرهما ممن يضيق المجال عن ذكرهم .

وتأنق المترفات فاستمر أن الأدب وتسامحن في سماع الغناء ، واقتنى المترفون والمترفات أصناف الجواري ، فحفلت مكة والمدينة بالفنانات منهنّ والفنانين ، وذاعت بين المدينتين أسماء مسجع ونافع ومالك وابن عائشة و برد الفؤاد ، وجميلة و رحمة وطويس وهيت والدلاّل ونومة

والضحى وعزة الميلا وسلامه و بلبله ولذة العيش وسعيدة والزرقاء وشاع التندر والفكاهة كما شاعت لوثة من خفة الروح .

نحن أهل الخيف من أهل منى — ما لمقتول فتلناه أود

و بالغ المترفات في التحالي بحلل الخزّ والدّيباج ، كما بالغن في زينتهن من الياقوت والزّبرجد .

يرفلن في مطرفات السوس آونة — وفي العقيق وفي الديباج والقصب
ترى عليهن حلّى الدّرمتسقاً — مع الزّبرجد والياقوت كالشّهب

وعندما استعصى بعض العلويين من أحفاد مكة على العيش في ظل العطايا والمنح ، حاولوا أن يعيدوها جذعاً ليستردّوا ما ظفر به الأمويون و يعيدوا إلى مكة مركزها فلم ينجحوا . واستطاع الأمويون أن يفرّقوا شملهم فكانوا يجتمعون سراً كلما أتيحت لهم الفرص .

(وثار العباسيون)

زال عهد بني أمية بأسياف أولاد العباس ، واضطلعت مكة بجزء من حوادث هذه الفتنة ، فقد تضافر أولاد عليّ فيها من انتزاع الخلافة من بني أمية ، وثاروا لذلك عدة ثورات منيت جميعها بالفشل فنصبوا لأنفسهم إمامة سرّية كانوا يتوارثونها ، فلما أدركهم العجز وضاقت عليهم أبواب العمل ، سلّموا إمامتهم خفية لرجل من بني عمومتهم من أولاد العباس ، وهم يرجون أن يواتيه الظفر الذي خذلهم ، وأن يحفظ لهم مثل هذه اليد .

بذلك بذرت البذرة الأولى فى حقل العباسيين كما تعرفون ، واستطاع شبابهم أن يرعى منابتها حتى أورقت في خراسان ، وأثمرت في بغداد ، ثم مدت ظلّها إلى أقاصي الشام ، فقضت على بني أمية وإلى بقية أمصار الإسلام فشملتها .

(بدعة الدعاء على المنبر)

بذلك قضي على الأمويين ، وامحى ذكر العلويين ، وقام على أنقاضهما عرش العباسيين فاستقبلت مكة ولاتها من بني العباس ، ودانت لهم بالطاعة وشرعت تدعو فوق منبرها بأسمائهم .

وكـادت مـكـة أن تـطمئن لحياتها الجديدة وان تسلم قيادها في استقرار إلى أبناء عشيرتها من العـبـاسـيين ، فـالعباس قبل كل شيء سَرِيٌّ من أقيال مكة كما كان أجداد بني أمية من أعيانها وأولاد عليّ من صفوة بيوتها .

كـادت مـكـة أن تـطـمئن إلـى حياتها الجديدة ، في ظل العباسيين ، ولكنّ بدعة الدعاء فوق مـنـبـرهـا للخلفاء قـل بدعة الدعاء فوق منبرها واضغط هنا على حروف المنبر - فهو موضوع حديثنا الـيوم - هذه البدعة كانت مصدر قلاقل جديدة ، لم تدخل في حسبان أصحابها ، ومن هنا نستطيع أن نبدأ القصة .

(مبعث شقاء أهل مكة)

كـان أكثر العـلويين ، قد تفرقوا في شتى بقـاع الأرض بعيداً عن مكة يجاهدون لعقيدتهم أو سيـاستهـم ، فـكان أصحاب السياسة منهم ، يبذلون نفوسهم في سبيل تأسيس أحزاب تناصرهم ضـد الـعـبـاسـيين ، وجمع أشياع تساعدهم على انتزاع الخلافة ، وكان في استطاعة مكة أن تؤثر الـعـافـيـة فتنساهم وتنسى علاقتهم بها وأن تتنكر لسياستهم ولكن عقيدة الدعاء فوق منبرها لكل خارج يريد أن يدعم مركزه في الخلافة ، في كل قطر من أقطار الأرض كان مبعث شقائها .

عـرّضـهـا منبرها لموجات من المد والجزر ، كانت لا تهدأ لها حركة .. كان الخارجون من كل صقع ، العاصون من كل مذهب والخارجون من أي لون ، لا يكادون يظفرون بالجولة الأولى ضد العباسيين في أي إقليم حتى يتوّجوا ظفرهم في الخطوة التالية بالهجوم على مكة .

كـان يعـلـمون أنها عاصمة الإسلام ، فما يمنعهم أن يحتلوها ليدعموا باسمها مركزهم في جميع أقـطـار الإسـلام .. كـان مـنـبرها في نظرهم حجّة المنابر في سائر أمصار المسلمين ، فما يمنعهم أن يفرضوا أسماءهم عليه ليؤيد خلافتهم ويدعو لهم بدوام النصر .

تلك كانت مأساة مكة في أكثر أدوار تاريخها : ابتداء من العهد العباسي .

(انتقال المنبر إلى العباسيين)

لـقد بدأت المأساة يوم بدأت بظهور النفس الزكية : هو محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بـن عـلـي بن أبي طالب .. في ذروة العلويين من بني هاشم ، شرفاً وعلماً وورعاً ، تزعّم الثورة

في المدينة المنورة باسم أحقيته في الخلافة .. وما كاد يستولي عليها حتى اندفع بجيشه إلى مكة ، فاقتحمها ليعلن دعوته فوق منبرها ، فترك مكة تتعرض لجيش لجب يتقدمه صناديد العباسيين ، ليفتكوا بالعاصي والطائع ويعلنوا - سيطرتهم على منبر المسجد الحرام ، ليدعو لهم ويشيد بسياستهم .

وفي هذا يهيب شاعر مكة ابن ميمون ، بقائد الجيش العباسي ليدلّنا على مبلغ ما قاسته مكة في سبيل منبرها .

أسرفت في قتل الرعية ظالماً ...

إلى أن يقول :

فلتأتينك راية حسنية ‍ ‍ ‍ ‍ جرارة يقتادها حسنيها

(دعوات مختلفة على منبر مكة)

لقد دعا منبر مكة للعلويين مرغماً ، يوم ظفروا ثم عاد مرغماً فدعا بدعوة العباسيين يوم اندحر العلويون ، وليت الأمر استقر عند هذا الحد ، فإن العلويين ما لبثوا في مدة لا تتجاوز ربع قرن أن استأنفوا حركتهم بقيادة الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب .. وكان من الزهد ما ذكروا عنه أنه كان لا يملك ما يلبس غير فروة ليس تحتها قميص ، كما ذكروا أنه وفد مرة على المهدي ، فأعطاه أربعمائة ألف دينار ففرّقها في المحتاجين بين بغداد والكوفة ، ولم يستبق لنفسه شيئاً ..

شعر العلوي الجديد ببوادر النصر ، فما عليه إلا أن يقتحم مكة ليسيطر على منبرها ، ويملي سياسته من أعلى مرقاة منه ، فانطلق جيش العباسيين المرابط في مكة ليلقاه ، فكانت أعنف ملاقاة جرت فيها الدماء سيولاً ، بين شطئان وادي الزاهر .. كانوا يسمونه وادي فخ لأنه فيما أحسب تعوّد الفخاخ ، تنصب بين لحاف جباله لكثير من المواقع التي كانت تهاجم فيها مكة ، ويسمونه أو ما يتصل به وادي الزاهر ، لأنه كان يزدهر بعشرات البساتين في عهود السلم .. وسمي من أجل هذه الواقعة وادي الشهداء وهو اسمه إلى اليوم ..

يذكر صاحب مروج الذهب واقعة فخ ، فيقول : كانت هذه الواقعة من الشدة بحيث قيل : لم تكن مصيبة بعد كربلاء ، أشدّ وأفجع من فخ .. أجل فقد سالت الدماء سيلاً في بطن الوادي

وقضت سيوف العباسيين على زهرة شباب العلويين ، ودفن الحسن زعيم الثورة ومائة من أصحابه في سفح هذه الربوة المطلة على العدوة ، التي لا تبعد كثيراً عن بطن الوادي ، وظلت قبورهم معروفة ردحاً طويلاً من الزمن ..

(ذيول الواقعة تنشيء دولتين)

لذلك استصفى العباسيون منبر المسجد الحرام لدعوتهم ، وتركوه يطبع إلى أمد حياة مكة السياسية بطابعهم . وإذا جاز للمعاني أن تتداعى في مثل هذه المناسبة فمن المهم أن نذكر هذه الواقعة وإن فشلت حركتها ، فإن ذيولها استطاعت أن تنشيء دولتين لهما قيمتها في محافل التاريخ ، ذلك أن رجلين من سادة العلويين استطاعا أن يفرا من مجازر الواقعة . أما الأول فهو يحيى بن عبدالله انتهى به الهرب إلى بلاد الديلم ، فأنشأ فيها دولة كلفت الرشيد خمسين ألف محارب للقضاء عليها . وأما الثاني فهو إدريس .. من إخوة يحيى انتهى به الفرار إلى المغرب فالتف حوله البربر وإذا استقصيت أخباره في كتاب (الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى) فستعجب للعناية التي بذلها بإنشاء دولة الأدارسة المعروفة بين دو يلات الإسلام ، وهي غير أدارسة جيزان ، ولا أدري لم قصرت جهودهما عن مكة ، ولم حرموها هذه المرة رؤية الدماء ، وتركوا منبرها يستوحش لدعاة جدد يئن تحت ثقل أقدامهم ، (لعل المادة قصرت) .

(عامل العباسيين يترك مكة للأفطس)

خرج السري الشيباني في العراق ، قبيل أن ينسلخ القرن الثاني من الهجرة .. فما كاد ينجح في بعض أطراف العراق ، حتى نسي الممالك والأبعاد التي تفصله عن منبر مكة ، وأبى إلا أن يقفز في رشاقة إلى أبواب مكة . لماذا ؟ لأن من ذروة هذا المنبر ، يجب أن يصرخ لدعوته .. وأنت تقرأ في تاريخ البداية والنهاية ، لترى الأفطس قائد جيشه ، ما كاد يعسكر في التوارية ـ وهي على كيلومترات من مكة ـ حتى أخلى عامل العباسيين مكة وتركه يقتحمها في زحام موسم الحج .. ثم يدفع الأفطس بجيشه إلى عرفات ليضيف منبر عرفات إلى منبر مكة ويملي سياسته من أعلى مرقاة فيها .. وبذلك تتجه سياسة مكة اتجاهاً جديداً بفضل عناية المسلمين الصناديد بمنبرها .. وإذا كان في الأمثال ما قيل : لا بد من صنعاء وإن طال السفر .. فشعار الخارجين في تاريخ مكة السياسي عاش يهتف باسم منبرها : لا بد من منبر مكة وإن طال السفر .

(ويستأنف العباسيون نشاطهم)

يا لغلب العباسيين بهذا المنبر .. بل يا لغلب المنبر بالعباسيين .. ويا لغلبه بكل الخارجين .

جـلا العباسيون والأفطس عن مكة ، ولكن سيوفهم لا تكاد تستريح إلى أغمادها عاماً أو شهوراً بـعـد الـعام ، حتى يثور ابراهيم بن موسى القاطن في اليمن وكأني به يحلف أنه .. (لا بد من منبر مكـة ولـو طـال الـسفر) .. وتستطيع أن تقرأ ما نقله تقي الدين الغالي في هذا الصدد ، لتعرف مدى ما قاسته مكة في هذا الهجوم على حساب منبرها ..

(حركة الزّنج)

مـا كـاد ينـتصف القرن الثالث الهجري ، حتى تتسامع مكة بحركة الزّنج في بعض نواحي البـصـرة والـبـحـريـن والهفوف والأحساء .. وأنه بعد أن حال صاحب الزّنج جولته الأولى ـ وهو علوي من سراة البيوت في مكة ـ أعلن تحرير العبيد بحجة أن امتلاكهم غير شرعي .. كما أعلن أن جولته الثانية ستكون فوق منبر مكة .

وأنت تقرأ بعد هذاما ذكره كتاب الآداب السلطانية وما أرخه ابن الأثير .. فلا تكلّفني لأثير شجونك على ما صنع منبر مكة في مكة .

ولا تـمضي عشرون سنة حتى ينتدب ابن طولون حاكم مصر ، قائدين في خمسين وألفي فارس (و بـس) فـالـوقـت أوان حـج .. وفـي استطاعتهم أن يربكوا الحج و يطحنوا الحجاج ، و يستولوا لابـن طـولـون عـلى المنبر ، ليفرض عليه وعلى مكة سيادة يتمناها .. لا أستطيع أن أجزم بما تم في أمـر ابـن طـولـون فـإن ابن ظهيرة القرشي المكي ، يؤكد أن جيش ابن طولون عاد مدحوراً .. ربما خانه الحظ بالنسبة لمنبر مكة رغم ما أنفق في مكة من أموال وما بذل من نفوس ..

(الأسلوب الطريف يعتلي منبر مكة)

لم تـمـض إلا سـنـوات حتى عنّ لمكة فيما يبدو ، أن تفرح بمنبرها لنفسها ، فقد نهض سريّ من أهـلـها هو محمد بن سليمان العلوي ، فاستقل بها في أوائل القرن الرابع الهجري ، ولذّ له أن يمتطي بـاسـم هـذا الـبلد في هذه المرة ، أعلى خشبة في المنبر ، وأقول أعلى خشبة لأن المنبر يومها لم يكن رخـامـاً ، فالرخام كما تعلمون مستحدث في عهد العثمانيين ، امتطى أعلى خشبة في المنبر وأهاب بالناس أن يسمعوا ـ وفي استطاعتكم أنتم سادتي وإخواني أن تسمعوا أسلوبه الطريف : « الحمد لله الـذي أبـرز زهر الإيمان من أكمامه ، وكمّل دعوة خير الرسل بأسباطه ـ لا ـ بني أعمامه وأرجو أن تـسـمـعـوا (لا بـنـي أعمامه) ـ وهو يقصد العباسيين طبعاً ـ ولم ينقل إلينا أبو الوليد الأزرقي ، الذي أنقل عنه هذا ، لم ينقل نتيجة هذه الحركة ، ولعلها فتنة ما لبثت أن خمدت .

(قسوة القرامطة)

تقوم قائمة القرامطة في هذا العهد ، تقوم في بعض أطراف العراق والشام ، ثم ينتقلون إلى البحرين والقطيف ، فلا يقنعهم أن يتوسعوا فيما يليهم ، بل ـ لا بد من صنعاء ولو طال السفر ـ أعني لا بد من منبر مكة مهما كلف الأمر ، وأنت تقرأ خطط المقريزي ، فتعجب لهذا القفز ، ثم يشتد عجبك لهذه القسوة وهذا الحرد ، ولا تستطيع ان تغفل بأي حال أن هذه القسوة وهذا الحرد ، لم يكن مبعثها تعصباً دينياً فقط ، بل كان للغرض السياسي شأو أيّ شأو إذا صح هذا وهو ما أعتقده (فما عتك فكة .. يا مكة) .. لا بد من منبرها ليوجه قائدهم أبو طاهر سياسته إلى ما يريد و يدعم مركزه من فوق أعواده ..

والإخشيد . ما شأنهم ؟ ماذا فعلوا ؟ لقد أبو إلا أن يستخلصوا منبر مكة لأنفسهم ليجهروا بسياستهم و يجعلوا العالم الإسلاميّ يلين لهم .. يذكر هذا صاحب النفوذ الفاطمي فيقول ، كتب الأخشيد إلى ملك الروم يقول : إنه وإن لم يكن لي شرف إلا إمرة الحرمين ، لكفاني ذلك .. ولعله نسي أن يقول : وقد فرضت على المنبر أن يؤيدني وحسبي أن يؤيدني ..

(الفاطميون يفرضون نفوذهم على المنبر)

و بعد .. فهل ننتقل إلى الفاطميين ؟ لقد ندبوا عبيد الله إلى مكة ليدعوا لبعض أشياع عليّ رضي الله عنه ، وفي مكة استطاع أن يبذر أول بذرة لإنشاء دولته الكتامية أو الفاطمية ، كما سماها أحفاده من بعده ، فقد اتصل ببعض حجاج بني كتامة من المغرب فبهرهم بيانه وصدق لهجته ، فاستصحبوه إلى أرضهم حيث ولّوه أمرهم ، واستطاع بمهارته أن يؤسس لهم دو يلة ، ما لبثت هذه الدولة أن اتسعت حتى فتحت مصر في عهد أحفاده في منتصف القرن الرابع الهجري ، فكانت الفاطمية . ولا بد للفاطمية من صنعاء وإن طال السفر ـ لا بد لها من مكة لتطبعها أو تطبع بها وتملي من رأس منبرها سياستها الجديدة ... استطاعت أن تستحوذ على هذا المنبر ، وأن تلزمه ليؤيدها و يعترف بأحقيتها في الخلافة ، فكان لها ما أرادت ، حتى عندما فرضت مذهبها في التشيع ، أضيفت إلى الآذان من منائر المسجد الحرام عبارة حي على خير العمل وعلّمت الناس كيف يحتفلون بعاشوراء وأعياد كثيرة خاصة بالمقرّبين والأولياء ...

حكم غير مباشر

لم يذكر التاريخ أن الفاطميين حكموا مكة والحجاز حكماً مباشراً ، فهم رغم إنحدارهم من

سلالة كانت طينتها من هذا البلد ـ كما كان شأن العباسيين ـ أقول رغم هذا ، فقد اكتفوا بالنسبة إلى مكة ، بما يسميه العرف السياسي منطقة نفوذ وتركوا بني عمومتهم من أشراف الحجاز ينطلقون فيعلنوها إمارة شريفيّة ، فكان ذلك أول حكم الأشراف في مكة ، أو إن شئت فقل في الحجاز . . .

الاشراف ثم العباسيون

انطلق الأشراف من عقالهم ليؤسسوا لهم دولة ، فأجلوا عامل العباسيين وألزموا منبرهم تأييد الفاطميين في خلافة الإسلام ، فانطبعت مكة بما انطبع به منبرها ، وظل الأمر على هذا سنوات لم يطل أمدها لأن العباسيين أدركوا أن اتجاه مكة أو اتجاه منبرها السياسي على الأصح قد غمرته عطايا الفاطميين ومنحهم وهداياهم السخية ، فما لبثوا أن قرروا الدفاع بنفس السلاح ، فندبوا من يعرض على أشراف مكة ضعف ما يصلهم به الفاطميون من عطايا ومنح ، لقاء أن يشيد المنبر بالدعاء لهم وتأييد خلافتهم . وهو ما نشهد غراره اليوم من ألوان البذل الذي تتبارى فيه الدول الكبيرة في عصرنا الحاضر .

لقد نجح الفاطميون بما بذلوا في مكة ، ثم ما لبثوا أن تغلب عليهم العباسيون بقوة البذل ثم ما لبث أن لعب المد والجزر . . فإذا مكة يوماً فاطمية تؤيد الخليفة الفاطمي . . ويوماً عباسية يدعو منبرها لخليفة بني العباس . .

لم يكن للأشراف مورد يقيمون به أود الحجاز ، فاستمرأوا أسلوب (شيلني وأشيلك) لقد كان في الأمر مايشبه التخطيط في كتاب عرفتموه « لعبة الأمم » لا أدري من قال إن الدعاء للسلاطين فوق منبر مكة شرط لتأييد السلطان في عالم الإسلام ـ أرزاق وبس ـ رزق البله .

ولم يدم الأمر ، أمر منح فقط ، فقد كانت الدولتان الكبيرتان العباسية والفاطمية تحتلان يومها في العالم الإسلامي ما تحتله اليوم أمريكا وروسيا اللتان جعلتا من الكرة الأرضية كرة تشبه ما تتقاذفه الوحدة والأهلي والإتحاد من شرقي العالم وغربيّه . .

كانت إحداهما إذا شعرت بفشل ما ، بذلت العطايا وشمّرت عن ساعدها ودفعت جيوشها لتضع مكة أو تضع منبرها بالأصح تحت أمر واقع ، حتى إذا استيقظت الأخرى ، حشدت من الجيوش والعتاد ما يضمن لها النصر ، وانطلقت تركب ما في خيلها . . وعندئذ يتراجع المهزوم ويترك المنبر ليؤيد ما اقتضاه الحال . .

على هذا المنوال عاشت مكة حقبة طويلة يتقاذفها المد والجزر في سبيل هذا المنبر .. كان منبرها يطبع سياستها حقبة بعد أخرى بماتمليه أقوى الدولتين المتصارعتين .

ولعل من يسألني عما كانت تعانيه مكةبين شقي هذه الرّحى ..

إنه مما لا ينكر أن مكة كانت تستفيد لفقرها من مباراة الدولتين في البذل ، ولكنها مع ذلك كانت تقاسي من فتن الحروب وغلاء الأسعار وضيق الأرزاق ما لا يحتمله جلد .. وكان الحجاج في كثير من سنواتهم يعانون شديد المعاناة و يتعرضون بأسباب الفتن إلى السلب والجوع ، وربما تعذرعليهم إتمام مناسكهم في غمار تلك الفتن ..

وتقوّض عرش الفاطميين ، وقامت على أنقاضه دولة الأيوبيين في مصر ، فكان لا بد من صنعاء ولوطال السفر .. لا بد من مكة .. لا بد من منبرها . وما دام صلاح الدين الأيوبي يعترف بالعباسيين في بغداد ، فلا بد من أن يمد نفوذه إلى منبر مكة ليؤيد العباسيين ، ولا بأس من أن يدعو لنفسه إلى جانب الخليفة العباسي ..

واستأنف البذل طريقه إلى مكة .. اشتركت فيه بغداد ، واشترك فيه الأيوبيين من مصر ، كما اشترك الإثنان في التأديب كلما عصاهم المنبر ، وساعدتهم اليمن ، عندما حكمها فرع من الأيوبيين . لقد هاجمت اليمن مكة في بعض المرات واستخلصتها أو بالأصح استخلصت منبرها ، لينطق باسم العباسيين مرة والأيوبيين مرات ...

مماليك الأتراك والإغراء

وتقلّص ظل الدولة الأيوبية في منتصف القرن السابع الهجري .. ولم تمض سنوات حتى تقلص ظل العباسيين كذلك ، فظن أبونمي عامل مكة يومها أن في استطاعته أن يستقل بنفوذه فيها ، ولكن أحلامه ما فتئت أن تبخرت ، فقد نهض على أنقاض الأيوبيين في مصر مماليك الأتراك ، وما كاد يستقر لهم الأمر ، حتى اتضح لهم أنه لا بد لهم من صنعاء ولوطال السفر .. لا بد لهم من مكة .. أو بالأصح لا بد من منبرها مهما كلّف السفر ..

عندئذ بدأ الإغراء يأخذ طريقه إلى مكة بشتى الوسائل ، حتى قنع أصحابها وقبلوا أن يصبغوا باللون الجديد سياسة منبرهم .. نجح الأغراء مرة وأخطأ أخرى فأيّد المنبر في بعض أيامه مماليك الأتراك وتناساهم في غيرها فكان الوعد وكان الوعيد . كان المد وكان الجزر ، حتى لاح في الجو نجم جديد .. ذلك هو سلطان التتار في بغداد ، الذي ورث عرش العباسيين فاتسعت آفاق

الجذب ، ثم اتسعت أكثر ببزوغ نجم الرّسولين في اليمن ، وظل المنبر على هذا يتجاذبه مماليك الأتراك مرة والتتار أخرى والرسوليين في غيرها .. حتى كاد أن ينتهي القرن الثامن الهجري إلى نهايته واستطاع مماليك الشراكسة أن يقضوا على دولة المماليك الأتراك .

خلا الطريق إلى منبر مكة للشراكسة واستطاعوا أن يملوا عليه الدعاء بتأييدهم إلا في بعض الفترات التي كان أشراف مكة يعلنون فيها عصيان منبرهم على دعاء التأييد .. ولعل هذا العصيان استطاع في نهايته أن يمهّد لوضع اليد ، فاقتحم الشراكسة بجيوشهم مكة واستطاعوا أن يضموها إليهم تحت أمرة أشرافها ، وأن يقيّدوا المنبر لحسابهم يؤيدهم و يدعو باسمهم .. و بذلك اكتمل القرن الثامن الهجري ثم التاسع و بعض القرن العاشر ..

العثمانيون

وزال نفوذ الشراكسة على أثر انتصار العثمانيين الذين اقتحموا بلاد الشرق العربي ، واستطاعوا في عام ٩٢٣ أن يفتحوا مصر وأن يندبوا رسلهم إلى مكة ليفاوضوا شريفها بركات بن محمد .. (نحن نقرك أيها الشريف في حكم مكة ، إذا وافقت على الدعاء في المنبر للخليفة العثماني) ..

هكذا لا بد من صنعاء .. لا بد من مكة .. لا بد من المنبر ..

ولم يجد الشريف بركات بدأ من الموافقة وهو يعرف مدى قوة السلطان سليم الفاتح .. ماذا يفعل ؟ بلد فقير أمام قوة دوّخت عامة بلاد الشرق ؟ ..

بهذا اقتصر المنبر على لون واحد يؤيد العثمانيين و يدعو لهم بالنصر .. وظل على هذا ردحاً طويلاً يزيد عن مائة سنة .. كان النفوذ العثماني في أثنائه لا تتجاوز علاقته موضوع المنبر ..

كان أشراف مكة يتوارثون حكمها في صور لسنا اليوم في صددها ، وحسبهم أن يأذنوا بالدعاء للسلطان بن السلطان بن السلطان خان ، لقاء ما يتناولونه من من مساعدات ومنح كان أهمها غلال الصدقة ..

الغلال التي علّمت مكة الكسل (أعني مكة وأهلها الصّيدا)

كانت غلال الصدقة توزع على الأهالي في مكة بشكل يفيض عن حاجتهم كثيراً ، فكان الرجل يكتفي بالقليل مما يتناوله و يبيع الباقي فيغطي نفقة بيته شهوراً طويلة من العام ، فكان

ذلك مدعاة للكسل ربّي أجيالنا على الإتكال ونشأنا ولا همّ لنا إلا أن نأكل وننام ونستيقظ ، لندعو بنصر السلطان بن السلطان .. خان ..

وعندما ضاق العثمانيون بمشاركة بعض أشراف مكة ، رأوا من الخير أن يلحقوا مكة بسلطانهم نهائياً ، لتصبح جزءاً من ممتلكاتهم في الشرق العربي .. فمال الجيش العثماني تتقدمه فرقة الإنكشارية على حصون الأشراف في مكة ، واستطاعوا تثبيت أقدامهم بعد أن كان يزعزعها أيد الأشراف و بذلك لم يتقيد المنبر لحساب العثمانيين فحسب ، بل أنشأ يطبع تاريخ مكة السياسي باللون العثماني .

تعاقب الأحداث

لا نريد أن نتوسع إلى أكثر من هذا لننتقل إلى نفوذ الخديوي محمد علي باشا في مكة ، وما أعقب ذلك من ثورة رجال الدستور من العثمانيين وما تلاها من نهضة الحسين بن علي .. فتلك فصول لا يتسع مقامنا لتفصيلاتها .. وحسبنا أننا ألممنا بأهم الألوان التي صبغت منبر المسجد في مكة في أكثر من ألف سنة وهيّأته ليترك أثره مطبوعاً في حقبة طويلة من تاريخ مكة السياسي ..

والآن .. وأنا أتهيأ لمغادرة موقفي .. عليّ ألاّ أنسى فضل المرحوم الملك عبد العزيز في تغاضيه عن ذكر اسم معين يتوجّه المنبر بالدعاء له .. فقد حل هذا أشكالاً كبير العقدة وتركه طليقاً لا يطبع ولا يطبع .. حسبه أن يدعو للمسلمين و يطلب إلى الله أن يوفق ولاة أمورهم للعمل الصالح ..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

نشأة الأدب في الحجاز

إذا تراءى لنا أن نؤرخ لنشأة الأدب الجديد في الحجاز تعين علينا أن ندرس الإرهاصات التي هيأت لنشأته في أواخر العهد العثماني .

ومن المعلوم لكل متتبع أن الحجاز عاش في ظل العثمانيين ما يزيد على أربعة قرون ومع هذا كانت علاقة المتبوع لا تزيد في حقيقتها عن بذل الأعطيات السخية للتابع ومساعدته على الحياة الرخوة حتى كانت صدقات الغلال ومنح النقد تعم جل البيوت وخاصة في مكة والمدينة .

كأن أقصى ما يهم العثمانيين في هذه البلاد شرف الإنتساب إلى خدمة الحرمين وأن يدعو خطيبها باسمهم وأن يعتبروا أصحابه مجموعة متواكلة اعتكفت بجوار الحرم لتطوف بالحجاج وتخدم الزوار وتدعو للخليفة السخي .

لذلك لم يدر بخلدهم أن يطوروه ولو إلى الحد الضئيل الذي خدموا فيه بلاداً عربية أخرى كانت محكومة لسلطانهم حتى المدارس عز عليهم أن يؤسسوها إلا ما كان منها لخدمة قضيتهم في تتريك العرب أو إعداد جيل صالح لخدمة وظائفهم المحدودة .

ولولا أن نفراً من المسلمين في الهند أخذتهم الحمية لهذا البلد فتطوعوا بتأسيس بعض المدارس كالمدرسة الصولتية والفخرية في مكة والفلاح في مكة وجدة ودار العلوم في المدينة ولولا الجهود الخاصة التي بذلتها بيوت العلم في مدن الحجاز ممثلة في حلقات المساجد التي كانت تغص بطلابها لعاشت الأمية في الحجاز ضاربة أطنابها بشكل مقيت .

لولا هذه العناية الفردية التي كانت تحتسب أعمالها لوجه الله وخدمة الوطن لعاش الحجاز في أمية شاملة عامة .

في هذه الأثناء وكان القرن الرابع الهجري قد أهل هلاله ومضى بصيص خافت في سماء الأدب كنتيجة للجهود الفردية التي أشرت إليها فاشتهر عبد المحسن الصحاف وعبد الواحد الأشرم بالشعر في مكة واشتهر عبد الجليل براده وابراهيم الأسكوبي في المدينة كما اشتهر غيرهم في جدة والطائف أشخاص معدودون لا يتجاوز مجموعهم الكلي عدد أصابع اليد ولمعت شهرتهم في أساليب الشعر التقليدية التي كانت معروفة في عهدهم من تشطير إلى تشجير إلى معارضة تكثر

فيها المحسنات البديعية على اختلاف أنواعها .

وفي هذه الأثناء تراءى لأولياء الأمر من العثمانيين أن يتحفوا الحجاز بجريدة تصدر عن مكة لتعبر عن آرائهم وتجمع قلوب الرعايا حول سلطانهم فقد فاحت رائحة الدستوريين طالبي الإصلاح في الآستانة واتصل العبير ببعض كبار الموظفين في سائر الولايات ومنها الحجاز فكان لا بد من الدعاية لخلق الجو المناسب فكانت جريدة (الحجاز) التي أسس لها عثمان باشا مطبعة خاصة في مطلع هذا القرن أسسها في أجياد فخدمت السلطنة العثمانية كما خدمت الدستوريين العثمانيين بعدهم كماخدمت الحكومة الهاشمية . وظلت على خدمتها حتى توسع مجالها وأضيفت إليها طابعات وآلات وأدوات من أنواع كثيرة في عهدنا هذا ثم اضطرتنا أعمال التوسعة في المسجد الحرام إلى الإنتقال من مكانها إلى مداخل أجياد خلف مبنى وزارة المالية .

صدرت جريدة الحجاز عن هذه المطبعة في أربع صفحات أسبوعية عام ١٣٠١ هـ وكان يرأس تحريرها مكتوبجي الولاية أي رئيس كتاب الوالي العثماني ومساعده في التحرير أحمد جمال أفندي منشيء ديوان الولاية أي المحرر في الديوان وأحمد حقي أفندي من كتاب الديوان ثم أضيف إليهم الشيخ محمود شلهوب المعروف كما أضيف إليهم غيرهم من الشبان المخلصين للولاية .

وعندما ثار الدستوريون على الخلافة استطاعوا أن يستخدموا جريدة الحجاز لمبادئهم الثورية ثم أنشئوا إلى جانبها في مكة جريدة شمس الحقيقة باللغتين العربية والتركية وجريدة الصفا في جدة باللغة العربية ولم يصدر منها إلا عدد واحد ثم جريدة الإصلاح في مكة وقد ندبوا لتحريرها (أديب الهراوي) وهو من صحفيي لبنان ولم يصدر منها إلا نحو ٢٠ عدداً ثم عطلوها بعد أن أنسوا منها ما لا يعجبهم .

ويقول الأستاذ محمد سعيد العامودي في كتابه (من تاريخنا) إنه لم يكن لهذه الصحف قيمة أدبية أو سياسية أو أي أثر في تكوين الوعي أو توجيه الفكر وينقل نموذجاً من جريدة شمس الحقيقة للتدليل على مستوى الكتابة في هذه الصحف وقد جاء فيه : ـ

(ينبغي لمن شاء أن يكاتبنا في موضوع أن ينبذ وراءه المصلحة الذاتية فإن الأفكار الراقية التي لا تعميها الأغراض الشخصية ولا الأطماع الذاتية تنظر بنور الله إلى مصلحة الوطن العمومية .
ألا ترى سيدنا موسى كليم الله عليه السلام قال أغرقتها لتغرق أهلها ولم يقل لتغرقني نظر في ذلك لغيره وقلمه على شخصه وقت الغرق الذي لا يعرف الإنسان فيه إلا نفسه فليخش الله الكاتبون

وليتق الله المحررون ولا يحرروا لجريدتنا إلا الحقيقة لأنها شمس الحقيقة ثم ليكتبوا في دائرة واجبات الصحافة الحرة التي ذكرناها سابقاً لأن جريدتنا لا تبتعد عن المثالية وما في معناها ذلك ونسأل الله التوفيق لصالح الوطن) .

في هذه الأثناء كانت رغم هذا قد لمعت في سماء الشعر أسماء كان من أشهرهم محمد صبحي طه ثم ما لبثت أن خبت وضاعت في غمرة الحياة .

وثار الحسين على الدستوريين العثمانيين ثورته المعروفة فألغى مدارس تتريك العرب وأنشأ على أنقاضها مدارس عربية .. أنشأ في مكة أربع مدارس ومدرسة واحدة أو ـ مدرستين في بعض المدن الظاهرة .

واستقدم الشيخ كامل القصاب من سوريا ليدير إدارة المعارف وشكل له هيئة من علماء المسجد الحرام ليساعدوه على توجيه منهج الدراسة الوجهة التي يراها الحسين جديرة ببلاده .

كانت مدارس أولية أو ما فوق الأولية بقليل ولكنها إلى جانب مدارس الفلاح والصولتية والفخرية استطاعت أن تفتق الوعي إلى حد وأن تنشيء جيلاً قارئاً يتعشق المطالعة و يلذ له التوسع فيها فكان هذا الجيل الذي نسمية اليوم أدباءنا الشيوخ أو الرعيل الأول .

كان رحمه الله لا يرى التوسع في المعرفة بالشكل الذي نراه اليوم كان لا يستحسن بعث البعوث إلى المدارس الراقية في الخارج ولا إلى الجامعات كان يقول تلقينا علومنا حسبنا ألاّ تستقي من علوم الفرنجة ولهذا كان نصيب الشبيبة في ذلك العهد محدوداً الحد الذي ترونه اليوم ومع هذا كانوا يتمتعون بأرواح حية متوثبة .

وأصدر الحسين على أثر استقلاله بالحجاز جريدة القبلة لتدافع عن آرائه في النهضة العربية وكان يحررها فؤاد الخطيب ومحب الدين الخطيب وأحمد شاكر الكرمي وكلهم سوريون ثم صدرت جريدة الفلاح لصاحبها عمر شاكر وهي جريدة سورية كان صاحبها يصدرها في دمشق فلما سقطت سوريا في يد الفرنسيين هاجر الرجل إلى مكة واستأذن الحسن في إصدار جريدته بمكة فصدرت ثم ما لبث أن اختلف مع الحسين فتعطلت الفلاح عن الصدور واستغنى الحسين عن المحررين في القبلة من السوريين فندب لتحريرها الشيخ الطيب الساسي كما ندب الشيخ حسين الصبان لإدارة أعمالها .

وصدرت في عهد استقلال الحسين مجلة الزراعة على أثر تأسيسه مدرسة الزراعة ولكنها لم تتجاوز العدد الثالث .

في هذه الأثناء كان بعض شباب الجيل قدعلق بالقراءة وتعشق الأدب في مجال ضيق لا يتسع لغير الهمس الخافت ذلك لأن الحسين رحمه الله كان شديد الحذر وكان لا يرى للأقلام حقاً في أن تصول حسب الشباب أن يواصل نشاطه في قراءة أمهات كتب الأدب الموروثة و ألاّ يشغل نفسه بالصحف ففي جريدة القبلة ما يغنيه .. و بذلك مضى عهد الحسين رحمه الله دون أن يترك أثراً أدبياً يذكر إلا ما كان يعتلج في صدور بعض الشباب في ذلك العهد .

وعندما تنازل الحسين وانتقلت حكومته إلى جدة لتحاصر فيها تحت حكم الملك علي وانتقل بانتقال الحكومة أعيان الأهالي والمتعلمين والشباب صدرت في جدة جريدة بريد الحجاز وكان صاحب امتيازها الشيخ محمد صالح نصيف عند ذاك وجدت الصدور متنفساً في بعض المجالات وقرىء للشباب من مكة وجدة بعض النفثات الشعرية والنثرية .

واستقر الأمر في الحجاز للملك عبد العزيز رحمه الله فانتقلت جريدة بريد الحجاز إلى مكة ليصدرها صاحب امتيازها الشيخ محمد صالح نصيف باسم جريدة صوت الحجاز إلى جانب الجريدة الرسمية التي أصدرتها الحكومة الجديدة باسم (أم القرى) التي كان يرأسها الشيخ يوسف ياسين .

بدأ الشباب كخطوة أولى يجدون متنفسهم في جريدة صوت الحجاز و بدأت تظهر بعض أسمائهم بين حقولها في صور شعرية أو نثرية مجالات تكاد أن تكون مقتصرة على الأدب أو نقد الشؤون العامة في المجتمع أو بعض الدوائر الرسمية ذات الإختصاص الشعبي .

وصدر في هذه الأثناء للأستاذ محمد حسن عواد كتاب خواطر مصرحة فأحدث ضجة بين أوساط العلماء و بعض البارزين في المجتمع لأنه ينقد بعض النواحي التي لم يألفوا نقدها وأحيل صاحب الكتاب إلى المحاكمة ولكن الأمر ما لبث أن سوي ولم يثبت ما يدين صاحب الكتاب .

و بدأ التعاون بين بعض الشباب في مكة فكانوا يجتمعون و يتزاورون و يتراسلون وتتصل مراسلاتهم بالشباب في جدة والمدينة في محور لا يتعدى المجال الأدبي نثراً وشعراً ووقع بعضهم في شراك البعض الآخر فكانت معارضات وانتهت بنفر منهم إلى مهاجاة ثقيلة ولكنها في الوقت نفسه كانت تمثل ألواناً من الشعر الحي المتوقد لو استطعنا تنقيته وتسجيله لكان أثراً خالداً يصور الجيل الذي عاشه أدق تصوير .

في هذه الفترة المبكرة لمع في مكة من شبابنا الأساتذة محمد سرور الصبان . عبد الوهاب أشي محمد سعيد العامودي جميل مقادمي عمرعرب حسين نظيف كانوا يتحلقون حول الشيخ محمد

سرو رفقد كانت له مكتبة في الشارع اليوسفي لبيع الكتب الأدبية وكان له مركز في ردهة المكتبة يجمع بعضهم كما كان بيته في المسفلة مجمعاً لسمرهم في أكثر الليالي كما كانت للشيخ حسين نظيف خلوة عند باب العتيق تجمعهم في بعض ساعات النهار .

وتتابعت ظهور الأسماء في مكة ـ وسيأتي ذكر غيرها فيما بعد أقول تتابعت ظهور الأسماء في مكة لتضاف إلى ما قدمت وليكونوا ما نسميه بالرعيل الأول فكان الأساتذة محمد حسن فقي ، حسين سرحان ، أحمد غزاوي ، أحمد العربي ، عبد السلام عمر أمين عقيل عبدالله فدا حامد كمكي ، عزيز ضيا ، محمد سعيد عبد المقصود وأخيراً أحمد سباعي إذا قبلوا إدراجه بين أسمائهم .

ولعل في قصة إلحاق هذا الأخير الماثل أمامكم يمضي في ركاب الرعيل الأول ما يثير الضحك فقد تسامعت بخبر هذا النفر وكنت قد علقت القراءة وتعشقت الأدب فعن لي أن أجرب قلمي .. كنت يومها شاباً اشتغل بالتدريس وليس بين الرعيل إياه من يعرف حتى اسمي فأنشأت أجرب قلمي خفية ولكن هل أنشره في السطح .. تراءى لي أن أجمعه فيما يشبه المجلة أو الكتاب وأقتحم به هدوء الشيخ محمد سرور أبرز الشلة يومها .. أعتقد أن الشيخ محمد سرور ضحك يومها ملء صدره من هذه (الخبصة) بعد أن قرأ بعض وريقاتها ولكنه الشيخ محمد سرور الذي يعرف كيف يتصرف في تعابير وجهه حتى لا تنطق إلا بما يريده هو .

قال الشيخ ليس لي جريدة لأنشر لك فيها .. قلت هل يصلح ليطبع ككتاب وهل تشاركني في طبعه . قال لا بأس . قلت كم يكلفني طبعه . قال يكفيك عشرين جنيهاً . قلت سأدفع منها عشرة وتدفع الباقي . قال لا بأس .

قدمت إليه الكتاب مصحوباً بعشرة جنيهات ـ حيلة الشب يا رب ـ وسألته عن اسم الكتاب قال أقترح أن تسميه (حبر على ورق) كان يتعين عليّ أن أفهم ولكنه الذكاء محدود كما أن فرحتي بنفسي كمؤلف جديد طغت عليّ حتى على هذا الذكاء المحدود .

أودع الشيخ محمد سرور الكتاب والنقود على أحد الرفوف في بيته (ستره ومصونه) كما يقولون (وكتم الدم على القيح) وإذا كان لي ما أحمده عليه فذلك أنه لم يفضحني .

فين يا شيخ محمد الكتاب ؟ والله ما وصل .. كمان ما وصل .. كمان ما وصل .. مضت شهور تتلوها شهور وأنا أحلم بالكتاب غلافه أصفر .. لا أخضر .. متين .. لا .. رفيع .. طويل .. لا قصير والشيخ محمد هو الشيخ محمد لا تعرف أن تأخذ منه كلمة وعلى عادته لا تنطق تعابير وجهه بحرف .

واعتزمت السفر إلى مصر بعد هذه الشهور الطويلة .. أيش رأيك يا شيخ محمد تعطيني كتاباً للمطبعة استلم منها الكتاب .. كان يتعين على الشيخ محمد أن يرتج عليه ولكنه كعادته يترك الحلوى لأوقاتها .. تفضل هذا الكتاب وهذا عنوان المطبعة .. وانتهيت إلى المطبعة وكان يديرها الأستاذ خير الدين الزركلي .. شويا ولدي هاي كتاب ما شفته .. ما وصل إلي .. ترى هل ضاع والله ما بعرف .. وعدت بعودتي من مصر إلى الشيخ محمد أسأله ففكر طويلاً ثم قال عادت أصول الكتاب وعادت الفلوس .. لا أعرف كيف انقشع الغبار عن ذهني و بدأت أفهم . قلت هل تأذن لي بالكتاب قال تفضل ها هوذا الكتاب وهذه هي الفلوس .

كنت في هذه الأثناء قد بدأت أنشر بعض المقالات تحت تأثير أني أصبحت مؤلفاً بشهادة الشيخ محمد سرور وشهادة العشرة الجنيه .. رفض رئيس تحرير صوت الحجاز يومها الشيخ عبد الوهاب آشي أن ينشر لي أول مقال فسكت على (كسفتي) دون أن ـ أحرك ساكناً أو أذيع سراً لا كما يفعل ناشئتنا اليوم .. ولما خلف بعده السيد محمد حسن فقي في رئاسة التحرير كان فيما يبدو محتاجاً لما يملأ به الجريدة في أول يوم من أيام عمله فالتجأ إلى درج المهملات ليعثر على مقالي المهمل و ينشره كان يوماً مشهوداً أقفلت فيه الباب على نفسي و رحت أرقص على نغمات المقال وأنا أقرأ وأردد ما أقرأ بالغنة والمد .

ما كان لي أن أسرق من وقتكم في الحديث عن شخصي ولكنها المناسبة أردت ـ إهتبالها .. سقت نفسي إلى المشرحة لتأخذ ناشئتنا الجديدة ما يهمها من دروس ـ المشرحة ولا أملك أن أسوق غيري إلى التشريح وإن كنت واثقاً أن ما أصابهم لا يقل بحال عما أصابني .

ولمعت في هذه الأثناء في جدة والمدينة أسماء تضاف إلى الرعيل الأول كان منها في جدة الأساتذة محمد حسن عواد ، حمزة شحاتة ، محمود عارف وفي المدينة الأساتذة عبد القدوس الأنصاري ، محمد حسين زيدان ، علي حافظ عثمان ، أمين مدني وعبد الحق النقشبندي إلى غيرهم مما لا أستطيع استقصاءه في جدة والمدينة لقلة اختلاطي بهم يومها ولا بد أنهم كانت لهم مجتمعات وندوات يستطيع غيري من المدينتين أن يتحدث عنها بإسهاب لا أعرف تفاصيله .

وأستأنف دعوتي إلى مكة مرة أخرى لأن من بين الملحقين بالرعيل الأول شاباً يتعين عليّ أن أقف عنده بعض الوقت هذا الشاب هو المرحوم محمد سعيد عبد المقصود تعشق الأدب وأقحم نفسه في زمرة المتأدبين فأبرز نشاطاً قليل المثال كان يعمل في حسابات جريدة أم القرى وكان يديرها و يحررها يومذاك الأستاذ رشدي ملحس وعندما نقل الأستاذ رشدي إلى الرياض للعمل في قصر الملك عبد العزيز رحمه الله أناب عنه في الإدارة والتحرير أخانا عبد المقصود .. نسي عبد المقصود

أنه يحرر جريدة رسميةلا تتخطى حدود البلاغات والنشرات والأوامر الرسمية وراح يفسح لقلمه فيها مجالاً بتوقيع الغربال غربل فيها أوضاع البلاد وتقاليدها في مقالات مطولة متسلسلة كانت تتميز بجرأة غريبة لم تألفها مجتمعاتنا بعد .

بهذه الجرأة استطاع أن يقفز من ذيل القائمة إلى صدرها ليقود إخوانه إلى ندوات واجتماعات كان لها صداها المدوي .

كان يجمعنا إلى بيته لنناقش شئون الشباب وعندما اقترح البعض أن يقيم الشباب احتفالاً عاماً سنوياً في منى يدعو إليه علماء الحجاج وأعيانهم وأدباءهم ورجال الفكر ـ ليستعرضوا الشباب الجديد في هذا البلد ويعرفوا مدى ما أنجب .

اضطلع رحمه الله بأهم الأعمال في الموضوع ووجد والحق يقال للتأريخ من وكيل وزارة الخارجية السيد فؤاد حمزة والشيخ محمد سرور تشجيعاً أدبياً غريب المثال كما وجد من المرحوم الشيخ عبدالله السليمان تشجيعاً مادياً له قيمته الفعالة .

واستمر الشباب يقيم حفله سنوياً في منى وبعد أن يقدم خطباءه يترك المنبر للحجاج ليتباروا بما عندهم من ألوان ولكن ما عتمنا بعد سنوات أن رأينامنبر الحفل وقد بات مثاراً للجدل المذهبي ومجالاً لدعاوى السياسات المختلفة في العالم وأن أغراضه الأدبية ضاعت بين ما يثار فاستغنينا عن الحفل وألغيناه .

كان الشباب من هذا الرعيل متوثباً دائم الحركة موفور النشاط أذكر أنه عندما وافت الأخبار بعودة بعثة الطيران التي سافرت إلى إيطاليا لتتعلم قيادة الطائرات وميكانيكيتها قرر الشباب في إحدى اجتماعاته أن يستقبلهم بحفاوة صارخة فخفوا عن بكرة أبيهم إلى جدة واستقبلوهم باسم الشباب على الرصيف هاتفين بحياتهم وحياة الشباب ثم خرجوا بهم إلى مدينة جدة محمولين على الأعناق وأعلنوا في جريدتهم صوت الحجاز أنه سيحتفل بهم عند مداخل جرول وأن الدعوة عامة فهرعت زرافات المواطنين في مكة إلى مكان الإحتفال . ليست هناك مقاعد ، لا ، ولا مخيمات إنما هي قطعة أرض واسعة اختاروها تحت ظل أحد الجبال أقاموا في وسطها منبراً لا أكثر وقف أمامها الطيارون وازدحم الناس حولهم وقوفاً حتى ألقيت كلمة الترحيب وقصيدة من الشعر النابض ثم انتهى الإحتفال ومشى الموكب في سياراته يقطع شوارع البلدة من أبعد طريق يحف بهم الشباب هاتفين بحياتهم وحياة الأمة في أصوات رهيبة رددت صداها جميع الشوارع فتنبه الناس إلى أن في البيداء طلعاً ناهضاً من الشباب .

وأذكر من قرارات الشباب أنه اجتمع مرة وكان الوقت في رمضان وقرر أن تستغني البلاد عن تقديم الحلوى في أيام العيد لأنها من صنع أجنبي وأن يكتفوا بتقديم نوع من التمر واللوز البجلي .. أعلنوا هذا في صحيفتهم صوت الحجاز ونفذوه جميعاً في بيوتهم على أمل أن يتأسى الناس بهم ولكن العادة التقليدية أبت أن ترضخ لما قرروا إلا في بعض بيوت المتحمسين .

كما أذكر قصة مشروع القرش فقد قرر الشباب في بعض اجتماعاته فأعلنوه في جريدة صوت الحجاز يستنفرون من يتطوع لخدمة المشروع وأعدوا لاستحصال القرش من الجماهير أوراقاً في حجم طوابع البريد جعلوا قيمة الورقة قرشاً ودفعوا بها إلى المتطوعين لاستحصال ما يستطيعون استحصاله من بيعها على الجماهير وكانوا يرجون أن يعيدوا الكرة سنوياً حتى تتجمد في صندوق القرش مبالغ تبني لهم مصنعاً أو عملاً يفيد البلاد ولكن بعض المتطوعين تباطئوا في استئناف العمل عند خطوته الثانية فتخاذل المشروع و بقيت حصيلة القرش في عامه الأول محفوظة كوديعة في البنك فليت شبابنا الجديد يستأنف ما فات على الشباب القديم فيسعى لتأمين جماعة يتطوعون للعمل من جديد و يستطيع الشباب الجديد إذا أثبت جدارته عاماً بعد آخر أن يستحصل الحصيلة القديمة ليضيفها إلى تحصيله الجديد .

ودعى المرحوم الأستاذ محمد سعيد عبد المقصود إلى إبراز الأدب الحجازي في مؤلف يسجل آثارهم فاستجاب الشباب لدعوته في مكة والمدينة وجدة وانهالت الرسائل تحمل إنتاج الأدباء والشعراء فشكلت للقراءة والفحص لجنة كانت تجتمع يومياً حتى تمت لها المجموعة التي صدرت باسم (وحي الصحراء) في طباعة أنيقة التزم إخراجها وأنفق عليها محمد سعيد عبد المقصود وعاونه على إعدادها صديق له كان من الطلاب يومها هو الأستاذ عبدالله بلخير المدير العام للإذاعة والصحافة فيما بعد .

و زخرت مكة يومها بعديد من الفتيان كانوا دون سن الشباب أو حوله كنا نسميهم الناشئة استفزهم عمل الشباب في وحي الصحراء فقرروا أن يكون لهم مثل مجموعة وحي الصحراء (ليش هما مو أحسن مننا) وكان محور الحركة كهل تعرفونه اليوم دائب النشاط رغم سنه الذي أوفى على الستين أو كاد ذلك هو الأستاذ عبد السلام الساسي .

استطاع أن يجمع إليه فريقاً من الطلبة النابهين الذين أطلقنا عليهم يومها ناشئة لنحتفظ بمراكزنا في طليعتهم كما كان يتراءى لنا .. كان منهم الأساتذة المرحوم عبدالله عريف ، حسين عرب ، هاشم زواوي ، السيد علي قدعق ، حمد الجاسر ، أحمد عطار ، عبد المجيد شبكشي ، حسين خزندار ، محمد علي قطب وعبد المجيد مشخص وغيرهم وغيرهم .

استطاع الساسي أن يجمع إليه رصفاءه الذي ذكرت وأن يصدر بمساعدتهم مجموعة أسموها « نفثات ـ بأقلام الشباب الحجازي » وكأنما أرادوا أن يضعوا في عيون الشباب إنتاجهم ليثبتوا أنهم شباب لا يجوز أن يطلق عليهم معنى الناشئة .

هؤلاء الناشئة كما كنا نصر على تسميتهم أو الشباب كما كانوا يؤكدون لأنفسهم رغم أنوفنا أصبحوا اليوم كهولاً أو شيوخاً واستطاع أكثرهم أن يتخطى الحدود الفارقة بينهم و بين من سبقهم إلى مجال الأدب و ربما أنكروا حتى فارق السن وأبوا إلا أن يلحقوا أسماءهم بقائمة الرعيل الأول وهذا ما نخشى سمعته عليهم لئلا يقال أنهم « عجائز » .

كأنه بين عيني الآن يوم كان الساسي والعريف والعطار والزمخشري والخازندار والفدعق والعرب وكثير من أمثالهم الناشئين ينظرون إلينا أصحاب الرعيل الأول نظرة فيها كثير من الدهش كنا في رأيهم موهوبين بشكل ممتاز .

كان هذا قبل أن يبرزوا وقبل أن تلمع أسماؤهم .. كانوا يقرأون ما نكتب بنهم ولا أذيع سراً إذا قلت أنهم كانوا يلاحقوننا صباح مساء في المطبعة وفي مكتب الجريدة متطوعين بخدماتهم للصحيفة على أمل أن يصبحوا أنداداً ولم يدر بخلد بعضهم يومها أن سيحقق في مجال الأدب ما حققه اليوم من نجاح يستحق الحسد .

أذكر أن هذا الأخ عبدالله عريف عثر بنسخة من مؤلفي سلم القراءة العربية عند بعض أقربائه من صغار التلاميذ وكان الأستاذ بدوره لا يزال طالباً في سنيه العالية بمدرسة الفلاح فهاله ما وجد كما لو كان الكتاب من تأليف الإمام الغزالي فكتب على حاشية الغلاف جملة يحيي فيها هذه الكفاءة وهذه المقدرة .

ترى هل تعجبه اليوم مثل كتابات السباعي بعد أن اتسعت مفاهيمه وتوسعت مداركه بل هل يعجبه ما أنتج مثلي وهل يعجب مثله جماعة شباب اليوم بعد أن تهيأت لهم الدراسات العالية وتخصصوا في كثير من جوانب المعرفة .. لا أدري .

وكل الذي أدريه أنه يتعين على كل من نبغ في مجال الأدب من ناشئتنا القديمة ألاّ يزهو بما أنتج ففي الميدان اليوم متفوقون جدد يستحقون أن يرفعوا صدورهم عليهم إذا لزم الأمر وسيتبع هؤلاء غيرهم ما دامت الولادة تولد .

أذكر أن الأستاذ عريف قال لي في أحد الأيام في مجابهة صريحة وكنت أشغل تحرير صوت

الحجاز وأعمل كسكرتير لعدة جمعيات .. قال لي يومها « والله يا شيخ انتوجيتوا والدنيا عميه والتقيتوا الطريق فاضي » .

فما ملكت أن ضحكت لأني معترف بصحة ما يقول وأعتقد أنه يستطيع اليوم أن يضحك ملء شدقيه إذا سمع أحداً من شبابنا الجديد يعيد عليه ما جابهني به .

وأذكر أن الأستاذ حسين عرب قرأ في أحد الايام عن مسابقة شعرية لتأليف نشيد قومي حماسي وكنت من بين أعضاء فرز النتائج وفي طريقي إلى غرفة الفرز لاحت مني التفاتة فإذا فتى « يتسحلب » في الدرج يقدم رجلاً و يؤخر أخرى .. قلت مهيم وكنت أميل إلى هذه الألفاظ فما زاد عن أن قدم إلي ورقة مطوية في استحياء ودون أن ينبس بحرف وفتحتها فإذا أنا أقرأ شعراً نابضاً بالحياة لا يتفق مع خجل الشاعر الصغير وإذا أنا أترنم بما أقرأ في نشوة وطرب . قلت قف يا أخ مكانك ودخلت إلى زملائي فقلت أراهن أنني جئتكم بالشعر الفائز ولكنكم سوف لا تسمعون منه حرفاً حتى تنتهوا مما بين أيديكم لأثبت لكم صحة ما أقول .

وقد ثبت ما قلت وأجمع إخواني على فوز الشاعر الصغير الذي نشهده اليوم كبيراً يعد في طليعة شعرائنا .

والسؤال الآن هل يستبعد شاعرنا الكبير أن ينشأ من بين فتياتنا شعراء يبزون كل ما نقرأ اليوم من شعر المجيدين من أمثاله .

و بعد فإذا كان ما ألاحظه على شبابنا الجديد بعد أن أصبحنا وناشئتنا القديمة كهولاً وشيوخاً ألاحظ أن الروح السائدة بين صفوفهم لا تتميز بالوقدة التي كانت تشتغل في صدورنا يوم تطفلنا على الحياة الجديدة و بعثناها داوية رغم قلة حصيلتنا من الحياة .

إننا ننتظر أعمالاً ثقافية منتجة يدوي صداها من الحدود إلى الحدود ليعرف العالم أن هنا أمة آخذة سمتها على الدرب وأن شبابها الجديد سيثبت كفاءته في سائر المجالات الحية .

حضارة الإسلام

كنت في حديث في التلفزيون مع بعض شبابنا ممن غرتهم حضارة الغرب فأنستهم أنفسهم وكاد أن يفقدهم ثقتهم بأمتهم وما كدت أنتهي حتى تشعب الحديث واتسعت آفاقه فجئت اليوم أملاً في أن أستوفي بعض جوانب البحث .

يظن هؤلاء المفتونون بحضارة الغرب من شباب الأمة الإسلامية أن الغربيين صناع الحضارة التي يتميزون بها اليوم وأنهم إنما صنعوها بما ملكوا من حذق وما امتازوا به من كفاءات ما تهيأت لأحد قبلهم ولن تتهيأ لأحد بعدهم من سائر أمم الأرض .

ترى أين هؤلاء من حضارة البابليين والأشوريين والفينيقيين والسبئين والمصريين أين هم من حضارة الصين والهند وعشرات قبلهم ومثلهم بعدهم ... ثم أين هم من حضارة العرب في بغداد وفي الأندلس أين هم منها وقد كانت نواة لأهم الجوانب الفكرية التي تلمح اليوم نتائجها في سائر البلاد التقدمية .

ليست الحضارة نتاج جيل . لا ولا ملك أمة إنما هي وليدة الحياة من يوم أن عرفت الحياة وهي ربيبة الحاجة من أول يوم شعر فيه الإنسان بضرورة الحاجة . لقد عاشت ألوف الأمم التي مرت بتاريخ الأرض تتوارث الحضارة أمة بعد أخرى لتنميها وتغذي روافدها ومن ثم تسلمها إلى من يليها لترعى نماءها . وظل هذا شأنها حتى أنهت مسيرتها إلى ما نشهد اليوم .

لا لتظل وقفاً على وارث بذاته بل لتتابع سيرها إلى من يحسن استغلالها جيلاً بعد آخر حتى تحقق أحلاماً لا نكاد نتخيلها ... قد يقال إن الحضارة في مسيرتها الطويلة مرت بمئات الأمم أو مروا بها دون أن تصافحهم أو يصافحوها دون أن تطبعهم أو يطبعوها دون أن يستفيدوا من روافدها أو يتركوا أثراً في جوانبها وهذا صحيح لا يختلف فيه رأيان .. ولو جاز لنا أن نعطي أحكامنا لفصلنا في أمر هذه الأمم بأنها وإن دبت أقدامها في فترة من فترات التاريخ على وجه هذه الأرض لكنها لم تعش لأنها كانت لا تستحق أن تعيش .

وما كان قرارها فوق الأرض إلا قرار ميت عاش يستكين لجدته .

ذلك لأن الحضارة لا تصافح في التاريخ إلا من يستحق أن يعيش ، لا تصافح إلا أقواماً لهم

أهليتهم ولهم قابليتهم ولديهم من الاستعداد والحيوية ما يهيئهم لميراث الحضارة بل و يعدهم لتطو يرها .

وهنا قد يتبادر إلى أذهاننا كمسلمين أن نتساءل عن دو رنا في مسيرة الحضارة .. هل استطعنا في أحد الأيام أن نصافحها وهل رأت الحضارة لدينا في إحدى مراحلها من القابلية ما هيأنا لميراثها وساعدنا على استغلال روافدهاوأعدنا لتطو يرها حتى أسلمناها لورثتنا في وضع أفضل .

إن المفتونين بالغرب لا تتسع آفاقهم لدراسة الفكرة في مثل هذه الأبعاد حسبهم هذا النظر السطحي الذي لا يمتد إلا إلى ما تمتد إليه أنوفهم وأنوفهم لا تتسع أبعادها إلا إلى ما يلمع اليوم من أفانين الغرب .

أمّا أن هذه الأفانين كانت مخدومة قبل أن يتفتق وعي الغرب وأن مئات الأجيال قبل اليوم كانت قد بذرت بذورها و رعت نماءها وسقت أصولها قبل أن تعطي اليوم ثمارها وأن الإسلام كان له دو ره الفعال في تطو يرها فذلك أبعد من أن يتخيلوه .. هل علم المفتونون بالغرب أن بين لا بتي شرقهم العربي الإسلامي كانت تعيش أمة دوت لصيتها آفاق الأرض .. أمة استطاعت في أحد الأيام أن تضع يدها على مقدرات الحضارة في أكثر من محيط نصف الكرة الأرضية وأنها عرفت كيف تستغلها لتبني لمجدها صرحاً قليل النظير .

لسنا من عشاق العظامية لنفخر بأحداث باتت نخرة لكنها دروس مزيدة ليثبت للمفتونين من شباب الأمة الإسلامية أن الحياة دول وأن دواليبها دائبة الحركة حول محورها .. لقد استطاعت أمة الإسلام بما بذل عباقرتها أن تمثل مركز الأستاذية ولم تبخل على الغرب بعلومها وفنونها وألوان بحوثها حتى هيأته للعمل الباهر الذي انتهى إليه اليوم .. ليس عيباً أن يزحف التلميذ إلى مكان الصدارة ليبز أستاذه فتلك سنة الحياة من يوم أن خلقت الحياة .. إنها محور تدور بدو رانه دواليب الحياة بين صاعد وهابط ولا يلبث الهابط أن يأخذ دو ره إلى السمو ليلحق العالم ولا يفتأ العالي أن ينحدر تحت تأثير الحركة التلقائية ليعطي مكانه للصاعد .. أقول ليس عيباً أن يزحف التلميذ إلى مكان الصدارة ليبز أستاذه ولكن العيب كل العيب أن نغمط جهود الأستاذ أو ننكر عليه ما بذل في سبيل التوعية وما أعطى من نفسه للتوجيه والإعداد .

ترى هل علم المفتونون أن أبا بكر الرازي كان مصدراً رئيا للحياة التي تطورت اليوم آفاقها بتطور الأيام هل علموا أنه إلى هذا كان مفخرة من مفاخر الطب العربي .. هل علموا أن ابن

النديم في كتابه الفهرست أحصى للفخر الرازي مائة وثلاثة عشر مؤلفاً كان أكثرها يبحث في العلوم الطبيعية كما أحصى له ثماني وعشرين رسالة في الكيمياء .. ذكر المطلعون عليها أنها كانت عميقة الأسرار تصور عمقه في الأبحاث العلمية وأن أكثرها نقل إلى أكثر من لغة في أوروبا فكانت منبعاً لمقومات الفكر في أوربا وأن أكثر هذه الذخائر نقلت لسذاجتنا إلى المكتبات العامرة في فرنسا وإيطاليا وانكلترا واسبانيا وأن بعض المستشرقين في أمريكا استطاعوا أن يظفروا أخيراً بعدد وافر منها لمكتباتهم الخاصة وأهدى بعضهم نسخاً منها لا تزال مخطوطة إلى بعض المكاتب الكبرى في جامعات أوربا .. هل علم المفتونون أن جابر بن حيان كان علماً من أعلام الصيدلة وأنه كان أول من أسس لها مدرسة خاصة بها وأول من ألف في علم الأدوية وأول من ابتكر إنشاء مخازن عامة للصيدلة يوم كانت أوربا لا تفهم شيئاً من معاني الصيدلة .. وأنه كان يفرض على الصيادلة أن يجتازوا امتحاناً خاصاً ليتيح لهم تعاطي بيع الأدوية كما يفرض مثل ذلك على الأطباء فلا يتعاطى مهنة الطب إلا من أجازه ابن حيان .. هل علم المفتونون أن يُوحَنّا الطبيب كان أول من فكر في علم التشريح ونحن إذ نسمي من كان على غير ديانتنا مع من نسميهم من نوابغ المسلمين فذلك لأن بيئة الحضارة يومها كانت بيئة إسلامية وكانت ثقافتها العامة ثقافة إسلامية .. أقول هل علم المفتونون أن يوحنا الطبيب كان أول من فكر في علم التشريح عندما أجرى تجاربه الأولى على جثة فرد وخرج من ذلك بنظريات كان العلم لا يحلم بها .. وأنه أول من عني بعلاج أمراض العين وألف في هذا أكثر من كتاب .. هل علم المفتونون شيئاً مما سجل التاريخ لابن بختيوشع وحسان بن ثابت وابن سيناء ليعرفوا أثرهم في دعم الحضارة التي يباهي الغرب بها وما قدموا من نظريات كانت تجمع هي والفنون والطب والفلسفة والرياضيات في بحوث ضافية تتلمذت عليها أوربا واستفادت لنهضتها من دروسها ما لا مجال لنكرانه .. أريد أن أؤكد للمرة الثانية أنه لا يحسن أن نميل إلى النظامية التي ترى فخرها فيما

صنع الأجداد ولكنها ألوان من الذكرى. حسبنا أن تكون عظة للمفتونين بما يسمونه حضارة الغرب ليدركوا مبلغ جهود هذه الأمة في تغذية الحضارة قبل أن ترثها أوربا ومدى ما هيأنا لإعدادها لتلمع اليوم بين ظهراني مدعيها في القرن العشرين ... هل علم المفتونون أن أبا يوسف يعقوب بن اسحق الكندي حبس نفسه على التوفيق بين نظريات أرسطو وأفلاطون وإنه ما لبث أن خرج لنفسه نظريات لا تمت إلى المدرستين بعلاقة ذات بال وأنه إلى جانب عنايته بالفلسفة كان من أبرع من نظر في النجوم علاوة على تعمقه في كثير من فروع الكيمياء وقد جاء في ترجمته أن مؤلفاته في الفلسفة والتنجيم و بعض فروع الكيمياء بلغت نحو مائتين لا يزال بعضها مخطوطاً تحتضنه كبريات المكتبات في العالمين الشرقي والغربي كما أن بعضها نقل إلى لغات أوربية عديدة فكان أساساً لبحوث فلسفية واسعة ولكن الأكثرية الساحقة من هذه الكتب يعتبرها

المحققون مفقودة ولعل الدمار الذي لحق بكثير من المكتبات الشهيرة والسرقات تعاونت جميعها على فقدها ... والغريب فيا نحن بصدده أن الجهود التي بذلها أمثال هؤلاء العباقرة في الدراسات والبحوث والتأليف كانوا يسهرون عليها على ضوء الشموع وقناديل الزيت على ضوء هذه الذبالة الرفيعة التي تتراقص الحروف تحت شعارها الضئيل فلا تكاد تبين وكان ضعيف البصر منهم لا يجد النظارة التي نستعين بها اليوم في قرائتنا .. ونحن و بعد أن ظفرنا اليوم بما يساعد أبصارنا من زجاج النظارات و بعد أن شعت الإشعاعات القوية التي تكشف أدق الحروف أمامنا ماذا فعلنا وما مدى انتاجنا وهل استطعنا بكل ما حققنا أن نجاريهم في عشر معشار ما حققوا ... نعيب زماننا والعيب فينا . وما لزماننا عيب سوانا . ونحن بعد هذا لا نزال في مكاننا مع عبقرية الكندي فقد ذكروا أن عبقريته لم تقتصر على دراسة نظريات أرسطو وأفلاطون ومن جال مجالهم من فلاسفة اليونان وحكماء الهند وما استنتجه لنفسه من مجموعة ما درس كما لم تقصر جهوده على ما ناقش من بحوث الكيمياء والتنجيم وفصول من فروع الفلسفة بل تعدى ذلك إلى دراسات واسعة في الموسيقى فقد عمل على تحليلها نظرياً وتطبيقاً ثم شرع يحلل الغناء الموزون إلى اوليات كانت نواة لدراسات دقيقة بعده في الأندلس حيث انتقلت منها إلى فرنسا ثم إلى كثير من ممالك أوربا ... ولبحوثه في الموسيقى أربع رسائل تركت له شهرة واسعة في فن الموسيقى ... ومن الغريب أن بعض هواة الموسيقى في أوربا يستعينون بترجمة هذه الرسائل على دراسة الموسيقى في عصور الإسلام الذهبية ونحن لاهون لا ندري شيئاً .. وهل علم المفتونون أن أبا نصر محمد الفارابي كان أول من تناول بحوث النفس في فلسفته فكانت بحوثه نبراساً لمن جاء بعده من علماء النفس ثم عن له أن يدرس الآراء الصوفية فتعمق في بحثها وحلل أصولها في عدة مؤلفات كما تراءى له أن يوضح الفرق بين أحكام المجتهدين في التشريع الإسلامي ليعلل الأسباب التي بنيت عليها تعليلاً منطقياً وأن رسائله في ذلك عمدة لكثير من الباحثين بعده واستطاع النابهون من ورثة المجتهدين والمتفوقين أن يعتمدوا نظريات الفارابي إذا عن لهم أن يجادلوا المنطقيين ورجال الفلسفة في بعض النظريات الفلسفية وتراءى لي للفارابي أن يدرس بعض الظواهر التي سماها ما وراء التطبيق فأفاض فيها واستحدث من القواعد ما ظل يدرس بعده في جامعات الأندلس .

كما تراءى له أن نظم الحياة السياسية حرية بأن يفلسفها وأن يُقَنِّن لها من القوانين ما يعتقد ضرورته لنجاحها فألف رسالة في ذلك ثم تلاها برسالة عن آراء أهل المدينة الفاضلة و بأخرى عن السياسة المدنية وفي هذه الرسائل كما يقول متتبعو آثاره قرر الأسس التي استوحاها من فلسفته مستقاة من آراء سبعة من فلاسفة اليونان بعد أن نقض كثيراً من آرائهم التي رأى أنه يتعذر تطبيقها عملياً و بذلك انتهى إلى قواعد تفرض التعاون الطبيعي بين أفراد الأمة الواحدة

بصورة مثالية لا تتعارض مع قواعد التشريع الإسلامي ... قواعد لو استطاع من سموا أنفسهم بالإشتراكيين أن يتدارسوها لوجدوا في نظرياتها ما يحقق لهم أو في نظام لا يتعارض مع ما جاء به الشرع ... هل علم المفتونون أننا بنينا بيت الحكمة في بغداد وأن أروقتها كانت تموج بأساطين العلم والعقل في أهم فروع المعرفة وكان طلابها من كل جنس ولون يتلقون الحكمة في شتى أنواعها وأننا كنا من أوائل من بنى المراصد الفلكية وكان من أهمها مرصد بيت الحكمة في بغداد الذي كان يتناوب العمل فيه جمهرة من كبار الفلكيين يترصدون مواقع النجوم وحركاتها وانحراف دائرة البروج ومواقيت الشمس والقمر وكانت لهم أجهزة استطاعوا أن يحددوا بها حجم الأرض ومحيطها وأن يقيسوا أبعادها بالميل والدرجة لينتهوا من ذلك إلى نتائج لا تكاد تختلف اليوم عما أثبته العلم الحديث بعد جهود مئات السنين إلا بالشيء اليسير الذي لا يكاد يذكر ..

هل علم المفتونون أن من مشاهير العاملين في مرصد بيت الحكمة في بغداد من استطاع أن يصحح بعض النظريات التي كانت مأثورة عن بطليموس ذلك هو محمد البناني وكان من ألمع المفكرين في عصره .. وأن أبا الريحان محمداً البيروني كان من أبرز من أشتغل في الطبيعيات والرياضيات وقد عاشت نظرياته تدرس في أوربا في أوائل عهدها بالنهضة العلمية وظلت على ذلك زمناً طويلاً وكان له في فرنسا تلامذة يتحمسون له بعد أن حققوا ما ترجم من نظرياته .

وقد أثر عن البيروني أنه علل الينابيع الطبيعية تعليلاً علمياً دقيقاً بناه على ما ثبت عنده من نواميس السوائل وقد طبق من ذكرت من تلاميذه في فرنسا تعليله هذا تطبيقاً علمياً وأفردت له مؤلفات خاصة كانت متداولة في كثير من مدن فرنسا و يذكر المتتبعون أن نسخاً منها شوهدت في مكتبة قيمة بباريس لا أدري إذا كان قد عفا الزمان عليها أم لا تزال محفوظة بين الكثير الذي تحفظه مكتبات أوربا في تراث العرب .

وهل علم المفتونون أن محمداً الخوارزمي كان ذا باع طويل في كثير من فروع الرياضيات وأن آراءه تركت أثراً له طابعه في حضارة الأندلس .. وانتقل منها إلى كثير من مدن أوربا وأن مدرسة كانت معروفة في إيطاليا بدراسة آثار الخوارزمي وقد شهد لكفاءته أكثر من عالم بالرياضيات في أوربا ..

وكان الخوارزمي إلى هذا من أقدم من ألف في حساب الجبر والمقابلة وإذا كان قد سبقه بعضهم إلى هذا إلا أن ما ألفه في هذا الموضوع قد اشتهر شهرة واسعة وقد نقل مؤلفه هذا إلى اللغة اللاتينية وظل يدرس إلى عهد طويل بعده في معاهد أوربا و بنقله عرفت أوربا أرقامنا الحسابية ولم يكن لأوربا قبل ذلك قاعدة منظمة لشكل الأرقام أو مراتبها فهي اليوم تستعمل الأرقام التي

وقد عشنا وإياهم نستعملها في حساباتنا حتى بدا لنا أن نتركها لاستعمالهم وننشيء لنا أرقاماً جديدة هي الموجودة اليوم بين أيدينا بعد أن اقتبسنا بعض صورها من أرقام الهند .

وقد علم المفتونون أن جابر بن حيان الذي تحدثنا عن براعته في دراسة خواص الأعشاب وتقطير ما ينقع منها للأدوية لم يكتف بهذا بل شغل نفسه بما حسبه أكسير الحياة وكان أمله فيما روى بعض المؤرخين أن في استطاعته أن يقلب النحاس ذهباً وقد ذكروا أنه نجح بعد لأي وإرهاق ولكن ما كاد أن يواتيه حتى ضاعت منه الوصفة التي نسخها بيده فاستاء لهذا وأبى أن يعاود البحث ولكن خبره فتن الألوف بعده فعكفوا على مئات التجارب وقد قيل إن بعضهم نجح وإن كان الخبر لم يثبت علمياً .. ومن مبتكرات ابن حيان التي تذكر له أنه حسن أعمال التبخر والتبلور والتكليس وكانت نظريات خاصة بعناصر ... المعادن ظلت أساساً لكثير من بحوث المعادن لكثير من كبار المشتغلين بها إلى عهد طويل . ..

وهل علم المفتونون أن الخليفة المأمون هاله ألا يجد صورة للأرض تحدد مواقع الممالك وتبين حدودها و بعد أن أعجزه البحث استعان بعدد كبير من علماء عصره ليضعوا خريطة للأرض تجمع سائر ممالكها فتوافروا على البحث والدراسة واستعانوا بكثير من الرحالين الذين ساحوا من مشرق الأرض ومغاربها كما استعانوا ببعض المبادىء التي أثرت عن اليونان ولم ينفكوا حتى انتهوا من رسم الخريطة التي بذلوا فيها غاية ما يمكنهم من جهد .

وقد عاشت الخريطة مرجعاً لجميع المشتغلين بجغرافية الأرض وتاريخ ممالكها إلى عدة قرون وعني الأصطخري بها فلونها ليحدد بذلك حدود الممالك وتركها ليعتمدها بعده المقدس وابن حوقل و ياقوت الحموي وعشرات من أمثالهم .. وهل علم المفتونون مبلغ الجهود التي ند لها الحسن بن أحمد الهمداني في سبيل أن يخطط لنا جزيرة العرب أقاليمها ومدنها ودساكرها وقراها وحياكها ومواقعها الأثرية ومناطقها التاريخية بشكل قد تعجز عنه لجان تتوافر على تحقيق ما فعل .

إننا لا نستطيع استقصاء أسماء جميع العاملين في سائر المجالات العلمية فذلك أوسع مما يحتمله الوقت المحدد لمثل هذا البحث وإنما هي شذرات تداعت من هنا وهناك لا ينتظمها استيعاب أردنا أن نـدلل بها على أن في مكنة شبابنا ألاّ يفتنوا ببهرج غيرهم حتى يستعيدوا مآثر آبائهم لبث روح المغامرة ولتعدهم للإنطلاق الجديد في بلاد الإسلام .. وكان يتعين علينا أن لا نغفل الجهود الجبارة التي بذلها أساطين التشريع الإسلامي وما عاناه رجال الفكر والاختراع وعلوم اللغة ولكنها باتت جهوداً مشهورة حفلت بها مئات من دور الكتب والمدن فأصبحت في غنى عن إشادة مثلي بها والسلام .

نهضة الإسلام في الأندلس

(١)

كانت الأندلس يخيم في سمائها ظلام الجهل الذي يخيم في سماء أوربا . وكانت القبائل من أقصى الشمال في أوربا إلى نهاية حدود القارة في جنوب اسبانيا يحكمها زعماء ومشائخ لا يدينون لنظام ولا يفقهون من معارف الحياة إلا ما ورثوا من تقاليد قبلية كانت مضرب الأمثال في معاني التخلف والجمود .

فلما تسلل الإسلام إلى اسبانيا تحت راية طارق بن زياد واستطاع أن يؤسس لنفسه في بعض أطرافها كخطوة أولى نحو الإستقرار الكامل وجد العرب من مضريين وعدنانيين كما وجد البربر سبيلهم إلى الاستيطان في بعض الثغور لحماية الأمن فكان لا بد لهم أن ينشروا معارفهم حيث نزلوا فبدأت العناية بالقراءة والكتابة تنتشر حولهم بشكل لا تعرفه أوربا من أقصى حدودها إلى أقصى حدودها ثم ما لبثت الحياة أن تطورت بتطور الأيام فبدأت الحركة التعليمية تأخذ شكلها الجديد في محيطها الجديد على المنهج الذي ألفناه في مدن المشرق يومها .

بدأت المساجد ترفع بنيانها في المدن بعد المدن و بدأ القراء يتصدرون حلقاتهم لتدريس القرآن كما بدأ آخرون يجلسون لطلاب اللغة العربية نحوها وصرفها وآدابها كما بدأ المعنيون بفن الخط يستقبلون المتلهفين من سكان البلاد المفتوحة لفن الكتابة وتحسين الخط فكانت وثبة عمت المدن والدساكر والقرى وهرع على أثرها المتعطشون إلى التعليم من كل صوب يتزاحمون في طلب المعرفة .

وشجع الحكام الجدد هذه النهضة بأكرم ما يسع التشجيع فكان راتب المدرس الإبتدائي يغري بالنشاط وكانت المعونات التي تصرف للمحتاجين من طلاب العلم تغري بالإقبال .

وشاركت المرأة في عدوى هذه الحركة فزاحمت الرجل على مناهل المعرفة . فتفتق وعيها بشكل لم تعهده في تاريخها واستطاعت بما تهيأ لها من الوعي أن تعد أطفالها إعداداً جديداً قابلاً للتطور .

ولم تمض على الخطوة الجديدة إلا سنوات حتى شرع المخططون يتوسعون في مناهج التعليم وشرعت المساجد تبنى في زواياها بيوتاً للمهاجرين في طلب العلم و بدأ المسؤولون عن رقي

البلاد من حكام المناطق يقدمون لهم ما يكفي أودهم كما أن أصحاب الغنى يتبارون بالتوسعة عليهم وكعادتهم في بلاد المشرق بدأوا يبنون للمساجد دوراً واسعة للكتب وأخذوا يتصلون بالمشرق ليستوردوا منه أمهات المؤلفات في سائر الفنون .

وأشرق العهد الأندلسي بإشراق عبد الرحمن الداخل ومن خلفه من هشام إلى الحكم إلى عبد الرحمن الثاني إلى من يليهم من أبطال الإسلام في الأندلس فإذا الحركة الثقافية تأخذ دورها في النمو المطرد .

انتشرت المدارس في سائر بقاع الأرض فكانت لا تخلو مدينة أو قرية منها بل أن بعض هذه المدن اشتهرت بالمدارس العالية التي يصح أن يطلق عليها اسم الجامعات من أهمها قرطبة وغرناطة وأشبيلية ومدن أخرى لا يسع المجال لتفصيلها .

وذاعت شهرة هذه المدن بإذاعة شهرة مدارسها واستطاعت أن تنجب علماء كانوا قد هاجروا إليها من سائر ممالك أوربا في سبيل العلم فعادوا إلى مواطنهم يحملون أفكاراً جديدة و يتصدون في أعمالهم ومفاهيمهم عن وعي جديد فانبعثت في أكثر أقطار أوربا روح جديدة شرعت تزن الحياة بوزن جديد فانثالت على بلاد الأندلس طوائف الأوربيين من كل حدب في أوربا لينهلوا من مناهل العرب في الأندلس فلم تبخل عليهم في الأندلس معاهد العلم ولم تتوان جامعاتها عن مساعداتهم فقد كان في رأيهم أن يظل العلم مبذولاً و بذل الماء والهواء .

كانت وثبة أنتجت إنتاجاً ما لبث أن بات يضاهي وثبة المسلمين في الشرق .

وعسانا أن نستطيع أن نلم ولو إلمامة بسيطة بالفنون التي لمعت نجومها في مدن الأندلس وأن نستعرض ولو بصورة سريعة أخبار البارزين في ألمع الفنون آملين أن نعطي للمفتونين بالغرب صورة واضحة تعبر عن أمجاد الإسلام يوم كانت أوربا في مجاهل الظلام .

استطاعت اللغة العربية بما جندت من جهابذتها في الأندلس .. أدبائها وعلمائها وفنانيها وأساطين الترجمة فيها أن تضيء مشعل الحياة وهاجاً يرسل النور من حدود الأندلس إلى حدودها و يشع إشعاعه على القبائل النائمة في دساكر قارة أوربا وقراها من ضفاف السين إلى ما وراء الخليج الإنكليزي من جهة إلى اللورين وألمانيا من جهة أخرى إلى المقاطعات القاصية في شرق أوربا وشمالها .

قلنا إن الحركة التعليمية وثبت وثبتها في أكثر مدن الأندلس فكانت هناك معاهد عالية

وجامعات ذاع صيتها واستطاعت أن تجتذب من علماء المشرق مشاهيرهم فكان هناك من تخصص في علوم الفلك والطب والرياضيات هرعوا من بغداد ودمشق والقاهرة والكوفة لينعموا بخير البلاد و بسطة الرزق فيها فقد كانت مرتباتهم توازي أضعاف ما ألفوا في بلاد المشرق .

وعنى الوجهاء من أصحاب السلطة والثروة في أشبيلية ومالطة وغرناطة بالعلوم الشرعية فكان كلما وفد بعضهم إلى الحج اصطحب معه في عودته من مكة أو المدينة بعض مشاهير الفقهاء ليبث علومه و ينشر ثقافته بين المساجد والمعاهد .

وكان ثمة من أغنيائهم من يزود الحجاج في رحلتهم إلى المشرق بالأموال الطائلة ليتصيدوا لهم نفائس الكتب ونوادر المؤلفات يزينون بها خزائن كتبهم .. وكانت لهم بهذه الخزائن عناية فائقة يتبارون في الإنفاق عليها وكانت أكثر هذه الخزائن تبوب في أقسام يفوض كل قسم منها إلى خازن لامع في فنه للفلسفة وآخر للعلوم الشرعية وغيره لعلوم الكلام أو الطب أو الرياضيات وكان عشاق القراءة والإطلاع يجدون الأبواب مفتوحة أمامهم و يجدون خزائنها على استعداد في أكثر أوقات النهار لتلبية طلباتهم وإرشادهم إلى مظان البحث التي يرغبونها بل أن بعض أصحاب المكتبات كانوا يوظفون النساخ ليعينوا بعض المغتربين بالنقل من فقراء الطلبة والعلماء .

وكانت أكثر هذه المكتبات خاصة يملكها عشاق الإقتناء ولكن ما لبثت بمرور الأيام أن تداخلت حتى باتت تجمعها مكتبات عامة واسعة ذلك أنه شاع بينهم تقليد عام يعيب على صاحب المكتبة أن يورثها أبناءه خشية أن يتصرف فيها بالبيع بعده فكان إذا دنا أجل أحدهم أوصى بحبس ما يملك من نفائسها وأن تنقل موجوداتها إلى مكتبة عامة يعنيها و ربما أوقف ريع بعض أملاكه على العناية بها ومساعدة من يحتاج إلى المساعدة ممن يهمه البحث فيها .

هذه المكتبات بما زخرت من ألوان العلم و بما تنوعت من ضروب المعرفة كانت في أحد الأيام خميرة تفاعلت بضروب من الأفكار . كانت لا تمر بخيال البلاد قبل أن يفتحها العرب .

تفاعلت الأفكار في الأندلس العربية على أثر الوثبة التعليمية التي كانت المعاهد والمساجد والجامعات ودور الكتب من أعلى مظاهرها فأنتجت فطاحل اهتموا بجغرافية الأرض وتوسعوا في علومها بصورة لم تعهدها الحضارات التي سبقتها رغم ما بذلوا في شأنها ونشط الرحالون تحت تأثير هذه الوثبة يذرعون آفاق الأرض ليحددوا معالمها و يميزوا أقاليمها و يدرسوا خصائص أقطارها فساعدوا بذلك على تزويد المهتمين بجغرافية الأرض . ساعدوهم بمصادر لها قيمتها مصادر علمية تكبدوا في سبيلها من مشاق الأسفار ووعثاء الطرق وخطورة الأمن ما لا يحتمله إلا أصحاب العزم من نوادر الرجال .

وأنتجت الوثبة التعليمية في الأندلس مهرة حبسوا حياتهم على دراسة النبات بكافة أصنافه وعلاقته بخصائص التربة بسائر أنواعها ومناخ الأجواء الصالحة لاستنبات ما يمكن استنباته في مناخ دون آخر وفي فصول من العام دون غيرها .

وأنتجت الوثبة متفوقين في علوم الفلسفة اشبعوا مناحي الحياة العقلية بالدراسات المستفيضة وتعمقوا في بحوثهم بشكل دل على مرونة واسعة واستعداد ذهني قل أن يضاهي و بذلك ازدحمت رفوف المكاتب العامة يومها بمؤلفاتهم التي تغلغلت في أدق مسائل العقل مما ضاع أكثره في خضم الإضطرابات التي منيت بها الأندلس في أخريات أيامها ففقدنا بذلك ثروة عقلية لا تقدر بينما استطاعت أوربا أن تصطادها بصورة أو بأخرى كما أنتجت الوثبة التعليمية مشاهير في الطب كانت تضرب الأمثال بكفاءاتهم لا في بلاد الأندلس وحدها بل تعدى ذلك إلى أقصى بلد في جنوب أوربا وشمالها فكان المرضى ممن استعصت أدواؤهم وتعذر علاجهم يفدون إليهم من إيطاليا وألمانيا وسويسرا يرجون العلاج في مستشفياتهم .

وكانت معلوماتهم الواسعة في خصائص الأعشاب وأساليبهم في تحضير المشروبات والمنقوعات تكاد أن تنفرد بهم بين الأمم التي كانت تجاورهم حتى ذكروا أن بعض الرهبان الذين كانوا يحبسون أنفسهم لدراسة خصائص الأعشاب في صوامعهم من جبال الألب كانوا يستعينون أكثر ما يستعينون فيما حبسوا أنفسهم له بنظريات مشاهير الأندلس من الأطباء .

وكانت لهم جهودهم في علم الفلك الذي وثب به عشاقه إلى الذروة فقد هاجر عدد من أعلامه في المشرق و بدأوا يبثون علومهم في بعض مساجد قرطبة ثم ما لبث العلم أن انتقل إلى

معهد خاص عني فيه بدراسة مواقع النجوم وأسمائها ودوائر البروج وطوالعها وأثرها في تتابع الفصول واستعان المعهد بمؤلفات بيت الحكمة في بغداد فتوسعت دراساته وأنتجت علماء ذاعت شهرتهم وكانت لهم مراصد خاصة يتابعون فيها حركات النجوم وكانت لهم شبه منشورات توزع في بعض بلاد أوربا المتاخمة فيتابعها بعض الروحانيين ممن تعشق الفن من رجال الكنيسة ووفد بعضهم إلى قرطبة لينضم إلى المعهد فيها وبذلك انتقل كثير من علوم الفلك إلى أوربا عن طريق قرطبة وشرعت بعض الكنائس تعني بدراستها وتعتمد في نظرياتها على ما ثبت في مراصد قرطبة .

ومن الملاحظ الذي يستطيع المؤرخ المدقق أن يتتبعه في ما أرخ للأندلس أن ـ العلوم الرياضية فلكية كانت أو طبية أو جغرافية أو فلسفية بلغت شأوها قبل كثير من علوم العربية أو الشرعية ولا أعني بهذا أن علوم العربية والشرع كانت غير محظوظة ولكنني أعني أن هجرة أعلامها من بلاد المشرق جاءت متأخرة ولكنهم ما كادوا يتواردون حتى بدأت العناية بدراسة اللغة وآدابها وعلوم الشرع بمختلف فروعها تأخذ دورها الجدي، ورأينا المجددين من طبقات الشعراء والأدباء ينحون في شعرهم وأدبهم نحواً جديداً غير ما عرفه الشرق . وقد أثبت المحققون أن ملامح هذا الأثر ظهر واضحاً في كثير مما أنتجه الأدب اللاتيني في عصور حركته الأولى .

كما رأينا علماء الشريعة في الأندلس يتعمقون في بعض مذاهبها ويستنتجون من وسائلها فتوى توسعوا في الأخذ بها مما لا يسعنا اليوم أن نأتي على بعض تفصيلاته .

ويبدو أن العناية بدراسة التأريخ جاءت متأخرة على غرار ما كان في علوم الشريعة واللغة ولكنها ما لبثت أن توسعت وجددت أساليبها في الدراسة والكتابة ونشأ من أعلامه من مال إلى فلسفة حوادثه بصورة تتباين عما ألف الشرق العربي يوم كان يسرد وقائعه سرداً كما حدثت .

وكتب التاريخ تكاد تجمع على أن من أوائل من خطط للأقاليم خرداذبه وكان عاملاً على البريد في العراق ثم جاء الأصطخري فطور المعلومات التي أخذها عما كتبه خرداذبه وتوسع طبوغرافيا ووضع لها خرائط كانت متداولة في بعض بلاد المشرق ثم ما لبثت الفكرة أن انتقلت إلى الأندلس فعنى بها بعض المهتمين بجغرافية الأرض .

ومن أبرز من عنى بالتخطيط الطبوغرافي ورسم الخرائط وتدقيق الحدود الفاصلة بين الممالك والممالك وتلوينها في بلاد الأندلس أبو عبدالله محمد الإدريسي وكان قد ولد من أبوين عربيين في الأندلس ولما نشأ تنقل بين كثير من مدن الأندلس وتعشق دراسة الجغرافيا فاعتمد فيما درس على كتب يونانية وطالت صحبته بما كتب المسعودي ثم تتبع أشهر الرحالين يستقي من معلوماتهم وندب أكثر من رجل رحلوا على نفقته إلى جهات يعينها ليأتوه بالمعلومات التي يهتم بتحقيقها .

وعندما ذاعت شهرته استدعاه أحد أمراء صقلية وكان من هواة العلوم فعاش في بلاطه سنوات حافلة بدراسة الخرائط ورسمها وتناقل المهتمون بهذا العلم خرائطه في أكثر بلاد الأندلس وانتقل بعضها إلى إيطاليا ثم إلى ألمانيا ومن أشهر خرائطه التي ظلت حية على الدهر نسخ كانت محفوظة في دار الكتب ببغداد اهتم بها بعض المهتمين بالآثار في قرننا الحالي فطبعوا منها آلاف النسخ ووزعوها هدايا أو بالثمن وكنت قد اقتنيت نسخة منها .

ومن أطرف ما لاحظته شخصياً في بعض هذه الخرائط أنه عين موقع انلكترا تعييناً صحيحاً وكتب عليها ما يدل على أنها بلاد خالية . وكذلك فعل عندما عين مواقع أكثر البلاد في شمالي أوربا مما يدل على مبلغ التخلف الذي كانت تعيشه أوربا في عصور الإسلام الزاهية .

وعندما انتهت إلى الأندلس مؤلفات علماء المشرق من رحالين ومحققين كالهمداني والبلخي والأصطخري وياقوت والمقدسي وابن حوقل والمسعودي وجد الأندلسيون مادتهم خصبة في الموضوع .

وكان يعقوب بن اسحق الكندي وهو من فلاسفة المشرق قد عني قبل كل هؤلاء بجغرافية الأرض ونقل عن اليونانيين والسريانيين كثيراً من تحقيقاتهم فاتصلت مؤلفاته بالأندلس فكانت معيناً ثرا ساعد على دراسات واسعة .

وحفزت هذه الدراسات الرحالة الأندلسي ابن جبير فشد رحاله إلى مكة وزار في طريقه كثيراً من الممالك فكان كتاب رحلته مصدراً هاماً من مصادر العناية بجغرافية الأرض كما كان كتاب أبي حامد المازني قبله وهو من علماء غرناطة مصدراً له قيمته في الموضوع فقد أوغل في بلاد شرقي أوربا وكتب عن أحوال الأمم وعلاقاتهم السياسة والإقتصادية بصورة كانت معتمدة عند الجغرافيين في الأندلس إلى وقت طويل .

كما اعتمد في الموضوع بعده رحالتنا الشهير ابن بطوطة المغربي الذي زار مكة أربع مرات طاف خلالها بكثير من بلاد المعمورة وكما توغل في آسيا وكثير من أقطار أوربا توغل في الصين وفي بلاد إفريقيا وفي أقطار أخرى بعيدة كانت شبه مجهولة إلى عهده .

وشاع في هذه الأثناء القول بكروية الأرض وهي فكرة قديمة نشأت في اليونان وقال بها بعض الباحثين في الهند ولكنها لم تلق تأييداً جماهيرياً كما شاعت في بلاد الشرق الإسلامي ومنه انتقلت إلى الأندلس فوجدت هنا وهناك اعتراضاً طالت به الأيام واستنتج بعض القائلين بالكروية أن ثمة أرضاً في نصف الكرة الغربي لا بد من اكتشافها وترامت إليهم أخبار أن بعض البحارة العرب اتصلوا بهذه الأرض المجهولة وأن منهم من انقطع بها ولم يعد وهو المذهب الذي أخذ به كولمبس بعد وجاهد في سبيل تحقيقه .

ونشطت التآليف الجغرافية على أثر هذا في أمهات مدن الأندلس حتى قيل إنهم سبقوا المشارقة أساتذتهم في مضمارها .

وكانت أمهات مدن الأندلس يومها تزخر بمئات الطلبة من فرنسا وإيطاليا وألمانيا و بعض السويسريين وكان بينهم من اشتد ميله إلى دراسة الجغرافيا عن أساطينها في قرطبة وغرناطة حتى برز فيها ونقل معلوماته عنها إلى اللغة اللاتينية .

و بذلك انتشرت الأفكار العربية في بعض بلاد أوربا ومنها امتدت وتوسعت و وجدت من يحفل بها على مر الأيام كما وجدت من يقلد الخرائط العربية ثم يتوسع في طريقة رسمها كما وجدت من عشاق الترحال في أوربا من أضاف إلى المعلومات العربية معلومات أوسع .

أيصح بعد هذا أن ننسى أثر العرب والإسلام فى بناء الحضارة التى تبهرنا اليوم ؟ . أيصح لهذه الحضارة أن تفتننا اليوم عن أنفسنا لننكر أهلية قومنا ننكر استعدادهم للعمل الجاد .

إنـه لـيـس بـيـنـنـا و بين أن نستأنف مركزنا تحت الشمس إلا أن نؤمن بأنفسنا ونمنحها الثقة بقدرتنا على استعادة ما مضى من أمجادنا .

والله ولي التوفيق

ألوان

١ ـ أسيداتنا في البيوت
٢ ـ عدوّي اللّدود ناموسة
٣ ـ من الحبّ جنون
٤ ـ ترى ماذا يريد الروس بنا
٥ ـ الماسونية
٦ ـ قصة هنري فورد
٧ ـ شاعر بني هاشم
٨ ـ صلّيت العيد في أملج
٩ ـ العثملي في أفريقيا

أسيداتنا في البيوت
أسباب هذه الكوارث؟!

هذه المآسي الدامية
هذه النوائب الفادحة
هذه الكوارث الطاغية
لا تعلمهن الرحمة ببيوتهن
والشفقة ببعولتهن
والرأفة بـ « البلاليص ! ! »

حدثني صديقي بما آلمني ولا أدري أحق على أن أسميه أم حسبي من الموضوع بيت القصيد ؟

إنه من عائلة لها مركزها ولكننا في عهد أبت الطفرة المجنونة وأبى الغلو الفاحش إلا أن يستوي الماء والخشب قال صديقي ما لعلع صوت أول بكاءة لوفاة كريمتي حتى توديت لأسمع قرار سيدات البيت كان البند الأول يعني لقمة الجبر وما أرى أجبر هو أم كان كسراً لأن معرفتي بأسماء الأضداد عاشت تربكني من أول يوم حاولت أن يعلمنيها شيخ الله نعم سيداتي آنساتي ما لقمة الجبر أفادكم الله ؟

أهي اللقمة التي أوصى بها المشرع الأعظم يوم قال اصنعوا لآل جعفر طعاماً إذا كان فن من معارفنا ننتظر منه لقمة الجبر ؟

قالت أفصحهن لساناً وأوضحهن بياناً حذار أن تتخابث وتتركنا مثالاً للعيب .. هذا يومك وإلا سلقتك وسلقتنا ألسنة الأصدقاء قبل الأعداء قلت حاشاكم من السلق فدونكم وما تأمرون وحسابكم على الله .

قالت الفصيحة ليس في الأمر إلا نحو ١٢٠ سيدة وربما أضيف إليها خمسون أما الرجال عندكم من الأقارب والجيران فلا أحسبهم يزيدون عن مثل هذا العدد وفي تقديري أن ٤ أو ٥ من الغنم تكفي لأداء الواجب ولا تنسى أن تبكر ـ قبل خروج الجنازة لتبحث عن طباخ ممتاز يجيد « الزربيان » ويتقن « الششني » .

فبادرت صاحبتها تقول ولكن آل فلان وآل علان أضافوا إلى المائدة أطباقاً من التمر الصفراني والجبن البلدي و « المعرق » المسبوك لتزال بهاراته إلى اليوم في أنفي .

قلت أتريدونني أنسى وتنسون معي في غمرة هذه المشاغل أحزاننا وكأن لم يكن في بيتنا جنازة لها حقوقها في التجهيز وهل ترونني أستطيع أن أوفق بين الآلام التي تحز في فؤادي فتدميه و بين هذه الحركات الصبيانية التي لا تليق بإنسان يحترم موقفه من هذه الفاجعة ثم ألا ترون أن عليكن أن تسألنني عن كل هذه النفقات هل تحتملها ميزانيتي أم أنتن عبدات لكل مهووس ولا مناص لكن من تقليده مهما أغراه الهوس أي سيداتي آنساتي هل تسمعن ؟

هذه المآسي الدامية وهذه النوائب الفادحة ألا تعلمكن الرحمة ببيوتكن والشفقة ببعولتكن والرأفة بـ « البلاليص » قلت هذا وأكثر من هذا أو أكثر دون أن ألمس خافقة تخفق لها قلوبهن وكيف تخفق قلوبهن لما أقول وقد عشن عبدات لتقليد كل مهووس في بيت آل فلان وآل علان .

وصاحت بي جدتي وخالة لي لا أملك عصيانها ألا تتردد فكل هذا مخلوق ولسنا أقل شأناً من آل وآل علان فضيت ولا أدري كيف مضيت .

وانقضى اليوم ولا أدري كيف قضى ولكن الذي أدريه أن قلبي كان يدميه الألم دون أن أتبين أهو حزن على ما فقدت من كرائمي أم غيظ على ما أصاب موازنتي وأضاف إلى ديوني ولم يمر يوم وآخر حتى جاء من ينذرني بأني مطلوب .

وإذا مجلسهن معقود وإذا بند جديد يتلي علي أتسمع ! !

لقد دعونا معارفنا وأهلنا وأقاربنا بالتلفون بعضهن في الرياض وآخريات في المنطقة الشرقية وغيرهن في جدة والمدينة لا يتجاوز العدد ألفاً وما حولها لأن بعد غد يوم الوجبة ولا نريد أن نكون أقل من غيرنا أو أضعف شأناً ألا فاسمع ! !

لا بد لنا من ثلاث خياطات قبل أن يضيق بنا الوقت ولا بد لنا من فساتين من قماش أبيض ناصع يكفي لأكثر ضيوفنا من البوال أو التترن ولا بد لنا من مسافع بيضاء وأخرى سوداء ولا بد لنا من سحاب للفساتين ولا بد لنا وهو الأهم من حضور الخياطات ليسهرن ليلتهن على إنجاز كل هذا .

ثم لا تنسى أن بين من دعونا من كرائم العائلات لا بد لهن من حجز غرف في فنادق محترمة

تـنـزلن بها و بينهن متوسطات الحال لا بأس إذا شئت أن تتواضع بعض الشيء في اختيار الفنادق الصالحة لهن .

وعلـينـا أن نـسـتـعد لهن بعدد من سيارات الأجرة تنتظرهن في المطار لأن ـ أغلبهن لا يعرفن مكان إقامتهن وعلى السيارات أن تظل رهينة إشارتهن مدة اقامتهن بيننا .

ولا تـنـسـى قـبـل هـذا أن تحجز لنا كرسياً للعزاء من نوع الكروم وأن تكون من ذوات المتكأ الأبيـض أو الأسـود وقـد أوصيـنـا من جانبنا على ثلاث خادمات يتكلفن باستلام الملاءات من السـيـدات يلـزقـن عليها الورق المصمغ مرقماً فيه نمرة التـسلسل خشية الضياع كما أوصينا بثلاث أخـر يـات لـتـرتيب الكنادر على مثل منوال الملاءات وأجرة الواحدة من هؤلاء الستة لا تزيد عن ٢٠ ريـال كما أوصـينا على ست بنات ليقمن بأعمال القهوة والشاي ولا نحسب أن أجرة الواحدة منهن تقل عما سبق .

ثم لا بد لكل هؤلاء البنات من سيارات تنقلهن من بيوتهن ثم تعيدهن بعد نهاية الوجبة .

ولا تـنـسـى مـوضـوع الدخان فلا بد أن يكون من خمسة إلى ستة أنواع أما الشيش فلا أقل من ثـمـانـيـة وإن جـعـلـتها عـشرة فتلك مكرمة منك على أن تكون لياتها قاشاً أبيض أو أسود وأن تعبأ الشيش بماء الورد واللبان لتعطي شاربتها نكهة خاصة .

كـان صديقي يعيد علي ما عاناه وهو في شبه غيبوبة تلتاث ألفاظه كما تلتاث بين فكي طفل لا يحسن مخارج الحروف .

أي سيداتي آنساتي .

هـذه المآسـي الـدامـيـة وهـذه النوائب الفادحة ألا تعلمكن الرحمة ببيوتكن والشفقة ببعولتكن والرأفة بـ « البلاليص » .

ومـضـى صـاحـبـي رغـم تهويمته يتابع حديثه في ألم ثم شرعن يملين على مائدة الظهر الرز هو « الـزر بـيان » نفسه على أن تكون مكسراته تغطي طبقاته العليا بشكل مكثف يملأ العين وأن لا تـقـل قـطـع اللـحـم فـي الطبق عن خمسة وأن يكون « الششنى » مخدوماً بشكل محترم وأن لا يقل « الـسـمـبوسـك » فـي الـطبق عن خمسة وأن تكون صحاف البرتقال والموز والتفاح مليئة بشكل مـشـرف لـئـلا نـصـبـح مـضـغة في أفواه الناس وأن يكون الخبز بأنواعه الثلاثة والأربعة يدور بين الـصحاف وأن يكون فرش المائدة من المشمع السادة الممتاز لأن فرش النايلون منتقد عند أصحاب الفهم ! !

إلى أن قلن لي وثمت شيء له علاقة بغرف الجلوس إذا لا بد من إزالة جميع « الكنب » لتحل محل كراسي من الكروم ذات متكآت لونها أبيض أو أسود .

ورضخت يا صديقي لكل الأوامر لأن يدهن واحدة لم تشذ عنهن عاقلة لتناهض هذا التعسف الذي كبدني عشرات الألوف وسجلت عليّ ديوناً لا أدري كيف أقضيها .

إلى أن قال وليتك يا صديقي تعلم أن كل هذه النفقات التي تمثلت في مائدة عرضها كعرض ما كابدت من هموم ومع هذا فقد جلس الضيوف عليها قبل العصر وظللن يتهادين عليها في دلال حتى غربت الشمس دون أن ينلن من المائدة شيئاً يستحق الذكر وجئنا لنرفع المائدة فإذا هي مثقلة كما لو كانت الأيدي لمستها لتباركها دون أن تنالها الأفواه .

ولقد صعقت لأن دماء قلبي التي استنزفتها من أجل هذه المائدة أضافت إلى آلامي آلاماً أخرى فهذا الفيض المثقل في صحاف المائدة كيف أفعل به وأين أجد من يأكله وقد أظلم الليل وليس بجواري من يساعد على أكله أو نقله وجاءني النذير قبل أن أفيق مما صعقني إنها الوجبة الأولى وستتبعها الثانية والثالثة فتمنيت لو كنت مكان كريمتي في القبر فقد بت أولى منها بالدفن .

قلت ومع هذا فهل تحسبك أصبحت مشكوراً أو مذكوراً بكلمة طيبة ستسمع غداً تعليقاتهن الرزيا أختي كثير الليه كثير الشحم أكله لا يطاق والسمبوسك مغطى بالزيت أما الششني « فيكسريد الطباخ اللي سواه » .

ولكن ما يمنعك أن تقف عند هذا الحد ويكفيك ما سبق من ديونك فتضرب عن الوجبتين الباقيتين بعزم واكد ولا تتركهن يسحبنك على الشوك كما تسحب الأغنام .

قال أتمنى هذا ولكنهن سيغلبنني بالبكاء والعويل ودعواهن أنني سأعرضهن للغيب والفضيحة وأن بيت فلان وعلان وزعطان فعلوا أكثر مما فعلنا ولسنا أقل منهم في نظر الناس حتى نصبح أمثولة بين الأصدقاء قبل الأعداء .

أي سيداتي آنساتي ...

أتسمعن أعجبكن ما يعانيه الناس من إصراركن على تقاليد لا ترضي الله ولا ترضي رسوله ولا يقبلها ذوق سليم .

وإذا كان هذا وهو من عائلة لها مركزها واستطاع أن يستدين لها بالكن بفقير الحال الذي يأبى عليه أهل بيته إلا أن يقلد غيره مهما كانت نتائجه من سوء المصير لا .. لا تقلن أن الفقير بفقره فرصفاؤكن في بيت الفقير لا يتعرفن من بالفقر و يأبين إلا أن يبرزن بروزكن لئلا تعيرونهن بالفقر وقلة ذات اليد .

ألا فاسمعنني هذه المآسي الدامية وهذه النوائب الفادحة ألا تعلمكن الرحمة ببيوتكن والشفقة ببعولتكن والرأفة بـ « البلاليص » .

وراح صديقي بعد هذا في شبه غيبوبة قلت ما بك وقد هومت ؟

قال هي الذكرى البعيدة فمنذ سنتين تزوجت ففرضت عمتي وخالتي وابنة خالتي ومن عرفن من أوفيائهن فروضاً لا تزال ديونها إلى اليوم تثقل كاهلي كنت أتمنى لو خلصت منها ولكن أبت أحكامهن في موت كريمتي إلا أن تضيف أثقالاً إلى أثقال فإذا صعقت اليوم من هول ما أقاسي فلا غرابة في أمري .

لقد قيل لي يومها أن عقد القران على الأبواب وأن فلانا يبيع علباً للحلوى من معدن الأبلاتين أشترى منها آل فلان وآل زعطان إنها اليوم فن جديد له قيمته بين العائلات المحترمة فدعنا نحترم أنفسنا قلت ولكن سعرها فاحش قالوا ولكنه فحاولت حتى عجزت ثم أذنت مرغماً كما أذنت في موضوع الشبكة وقيمة الصداق ألوف تتبعها ألوف أخذ بعضها برقاب بعض .

وجاء يوم الغمرة وتبعه يوم الدخول ثم يوم الصبحة فآليت أن أقتصر على ذوي القربى و بعض الأصدقاء من الرجال ولكن أهل بيتي يخفن العيب والفضيحة فأبين إلا أن يتوسعان في دعوة الحبايب والقرايب قالوا سنعفيك من ضريبة الفنادق فسررت وما علمت أنهن هربن من تحديد العدد للفندق ليطلقوا العنان لأحبائهن وأصفيائهن ذلك أني ما عتمت أن فوجئت بأفواج السيدات تتقاطر صبح مساء في هدير كهدير السيل فبدأت الذبائح تسيل دماؤها بسيلان دمي وشرع الطباخون يضيفون إلى قدورهن قدوراً وإلى صحافهن صحافاً وحضرت المقينة تتبعها الكوفيرة فإذا أنا أمام طلبات لا بد منها لفنهن ثم جاءت اللعابة في ساقتها جوقتها فتضاعف الطلبات وتضاعف الإرهاق كما تضاعفت النفقات لتضيف إلى ديوني ديوناً ظللت إلى اليوم عاجزاً عن وفائها أي سيداتي آنساتي أتسمعن أيعجبكن هذا البسط كل البسط التي نهى عنه القرآن وحذر صاحبه لئلا يقعد ملوماً محسوراً .

ألا فاسمعنني ..

هذه المآسي الدامية وهذه النوائب الفادحة بل وهذا البسط الفاسق ألا يعلمكن الرحمة ببيوتكن والشفقة ببعولتكن والرأفة « بالبلاليص » ! !

عدوي اللدود

أحسبكم لا تصدقوني ! !

ولكنها الحقيقة بكل معانيها فأنا عندما أقول (ناموسة) أعني الحشرة الضئيلة المعروفة دون أي مجاز !

أعني واحدة .. واحدة لا أكثر من بين جماعة الناموس أتمنى لو أسميها ..

عدوي اللدود .. « ناموسة »

أتمنى لو أصف بعض علاماتها الفارقة بين الناموس ولكنها ناموسة و بس ..

ودعوني أقول (آه) قبل أن أتحدث إليكم عن مكرها .

حسبكم أنها أذكى وأمكر من أن تبيح لعيني أن تصافحها ولو لمرة واحدة .

أيقال أنه لا ذكاء لحشرة ، وأنها تصادق إذا صادقت وتعادي إذا عادت وتحتال لرزقها إذا احتالت بدافع من غريزتها وأن تلابيب المخ في رأسها لا ينضح ذرة من ذكاء ؟

إنها أقوال ترويها الكتب قد أصدقها في كل أصناف الحيوان وقد لا أكذب قاعدتها في كل أنواع الحشرات يستوي في هذا كما يبدو لي كلاب الأزقة وأغنام الشوارع وذباب الجزارين .

أما (ناموستي) فبدعة بين هذا الخلق وهي كفيلة بأن تثبت بأن ما تهيأ لها من ذكاء مفرط يصح أن يحسدها عليه كثير من عباد الله الغفل !

لا أزعم أنكم تصدقوني لأول بادرة ولكن قصتي معها تثير ألواناً من الغرائب التي تدعم ما أدعي من ذكاء (ناموستي) و براعتها في المكر .

أنا إنسان كأحد عباد الله أملك كلة (ناموسية) تجلل سريري إذا آويت إليه ولا تترك منفذاً لأصغر ناموسة تتسلل إلا هذه الناموسة الماكرة التي حفظت كل حركاتي وحذقت طريقها إلى وسادي رغم كل احتياطاتي .

وأنا عندما أقول احتياطاتي أعني هذا بكل معناه فقد بت لا أوسوس في شيء بقدر ما أوسوس في قصتي مع ناموستي الماكرة فأنا لا أكتفي بمن ينيط ناموسيتي إلى حبالها بل أعيد الحل والربط وأشرع في نفضها وما حولها في مبالغة مهووسة .

وفي ذهني أنها هي هي تترقبني عن كثب وتراوغني في دهاء لتتسلل بين النفض والنفض إلى أقرب طية من طيات الوساد لترابط آمنة .

و يستثيرني الوسواس فأمضي في هوس النفض لأقنع نفسي بأني لا أشك قطعت عليها كل طريق ، وفوت عليها فرص ما أعرف من مكرها .

ولكني لا ألبث أن أستبطن الناموسية وأحكم تثبيت أطرافها حتى يروعني طنين الماكرة في نغم كأنه لحن المنتصر على هذا النفض المهووس ! !

وتمتد يدي في حذر إلى جهاز النور في زاوية من السرير فيشع النور على أمل أن تصافحها عيني عسانا نتعارف على مرسوم أو نتصالح ولو بشروط مغلوب ، أو تسعفني حيلة صياد ماهر فأقضي على أنسامها بين كفي .

ولكن أين هي ، وأين صوتها الناغي ؟ ؟

إن أحدث مبتكرات المناظير وأقواها فعالية أعجز من أن تضع عينك على أثر لها بعد أن نامت آمنة في أقرب طية من طيات الوساد .

وهيا .. لا بد لي أن أستأنف الربط والحل والنفض لأستبطن الناموسية من جديد وأعيد تثبيت أطرافها في إحكام جديد ! !

ها أنذا بدأت أهدأ فقد غلبتها .

غلبت (الناموسة) الماكرة ، وسددت دونها المنافذ فما يمنعني أن أنام وأن أنام في اطمئنان الواثق من كفاءته ...

ولكن ما هذا ؟

(أناغش) هولك خدي والوساد ؟

لعله نوع من الحساسية فأطباؤنا اليوم لا يكادون يفرغون من تفاصيل الحساسية وأحسب أن يقال غداً للممعود والمغوص والمحسود وحتى الكئيب من فراق الحبيب أنها الحساسية ولا أكثر .

ولكن أين الحساسية وهذا طنين ناموستي الماكرة يغني ألحانه في حواشي أذني وهذه آلام القرص تندلع ناراً في خدي ؟ ؟

لك الويل .. ما أدهاك وأنت تراوغيني فلا تحول الحوائل الهائلة دونك وأنت تتسللين إلى مخدعي .

أي ناموستي الداعر ما أروعك وأنت تحذقين طريقك إلى الطري اللين من خدي .

ما أعجبك وأنت تجتازين مناطق الخشونة من منابت الشعر في عارضي لترتعي في حواشيه الناعمة اللينة .

أستحلفك الله ألا صدقتني ...

أغادة أنت من بنات الجن تتعشقين شيخوختي وفي سبيلها تتخلقين بما تشائين لتنعمي بالناعم من جسمي ؟ !

أم أنت ناموسة بحق لا تختلفين عن جماعة الناموس إلا بهذا الدهاء الذكي ؟ !

إن كنت الأول فدونك الطرق المشروعة ولا تخافي أم زهير ففي عطفها على المتيمين والمهووسين ما لعله يبرر لك هذا الهوس إذا طرقته من باب مشروع ولعل في غيرتها ما لا يثار وأنت من غير بنات جنسها وأحسبك لا تطمعين في مشاركتها بيتها ونفقتها ومطالبها التي لا تحد .

وإن كنت الثانية - ناموسة بحق - فهلمي بأسلوب أو بآخر لنثبت لفطاحل العلم هذه النادرة العجيبة التي تتمثل في مخك وهو يشع لهذا الذكاء و يطوي بين تلابيبه مثل هذا الدهاء الماكر ! !

و بعد ... أيكذب

قصتي مكذب ؟

أقسم غير حانث أني

مبتلي وإني حائر !

آراني إلى هذا لا يتطرق الشك إلى يقيني بأن غريمتي
ناموسة واحدة .. هي ذاتها وأنه بلغ من غرامها بأرقي
إنها تتبعني من مهجع إلى مضجع مهما اختلف الزمان
والمكان .

وإن أكبر ظني إذا صح أنه لم يداخل عقلي دخل إنها
انتقلت لنقلي إلى الطائف لتراودني عن نفسي أو
تؤذيني فتعبث بنومي هذا العبث .

لا يداخلني شك في أنها وحيدتي **الداعر** بدليل أنها لا تلتمس من تعها قط في غير مناطق الطراوة في خدي .

وعهدي بالناموس لا يتكلف مثل هذه الدقة ..

عهدي به شرهاً لا يتجاوز أول عضو يصادف في جسم النائم .

* * *

أتراني أستطيع أن أجأر بالشكوى ؟ !

ولكن إلى من ؟

لأن ناديت الطب والأطباء فلا أحسب بينهم من يعلل قصتي بغير الحساسية التي باتت أبوابها أوسع وأكثر من أن تقدر .

وليس لدي ما يبرر مثل هذا التعليل ما دام طنين ناموستي لا يفارق شحمة أذني ! !

ومع هذا فأنا أعجز من أن أحاجهم طويلاً لأثبت لهم أنها ناموسة مغرمة بالطري من خدي خشية أن يتهموا عقلي بأي دخل من ألوان الجنون ! !

وأنا أعلم من نفسي ـ من غير تزكية ـ أنني راجح العقل ثابته ولا يعجزني ـ فيما أحسب ـ أن أقدم ألف شاهد ممن يحيط بي أو يخالطني .

* * *

لا أدري ربما تعين علي أن أستفتي حاذقاً ممن يقال عن علاقتهم بالجن عساه لا يعجز إذا صدق عن تحقيق هوية ناموستي فيعقد بيننا صلحاً مشروعاً إذا استطاعت أن تتخلق في صورة لها جمال فاتن جذاب ! !

ولكني لا أعرف أني صادقت في حياتي حاذقاً من هذا النوع !

فما حيلتي ؟

* * *

دعوني أتوجه بشكل عام شامل إلى كل من يفهمني ولا يداخله ريب في رجاحة عقلي وصحة ما أروي ...

إلى كل من يملك أن يصرخ في ناموستي أن قفي عند حدك وإلا بادرت فقضيت بإبادتك وكل من نحا نحوك من بني جنسك فحرام أن تعبثي براحة غيرك فتحرميهم النوم وتقضي عليهم بالأرق الدائم .

ترى هل من يسمعني ؟ ؟

إني أنتظر ! !

أنتظر وفي صدري معاناة لا تقل آلامها عما أعانيه من ناموستي **الداعر ..**

تلك مؤامرة غجرية اصطلح بها على ثلة من كلاب الحارة يبيتون ليلهم يتبارون في صراخ لا يطاق تحت نافذتي .

ولقد تساءلت ألف مرة عن شأنهم ...

أهم يتوعدون بعضهم بالويل

إذن فما يمنعهم أن يحسموها في جولة فاصلة تهدأ بعدها بيوت الحارة ؟ !

أم هو استعراض عضلات لا تملك من ألوان الشجاعة إلا صراخ الغجر ؟ !

لنقض عليهم فالأمم الناهضة لا تستمرىء الأعمال الناجحة إلا في هدوء لا يعكره مثل هذا الضجيج الصاخب ! !

من الحب جنون

فزع الصديق الخياط عندما قرأ رأيي في الحب وخابت آماله في شخصي عندما قلت إن (من الحب جنون) وراح يعلق على ما قرأ بحماس شاب مشبوب العواطف .

وفي سبيل أن يؤيد حماسه راح يؤكد لي أن (فلاسفة العالم قالوا ... » إن الحب واحد من اثنين يحكمان العالم » .

وعهدي بفلاسفة العالم لا يجمعون على قولة واحدة لأنهم مغرمون بالشطحات .

فهل جاءني شيء عن مكان الإجتماع وعدد المجتمعين وإلى أي عصر كانوا ينتسبون أكانوا من عصور الفلسفة القديمة أم من المحدثين أم تهيأ لهم قدامى ومحدثين أن تجمعهم صدفة واحدة لتنتزع منهم اتفاقاً موحداً لا يشذ منهم فيلسوف على خلاف عاداتهم في النزوع إلى المخالفة والشذوذ الشاطح .

وإذا فرضنا أنهم جميعاً قدامى ومحدثين أجمعوا على قولة واحدة فهل من حقهم أن يضيقوا واسعاً وأن يفرضوا رأيهم على المفكر الإنساني في غير هوادة أو نقاش .

إن مأساتنا في الحياة أن تتقيد بكل ما قيل عن أصحاب الرأي فلاسفة أو مفكرين وننسى أنهم ربما صدعوا بالفكرة متأثرين بنزعات ملابسات خاصة فلا يتعين على الإنسانية في رأيي أن تتقيد بكل ما قيل وإلا لحجرت على الأفكار وعطلت ملكاتها .

إن فلاسفة اليوجا والبوذيين وحتى عبدة الشمس والقمر أورثوا الحياة أرتالاً وأرتالاً من الآراء فلسفوها ثم أرسلوها قواعد قيدوا بها أتباعهم فحجزوا عليهم واسعاً وربطوا مقدراتهم بما قننوا فنحن اليوم ربما شهدنا خريجاً من أكسفورد تعذر عليه أن يستعمل فهمه الواسع في مناقشة ما ورث من فلاسفة مذهبه وأنى له هذا وقد اختلطت مبادىء ما ورث بدمائه وجرت مجراها في شرايينه .

لا يا صاحبي .. ليس من حق الفلاسفة مهما بلغ شأوهم أن يغلقوا على الإنسانية مناحي الفكر لتخسر الحياة نتائج الإحتكاك والمصاولة مهما كان نوعها .

ليس من حقهم أن يحجروا على صاحب الرأي مهما قلت بضاعته وصاحب التجربة مهما صغر شأنه أن يناقشهم في بعض ما يرتئيه مما قننوا .

إذا راق لك هذا .. وإذا استطعت أن تخفف من غلواء عواطف الشباب المشبوبة في دمائك فهات يدك وتعال معي .

لا .. لا أستطيع أن أماشيك وأنت مشبوب فأعصاب المشبوب تتوفز بما يشعل إوارها من أفكار وما يرقص لنشوتها .

هل تخففت ؟ ـ إذن

فدونك الرأي ...

دعنا نقول بقولهم : إنّ

الحب يحكم العالم فهلا ترى من حقنا أن نناقشهم في
نوعية هذا الحب الذي يحكم العالم .

نحن نعرف من الحب ما يتناول عواطفك نحو أمك وأبيك .. نحو طفلك .. نحو أخيك .. نحو أصدقائك .. نحو أقربائك .. نحو زملائك ونعرف إلى جانبه أن (ترمومتر) الحرارة يختلف في كل هذه الحالات باختلاف علاقتك بكل هؤلاء.

كما نعرف من الحب ما كان يجب أن يتناول عواطفك نحو إخوانك في الدين .. في الجنس .. في الإنسانية جمعاء ..

هذه ألوان من الحب ليس لنا أن نناقش فيها فيلسوفاً أو غير فيلسوف يدعي أنها خير ما يحكم العالم وهي من البساطة بالقدر الذي لا نحتاج معه إلى من يدعمه من فلاسفة العالم قدامى أو محدثين .

بقي بعد هذا نوع من الحب استطال فيما أحسب على كل أنواع الحب فعبث بمفاهيم الحياة وأحال استقرار المدنفين به إلى اضطراب وابتدع لهم موازين يتعذر تقييمها .. فهو إن أضحك يوماً أبكى أياماً وأحال ضحاياه إلى سهاد ألم وأشجان موجعة .

أيسمون هذا حباً ؟

ـ قالوا إنه حب ونعتوه بالصبابة مرة والعشق والغرام أخرى .. وقالوا عنه أنه معنى لا يحقق به

إلا قلب رقيق ومشاعر عالية وأنه يسمو بصاحبه فوق المستوى ونسوا ما يشوبه من ذلة وانكسار وما يعتريه من هوان ينسيه كرامته كإنسان .

ما أحلا الصبابة من هذا النوع إذا تبادلتها نفسان لا تنكسر إحداها للأخرى ولا تهون ولا تسفل إما أن تهيم نفس بأخرى تتجنى وتتسامى وتتركني أتمرغ في التراب فليس في هذا ما يدل على رقة عواطفي أو سمو مشاعري بقدر ما فيه من تخاذل واستخذاء وضعة .

هذا اللون من الحب عشت أجدف عليه وألعنه وربما صادفني في بعض أدوار حياتي ولكنه كان لا يلبث أن يعجم عودي فلا يجد فيه مكسراً فيطردني من حماه ويلفظني لفظ النواة .

ولست أعجب من هذا فليس الغرام في رأيي إلا أنانية متطرفة يتبادلها المحب والمحبوب في وقت واحد فأنت تحب معناه إنك تحب ذاتك فيه .. تحب متعتك . تحب سعادتك به . وربما لذ للمحبوب ولعك به فأحب نفسه في ولعك وتصببك واستخذائك .

هذا هو الحب الشائع بين العاشقين .. حب الصبابة والجنون لا أستثني منه إلا النوع المتبادل في إطار الكرامة والتقدير .

وهما غير الحب الذي يتناول عواطفك نحو أبيك أو أخيك أو سائر من تربطك به روابط الإخاء .

هذا الحب المجنون لا أثر لحقيقته إلا في مخيلة العاشقين فأنت موله بمن تعشق يبرح بك الشوق ويؤرقك الضنا لا لشيء إلا لأنك استملحت ولو وقفت عندما استملحت لما غذ بك الوهم في متاهات لا نهاية لحدودها .

لقد قرأت عشرات الكتب عن قصص العشق وتغنيت بمئات القصائد في دواوين الغزل وسمعت آهات المدنفين ومرت بك ألوان وألوان من حكاياتهم فترك هذا أثره في رسب هذا اللون من الحب في ذهنك مربوطاً بكل المعاني الأليمة التي صاحبته فأنت لا تكاد تعلق بجمال تستملحه حتى تتبادر إلى ذهنك كل المعاني التي تصاحبه فإذا أنت تستهين بكل آلامها كضرورة لا بد منها فيما شرعت بل ربما تلذذت بحرارتها كما يتلذذ صاحب الكيف بمذاق قهوته المر .

أنت تعرفه أنه ليس في مذاق القهوة ما يغري بشربها ولو قدمناها إلى من لا يعرف حتى اسمها لما

استساغ طعمها ولكنا ورثناها ككيف يعدل الدماغ
فترك هذا أثراً في أعماق نفوسنا .

ورسب الكيف في أذهاننا مربوطاً به حرارة القهوة ومرارتها فنحن اليوم لا نحتسيها باردة ولا نحتسيها دون أن تلدعنا فيها مرارة ولو خفيفة .

كذلك الأمر في البيبسي كولا أثرت سمعتها أو دعايتها في أعماقنا مربوطة بهذا الطعم الذي لا تعرف مذهبه ولو امتحن بها من لا يعرف اسمها لمج مذاقها ولكنها رسبت في أذهاننا مصحوبة بطعمها الممجوج فتلذذنا بها .

وما لنا نبعد وهذا الشاي نحتسيه في أشد ساعات الصيف في حالة تكاد أن تصل درجة الغليان .. هو كيف من الكيوف ورثنا شربه فرست معناه في أذهاننا مصحوباً بهذه الحرارة الملتهبة فلو قدم إلينا بارداً لمجت أذواقنا برودته الهائلة .

الحب المجنون انحدر إليك مما قرأت وسمعت مصحوباً بمعانيه الأليمة فلا يكون حباً في وهمك إلا إذا لوعتك آلامه ولا يكون لذيذاً إلا إذا سهدتك لواعجه .

والقهوة والبيبسي كولا والشاهي وآلاف من أمثالها انحدرت إليك مصحوبة بمعانيها الخاصة فلا تكون ممتعة أو لا تكون معدلة للرأس إلا إذا لدعتك حرارتها أو مرارتها أو طعمها الخاص .

أوهام ورثناها رسبت في أذهاننا مصحوبة بمعانيها .

ما ظنك بنفسك وأنت تقرأ قصة مجنون ليلى في الأدب العربي ؟ ... ستجدها حاشدة بعشرات المواقف مما يثير شجونك ويلتاع له فؤادك وستجد مؤلفها المجهول استطاع في براعة أن ينحو بك نحواً تتخيل فيه المجنون مثلاً عالياً لرقة الشعور وسمو النفس وصدق الوفاء حتى لتنسى وأنت تتابع فصولها أنك تتابع مجنوناً بحق .. وخطاه العقل فأسلس قياده لأعصاب غير متماسكة فانحل حتى تخاذل واستخذى حتى نسي كرامته في الحياة وداس على إنسانيته .

هل تشك أنها وضع قصاص وأنه إذا كان لها نصيب من الحقيقة فليس إلا ظلاً أضيفت إليه من عناصر الإثارة والشجو ما يرقص له الفؤاد .

أراد صاحبها أن يسليك ويسبيك على عادة القصاصين ولكنه وقد برع فيها هيأ الأجيال لتناقلها كفكرة رسبت معانيها في أذهان الناس مصحوبة بكل ما لابسها من فدائية مجنونة

وخذلان مقيت فإذا نحن اليوم لا نفهم الحب من هذا النوع إلا أنه صبابة يتوله بها الفؤاد الرقيق حتى يتحلل وتذوب عناصره فيتخاذل العاشق وتفنى شخصيته كإنسان له قيمته وعليه دوره في بناء الحياة .

قال لي مدنف توله في عشقه كيف تفسر هذه الرعدة التي تهز العاشق عند ذكر من يعشق ؟ أليس فيها ما يسمو عن مادياتك إلى أعلى مراتب الروح .

قلت أفهم أن الأرواح إذا تألفت فذلك أرقى ألوان الحب وهو غير التخاذل .. غير الإستخذاء غير التراب الذي نتمرغ فيه .. فليس في الترب شيء من التسامي .. لا .. ولا يتمرغ فيه مهذب رقيق العواطف .

أما الرعدة فحدث مادي بحت رسب في الأذهان مربوطاً بالمعاني الأليمة التي صاحبت معاني الحب إياه ورواسب الذهن تفعل من الأعاجيب ما يذهب بصواب العقل .

أنت طعمت الليمون آلاف المرات ولاحظت أثره في فرز لعابك فاستقر طعمه في ذهنك مصحوباً بما يفرز من لعاب فإذا جاء ذكر الليمون وأنت بعيد عنه في أي مجلس بدأ فرز اللعاب في فك .

وأنت تتقزز لشيء قذر صافح عينيك أحد الأيام فإذا توالت الأيام وأنت عنه بعيد ثم مر بذاكرتك رأيت نفسك تتقزز كما لو كنت تشهده بين عينيك .. ذلك لأن ما رأيته رسب في ذهنك مصحوباً بحالة التقزز التي ارتبطت به .

هذه هي الرعدة حالة مادية ارتبطت بمعاني ما تفهمه من الحب المجنون ورسبت في الذهن مصحوبة به فإذا أثير ذكر من تعشق أثير ما ارتبط به من خفقة أو رعدة أو آهة .

هذا رأي اكتسبتنيه تجارب الحياة ورأيتني في نهايته لا أستلطف الحب إلا إذا تآلفت عليه قلبان أو أكثر وأتمنى لو استطاعت الفلسفة أن تفرز هذا اللون المجنون بعيداً عما تؤديه كلمة الحب أو تنقيه مما رسب في أذهاننا من معانيه الأليمة لنتعاطاه كأساً مريئاً تتفتح له النفس وينشرح له الصدر .

ترى ماذا يريد الروس بنا

العرب والسوفييت :

عجلة روسيا لا تزال تدرج بالموثوقين خلفها في اندفاع ينحدر إلى النهاية ترى ... ماذا يريد الرّوس بنا ؟ !

كان لا بد للعرب أن يقتحموا الموقف .. لكن القيادة كانت لكوسيجين !

أجادون هم في محو إسرائيل أم هو أسلوب ماكر يخدعون به المأخوذين ببهرجهم منا ؟

عهدنا بهم يعطفون على إسرائيل ويدللونها بصورة لا تقل عطفاً ولا تقل تدليلاً عما يفعل الأمريكيون والإنكليز بل وما تفعل فرنسا وما تفعله أكثر بلاد أوروبا ؟ !

* ألم تكن روسيا من أوائل من اعترف بوجود إسرائيل ؟ . ألم تمنح قبل اليوم جوازاً لمرور نصف مليون يهودي من أوروبا الشرقية ليبنوا حياتهم في فلسطين على أنقاضنا ، ألم تساعدهم قبل اليوم مادياً ومعنوياً ولا تزال آثار ذلك واضحة بينة ؟ . ألم نسمع قبل أيام رئيس وزرائها يعلن في صراحة تأييده لوجود إسرائيل ؟ .

- ألم تبث فيهم مذهبها الإشتراكي كما بثته في بعض المخدوعين منا ؟

- أوليس المعروف عنها أنها عاصمة الدول الإشتراكية في سائر بلاد العالم وأنها موئلهم في كل النائبات وأنها صاحبة قيادهم في كل ما تهيء من دسائس وما تخططه من مؤامرات ؟

* أما مرّ بنا كيف كانت تتغلغل إسرائيل في دول أفريقيا المستقلة لتفتنهم في مبادئهم وتثيرها عواناً بين صفوف المواطنين في البلد الواحد خدمة لعاصمة الإشتراكية في روسيا كما فعل المخدوعون من بني عمنا يوم وضعوا أنوفهم في بعض بلاد إفريقيا وأثاروها شعواء في اليمن وأوقدوها في عدن وفي المحميات وأشعلوها دسائس ومؤامرات في بلادنا وفي كثير من أراضينا العربية خدمة للتخطيط الروسي وتنفيذاً للتكتيك المهيأ في موسكو .

نريد من هذا أن نقول : ألم يأن لنا ونحن نشهد كل ألوان الخداع التي مرت بنا في تاريخ

روسيا الحديث أن نعرف روسيا على حقيقتها ؟ فلا تغتر بزيفها ولا نصدق دعاواها إذا ادعت أنها تناصرنا ضد إسرائيل أو أنها تخطط لمحوها من أرضنا ؟

ألم يأن لنا أن نعرف أن إنجيل الشيوعية يفرض بث الإشتراكية كخطوة أولى نحو الشيوعية كما يفرض مساندة ـ كل إشتراكي ـ في العالم دون استثناء حتى تعم الشيوعية كخطوة تالية سائر بلاد العالم .

أيقال تعليقاً على هذا . . ولكن لماذا رضيت روسيا باستباكنا وأعلنت مساندتنا وسارعت بقطع علاقتها بإسرائيل وهي تعرف أنها عضو في إشتراكية أصحابنا ؟ ٠

إن العارفين ببواطن الأمور يعلمون أنه مخطط مدروس في دقة متناهية يعد للإشتباك المسلح ليهزم أحد الطرفين فيفتح الكرملين أحضانه واسعة للمهزوم فلا يجد المهزوم مناصاً من أن يرتمي بثقله فيها فينتهي الأمر إلى غايته التي انتهت إليها سائر الأمم التي تدور في فلك روسيا وتذعن لإرادتها .

ونحن هنا في استطاعتنا بعد أن انكشفت معميات المخطط و بدت أسراره بينة واضحة أن نتابع دقائقه نقطة بعد أخرى حسب ترتيبها الزمني .

لقد دعي وفد إخواننا في مصر إلى عاصمة الإشتراكية في موسكو قبيل غلق المضايق وكان على رأسهم عبد الحكيم عامر وضم فيمن ضم منهم وزير الحربية و بعض كبار العسكريين والسياسيين ثم عادوا عندما عادوا وفي حقائبهم أوامر بتنفيذ الخطوة الأولى في المضائق وقد قيل يومها فيما قيل أن عبد الحكيم عامر كان لا يرى أنه حان أوان التنفيذ وأنه تلكأ في قبول الفكرة لأنها تثير كبريات الدول فاعتبر في نظر الكرملين خائناً لا بد من إقصائه عند أول فرصة وقد كان .

وتتابعت وفود كبار الرسميين من البلاد العربية الإشتراكية لتلقى تعليمات التخطيط والإعداد لما يترتب على تنفيذه بالصورة التي أوهمتهم بها موسكو أنها ناجزة كاملة وأن أسطولها سيحمي نتائجها إلى نهاية الخط

نودي على المضائق أنها مغلقة وأن مياه الخليج لا تبيح المرور إلا بالشروط التي يفرضونها فكانت شجاعة لا تقاس بمثلها لو أن تكتيكها كان من وضع القاهرة أو دمشق أو حتى من أقصى بلد في الجزائر ولو لم يكن لروسيا أي حق في الإنفراد بتخطيطها .

لم ينـاقـشوا فـي الـفكرة أي بلد عربي حر خارج نطاق الإشتراكية وهم أحق بها وأهلها لأن روسيـا كانت تعتبر أن المسيرة تدور في فلكها وهي طبعاً لا تعترف بغير الإشتراكيين في تنفيذ ما تخطط .

وضـاق الأعـداء بهـذه الخـطـوة فـأغبر الجو وتطاير الشرر فكان لا بد للعرب الذين ألفوا المبادرة وألـقـوا تـصـبـيـح أعـدائـهـم فـي غـشـيـة الليل أن يقتحموا الموقف على غرة ولكن القيادة كانت لـكـوسـيجين ـ ولـيس في مخطط كوسيجين ما يبيح لهم هذه الفرصة . ففي إباحتها ما يقضي على إسـرائـيـل وفـي إبـاحتـهـا ما يغنيهم عن الإرتماء الثقيل في أحضان موسكو في هزيمة وانكسـار وفي إباحتها ما يشجب المخطط الروسي و يهدمه من أساسه .

لقد ترك الموقف لكوسيجين فشهدناه يسرع للقاء جونسون في أمريكا في بهلوانية غريبة ونقلت وكـالات الأنـبـاء إلينا تعهده لجونسون بأن لا يبدأ العرب حرباً في المنطقة كما نقلت إلينا حركاته المـسـرحـيـة فـي هـيـئـة الأمم في الوقت الذي تناقلت فيه الصحف خبر السفير الروسي الذي أبلغ الـقـيـادة فـي مصر أن لا تبادر بأية حركة حربية فصدعت مصر للبلاغ وتركت العدو بعد ساعات من البلاغ يفاجئها بما لم يكن في حسبانها و يقضي على أهم معداتها قبل أن ينتصف النهار .

تـرى هـل كـان للـعـرب رأي في اختيار الوقت الملائم لغلق المضائق ؟ . هل عنيت بهم قيادة إخـوانـهـم فـي مصر فـدعتهم للتشاور قبل غلقها . . وعندما تطاير الشرر على أثر غلقها . . هل طلبت مداولتهم فيما يـنـبغي لمواجهة الموقف أم سارت في طريقها لا تلوي ولا تحيد عما خطط لها بل وأعلن القائم فيها أنه سيستغني عن إخوانه من غير الدول الإشتراكية وهو محق فيما أعلن فالمخطط الروسي لا يتسع لغير الدائرين في فلك الروس .

ومـع هـذا أبـت شهامة حكومتنا إلا أن تتغاضى وأن تبادر بما عليها من أجل فلسطين وحدها ، وأبـى عـاهـل الأردن إلا أن يخف إلى القاهرة وأن يقدم نفسه للعمل العربي المشترك كما أبى زعيم تـونـس إلا أن يـعلن تطوعه من غير أن يدعى إلى التطوع وأن يبادر بإرسال فصائل من الجيش على أمـل أن يـدرك المـوقـف قبل أن ينهار ولكن الموقف كان بكل أسف معقوداً بتكتيك خاص وتدبير محـكـم جـائـر مـكـره عـلـى المخدوعين بكوسيجين ففوت عليهم فرصة المفاجأة وقضى على أحلامهم وهيأهم ليرتموا في أحضان موسكو بشكل ثقيل مخيف .

ألـيـس من حقنا اليوم أن نسأل ماذا فعل الروس بنا وأن نتوجه بعدها إلى أصحابنا المخدوعين بزيف ما خطط لهم لنسألهم ماذا فعل الروس لنا ؟ !

إن مجريات الحوادث تنطق بلغة فصيحة لتدلل على أن الروس بلغوا اليوم غايتهم من المخطط فهؤلاء إخواننا من الإشتراكيين يرتمون من جديد في أحضان موسكو بشكل نهائي و روسيا لا تني تفتح ذراعيها بكل ما وسعها ذلك لتضمهم إليها .

لقد قطعت علاقتها رسمياً بالعدو وندبت أسطولها ليتظاهر في حركات بهلوانية وجندت نفسها في حشد من الدول التي تدور في فلكها لتعطي أصواتها في هيئة الأمم لمصلحة العرب وأضافت فهزت ومشايعوها منبر الهيئة بالعويل والصراخ . كان هذا كل مايكفي إذا اشتدت الأزمة .

أما العمل الجاد المنتج وأما الحركة الفعالة الفاصلة فلا علاقة لها بهما لأنه خارج عن تكتيكها السري الخاص بها ، حسبها أنها حالت دون المبادرة في صفوف الجيش العربي وتركت الفرصة للعدو يهتبلها إلى الغاية المرسومة .

و بعد فهي اليوم لا تبخل على أصدقائها من العرب بالأسلحة الماضية والعتاد الثقيل ولكن هل من ثمن .

إنها كريمة النجاد لا يهمها من الثمن إلا ما يرمي إليه مخططها من أدق الأسرار .. حسبها من أصدقائها أن ينعموا بأحضانها وأن يحشدوا هداياها ليدكوا بها جبال اليمن و يفتحوا أمامها مضيق عدن و يسيطروا باسمها على محميات الجنوب لتهيمن على ممرات استراتيجية لا تحلم بها .. حسبها من أصدقائها أن يجندوا في سبيلها مئات الأقلام وعشرات الأصوات وألوف الكلمات الشابة التي تدير رؤوس المراهقين وتفتن الساذج والغافل وتكاد أن تنسى العابد طريق مصلاه .. حسبها من أصدقائها أن ينظموا في سبيلها دعاية إذاعية واسعة تهتف باسم النضال الشعبي والزحف العربي وآلاف الألفاظ من هذا اللون الصارخ ليمنعوا البترول عن أعداء وهميين اختارت موسكو أسماءهم لنا لتقضي على مصدر حياتنا وتجد فرصتها سائغة للإستيلاء على ما نملك من أسواق لترويج بضاعتنا .

وتهيب بإخوانك المجندين للدعوة في سبيل روسيا أن لا صحة لما أشيع عن العداوة الوهمية وأن المسئولين الذي أعلنوا في السابق أسماء المشتركين ضدنا ما لبثوا أن ثبت لهم غير ما ظنوه فأكدوا نفي ما أذيع في أسلوب صريح قاطع ينفي ما توهمه ، وأن وزير الخارجية في مصر أعلن مثل هذا التصريح في شكل حاسم .. فلا تجد أذناً تسمعك .

وتهيب بهم بأن ظرفنا يستدعينا اليوم أن نبدو أشد ما نكون قوة وأعظم بأساً وإن ترك أسواقنا تمرح فيها روسيا يقضي علينا بالفاقة والضعف و يحرمنا مقوماتنا في الحياة فهل يسركم أن نمد

أيدينا في مذلة وخنوع إلى أمثال روسيا من أمم الأرض ؟

نقول هذا وأبلغ من هذا ولكن من إخواننا من قدت قلوبهم من صخر فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وأن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وأن منها لما يهبط من خشية الله .

ربما رضي موقفنا غيور ، أو رثى لنا عاقل ولكن عجلة روسيا لا تزال تدرج بالموثوقين خلفها في اندفاع ينحدر إلى النهاية التي رسمتها .

و يؤكد الإنحدار من جديد هذا الإعداد الأخير الذي عرفت روسيا كيف تهيء له مؤتمراً في القاهرة تجمع إليه أصدقاءها من أقصى البلاد في الشمال العربي وتتغاضى فيه عن ألصق الناس بعروبة فلسطين وأحفلهم بها كما تنسى رجلاً داخت بلاده تحت وطأة الغدر الخائن كما تهمل أنجاداً على ضفاف الخليج أعلنوا استعداد خزينتهم لسائر نفقات الحرب كما تنسى بطلاً في تونس دفع بجيشه ليتخطى آلاف الأميال في سبيل فلسطين .

ألم نقل أن روسيا تعتبر أن المسيرة تدور في فلكها وأنها لا تعترف بغير الإشتراكيين في تنفيذ ما تخطط .

رحمة لك يا فلسطين .. فقد أصبحت محوراً لكل ماتدور عليه أغراض موسكو و باتت رقعتك العزيزة مرسماً لتخطيط أحدث خارطة تتسع لسياسة الكرملين المغرضة وانقلب رجالك الذين كنت تنيطين بهم آمالك أقلاماً في يد الظالمين .

ألا غضبة يا قوم .. ألا نهضة يا أحرار العرب فقد حمت الأزمة واشتد أوارها وليس لكم إلا أن تجمعوا أيديكم بعيداً عن الأيدي الملوثة ولا تتداعوا خلف من يستهتر بكم أو يجندكم لأغراضه وإلا أصبحت قضيتكم قضية روسية .

عليكم أن تعينوا الزمان والمكان والإطار بدافع من داخليتكم .

عليكم أن تكونوا حذرين بين يدي كل حدث وعند كل صرخة تدوي في آفاقكم وأن تتساءلوا عند كل حركة يغشاكم غبارها :

ترى .. ماذا يريد الروس بنا .

الماسونية
هل لها علاقة بحلف الفضول في مكة ؟

تلقيت من الشيخ أحمد عبد الرحمن الجابري خطاباً يقول فيه أنه استمع إلى محطة أجنبية تذيع باللغة العربية وكان من قولها الذي استغربه أن الماسونية عاشت في مكة في العهد الجاهلي ، وأن مبادئها الإنسانية شاعت بين أعراب الجاهلية ، فكان منها حلف الفضول الذي قرروا فيه أن لا يقر ببطن مكة ظالم .. فهل يصدق هذا . وهل في التاريخ ما يدل على أن الماسونية كانت تعيش في هذه الأزمان القديمة ، وأنها ذات مبادىء إنسانية أثرت في عرب مكة الجاهليين وعلمتهم أن يجتمعوا على حلف كحلف الفضول ..

* * *

إلى هنا تنتهي خلاصة ما جاء في خطاب الشيخ أحمد عبد الرحمن الجابري وهو خطاب مطول استغرق عدة صفحات ، دلت في مجموعها على مبلغ عنايته بالبحث عن الحقائق التاريخية وتجريدها مما يشوبها من خلط وزيف ..

وللإجابة عما يسأل ، يتعين علينا أن نعرف تاريخ نشأة الماسونية . وهل كانت موجودة في عهود قديمة ، وهل ثبت لها من المبادىء ما يصح أن يقال أنها عاشت تخدم الإنسانية .

الواقع أن الماسونية كما عرفها الدكتور سيف الدين البستاني ، في كتابه « أوقفوا هذا السرطان » ـ مذهب غامض لا تعرف أسراره وقد جاء في نشأتها أنها فكرة يونانية ، وهناك من يدعي أنها أنشئت في هيكل سليمان .. ومما يذكر أن اليهود عاشوا يخدمون مبادئها في سرية كاملة وأن من يجرأ من أعضائها على إفشاء شيء من مبادئها بات عرضة للقتل .

وأنا لا أعرف معنى لمذهب أو ديانة يدعي أصحابها أن مبادئهم تخدم الإنسانية ثم يتسترون على هذه المبادىء ولا يبيحونها و يحكمون بالقتل على من يفشي شيئاً من أسرارها .

إذن ، فهي مبادىء مغرضة لا خير فيها للإنسانية وإلا لأعلنت حقائقها كدأب كل المبادىء الشريفة .

وقد تعددت الأقوال في شأن نشأة الماسونية والأغراض التي أسست من أجلها .. وهنا نستعرض أهم ما قاله عوض الخوري في كتابه « تبديد الظلام » فهو يقول : « إن مؤسس القوة الخفية التي انقلبت إلى الماسونية عند تجديدها هو هيرودس الثاني ، والي الرومان على مناطق فلسطين في عام ٣٧ - ٤٤ م ، ويلقبه اليهود بالملك .. وكان هيرودس يهودياً مغالياً يرى حق الحياة محصوراً على شعبه المختار ، ولا يقبل معذرة إله إسرائيل - كذا - بإيجاد شعوب إلا إذا كانت مستعبدة لإسرائيل . بل هو غاضب لأن جدار الرسالة التي جاء بها السيد المسيح لم تهدم بعد أن أقضت مضاجع اليهود وقضت على أحلامهم » .

ومن هنا يتبين لنا أن الماسونية لا تزيد عن فكرة يهودية ، أرادوا بها حرب الأديان ومقاومة كل مصلح ، فلا غرابة أن تتستر تحت شعارات مزيفة لتخدم أغراض اليهود .

ولقد شهدناهم بعد أن قاوموا المسيحية بكل ما يملكون من أساليب ملتوية ، استأنف أحفادهم مقاومة الإسلام في المدينة ، فحاكوا ضد النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه من بعده عشرات المؤامرات والدسائس مما نجده مفصلاً في كتب السيرة صورة يعافها الضمير الحر وتأباها المبادىء التي يدعون أنها تخدم الإنسانية .

إن المضللين من أتباع الماسونية يزيفون على الناس بدعاوى باطلة لا تثبت أمام الواقع ، وإلا لما حرصوا على سريتها .. فما قالوه أن من مبادئها التسامح والتضامن وأن شعارها الحرية والمساواة فأين مكان التسامح اليوم من فلسطين ، ونحن نعرف أن صهاينة الأرض المحتلة من أحفاد اليهود القدامى مؤسسي المبادىء الماسونية .. أين التسامح والتضامن ، وأين شعارات الحرية والمساواة .

جاء في كتاب « أسرار الماسونية » للجنرال جواد رفعت أن الماسونية هي الإسم الجديد للشريعة اليهودية المقنعة ورموزها وتقاليدها يهودية ، وأن ارتباطها مع اليهود والتوراة المحرفة من الوضوح بحيث أنها تستند على آيات التوراة المحرفة ، لتعظيم مثلها ..

أما علاقة الماسونيين بعهد الجاهلية في مكة ، فلا أستطيع نفيه ، رغم أني لم أطلع في كل ما قرأت على شيء يدل عليه ..

أقول لا أستطيع نفيه ، لأن مكة كانت بلداً تجارياً يأوي عشرات الأجناس والمذاهب .. كانت تضم جاليات يهودية ونصرانية ومجوسية وصابئة وعبدة أوثان ودهريين كما كانت تضم من يعبد الله على دين إبراهيم عليه السلام .. فإذا اندست الماسونية بين أنصارها من اليهود و فلا يجب أن نستبعد هذا ..

ولكن الذي أستبعده حاجة العرب الأقحاح إلى من يعلمهم النخوة والشهامة ونصرة المظلوم وهي بعض ما اشتهر من صفاتهم إلى اليوم .

وعندما أقول أنها بعض ما اشتهر من صفاتهم إلى اليوم ، أعني واقعاً محسوساً ، .. فالعربي الأصيل لا يزال إلى اليوم في خدره بين حوافي الوديان البعيدة يمتاز بنخوته وشهامته وخفته لنصرة المظلوم ، بل إنها صفات لا تزال من مزاياه الأصيلة حتى بعد أن هبط المدن واختلط وأحفاده ببعض شوائبها .

وبعد ، فهل نسي صاحب حديث الماسونية في محطة المذياع الذي لم يذكر لي اسمه ، أن ينسب إلى الماسونية باقي خلال العرب من شجاعة وكرم ومروءة إلى آخر مزاياهم .

كبرت كلمة تخرج من فم ماسوني يعرف كيف يزيف على السامعين ، وينسى مكر الماسونية ودسائسها وآثامها في كل أدوار التاريخ .

بل وينسى واقعها اليوم في فلسطين العربية ، وظلمها الذي قل أن يدانيه ظلم في التاريخ ..

يقول الأستاذ عمر الحكيم في كتابه « حاضر العالم الإسلامي » :

« وتمكن اليهود من تأسيس الحزب الماسوني في الدولة العثمانية - (وهو امتداد للماسونية القديمة) وكانت غايته استخدام رجالات الدولة العثمانية أنفسهم للحصول منهم على المساعدة اللازمة لفتح أبواب فلسطين لهجرة اليهود في شتى أنحاء العالم ، وإقامة وطن يهودي فيها باسم (الإخوة الماسونية) التي لا تعرف وطناً ولا ديناً ولا عنصراً في الظاهر ، وهي في الحقيقة مؤسسة يهودية عالمية ، ترمي إلى تسخير رجالات العالم أجمع الداخلين في هذا الحزب إلى خدمة مآرب الصهيونية تحت ستار الأخوة الإنسانية ونصرة الإنسانية والتسامي فوق المصالح القومية والعنعنات الدينية أو العرقية .. وقد لعبت المنظمات الماسونية دوراً بالغاً في حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ ، فقد أوعزت إلى جميع أعضائها في البلاد العربية بتأييد قيام إسرائيل .. وكان لهذه المنظمات مثل هذا الدور في الحركات الوطنية كالثورة السورية سنة ١٩٢٥ م .

من هنا كان الطريق ..

قصة هنري فورد

حياة العصاميين ، في أي أمة ، لون يغري بالإستقصاء ، وتلذ قصته لكل متطلع ، يلتمس النجاح من كافة وجوهه . ولا فرق ، في رأي البحث العلمي ، بين جنس وآخر ، ما دام الهدف يرمي إلى دراسة الفكرة ، لحقيقتها العلمية .

وتحضرني بهذه المناسبة ، قصة هنري فورد الأميركي ، صاحب المصانع الشهيرة ، والصيت الداوي في جميع أركان الأرض .

لم يرث فورد صيته عن عائلته ، وقد كانوا من صغار المزارعين . ولم يهيئه أبوه لهذا المركز ، الذي فاق إنتاجه فوق جميع المبالغات ، لأن أباه عاش متوسط الحال محدود الآمال .

لم يرث فورد صيته أو مركزه ، إلا من عزمه الماضي ، ودأبه القوي ، واعتماده على مجهوده الفردي . فقد حاول أبوه أن ينشئه مربوطاً إلى الحقل الزراعي الذي يملكه فلم يمانع الطفل . ولكنه كان يشعر ، أنه في حاجة إلى إحداث شيء جديد ، يرضي به نزعته ، ويفيد به مهنة أبيه . فهداه طول التفكير ، إلى صنع دولاب ، تديره المياه المنحدرة . ولم يخنه التوفيق فيما صنع ، بل شجعه إلى خطوة أخرى ، استطاع أن يهتدي فيها إلى صنع آلة صغيرة تدرس الحبوب .

ولقي الفتى من ثناء الفلاحين وتقديرهم ، ما دفعه إلى التفكير في آفاق أوسع .. لم تكن آفاقاً واضحة المعالم ، محدودة المسالك . ولكنها على كل حال آفاق ، كان يشعر أن تفكيره موزع بين أمادها ، حتى صادفته في إحدى رحلاته قاطرة ، رآها تسير بمحرك بخاري ، وهي من النوع الذي كان يستعمل في بعض بلاد أوروبا ، قبل أن ترقى صناعة قطار السكة الحديد . فأدهشه ما رأى ، واندفع يتفقد تركيبها ، ويبحث عن سر محركها ، ويسأل سائقها ، عما تعقد عليه فهمه من أمرها ، حتى إذا تفتقت له الفكرة عن بعض ما غمض منها ، هام بما رأى هيام الدنف ، وأصر عزمه على تقليده في أسلوب لا يكلفه هذا التعقيد ، ولا يرهق ماليته المحدودة .

ولم يمض وقت طويل ، حتى خرج إلى الناس بآلة صغيرة ، جعلها على دراجة ، استعارها

من أحد جيرانه . ثم شرع يؤكد لصاحب الدراجة ، أن في استطاعته أن يستغني عن تحريك رجليه ، إذا أراد ركوبها . ولكن صاحب الدراجة ، أبى أن يقوم بهذه التجربة . فما كان من فورد إلا أن قفز على الدراجة ، وأدار المحرك الجديد ، فانطلقت في سبيلها . وهكذا تم اختراع أول دراجة آلية (موتوسيكل) .

وراقت هذه الفكرة لفورد ، وشعر أن في استطاعته تحسينها . فصابر على البحث ، في جرأة نادرة ، وعزم لا يخور ، وإصرار لا ينهزم ، رغم أن سنه لم تكن يومئذ تتجاوز السابعة عشرة .

ويقال أن فورد كان يستعير الكتب التي تعنى بالميكانيكا ، وينكب على دراستها ، وأنه كان مغرماً بمناقشة المهندسين الذين تجمعه بهم الصدفة ، في كثير من أسرار مهنتهم .. يقال هذا ويقال أكثر من هذا .. ولكن الذي يعجبنا فيما يقال هو أن فورد ، ما فتيء أن أعلن في جيرانه أن تصميمه الجديد ، لا تقاس به الدراجة الآلية ولا تضاهيه ، لأنه مجهز بكرسي واسع ، مثبت فوق أربع عجلات ، يدار محركها بالوقود ، فتندفع بسرعة ، تفوق سرعة الخيل . أعلنهم هذا ، ثم دعاهم إلى فناء بيته ، فإذا (أوتومبيله) الجديد قائم في صدر الفناء ، على مثل عجلات الدراجة الآلية (الموتوسيكل) .

ودرج به في اليوم الثاني في شوارع (دوترويت) مدينته الصغيرة . فكان ذلك مفاجأة ، اضطربت لها حركة المرور . ووقف المكارون ، من أصحاب البغال والحمير مشدوهي الأفواه ، لا يكادون يصدقون أن عربة فورد غير مربوطة بدابة . أما جماهير المارة ، وأما أصحاب الحوانيت والباعة ، وأما الفتيان والأطفال ، فقد غصت بهم الطرق ، وازدحمت الدروب ، وسدوا جميع المسالك على عربة فورد السحرية ، والكل يبحث عن المكان الذي تختبيء فيه الدابة ، التي تسير العربة .

وعندما استطاع فورد الفتى ، أن يبيع النسخة الثانية ، من نموذج (أوتومبيله) . السحري ، بمبلغ من الدولارات يوازي أربعين جنيهاً ، لم تحدثه نفسه أن ينفق هذه النقود على المتع والمسرات ، شأن الفتيان أمثاله ، بل آلى أن لا يصرف منها سنتاً واحداً ، في غير التجارب الجديدة ، والإختبارات المتوالية ، سعياً وراء التحسينات ، التي تخيلها لمستقبل أوتومبيله . فجالد العيش الخشن ، وقاسى من ألوان التقتير ، ما لا يتحمله إلا مجاهد صابر .

وعرضت عليه بعض الشركات الكهربائية ، أعمالاً هندسية في مصانعها . وأرادت أن تستفيد من مواهبه ، فأغرته بالمرتبات السخية . ولكنه أبى إلا أن يكون كبيراً على كل اغراء ،

رغم حاجته إلى الإنفاق على بيته وزوجه .

ورحبت زوجه بما رأت من إبائه .. فقد كانت عظيمة الثقة بكفاءته ، قوية الإيمان بمستقبله .

وعندما أهاب بأصحاب رؤوس الأموال ، أن يحققوا فكرته ، في إنشاء مصنع لأتومبيله ، ينتج العدد الوافر من السيارات ، سارع الكثيرون إلى مده بالمال ، فأسس شركته الأولى ، وشرع يتوسع في أعماله ، ويبذل كل جهد لتحسين اختراعه .

ولكنه ما لبث أن اختلف مع أصحاب رؤوس الأموال ، الذين اشتركوا معه . ذلك أنهم كانوا يأبون إلا ان يبالغوا في تقدير الأسعار ، لتتضاعف أرباحهم وتزداد مكاسبهم ، في حين كان رأي فورد ، وكل همه ، توسيع المصنع ، وخفض تكاليف الإنتاج ليصبح الأتومبيل رخيصاً ، وفي متناول متوسطي الحال من الناس ، فيزيد التوزيع ويصبح الربح مضموناً .

ولما تطور الخلاف ، وأبى أصحاب الأموال أن يوافقوا على رأيه ، آثر فورد أن يستقيل من شركتهم ، وأن ينفرد في تأسيس مصنع صغير ، يمكنه أن يتطور بتوالي الأيام ، وأن يحقق الغرض ، الذي عاش فورد يهدف إليه ، طوال حياته الحافلة بالكدح والكفاح .

ولم يكن فورد يملك المال الكافي لتأسيس المصنع الجديد . فاختار شركاءه الجدد في هذه المرة ، ممن قبلوا أن يفوضوه في إدارة الأعمال ، على الطريقة التي يستصوبها هو . وهكذا استطاع فورد أن يبني مصنعاً جديداً لصنع السيارات ، برأس مال مساهم ، لم تكن حصته فيه تتجاوز ٢٥ في المئة .

ولم تمض بضع سنوات على تأسيس المصنع الجديد ، حتى بلغ عدد عماله ٣٥ ألف عامل ، ونما إنتاجه حتى وصل إلى نصف مليون سيارة في العام الواحد . وظل هذا الإنتاج يزداد ، حتى أصبح اليوم عدة ملايين من السيارات .

وفي غمرة نجاحه ، خلال السنوات الأولى ، استطاع فورد أن يشتري نصف الأسهم ، التي يملكها شركاؤه ، بعد أن دفع قيمتها مضاعفة آلاف المرات . ثم عاد فاشترى الباقي ، بما يوازي ١٤ مليوناً من الدولارات .

لم يكن تأسيس الشركة الجديدة العمل الوحيد الذي حققه فورد بعد انفصاله عن شركائه

الأوائل ، أثر خلافه معهم ، بل كان هنالك عمل آخر ، أذهل أصحاب المصانع الأمريكية ، ألا وهو رفع رواتب موظفيه لدرجة لم يسبق لعمال المصانع أن حلموا بها . وتنتيجة لهذا العمل سارعت المصانع الأمريكية الأخرى إلى رفع رواتب موظفيها ، حاذية بذلك حذو فورد ، فارتفع مستوى معيشة العمال الصناعيين في الولايات المتحدة ، لدرجة لم يسبق لها مثيل في العالم .

ويكمن سر نجاح فورد في إدارة عمليات مصنعه ، في الوسائل التي اتبعها لمضاعفة انتاج شركته ، بنسبة كبيرة ، كانت تعتبر فيما مضى ضرباً من المستحيل . وقد كانت أهم تلك الوسائل وأكثرها فعالية ، الطريقة الجديدة التي أدخلها فورد على مصنعه لأول مرة ، هي خط التجميع التي قلبت الصناعات رأساً على عقب ، وغيرتها ، ليس في أمريكا فحسب بل وفي جميع بلدان العالم .

وهكذا وبفضل الطريقة الجديدة التي أدخلها فورد على الصناعات ، تمكن حتى متوسطو الدخل من اقتناء السيارات التي ينتجها مصنعه بعد أن انخفضت أسعارها بنسبة كبيرة لم تكن في حسبان أصحاب المصانع الأخرى مطلقاً .

لقد كان فورد ، طيلة أيام حياته ، كريماً في تبرعاته للمؤسسات الإنسانية والجمعيات الخيرية ، سواء الموجودة في بلاده أو في البلدان الأخرى . وقد حذا أحفاده ، وفي مقدمتهم هنري فورد الثالث حذوه في التسابق لعمل الخير باشراكهم تلك المؤسسات الإنسانية في ثروتهم ، بنسبة يمكننا تصورها لو علمنا أن مؤسسة فورد اليوم قد خصصت أضخم مبلغ من المال يصرف على المشاريع العلمية والاجتماعية والاقتصادية في كثير من البلدان .

تلك عصامية فلاح ، دفعته المزرعة إلى خضم الحياة الواسع ، فناضل حتى بلغ أعلى المراتب ، واستطاع أن يجني من ثمرة أتعابه مئات الملايين ... فهل يسمع شبابنا ؟

السيد الحميري شاعر بني هاشم

شاعر مهيب مكثر ، ومع هذا فقد عاش مهجوراً مغمور الذكر ، ومن الطريف أنه رغم تفوقه في الشعر وتقدمه على فحول زمانه من الشعراء في أوائل العهد العباسي فإن ذكره مات بموته أو كاد .

كان أبوه بأضيين ولكنه ما كاد يبلغ أشده حتى تشيع للإمام علي بل وأفرط في التشيع حتى أصبح سبّاباً وأفرط في السباب حتى نال لسانه القذر بعض الأئمة من قريش فهجره الناس ، وضاقوا بشعره حتى مات ذكره ، وعفيت آثاره إلا القليل الذي تناقله الناس عن روايته الوحيد اسماعيل بن الساحر . .

ذكروا أن ليطة بن الفرزدق قال : تذاكرنا الشعر عند أبي فقال : إن هنا لرجلين لو أخذا في معنى الناس لما كنا معهما في شيء ، فسألناه من هما ؟ فقال : السيد الحميري وعمران بن حطان الدوسي ، ولكن الله شغل كل واحد منهما بمذهبه .

وسمع الأصمعي شيئاً من شعره فاستزاد ثم استزاد طرباً لما يسمع ، ثم سأل عن الشاعر فقيل : إنه السيد الحميري . فقال : قبحه الله ما أسلكه لطريق الفحول .

كان السيد أسمر اللون تام القامة اشغب ذا وفرة ، حسن الألفاظ جميل الخطاب إذا تحدث في مجلس قوم أعطى كل رجل في المجلس نصيبه من حديثه .

وتذكر كتب الأدب أنه كان نتن الإبطين وكان جلساؤه يضيقون برائحتها ولكنهم لا يجرؤون على مواجهته بذلك حتى كان ذات ليلة يمازح فتى غليظ الأنف والشفة فقال السيد : أنت زنجي بأنفك وشفتيك ، فقال الفتى : وأنت زنجي بلونك وإبطك فأعجبته جرأة الفتى وقال :

أعارك يوم بعناه رباح ... مشافره وأنفك ذا القبيحا
وكانت حصتي إبطي منه ... ولوناً حالكاً أمسى فضوحاً

فهل لك في مبادليتك إبطي ... فأنفك تحمد البيع الربيحا
فإنك أقبح الفتيان أنفاً ... وإبطي أنتن الآباط ريحا

وقصة السيد الحميري مع قاضي البصرة سوار بن عبدالله العنزي التي تتناقلها بعض كتب الأدب تصور لنا إلى جانب ظرفه لوناً من فحشه في القول فقد تقدم السيد إلى القاضي سوار ليشهد عنده ، وكان القاضي يعرف من سوء سمعة السيد ما لا تجوز معه شهادة . فلما انتهى السيد إلى المجلس قال القاضي : ألست المعروف بالسيد ؟ قال : بلى ! قال : أستغفر الله من ذنب تجرأت به على الشهادة عندي . قم .. لا أرضى بك . فقام السيد مغضباً وكتب إلى سوار رقعة فيها يقول :

إن سوار بن عبدالله من شر القضاة ..

فلما قرأها سوار وثب من مجلسه وقصد أبا جعفر المنصور فسبقه السيد إليه وأنشد :

قل للإمام الذي ينجى بطاعته ... يوم القيامة من بحبوحة النار
لا تستعن جزاك الله صالحة ... بأخبر من دب في حكم بسوار
لا تستعن بخبيث الرأي ذي صلف ... جم العيوب عظيم الكبر جبار
تضحى الخصوم لديه من تجبره ... لا يرفعون إليه لحظ أبصار
تيهاً وكبراً ولو رفعت له ... من ضعة كان عين الجائع العاري

ودخل سوار والسيد لا يزال في إنشاده فلما رآه المنصور تبسم وقال : أما بلغك خبر أباس بن معاوية حيث قبل شهادة الفرزدق واستزار في الشهود ، فما أحوجك للتعريض للسيد ولسانه ثم أمر السيد بمصالحته .

ويذكر الرواة أن سوار القاضي دخل على المنصور مرة فإذا بين يديه السيد الحميري ينشد قصيدته النونية :

إن الإله الذي لا شيء يشبهه ... أعطاكم الملك للدنيا وللدين

وكان المنصور يضحك سروراً بمايسمع فحانت منه التفاتة إلى سوار القاضي فإذا وجهه مربد غيظاً . فقال المنصور : أرابك شيء يا سوار ؟ فقال : نعم يا أمير المؤمنين هذا الرجل يعطيك بلسانه ما ليس في قلبه .

فاستاء السيد الحميري وأنشد على الفور يقول :

يا أمين الله يا منصور يا خير الولاة
إن سوار بن عبدالله من شر القضاة
نعتلي جملي لكم غير موت
جده سارق عنز فجره من فجرات
وابن من كان ينادي من وراء الحجرات
يا هناة أخرج إلينا إننا أهل هنات
مدحنا المدح ومن نرم يصب الزفرات
فاكفنيه لا كفاه الله شر الطارقات

فخرج سوار من مجلس المنصور وقد اشتد به الحنق ثم عاد في اليوم الثاني يطلب إلى المنصور أن يكفيه شر الحميري ، فامر المنصور شاعرنا الحميري أن يصير إليه معتذراً ثم أمر أن لا يتعرض أحدهما للآخر .

وكما اشتهر السيد الحميري بحب بني هاشم ومدحهم اشتهر بتعففه عن طلب النوال لما يمدح وكان يزهو على الشعراء من معاصريه بهذا الخلق فقد وقف مرة على بشار وأنشده :

أيها المادح العباد ليعطى　　إن لله ما بأيدي العباد
فاسأل الله ما طلبت إليهم　　وأرج نفع المنزل العواد
لا تقل في الجواد ما ليس فيه ! !　　وتسمي البخيل باسم الجواد

ومن هنا يستطيع الباحث أن يستنتج أن إدمان شاعرنا على مدح الخلفاء من بني العباس والأئمة من بني هاشم لم يكن مصدره الحرص على استغلال عطاياهم بقدر ما كان إخلاصاً لمذهبه في التشيع وغلوه فيه على أني لا أستبعد أن يجره هذا الغلو إلى الهوة التي تردى فيها فعاش سباباً فاحش الهجو لكثير ما عادا آل هاشم فخسر بذلك مودة الناس حتى مات ذكره وهجر الرواة أكثر شعره رغم جرسه الموسيقي المطبوع .

قالوا إن بشار قرأ عليه بيتان من الشعر فطرب لها . فسأل لمن هذا ؟ فقالوا إنها للسيد بن الحميري فقال : إن هذا الرجل قد شغل عنا بمدح بني هاشم ولولا ذلك لشغلنا ، ولو شاركنا في مذهبنا لتعبنا .

ومفهوم هذا معروف واضح يفسر لنا نفسية شاعرنا على حقيقتها و يعطينا صورة صادقة عن شاعريته المطبوعة .

ومن الغريب الذي كان يعجب له معاصروا السيد الحميري وعشاق شعره أنه كان قبل أن فجعل ينشدهم في فضائل مذهبه وهم يلغطون فقال :

قد ضيع الله ما جمعت من أدب ... بين الحمير وبين الشاة والبقر
لا يسمعون إلى قول أجيء به ... وكيف تستمع الأنعام ! ! للبشر
أقول ما سكتوا أنس . فإن نطقوا ... قلت الضفادع بين الماء والشجر

وقدم السيد الأهواز في ولاية أبي بجير بن سماك الأسدي فنزل على قوم من إخوانه فيها فلما أمسى خرج وحده يتسكع فاستنكره العسس فأخذه فحبس فكتب من غده أبياتاً في الشعر أرسلها إلى صديق له فدخل بها هذا على والي الأهواز وقال : قد جنى عليك عسسك ما لا قوام لك به . قال : وما ذلك ؟ قال اسمع هذه الأبيات كتبها السيد من الحبس فأنشده يقول :

قف بالديار وحيها يا مربع ... واسأل كيف يجيب من لا يسمع
إن الإله الذي لا شيء يشبهه
إن الديار خلت وليس بجوها ... إلا الضوابح والحمام الوقع
ولقد تكون بها أوانس كالدمى ... جمل وعزة والرباب وبورع
حور نواعم لا ترى في مثلها ... أمثالهن من العيان أربع
فاسم فإنك قد نزلت بمنزل ... عند الأمير تضر فيه ! وتنفع !

فما عتم أن أمر بإطلاقه .

هذا بعض ما حفظه رواة الشعر لشاعرنا المطبوع وهو كما ترى شعر مطواع لا يتكلف القافية ولولا فحشه في سباب مخالفيه في الرأي والعقيدة لأمتعتنا كتب الأدب الكثير الذي يهز المشاعر .

صليت العيد في أملج

كان ذلك في الستينات إن صدق ظني . وما أكثر خيبة ظني في عدد السنين والحساب . .

كنت يومها مندو باً للتفتيش في أملج .. وكنا يومها ندلف إلى العشرة الأخيرة من رمضان .

وقد قيل لي أنك ستسلك طريقك إلى المدينة لتقضي فيها أياماً ممتعة ثم تغذ السير إلى ينبع فأملج وهي مصيف رائع بذلك أن نقضي فيه عطلة العيد فأزمعت أمري وتوكلت .

كنا يومها نحال إلى إدارة البريد لتهيىء نقلنا في عرباتها فاستلمت أوراق السفر وأخذت مقعدي بين الركاب والتفت فإذا بين ركابها الصديق أحمد فقيهاً .

قلت إذا كنت ستقيم في المدينة إلى أيام فما رأيك لو كونت وإياك (بشكة) .. سأكون أنا البشكة وتكون أنت رئيسها تدير أمر الإسكان والإطعام .. ستكون صاحب الحكم المطلق شرع بما شئت ونفذ كيفما شئت .. وسوف لا أسألك عن شيء حتى تحدث لي منه ذكراً .

لذت له الفكرة فنسي ما يتعين عليه لأعبائها و بداء من اللحظة الأولى يخطط للبشكة التي تتلخص في شخصي أنا فوجدني كرعايا عبد الناصر لا أملك في دنياي غير الطاعة .

وكان يصحبني طباخ ربما جاز لي أن أطلق عليه أكثر من وصف إلا كلمة طباخ .. فقد كان شاباً وصفت له - فيما أظن مزايا (مشاكلة زمان) فنسي فارق الزمن وراح يحيا حياتهم .. حزام عريض يزحف على نصف ظهره فيردف عجزه و ينوء بصدره و يرز كتفه في شموخ و (عنظرة) يمشي إذا مشى كأنما ينصب من « حديره » يتحدى مواضع خطوه في هوس : (يا أرض انهدي .. ما عليكي قدي) و يتكلم إذا تكلم فتسمع لقوله وقع الرصاص يوم كانت (الهوشات) .

وعين لرئيس البشكة أن يندب أخانا المشكل ليختار لنا أول وصولنا المدينة نزلاً نسكنه فكث غير بعيد وقال جئتك بالشرفة العالية المطلة على الرحبة الواسعة في باب السلام فأخذ رئيس البشكة بوصف طباخ البشكة وأعجبه أنها مشرفة فتم القبض والتسليم ونسوا أنها أيام سموم قائظ لا يصلح فيها للسكن إلا القياع السفلى من بيوت المدينة .

وأقبلت البشكة التي تتمثل في شخصي تتهادى فأفسح لها في صدر المكان مما يلي مهب السموم وعندما أبديت ملاحظتي على موقع السكن وجدتني أتجنى على مركز الرئاسة وقد فوضتها الأمر وسلمت مقاليدي إليها .

وانتهت أيامي في المدينة فحجزت وطباخي في عربة البريد إلى ينبع وأشهد أن طباخي كان طويل الذراع في مثل هذه المواقف فهو لا يكاد يضع عينه على أي مقعد يحجزه حتى يتراجع الركاب عنه إلى غيره طالبين السلام وانظر اليهم وهم يتضاءلون فأضحك بملء سري ثم لا ألبث أن تشملني عدواهم فأتضاءل في أدب ولا أكاد أوجه إليه الكلمة إلا مغلفة بالناعم الرقيق .

وقضيت أيامي في ينبع في بحث وسيلة السفر إلى أملج .. كان المفروض أن أستقل سيارة ولكن الطريق كان يومها لم يعبد بعد وقد قيل لي أنك على ما تقاسي من وعورة الطريق سيصادفك ممر تغوص فيه عجلة السيارة في خضم من البحر فخير لك أن تمتطي جملاً أو تسافر في أحد المراكب الشراعية مصعداً في البحر إلى أملج .

واخترت الأخير إلا أنهم لم يجدوا لي يومها إلا مركباً مشحوناً ببراميل البنزين فعزمت السفر مدرجاً مع براميل البنزين وعندما بدأ الطباخ يحمل متاعي في الصباح المبكر إلى المركب جاءني بخبر جديد يقول فيه إن في المركب خراب اضطروا معه في رحلتهم أن يقذفوا ببعض البراميل إلى البحر وأن الناخودة لا يأمن علينا السفر فهل ترانا ننتظر .

قلت لعل في هيئتك ما أفجعه فتراءى له أن يتخلص من زبائن لهم هذا الشكل المفزع فتصامم ولم يعلق وراح يتشاغل بجمع المتاع .

ولكن ما لبثت أن قابلت من أكد لي حقيقة الخراب فقلت لسنا خيراً من ناخودة المركب أو نوتيته .. والمقدر في الغيب هو المقدر .

واستوى بنا المركب باسم الله مجراه ونشط صاحبي الطباخ فقرب جهاز الراديو إليّ وراح يصلح من شأن (الأنتن) فما كدت أدير مفتاحه حتى صافحت قراءة المقرىء أذني « يغشاه موج من فوقه ، موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها » .

ترى هل هو استهلال ؟ هل لي أن أتطير من هول ما سمعت ؟ إننا لا نزال على خطوات من الشاطىء ! ! وفي استطاعتي أن أعود قبل أن يقلع المركب .

أيجوز الرحيل في مركب يغشاه بعض الخراب وتملأ ظهره شحنة البنزين وتستهلنا فيه آيات الرعب والخوف .

ولكنهم كانوا قد وطأوا لي مجلساً ليناً في المركب وترأى على مد البصر أمامي جو حالم لذيذ وتناهت إلى مسمعي وشوشة المياه وهي تتعانق وتتماوج في أصوات رقيقة خافتة فأخذني من جمال الروعة ما أخذني ووجدتني أتساءل : ألم ننته إلى أن ما كان في الغيب فهو كائن فماذا جد ؟ ؟

أهو استهلال القارىء ؟

إنه لا يقرأ لي وحدي فبحار العالم في هذه اللحظة يمتطي أمواجها ملايين الناس فهل لهم أن يتطيروا فيغادروها أم أنا الخفيف وحدي بين كل هذه الملايين .

باسمك اللهم نمضي في طيتنا ..

وأقلع المركب وجرى بنا في ريح طيبة ثم ما عتم أن ماج البحر وعصف الريح فواجه واجهة المركب ففعل من عزمه فكنا لا نمخر ميلاً حتى نعود إلى نقطة البدء .

وقضينا ثلاثة أيام دون أن نحقق من مسيرتنا إلا أمثالاً محدودة فرجوت إلى الناخودة أن يعود بنا إلى المرفأ حيث ركبنا فاستعصى ثم هادن بعد أن غمزته بقطعة ذهبية ولم تستغرقنا العودة إلا نحو ساعتين فقد جرى بنا المركب بمجرى الريح .

وعدت أبحث عن جمال وشقدف فلم أعثر إلا (بشبريه) أمتطيتها فكانت أول وآخر شبرية عرفت ركوبها .

كان جمالنا حاذقاً في شد الشبرية فكنت أستلقي أو أتمدد أو أنام ملء جفوني دون أي شعور بالنصب .

كانت رحلة لذيذة قضينا في متعتها ثلاث ليال وأربعة أيام وأشرفنا في نهايتها على ساحل أملج .

وأملج مدينة إذا غذ خيالك فيها فلك إن تتصورها فتاة لم تتجاوز بعد سن المراهقة دفع بها أهلها إلى البحر فاغتسلت ثم عادت إلى الشاطىء فترتفق ضفته في سكون هادىء .

مدينة يقطعها شارع واحد تقوم على حافته البيوت الصغيرة في ألوانها البيضاء وتمضي جادته مستقيمة لا يتخللها دكان ولا يقلقها صوت بائع يتجول .

ذلك لأن سوقها ينفرد عنها في زاوية منفرجة من أحد أطرافها حيث تتزاحم مناكب البدو الحضر و يختلط رغاء الإبل بثغاء الماشية على أصنافها .

ونزلت طباخي في أحد منازلها على خطوات من إدارة المال و بدأت بجهاز الراديو فهيأته وأصلح الطباخ من شأن (الانتين) فكان أول جهاز عرفته أملج .

واجتمع الناس على صوته فلم تتسع غرف البيت لزحامهم ونظرت فإذا الساحة الواسعة تحت شرفته تغص بالمئات .. وانتقل الخبر في ليلته إلى أطراف المدينة فأقبل النساء متسترات في ثيابهن الفضفاضة ليتجمعن في ركن من الساحة . وأقبل الرجال من كل فوج يحتلون بقية الأركان ..

ترى هل ينتقل الصوت من بلاد الإنكليز بفعل هذا المفتش الساحر أم هي قوة خارقة حبست أصوات المغنين في صندوق من الخشب .

لقد كانوا معذورين فجهاز الراديو يومها كان جديداً على أكثر الممالك وهو عندنا في مكة عاصمة البلاد كان يعد على أصابع اليدين فما بالك بأملج وهو البلد النائي وما بالك ببادية أملج وأرباضها .

وجاءني سقاء بيتي بعد يومين ليخبرني أنه طلق زوجته في سبيل الراديو قلت : ولكن ما ذنب الراديو قال : إنها اختلست خطواتها دون علمي إلى مجمع النساء تحت الشرفة فطلقتها .. قلت إنك تظلمها تقضي أكثر ساعات الليل في مجمع الرجال من الردهة تستمع إلى الراديو وتنكر عليها ساعة واحدة اختلستها لتتحقق من حقيقة هذا العفريت الذي يغني ولم أزل به حتى أقنعته وآليت أن لا يترك مجلسي حتى يراجعها ففعل .

ووجد طباخي من تجمعات الناس في غرف البيت وساحته الواسعة عملاً يزجى به الوقت فيشغله عن أعمال لا يفهمها في فن الطبخ .. نصب نفسه ملاحظاً عاماً على المتزاحمين ينظمهم في صفوف و يفرض عليهم الهدوء وهو يلوح بعصاه وأشهد أن نظرته الشزراء كانت تكفي للقضاء على أقوى عات يجلجل صوته بالضوضاء .

ولكني ما عتمت أن فقدت كفاءته في القضاء على الضوضاء دون أن أوفق إلى إنسان مهيب يسد الثغرة مكانه .

ذلك أنني بعد أن ضقت بجهله الذريع في فن الطبخ سألته يوماً - « هل ترى من الرجولة أن تغشى فتدعي معرفة الطبخ وأنت أجهل مني فيه » فلم يعجبه أن أهز رجولته وقال - أما إذا أردت الحق فقد نزلت بي ضائقة وعلمت أنك في حاجة إلى طباخ فأسرعت إليك فلما قبلتني بادرت إلى أهل بيتي أتعلم منهم وقد علموني الكثير ولكن الوقت كان أضيق من أن يتسع للتمرين العملي فكان ما رأيت فإذا راق لك أن تسمح لي بالعودة إلى بلدي فعلت فوافقته على ما أراد وتركته ليعود .

وأصبحنا في آخر يوم من رمضان صائمين فإذا (نجاب العيد) ينحدر من وراء التلال البعيدة قادماً من ينبع ليعلن ثبوت العيد في هذا اليوم فأفطر الناس وفطرت قبل اكتمال النهار وأخرت صلاة العيد إلى صبيحة اليوم الثاني .

وكدت أكون بعد صلاة العيد نهباً موزعاً بين الأصدقاء كل يأبى إلا أن أكون ضيفه في فطور العيد ويقسم آكد الإيمان في صور لم تصادفني قط في بلدي حتى لو تعرضت لخروج المصلين من باب المسجد .

وحرت في الأمر أيهم أدسم وأروع ، أيهم أغضب وأيهم أرضى .. ووسوس الشيطان بالحل في أذني - « ليأت كل منكم بعض ما عنده إلى بيتي .. ولنكن جميعاً ضيوف بيتي .
وبذلك انتهى الحل الشيطاني إلى مائدة كانت عيداً بحق لأولنا وآخرنا .

وكان يوماً مشهوداً وفر علينا مشاوير المعايدات باجتماعنا في صعيد واحد .

واقترح علينا مدير الشرطة أن نخرج بفوانيسنا ليلاً إلى الشاطىء لنصيد (أبو جلمبو) فكانت ليلة مؤنسة بين صخور الشاطىء ورماله جمعنا في نهايتها ملء كيسين كبيرين وأصبحنا مجتمعين في بيتي حول قدر من الماء الحار يغلي فيه (أبو جلمبو) ثم نتناوله فننزع قشرته : « ومن فين آكلك يا بطه ! ! » .

كانت أياماً لذيذة وكان ألذ ما فيها جو أملح فهو لا يعرف حرارة الصيف .. وطقسه البارد لا أثر فيه للجفاف أو الرطوبة بين بين .. هواء منعش وجو ممتع .

ورأيتني في صحبة أحبابي أستغني عن ثلثي عمري في الحياة وأعود إلى سني كفتي في سن العاشرة ذلك أن الملتفين حولي كان أكثرهم لا يعي مفاهيم الحياة إلا ما يعيه فتى بريء جديد على الحياة .

وما أعذب البراءة من هذا اللون في بعض الظروف التي نتخفف فيها من الحياة .

العثملي في أفريقيا

كان هذا من نحو خمسين سنة وكنت أعمل رئيساً لتحرير جريدة صوت الحجاز . ووافانا العيد في نهاية رمضان وكانت الجريدة قد أعدت لمناسبته عدداً ممتازاً .

وتوزع العدد ليلة العيد وبينما أنا في طريقي لبعض حاجاتي في السوق وكانت نسخة العدد الممتاز قد غمرت السوق إذ طرق سمعي تعليق صحفي صادر من دكانه كنت واقفاً إلى جانبها وعندما التفت إذا المعلق (فقيه كتاب) يقع كتابه إلى غير بعيد من بيتي وكنت آخر من يتوقع أن يقرأ مثله جريدة ما أو يهمه ما فيها فضلاً عن أن يعلق على ما نشر فيها . ولهذا لذ لي أن أتطفل على بعض تعليقاته من حيث لا يشعر لعلي أغير ولو بعض رأيي فيما كنت أتوقع منه فاقتربت من موقفه ورحت أرهف أذني لتعليقه فإذا هو يقول قرأت في أخبار اليوم من جريدة صوت الحجاز أن الدولة العثمانية (كذا) أسست حكومتها من جديد في إفريقيا بعد أن وصل إليها أحد أولاد الخلفاء القدامى وتولى فيها عرش الخلافة) .

هالني الأمر واشتدت غرابتي لخبر كهذا ينشر في جريدتي دون أن أطلع عليه فرأيتني في غير وعيي التفت إليه لأسأله متى وفي أي صفحة نشر هذا الخبر . فما زاد عليّ أن أولاني نصف وجهه وهو يقول (لو كنتم تقرأون الجرائد لما فاتكم أخبارها) قلت لقد قرأت جريدة اليوم ولكن ربما فاتني هذا الخبر فهل تتفضل فتطلعني عليه إذا كانت لديك صحيفة أو نشتريها من أحد الباعة . قال وقد التفت يواجهني في صدر مرفوع (حتى إذا قرأتم فأنتم لا تفهمون ! !) أعجبتني النكتة فقلت وقد لذ لي كبرياؤه : (إذا كنت لا أفهم ما أقرأ فما على مثلك وقد أطعمه الله إلا أن يتولى فهمي) اطمأن لتواضعي فعمد إلى سجادة كان يتأبطها ليخرج منها نسخة العدد الممتاز وكانت مطوية بعناية لا مزيد عليها وراح يقلب صفحاتها حتى وضع يده على الخبر المزعوم وأشار بيده يأمرني أن أقرأ .. نظرت فإذا الخبر كتبته يدي نقلاً عن صحيفة خارجية وقد جاء كما يأتي :

(في بعض الأخبار أن لؤلؤة ممتلكات الخليفة العثماني عرضت للبيع في أسمره بالمزاد العلني وقد تغالى في شرائها بعض التجار من إفريقيا الوسطى) .

إلى هنا انتهى الخبر فاستطعت أن أفهم أن شيخنا اجتمع أمامه وهو يقرأ ذكر الخليفة العثماني

وتجار إفريقيا فاستنتج أن ثمت (خلافة عثملّية كذا) ستنشأ في إفريقيا . فهل لمثلي أن يبدد خياله فيما فهم وأن يجرح كبرياءه فيما استنتج .. قال لي وقد انتفخت أوداجه بتأثير ما حاز من نصر - (أيش بك ليش ما تقرأ .. إقرأ سمعني) .. تراءى لي في هذه اللحظة أن أتخابث فبعض المفارقات ترشح النكتة الضاحكة في أحلى ألوانها .. بدأت أقرأ الخبر على مسمع منه في لعثمة من لا يحسن قراءة الحرف .. كنت أعجن حروف الكلمة في بعضها فترتبك وتضطرب ولا يستقيم لها معنى أو بعض معنى .. قال وهو يشرع يداه في وجهي ليؤكد معنى ما يقول - (هذا طولك وهذا عرضك وأنت ما تعرف ما تقرأ) .. قلت وقد راقني أن أمضي فيما تخابثت - (أبويا ما علمني أقرأ) .. و بدا من سحنته المكفهرة أنه لم يسبق له معرفتي رغم أن كتابه لا يبعد عن طريقي وأنا أمرّ إلى بيتي ذاهباً أو عائداً كما أنني مستاء لهذا القدم الذي لا يحسن قراءة الحرف فالتفت في لهفة يسألني ألديّ مانع أن أنضم إلى كتابه وهو ضميني بأن يعلمني القراءة في أقصر وقت و راح يحاضرني ليقنعني بأنه لا يليق (بشحط) مثلي أن يعيش في مثل هذا الجهل الفاضح و يؤكد لي أن من العيب أن أستعين بمن يقرأ لي الجريدة أو أي جواب يصلني من أحد معارفي أو أن تضطرب حروف ما أقرأ بهذا الشكل المزري .. ولذت لي نكتة الموقف فأسرعت بالإيجاب ولم نفترق حتى يعين لي الساعة التي يجب أن أحضر فيها إلى كتابه ليبدأ تعليمي القراءة .. وما حان الموعد المضروب حتى كنت على باب كتابه ونظرت فإذا غرفة صغيرة تضم نحو خمسة أطفال لا يتجاوز أكبرهم سنا التاسعة وإذا كل طفل يحتضن لوحه الخشبي أو طوح به يهدد إخوته وإذا أصوات تتعالى في جلبة تصك الآذان بينما اضطجع فقيهنا في ركن من الغرفة يتوسد بضعة ألواح من نوع ما رأيت في يد الأطفال و راح في إغراقة عميقة دون أن تؤرقه الجلبة الصاخبة أو تطرد عنه النوم .. وعندما طال وقوفي تطوع طفل فأيقظه بعد لأي فقام يفرك عينيه و يتطلع إلى (الشحط) الشاخص أمامه .

أهلاً أخينا .. لقد كنت أحلم بك وأنت تقرأ أمامي .. بشارة خير إن شاء الله .. بكره تقرأ أحسن قراءة على يدي إن شاء الله .. إن شاء الله . (بكره تحط الجريدة قدامك .. وتقرأ أخبارها بنفسك وموبس كدا كمان تفهم معانيها زيّنا تمام .. قول إن شاء الله .. إن شاء الله) .

- هات يا واد يا سعيد اللوح حقك و ريني .

وأسرع الواد سعيد بلوحة فناوله فقيهنا فأمرني بالجلوس ثم أمرني بالزحف حتى اصطكت ركبتاي بركبته وشرع يلقنني لأتابع ما يقول :

- زا أليف ، أليف

ـ باء ـ باء

ـ تاء ـ تاء

ـ ثاء ـ ثاء

وحسبني بعد أن تابعته في قراءة الحروف الأربعة أكثر من مرة أنني أعجز عن قراءتها معتمداً على نفسي فجعل يشير بأصبعه إلى موضع الألف و يسألني فأنطقها (جيم) ـ جيم أي يا أخينا .. احنا وصلنا الجيم .. هادي أليف .. ثم يشير إلى الباء و يسألني فأنطقها (صاد) ـ مين قال لك صاد ومتى وصلنا الصاد ثم يشير إلى التاء .. و يسألني فأنطقها (قاف) ـ أنت أنت يا أخينا راجل بليد .. لا بدك علشان كدا ما تعلمت ثم يعيد من جديد قراءة الحروف الأربعة حرفاً حرفاً فأقرأ قراءة صحيحة .. ثم لا يكاد يتركني لأعتمد على نفسي في القراءة حتى يعاودني الإرتباك فإذا الألف أقرأها صاداً أو لاماً وإذا الباء أختار لها أي اسم إلا اسم الباء وتكررت المحاولة عشرات المرات فلازمتني البلادة بشكل مثير حتى كاد التمثيل الكاذب ينسيني أسماء الحروف نسياناً كاملاً استشاط الفقية غيظاً ورأيت يده تتحسس بحكم العادة موضع الخيزرانة خلفه ولكنه ما كاد يفعل حتى بدا وكأنه قد تذكر أن تلميذه اليوم لا سبيل إلى تأديبه بالعصا .

وتفاقم غيظه فتوترت أعصابه وامتدت يده في عنف إلى اللوح الذي كنت لا أزال أتعثر من هنا كان الطريق ...



أهواء

دائماً

١ - الإكتفاء الذاتي
٢ - يزرعون الراس
٣ - القديم والجديد
٤ - سلوك أطفالنا
٥ - الزعيم
٦ - أبو عطاء السندي
٧ - أهم مدارس الأدب

الإكتفاء الذاتي

قلت لصاحبي كان من رأيك في حديث سابق أن الوقت قد حان لأن تسعى بلادنا حثيثاً إلى التصنيع والإكتفاء الذاتي وأن تجد الرساميل المحبوسة في صناديقها المجال واسعاً أمامها لتؤدي ما عليها لتصنيع بلادها .

وكان من رأيي أن البوادر قد لاحت في أفقنا مذ شرعت وزارة الزراعة تكل إلى بعض الشركات الكبرى دراسة مناطق المملكة بحثاً عن مصادر المياه ومواضع تجمعها وتحليل التربة في كثير من المناطق التي يعتقدون صلاحها للزراعة . ذلك لأن الزراعة ليست عملاً لذاتها فحسب فهي مفتاح التصنيع ومفتاح الإكتفاء الذاتي الذي ننشده فنحن في خطوتنا الأولى نستطيع تصنيع بعض منتوجاتنا الموسمية التي تتراكم في مخازن الفلاح فيضطر لعرضها بالثمن الرخيص أو تركها للضياع والتلف وهي منتوجات يمكنها أن تدير مئات الدواليب الصناعية فمنها ما يصلح للتعليب أو التجفيف وناهيك بالتعليب والتجفيف وما يتفرع منهما من مهن تشغل مئات الأيدي أو ألوفها .

ومن المواد الخام عدا ما نجفف أو نعلب يصح أن نعتمدها أساساً لبناء المصانع إذا استطاعت تربتنا أن تجود بها في مقادير واسعة واستطاعت المياه التي تستنبطها من مظانها أن ترويها بصورة كافية تهيئها لإدارة الدواليب الصناعية في كل منطقة بما يتفق ونوع إنتاجها .

تصور يا صاحبي أن بحوث الشركات من ذوات الإختصاص التي اعتمدتها وزارة ـ الزراعة لدراسة التربة ومصادر المياه في سائر مناطقنا إذا أذيعت غداً بين أصحاب الرساميل القوية مؤيدة ببياناتها التفسيرية فسترى أن أصحاب رؤوس الأموال تتسابق لاستغلال الأراضي في أقصى مناطقها و بناء المصانع في كل صوب من بلادنا .

إن رأس المال لا يعجزه إذا ضمن النتائج أن يبذل طاقته في استصلاح الأراضي التي تؤكد الدراسة الفنية قبولها للإستصلاح ولا يعجزه أن ينفق من سعة في سبيل الماء إذا ثبتت له مصادرها علمياً ولا يعجزه أن يستورد الخبراء والفنيين والزراعيين وأن يبعث من شباب البلاد من يتخصص في فنون الزراعة إذا لاحت له بوادر الكسب .

لا يعجز رأس المال أن يبني ليصنع وأن يؤسس للتدريب الواسع ليهيىء اليد العاملة والمهارة الفنية المتخصصة أن تمديدها بما ينمي الإنتاج زراعياً أو صناعياً على غرار ما فعلت لاستثمار المعادن والثروات المعدنية وما تفعله لكثير من مجالاتنا الحيوية » .

يزرعون الرؤوس

قال صاحبي لا تعجب لبدعة الطب الجديدة التي شرعت تزرع القلب الصحيح مكان القلب المريض والكبد السليم مكان الكبد المقروح والعين الحادة مكان العين العليلة .

قلت ولكنني قرأت أطرف من هذا ففي الأخبار الطبية أن معهداً يمارس زراعة الأعضاء تراءى له أن يجرب زراعة الرأس فعمد إلى كلبين جز رأسيهما ثم نقل رأس الأول إلى جسم الثاني وبالعكس ويدعي الخبر الذي لم يتأكد أن التجربة تبشر ببعض بوادر النجاح ذلك أن أحد الكلبين وقد نفق بعد يومين من إجراء العملية واستطاعت الدراسات العلمية أن تحدد أهم الأسباب التي عرضت عمليته للفشل . بينما نجحت عملية الكلب الثاني إلى حد . وترى المجلة العلمية التي نقل عنها هذا الخبر أن النجاح الذي قيل أنه قد اكتمل لا يصح اعتماده كبرهان قاطع إلا بعد أن يجتاز الكلب دور النقاهة ويستطيع أن يعود إلى سيرته كأي كلب عادي .

وتتناقل بعض وكالات الأنباء التي تهتم بالأخبار العلمية أن المشرفين على تجارب المعهد في زراعة الرأس وبينهم من تشهد الدوائر الطبية بكفاءته يؤكدون أن التجارب ستنتقل إلى زراعة رؤوس الآدميين .. وقد قيل في صدد تجارب رؤوس الآدميين أنها إذا استوفت أبحاثها وتجاربها في المستقبل بشكل واسع فلا يبعد أن تصبح في استطاعتها علاج أعتى أمراض المخ ومنه البله والعته وفقدان الذاكرة وسرطان المخ وما إلى ذلك من أنواع أمراض الرأس باستطاعتها علاج أعتى هذه الأمراض وذلك بأن تستغني عن رأس المريض استغناء كاملاً تجزه من أصوله عند المرء كما تجز رؤوس الماشية لتزرع مكانه رأساً جديداً تكون قد نزعته من جسم أحد الأموات المتبرعين .

والذي يضحك في الأمر وأضحكني ملء صدري أن مثل هذا المريض إذا صحت تجارب الرأس الذي زرع له هل يفكر نفس الأفكار التي كانت تلوب في تلافيف رأسه المفقود أم تراه سيمثل بكل أفكاره ومفاهيمه ومايلوب في تلافيف دماغه شخصية الميت وينطق بلسانه ولغته وأسلوب الأداء في حديثه .. ترى سننسى أنه فلان الذي كان يشكو من مرض رأسه أو علة في مخه ولا يعود يذكر إلا أنه خلق جديد لا علاقة له بماضيه ولا بعائلته التي نشأ بينها ولا بلغته التي كان يتكلمها ولا بيئته التي كان يألفها .

ترى هل يحيا من جديد بالمستوى الذي كانت تبلغه ثقافته إذا كان عالي الثقافة أم سيجد أن

مستواه فيها مستوى الرأس المزروع .. كل هذه الأشياء لم تفصح فتاوى الطب عنها وإن كنت أرى أن لها مكانتها من الأهمية قبل انسياق المعنيين فيما يزاولون من تجارب لا ندري إلى أي مدى سينتهون فيها .. يقول لي أحد العابثين وكنا في صدد هذا النقاش لا أرى في مثل هذه التجارب إذا صحت أخبارها ما ينتهي بالإنسانية إلى خير.

ذلك أن المدارس الراقية ومعاهد الدراسات العليا وكذلك الجامعات ستواجه أزمة عاتية ستغلق غداً أبوابها كرهاً لقلة من ينتمي إليها لأنه لا حاجة لطالب المعرفة أن ينفق طوال سنيه في التحصيل والدراسة حسبه أن ينتظر موت رجل من أعلام الفكر ليتقدم بطلب إجراء عملية جز رأسه ليزرع مكانه رأس النابغة الميت فيصبح وهو ينضح بكل المعارف العالية التي عاش يجهلها .. وإذا علمت أنهم في أكثر البلاد الأجنبية لا يبالون بالتمثيل والتقطيع في أجزاء الميت وتقديمها إلى من يطلبها تبرعاً أو بالثمن عرفت أي منقلب ستنقلب إليه الحياة عندهم .

أنا لا أشك أنها أفكار سابقة لأوانها وأن أخبار العلم لا تتحرى الدقة في كلها تروى وإن منها ما يساق مساق الجد حتى تنتهي إلى ما يؤكد نجاحها بينما تعبث بعض الأخبار ببعض الأفكار في صور تثير الضحك وليس لنا في مثل هذه المواقف إلا أن نتربص بها في أناة حتى نرى ما تتمخض به الأيام وحتى تثبت حقائق الأدلة القاطعة .

القديم والجديد

قلت لصاحبي وكنا في صدد القديم والجديد أن علينا أن نتفهم مبلغ حاجتنا إلى التطوير أن في أدبنا أو شعرنا أو فنوننا بل وفي كل مستلزمات حياتنا .. علينا أن نبدأ انطلاقتنا من حيث انتهي تراثنا القديم فخورين به كأساس له دعائمه على أن لا تنسى علاقتنا بعصر الذرة ومركبات الفضاء وأننا نعايش جيلاً له أحكامه .. وإذا تطرق بنا متطرق يدعو إلى نسيان تراثنا بكل مراسميه وآدابه لنشبت في رأيه أننا أمة جديدة مطواعة لكل دخيل فإنما يدعونا بهذا أن نعيش ممسوخين وأن نستعير لمقوماتنا في الحياة أساليب لا تتفق وما جبلنا عليه .

إن مثل هذه لمحاولة من شأنها أن تقضي على ثقتنا بكياننا وليس كضياع الثقة شيء يهدر الكرامة ويبدد الطاقة ويسلم الأمة إلى الفشل . وإذا كان الجمود عندما ورثنا مضيعة ومزلقاً ينتهي بنا إلى التخلف فإن عصيان الفطرة ونسيان الجبلة التي خلقنا من طينتها إقحام على الطبيعة البشرية لا يستقيم معه بنيان مهما حاول المتطرفون دعمه بالقول المعسول والآراء الزائفة .

لقد مرّ بأمتنا في عصور ازدهارها دور لا يختلف عن دورنا الذي شرعنا ننطلق منه اليوم فلم تجمد على تراثها الصميم ولم تتطرف لتقلد غيرها وتبني من جديد على فراغ بل حفلت بأساسها كتراث وانطلقت تستعير من جيرانها كلما ينقصها في سبيل أن تزدهر وتتفوق .. احتكت بمدنيات من سبقها إلى الحضارة فندبت من يبحث واستأجرت من يدرس ووظفت من يترجم فمضى روادها يأخذون من كل شيء أحسنه حتى لقد قيل أن مترجماً ندب إلى الهند فوجد في بعض خزائنهم كتاباً في الطب أبى صاحبه إلا أن يبيعه بوزنه ذهباً فلم يبخل المندوب بالثمن وقدمه طائعاً فلما انتهى إليه الكتاب وجد بين بحوثه مصطلحات لا يوجد من يفهمها وبعد لأي طويل استطاع أن يهتدي إلى حكيم كان يسكن قرية نائية فلما قصده عز على الحكيم مقابلته فرابط عند بابه أياماًطويلة خجل الحكيم في نهايتها ورضي مقابلته وأن يقضي حاجته .

على هذا الغرار بذل أجدادنا من أنفسهم وأموالهم في سبيل بنائهم أنهم لم يكتفوا بما عندهم وما ورثوا رغم القيمة المعنوية التي حققها تراثهم بين القيم السائدة في عصرهم أقول لم يكتفوا بما عندهم بل استعانوا بكل جديد نافع سمعوا به .. كانوا يستقدمون الخبراء ويستعيرون النوابغ ويهيئون طلبتهم لتلقي الجديد ويستخدمون أذكياءهم لتطعيم قديمهم بالجديد المنتقى .

و بذلك تفتق الوعي العام واتسعت آفاقه ولم يتحرجوا عن قبول الأفكار مهما كانت غرابتها إذا ثبت نفعها وتأكد مدى حاجتهم إليها فلا عجب أن يزدهر عصرهم وأن يتفوقوا على كل من نقلوا عنهم من معاصريهم فما يمنعنا أن ننطلق اليوم على غرار ما انطلقوا وأن نطعّم تراثنا بكل جديد نافع يهيئنا للتطوير .

عندما نضبط سلوك صغارنا بالتخويف

قال صاحبي ما رأيت كأطفال صديقي فلان يخافون كل شيء و يتوجسون من لا شيء وهي حياة لا آمن عليهم من نتائجها .. قلت إنها مأساة الشرق بصورة تكاد أن تكون عامة فالأسرة في الشرق إلا ما ندر تحاول في سبيل ضبط سلوك أطفالها أن تثير فيهم الخوف وهي إذا أثارته من شيء حقيقي ملموس فكثيراً ما تثيره من أوهام أو سخافات أو أساطير لا أساس إلا في مخيلة الممروزين والمعتوهين .

أنا لا أنكر الخوف علة اجتماعية لا تكاد تسلم منها سلالة على وجه الأرض وأن الخوف لأسباب ظاهرة المعالم واضحة الحدود شيء لا بد منه في حياة البشر وربما أثار فيك رغبة الدفاع والصمود وأعدك للمواجهة إذا وجد التوجيه النفسي .. أما مأساة المآسي فهو خوفك مما لا يستاهل الخوف خوفك من أوهام تخيلتها الأساطير وأمدتها بالصورة التي تستمد أهم أشكالها من الواقع الكاذب .. مثل هذا الخوف قائم عند كثير من الأسر في كثير من بلاد الشرق وهو علة تخلفنا وستظل آثاره في مقومات الحياة في نفوسنا حتى تقضي علينا إن لم نتدارك الأمر قبل فوات الأوان .

ترى ما معنى أن نخوف صغارنا بالبعبع والعسكري وأهوال تخلق بعضها لليل وأخرى للنهار وغيرها لكثير من قصص الأساطير ؟ إذا صح هذا فلا يجب أن ننسى مدى ما سنخسره في صغارنا ومبلغ ما نهيئهم له من هوان الضعف وذلته واستكانته .. إننا بعد أن بذرنا بذور الخوف في هؤلاء الصغار وغذيناها بما نختلق من حكايات تصبغها بصبغة الواقع تركنا هذا الخوف يتأصل في مخيلة الصغار و ينمو بنموهم . وذلك أن الصغير يتلقى معلوماتنا كقضايا مسلمة فلا يتسع مفهومه لنقاشها ولا يتسع إدراكه لتحديد معالمها ولا تقوى تخيلته على تتبع ما يصح منها وما لا يصح .. فإذا انحدرت قضايانا إلى أعماقه كشيء مهيب عاش يهاب كل ما في معناها و بذلك ينعكس الخوف على سلوكه عند أدنى مناسبة فلا يكاد يواجه الحياة كإنسان له مسؤوليته حتى يشعر أنه أضعف من أن يواجهها ولا يكاد يحتك رؤسائه أو أقرانه أو شركائه في العمل حتى يدرك عجزه عن مسايرتهم فضلاً عن مسابقتهم فيضطر مرغماً لمجاملتهم ونفاقهم وربما تضاءل فسعى في خدمتهم وتنازل عن مؤهلاته كرجل قرين لقاء أن يرضيهم وربما خيل له الخوف أن هوانه في سبيل

استعطافهم أضمن وسيلة لنجاحه في معتركهم .. و بهذا سيألف الضآلة ولا يرى أن يواجه الحياة في شتى مجتمعاتها بما يجب أن يواجهها إنسان يتمتع برجولته و يثق بكفاءته .. وتسيء الضآلة و يسيء الخوف إلى أخلاقه الضعيفة بصورة مزرية ! ! فهو إذا آنس عجزاً من إنسان ضعيف يواجهه تعالى عليه بشكل مفجع وكان له أسوأ الكيل كما لو كان عليه أن يستوفي ثأره عند الأقوياء من أول ضعيف يواجهه .

ما أروع أن ننشىء صغارنا على الثقة بالنفس والقدرة على مواجهة الحياة مهما كان لونها ونلقنهم دراسة الصعاب وتحليل مشاكلها في صور مبسطة تتسع لها مفاهيمهم ولا بذر بذور الخوف في نفوسهم فينشأوا على الإستكانه وتنتابهم الأوهام عند كل حدث مهما قل شأنه فتتراخى عزائمهم وليس كالتراخي ما يفسد حيوية الرجل و يمنيه بالهزيمة والفشل .

قلت لصاحبي وكنا في صدد أننا في سبيل ضبط سلوك أطفالنا كثيراً ما نثير فيهم الخوف والخوف والفزع حتى من الوهميات التي لا نجد لها أصلاً إلا في مخيلة المرورين والمعتوهين . فنحن نخوفه ببزة العسكري ونصوره أمامه عتياً جباراً يسحق الأطفال وكان ينبغي علينا أن نكبره وأن نذلل له على علو شأنه و بسالته وأن نوحي إليه ليقلد رجولته ويهيء نفسه لمثل رتبته في مستقبل أيامه لينشأ في معناه عسكرياً قائداً أو طياراً أو فدائياً أو مقداماً في أي نوع كان .

إن بذور الخوف إذا وجدت سبيلها في نفس الطفل نمت وترعرعت مع كل أسف وامتدت فرعها إلى مواطن التفكير في الشخص وتركت طابعها في كل مناحي حياته العملية فلا يكاد يخطو خطوة في أي اتجاه منتج حتى تنتابه الأوهام بشكل لا يحقق له نجاحاً ذا بال .

ونحن نشهد اليوم لا في بلادنا وحدها بل في كثير من بلاد المشرق أنه قل بيننا من يجرؤ على اقتحام مشروع له قيمته الحيوية بالنسبة لشخصه أو بلده ذلك أن عوامل الخوف التي بذرت بذورها في طفولته ظلت تعايشه مدى حياته فلا يكاد يناقش فكرة أو يعتزم عملاً أو يهم بمشروع حتى تنتابه الوساوس الكاذبة وتحد من خطوة خوفه من شيء مجهول . يسألني أحدهم لم عشنا نبرع في التقليد فلا يكاد أحدنا يؤسس مصنعاً للمرطبات أو يبني محطة للبنزين أو ينشىء معرضاً لبيع السيارات المستعملة حتى يبادر لتقليده عشرات وعشرات فإذا شوارعنا غاصة بألوان المرطبات لا نهاية لها وإذا محطات البنزين تكاد تتلاحم وتتلاصق لكثرتها وإذا معارض من يبيع السيارات المستعملة تكاد تناديك القذة بالقذة . إن مشاريع الإنتاج في الحياة لا نهاية لها وليس من مصلحة المجتمع أن نزدحم على مناهل محدودة من هذه المشاريع ولكن المطبوعين على الخوف من نعومة

أظفارهم تركوا الخوف يتسلل إلى مواطن تفكيرهم فباتت أفكارهم أعجز من أن تناقش رأياً جديداً في ميادين العمل الواسعة وتسلل الخوف إلى مواطن العزم من نفوسهم فباتوا لا يملكون الجرأة لمواجهة أي صعيد ينتج عملاً له قيمته في دنيا الإنتاج وربما عن لأحدهم أن ينسى خوفه إلى حد وأن يستلهم من ضعفه قوة يندفع بها إلى تأسيس أو بناء ورشة فلا يلبث انعدام الثقة في كفاءته أن تعرقل سيره أو بعض سيره إلا في القليل الذي يستطيع طرد أوهام الخوف من نفسه ويثبت لاستئصال عوامل التردد من جذورها .. ما أحوجنا اليوم وقد شهدنا أثر أسلوب التخويف في تربيتنا أن نعدل عنه إلى أسلوب منتج نوحي به إلى أطفالنا أنهم أقوى من أن تعرقلهم الوساوس الكاذبة وأن استعدادهم الطبيعي لا يعجز عن تأهيلهم لمواجهة أهم المصاعب . ما أحوجنا إلى أن نمرن الطفل من نعومة أظفاره على تحمل المسؤوليات الصغيرة التي تتكافأ مع سنه لينشأ كفء في مسايرة الحياة وليتعرف على أهم ما يمكنه التعرف إليه من اتجاهاتها وليتعلم كيف يناقش ويبحث ويدرس ويستنتج في حدود تتفق مع عقليته كلما تقدمت به الأيام .

مثل هذا الطفل ينشأ إيجابياً لا يشوبه القلق النفسي عند كل خطوة يواجه بها الحياة ولا يهزمه الخوف من كل عزمة ينويها .

مثل هذا الطفل يستطيع أن يبني طريقه في وضوح وأن يمضي إلى غايته في الحياة بقدم لا تزعزعها الأوهام .

الزعيم

للأمم والشعوب وحتى الجماعات الصغيرة أخيلة وتصورات خاصة بها هذه الأخيلة تجمع اليوناني إلى مواطنه اليوناني وهما في أقصى بلاد المهجرة في جنوب أمريكا وأواسط آسيا وتطبع الزنجي بطابعها وهو في أرض الصعيد تحكمه أخيلة بيئته وتحيطه مهما طال البعد والنأي به ولا تقوى أكبر المؤثرات على محوها إلا في أجيال يتناول تغييرها بالتدريج أبناء الأحفاد أو أحفاد الأبناء .

يتقادم العهد على المصري في أوربا فيستبدل بالطربوش القبعة و يجاري الأوربيين في كثير من مظاهر الحياة إلا فيما يتعلق بالأخيلة والتصورات فيظل فيها شرقياً من حيث لا يدري فهو بالرغم من أوربيته تجده أكثر أخذاً بالغيرة على قرينته وكريمته من الأوربي وهو أشد تعلقاً منه بأنواع من المجاملات الشائعة في الشرق .

ذلك لأن في خلايا المخ أخيلة خاصة تجعله يتصور الأشياء في ألوان خاصة تحدرت إليه من بيئته القديمة واستقرت في عقله الباطن و بقيت فيه تؤدي وظيفتها في تكييف الأشياء له .

هذه الأخيلة والتصورات هي النواميس الخفية التي تجمع الأمة أو الشعوب وتدعم أفرادها وتدمغها بدمغة واحدة وتحفظ عليها أصالته إلا فيما ندر .

والأخيلة بعد هذا هي الحد الذي يقدر رجال التربية والتوجيه فوز الرجل في مضمار أمته كما يحدد مقدار فشله بينهم ونحن نلمس هذا واضحاً في أكثر المستعمرات التي نالت استقلالها حديثاً .

فزعيم أهوج يقحم نفسه في تيار الأخيلة الخاصة بأمته فيصدها أو يقف أمامها و يعلن حربها في قسوة وعنف هو زعيم أقرب ما يكون إليه الفشل والخيبة .

وزعيم حكيم لا يصادر أخيلة أمته ولا يصادم تيار تصوراتها إلا بمقدار ما يبني دون أن تظهر آثار الهدم خلفه . أحرى بالنجاح وأقدر على تحويلها رويداً إلى الشكل الذي يصبها فيه .

على أن العسف ومصادرة الحريات عندما يعززان بجبروت لا يحد قد يعملان في تحويل الأمة بصورة فجائية قوية وقد يثبت العمل ما دامت القوة قائمة إلى جانبه لا تطرف لها عين إلا أن

الخطورة تظل كامنة في الأعماق تنتظر الغفوة لتطفي طغيانها الهائل كالسيل الجارف لا تقف في طريقه عقبة .

وإذا صادف الحظ يقظة دائمة في مصادرة الحريات فإن عمل العسف يعطي فائدته إلى أبعد من الجيل والجيلين في إرهاق مستمر وضغط متصل ثم لا ينتهي الأمر إلى تحويل الأمة حتى تكون الأمة قد عولجت في تضاعيف هذا المدى الطويل في نشئها بما يطبعه طبعاً جديداً لا صلة له بالقديم الطويل وعندئذ ينتهي المدى الطويل بمحو معاصريه محواً تامّاً من صفحة الوجود وقيام النشء كطلع جديد مقطوع الصلة والأوشاج بماضيه وفي هذا يظل الخطر باقياً ما بقيت جرثومة واحدة في مخلفات العهد القديم .

وإذاً فليس لتحويل الأمة سوى تحويل أخيلتها وتصوراتها حتى تكيف الأشياء بالصورة التي يرسمها الزعيم تكييفاً يرضيه ولا يفتنها أو يستثير حماسها ضد ما تقدس من قديمها .

أبو عطاء السندي

يقول الشاعر أبو عطاء السندي :

أعوزتني الرواة يا ابن سليم … وأبى أن يقيم شعري لساني

كان أبو عطاء السندي من شعراء العربية المعدودين في عهد العباسيين وكان معروفاً مع هذا بلكنة في لسانه .. كان يسمي الجرادة (زرادة) و يقول عن الشيطان (سيطان) ذلك أنه ولد في السند ثم انتقل على أثر الفتوحات الإسلامية إلى بغداد فتعلم العربية ونبغ فيها ثم قال الشعر وأبدع فيه وعده النقاد من فطاحل الشعراء .

كان أبو عطاء لا يجرأ على إنشاد ما يبدعه من الشعر لعلمه بلكنة لسانه فكان يتخذ له غلاماً ينشد عنه شعره وكان يعاني في سبيل انتقاء هؤلاء المنشدين والرواة ما يصوره في الأبيات التالية :

أعوزتني الرواة يا ابن سليم … وأبى أن يقيم شعري لساني
وغلا بالذي أجمجم صدري … وجفاني لعجمتي سلطاني

إلى أن يقول :

وتمنيت أنني كنت بالشعر فصيحاً … وبان بعض بناني

و يعنينا في شعر أبي عطاء السندي صلته بلغة العرب أو بالأصح صلة العرب به و ببلاده فقد كان العرب يعرفون إقليم الهند قبل قيام دولتهم في صدر الإسلام وكان رحالوهم من الجوابين والتجار يتصلون بأطراف الهند و يعرفون من حضارتها وفلسفة رجال الفكر فيها ما حببهم إليهم .

وكانوا مولعين بصناعة السيوف فيها حتى سموا سيوفهم المختارة هندية وكانوا يقولون للسيف المطبوع مهنداً أو هندوانياً .

وظل أمر الهند يحتل مكانه المرموق في الرأي العربي القديم حتى إذا هيىء للعرب قيام دولتهم

واستطاعوا أن يتوسعوا في فتوحاتهم برز اقليم الهند بين الخطوط ـ التي رسمتها براجمهم فتوجهوا إلى بلاده فاتحين و بدأوا يعدون عدتهم للإستفادة من حضارته القديمة ومعارفه الواسعة .

يحدثنا البلاذري عن خطوات طلائع الجيش العربي إلى الهند فيقول : وجه الحجاج محمد بن القاسم الثقفي إلى الهند في أيام الوليد ففتح جزءاً عظيماً منها وهو المسمى بالسند وكان محمد بن القاسم لا يتجاوز العشرين من عمره و بذلك اتصلت بلاد السند بالعرب وانتقلت جاليات كبيرة منها إلى جزيرة العرب فاختلطت بأهلها وتزاوجت معها فنتجت أجيال جديدة تتكلم اللغة العربية كما ظل بعض مولديها ينطقونها في لكنة أو لثغة كما كان الشأن في شاعرنا أبي عطاء السندي .

ولما كان لا يعنينا كثيراً أن نترجم لشاعرنا أبي عطاء في هذا الحديث كما يعنينا أن نلقي ضوءاً على عصر هذا الفتح وما صاحبه من تطورات سياسية وثقافية وما نشأ عنه من علاقات تركت أثرها بين الجنسين .

أقول أنه لما كان لا يعنينا كثيراً إلا بحث الأثر الذي تركه الفتح في بلاد السند فإن من المناسب أن نلم ببعض هذه الجوانب في اختصار .

إن جيش المسلمين ما كاد يستقر في بلاد السند في أواخر عهد الأمويين حتى امتد نفوذه إلى بعض بلاد الهند واعتنق الإسلام على أثر هذا جاليات كبيرة رأت نفسها في حاجة إلى أن تتثقف بثقافة المسلمين وتتعلم لغتهم فتتلمذت طوائف ممتازة منهم على بعض كبار الجيش من رجال الحديث وائمة القرآن وظهر من نبوغ بعضهم أن عد في طليعة المحدثين كأبي معشر السندي كما درس بعضهم اللغة العربية وأصبحوا من أعلامها الممتازين كابن الأعرابي ابن زياد السندي كما تفنن بعضهم في الشعر والأدب كشاعرنا أبي عطاء السندي .

وترك أهل السند والهند أثراً في ثقافة الإسلام فقد كانوا مبرزين في الحساب والطب وصناعة السيوف كما كانوا مبرزين في الرياضيات والنجوم والفلسفة وقد اختلط المسلمون بكل هذه الفنون وتفوق عدد كبير من علمائهم فيها .

وعنى خلفاء العباسيين بمن وفد إلى بلاد العرب من نوابغ الهند وأنفقوا على من تخصص في دارسة فنونهم بسخاء وافر واستقدموا كثيراً من كتبهم وأمروا بنقلها من اللغة السنسكرتية فاستوى للعرب منها مؤلفات ضخمة في الفلك والرياضيات وعلوم الكلام والفلسفة .

ويذكر بعض المعقلين من علماء القرون المتأخرة أن فلسفة الهند القديمة تركت أثرها في جزء غير يسير من مذاهب الفرق الإسلامية التي كانت تسود العصر العباسي وأن بعض مذاهب الصوفية تأثرت بعلوم الكلام التي انتقلت إلى بلاد العرب من أقاليم الهند كنتيجة للإختلاط عقب الفتوحات الإسلامية في القرن الثاني والثالث من الهجرة .

وقد ذهب بعض أصحاب الرأي من القدامى إلى مثل هذا الرأي فإن مؤلف كتاب الأغاني يقول كان بالبصرة ستة من أصحاب الكلام عمر بن عبيد ، وواصل بن عطاء ، و بشار الأعمى ، وصالح بن عبد القدوس ، وعبد الكريم ابن أبي العوجاء ، ورجل من الأزد .. فكانوا يجتمعون في منزل الأزدي و يختصمون عنده فأما عمرو ، وواصل فصار إلى الإعتزال ، وأما عبد الكريم وصالح فصححا التوبة وأما بشار فبقي متحيراً وأما الأزدي فال إلى قول السمنية وهو مذهب من مذاهب الهند و بقي ظاهره على ما كان عليه » .

وتركت الهند أثرها في لغة العرب فقد كان العرب لا يعرفون الفلفل والإهليلج ومئات من أمثالها انتقلت اليهم بألفاظها وأضيفت على مر السنين إلى مفردات لغتهم .

كما تأثر إقليم الهند ببعض المفردات العربية فهناك ألفاظ السلام والشرف واللطف وكثير من أمثالها استعارها الهنود من أفواه العرب وأباحوا لها أن تدرج بين مفردات ألفاظهم .

وعندما طال الإختلاط بين الهند وعرب الجزيرة وزاد انتشار الإسلام في أصقاع الهند استطاع الخلفاء أن يحتضنوا سائر الطبقات التي أسلمت وأن يذيبوهم في المجتمع الإسلامي وتلك خلة انفرد بها الإسلام فإن حكام الإنجليز الذي هيمنوا على مقدرات الهند في الأجيال الأخيرة عجزوا عن إذابتهم في التاج البريطاني رغم ما بذلوا من جهود .

أهم مدارس الأدب

مدارس الأدب أو إن شئت فسمها مذاهبه تعددت ألوانها واختلفت ضروبها عندما احتك الأدب العربي بما استحدث الغرب من ضروب الأساليب في آدابهم .

لقد كان لأسلافنا مدارس في الأدب يوم كان الأدب العربي حياً تشع أضواؤه في آفاق حضارتهم ولكنها كانت مدارس شبه محدودة كانت لا تشتهر إلا بشهرة أصحابها فثمت مدرسة عبد الحميد الكاتب . أو ابن المقفع . أو ابن العميد . أو أبي العلاء . أو ما إلى هؤلاء من مشاهير الكتاب .

ومع هذا كان بين نوابغ القوم ونقادهم من لا يعبأ بهذه المسميات وربما رآها تنطعاً في الفهم . فالأدب عندهم إحساس فطري لا يعتمد مدرسة لذاتها بقدر ما يعتمد صدى أحاسيس الأديب في عبارة صادقة . وتصوير دقيق . وخيال مرهف غير مجنح . وأداء ينبع من ذاتية الأديب في بساطة لا تتكلف التصنيع .

وبعض المحدثين من نقاد الأدب من يرى مثل هذا الرأي وأذكر أن لأبي شادي في كتابه رائد الشعر الحديث تعليقاً على الموضوع جاء في معناه « أن لكل فنان أسلوبه في التعبير علينا أن نحترمه إذا استطاع أن ينتزع احترامنا وأن لا نتقيد بدكتاتورية المذاهب الأدبية « فذلك أسوأ ما يشوه الفن » .

ولو كنت قريباً من مكتبتي وأنا أنقل هذا المعنى لحفلت بإيراد النص كما كتبه أبو شادي وعززته بأقوال أكثر من ناقد من محدثين وقدامى .

بيد أن مثل هذه الأقوال لا تزال محدودة بأصحابها بينما شاعت فكرة المذاهب شيوعاً كاملاً على أثر احتكاك آدابنا بآداب اللامعين من أمم الغرب .

ونحن هنا إذا تراءى لنا أن نمر بهذه المفاهيم التي وزعت الأدب إلى مدارس مذهبية سنجد أمامنا ضروباً تتسع أو تضيق باتساع أو ضيق ما شاع من الآراء في شأنها . إلا أن هذا لا يمنعنا أن نلم بالمشهور منها .

المدرسة الكلاسيكية :

ويقول أصحابها أن أسلوبها يوناني أو روماني كانت أوربا لا تعرفه في عصورها المنحلة يوم كانت لا تقيم وزناً للأدب كفن رائع فلما أظلتها عصور النهضة القديمة بدأ أدباؤنا يحاكونه فشاع على أقلامهم وظل على شأوه بينهم إلى أن صافحتهم النهضة الأخيرة التي هيأت لمفاهيمهم أساليب مستحدثة تتماشى وما تغير من أساليبهم في الحياة .

الكلاسيكية إذن مدرسة إتباعية تحتذي خطوات أدباء سبقوهم إلى الحياة وكان لآدابهم فيها شأن كما كان لأدب عبد الحميد الكاتب وابن العميد والجاحظ وأضرابهم شأن في الأدب العربي .

وقد ذكروا أن كلاسيك كلمة لاتينية كانت تعني كبراء القوم أو المحافظين منهم على ما ورثوا من تالد فاستعارها الفن في أوربا ليطلقها على قدامى الأدباء عندهم قبل النهضة الأخيرة وعلى من حذا حذوهم من المحافظين من أدباء اليوم .

المدرسة الرومانتيكية :

هي مدرسة الإبتداعيين الذين أنكروا بلاغة الكلاسيكيين وربما أسموها عجرفة أو اتهموها بالتصنيع وتنكروا لكثير من أساليبها في الصياغة ومالوا إلى التحرر لا في الصياغة والأسلوب فقط بل وفي طريقة التفكير . قالوا إننا نتفاعل بتجارب ما عرفها أسلافنا . فتتوقد أحاسيسنا وتصدر مشاعرنا عن جديد مبتكر و بذلك انطلقوا في خيالاتهم لا يلوون ومال مشاهيرهم إلى الفن الوجداني المجنح الذي يتحدث أكثر ما يتحدث عن عواطفهم وأشجانهم وأمانيهم الحالمة وما يشتعل في وجداتهم كصدى لمآسي الحياة فكان من محاسنهم صدق الأداء ودقة الوصف وعنايتهم بتجديد شباب الأدب كما كان من مساوئهم استغراقهم في أشجانهم واستكناه آلامها بما يثير أحاسيسهم .

على أن منهم من استغرقه وجدانه في صور موزونة فعالج مآسي الحياة في هدوء ودعا إلى المثل العليا في فصاحة بيان وتأمل غير مجنح فأخذ من الكلاسيكية اتزانها و بعض قيود بلاغتها كما أخذ من الرومانتيكية بعض حريتها وأصالتها الفنية وهو أسلوب يبدو اليوم شائعاً بين كثير من أساطين الأدب العربي وتجد ملامحه واضحة أشد الوضوح بين كثير من مشاهير الكتاب والشعراء في مملكتنا الفتية .

المدرسة الواقعية :

وعنى بعض هؤلاء المتزنين أكثرما عنوا بالمجتمع وتغلغلوا في شؤونه وشاركوا في حوادثه مشاركة فعالة فلم يبيحوا للخيال أن يتيه بهم في متاهات وأوهام مجنحة فعاشوا يتناولون الأحداث في صممها و يتابعون الوقائع ليصفوا مشاهدها كما تراءت لهم و يعلنوا آراءهم في تصحيح الأفكار و ينادوا بانتهاج السبل التي يعتقدون صلاحها وهم مع هذا يعنون باللفظ الرصين والمعاني البليغة والتصوير الصادق و يجندون فنونهم للخدمات العامة و ربما سخروا بمن يعتمد الفن للفن لأن الفن فيما يرون ما خلق إلا ليخدم الحياة .

ومن هؤلاء الشعراء القوميات والمناسبات الوطنية وأحداث البلاد الصارخة والكتاب الإجتماعيون وكتاب البحوث العلمية والأدب النقدي البناء والقصصيون ممن يستهدفون الحياة وحتى كتاب التمثيليات ممن يعالجون الشؤون العامة و يعنون بمصالح المجتمع .

المدرسة الرمزية :

وأصحابه أعمق من أن يفهمهم قارىء عادي ففي زعم بعضهم أنهم يغوصون في الأعماق النفسية لينقلوا صداها إلى من يطيل التأمل و يحسن الفهم ولا أستبعد أن يكون من أهم البواعث على إشاعة هذا اللون الغامض هي الظروف المستبدة التي تحول أحياناً دون حرية الحرف ولا يرضيها الإفصاح وقد شوهد هذا في أكثرمناسبات الثورات عندما يعمد الكاتب إلى غموض الفكرة وإبهامها وتلتوي معانيه بالتواء غرضه منها .

على أن من أصحاب هذا الإبهام من استساغ الرمز للرمز كأسلوب له إبداعه الفني وهم يرون أن وراء الغموض ما يغري القارىء بلذة الحرص على استكناه ما يقرأ و ربما أعاد القارىء القراءة وكررها ليستمتع بذات اللذة ولأستاذنا العقاد رأي يشبه هذا المعنى ولا غرابة في ذلك ففي الكثير الذي يكتبه ما يلح عليك بقراءته مرة بعد أخرى وعشاق البيان الواضح لا يقرون هذا الإستمتاع ولا يجدون لذتهم في عنت الأسلوب الغامض .

المدرسة السريالية :

وأصحابها لا يتقيدون بقيد فكري أو أدبي ويرون الخروج على كل الصور والأساليب الموروثة فيتركون أحاسيسهم تملي عليهم شعرهم أو نثرهم و يكرهون أن يكون للعقل أو المنطق أيما إيحاء فيما يكتبون .

يرون أن العمل الفني يجب أن يصور مشاعرهم كأدق ما يكون التصوير وربما ابتكروا لتصويرهم كلمات لا يقرها عرف اللغة التي يكتبون بها ويبعدون في أساليبهم إلى أبعد ما يتسع له خيال المفكر وقد تطرف بعضهم حتى رأى أن الشعر الحر ليس حراً كما يريدون لأنه يلتزم بعض الأوزان التقليدية وأن على السريالي أن ينطلق إلى أقصى مدى في حرية الإنطلاق حسبه أن يستوحي أحلامه وأن يسبح في فيض اللاشعور ليسجل خفقات فؤاده بدون أدنى رتوش يهيمن عليها عقله .

المدرسة الوجودية :

يمكن اعتبار الوجودية نزعة تناهض الأخلاق قبل أن تكون بدعة في فن الأدب ـ فالوجودي قبل أن يكون أديباً أو شاعراً كان لا يمثل إلا ذاته ولا يعنيه من شؤون الحياة إلا لذاته وأن ينعم بما يتراءى له فيها دون أن يقيده تقليد سائد أو عرف عام .

وهم في مجتمعاتهم الخاصة تختلط نساؤهم برجالهم بأشكال مثيرة ويستبيحون لأنفسهم في أعمالهم ونزهاتهم وأساليب حياتهم أوضاعاً لا يبالون فيها بقول ناقد ولا يأبهون لاشمئزاز معترض .

وتراءى فيما يبدو للفنيين منهم أدباء وشعراء وقصصيين أن يحرروا فنونهم على هذا النحو المتطرف فكانت لهم مدرستهم التي قطعت صلتها بسائر قيود الحياة وناهضت كلما تعارفت عليه الأخلاق وانطلقت تحلق في أجواء لا نهاية لحدودها ولا هدف فيها إلا أن تستبيح لذواتها كلما تراءى لها دون نظر إلى المعقول منها أو غير المعقول .

وإذا كان بين شباب الجيل الصاعد من يحتفي بهذا التوزيع المذهبي فالذي عليه غيرهم أن الأدب أدب مطبوع تفيض به أحاسيس الكاتب أو الشاعر أو أدب مرصوف تصقله الصناعة وتذوق حواشيه .

وربما غالى أصحاب الأدب المطبوع فخرجوا به عن المقاييس العامة للعبارة والأسلوب مستوحين الجرس الموسيقي والبيان الخلاب والكلمة ينبض بها القلب ليخاطب القلب في صور معبرة عن شخصية الكاتب تسيل منها روحه قبل أن يسيل بها قلمه .

لا فرق عندهم بين مدرسة وأخرى ما دام الكاتب أو الشاعر مطبوعاً مرهف الإحساس دقيق التصوير عميق التأمل ـ يعطي الفكرة من نفسه أكثر مما يعطيها قلمه في أسلوب جزل التركيب عذب أخاذ . والأدب عند من أعنيهم لا يعني التسلية وأمتاع النفس بجمل الأداء أو رشاقته بقدر

ما يعني خدمة الحق وحسن التوجيه ودراسة قضايا الإنسان في إخلاص وصدق وأن يتفاعل الكاتب مع بيئته ليشعر بشعورها و يألم لآلامها و ينطق بما يعبر عن أدق أحلامها .

لقد مضت العهود التي احترف الأدب فيها المرتزقة كمهنة عاشت تخدم رجال العطاء وتتكلف الزيف في سبيل ما ينفعها و بات أصحابه اليوم مجندين لحمل المشاعل في مقدمة الصفوف لينيروا لشعوبهم الطريق السوي الذي يجب أن يرتادوه إلى أهدافهم السامية في الحياة . و يرى بعضهم أننا نعيش عصراً مادياً فإذا اعترفنا بحاجتنا إلى من يحمل المشاعل أمامنا من رجال القلم فليس لدينا من الوقت ما يتسع لأنغام الشعر تتراقص لها أشجاننا وفي هذا ما يغالط في صميم الحقائق فلسنا اليوم أحوج إلى شيء حاجتنا إلى الشعر ليثير كامن إحساسنا و يترجم عن خواطرنا و يلهب حماسنا و يغذي أرواحنا بما يدفعنا للعمل الجاد في سبيل كرامتنا .

قد يصح أن يقال هذا أو مثله لمن يقول الشعر للشعر كما يقال لأصحاب الفن للفن أما الشعر للحياة لإثارة ضمير نائم أو نفس هاجعة أو روح متخاذلة أو خيال راكد فتلك نغمة حية لا تستغني عنها أمة تتمنى أن تعيش لآمالها .

حتى الشعر للجمال لا يصح أن نستغني عنه بصورة مطلقة فالإنسان روح قبل أن يكون مادة وهو بهذا في حاجة إلى من يرهف إحساسه و يرقق مشاعره و يذكي ذهنه ليتوقد إدراكه وتشتعل مفاهيمه فيحسن التأمل و يتبصر الحقائق فيعطيها من نفسه ما تستحق من جهد وعناية .

قصص قصيرة

نابغة جيل
بين قرى الطائف
عندما تخطىء الجماهير
متى يستقيم الظل
بالطو للبيع
يا رب
قصة جديدة للسباعي
خالتي كدرجان
أخطأ العفريت ولم أخطىء
صبي السلتاني
بعد أن طاب السفرجل

نابغة جيل

كان يمشي وفي خطواته ثقل كمن أده عبء فادح وأقلقته أفكار مبهمة وانطلق في مشيته ضيق الخطو مقبوض النفس إلى ربوة مرتفعة يكسوها عشب مخضل فإذا صديقته تتكىء على صخرة ناتئة في قد ممشوق بائن الطول تهدلت من رأسها خصلة فاحمة كان النسيم الرفاف يعبث بها في هون رتيب .

جلس على خطوة منها وأرسل عينيه تجولان في الأفق وقد ذابت الشمس وراء الأفق فتكسرت أضواء الشفق على منحدرات التلال البعيدة وانعكست أشعته على الغدران المنتشرة بين حنايا الوادي .

وما أن رأته حتى انفرجت عن شفتيها بسمة قرأ فيها بعض معاني الرضا فتراء له أن يكتشف مكانه من قلبها فبادرها :

ـ أتحبين ؟ !

ـ ما تعني ؟ !

ـ أعني كل ما في هذه الكلمة من معنى

ـ أحب .. أحب الليل في هدوئه الغافي والقمر تغشاه غمامة شفافة والأفق المترامي لا يحده بصر .. أحب الجبال الشامخة كأنها تعبرعن كبرياء صامت ، والسهول المنبسطة كأنها مطرزة بالوشي والجداول الصافية يترقرق فيها ماء عذب .. أحب البكور تشقشق فيه العصافير المغردة وأحب الشمس في صحوتها تظللني من سعيرها دوحة فينانه ، وأحب الأصيل تنعكس فيه الشمس ذهبية براقة .

أحب كل ما هو طبيعي في الحياة لم تصقله يد محترفة . أحب كل ما هو صحيح لم تزينه الصناعة المبهرجة أحب الرأي مصدره المنطق السليم والقوة مبعثها الحق القويم والفضيلة يصدع بها رجل بريء من الشهوة والغرض أحب في الحياة محمداً عليه ألف سلام .

أحبه لأن أغراضه شريفة ما التوت قط .

لأن سيرته صورة من تعاليمه .

لأن تعاليمه بيضاء نقية لم يكدرها إلا هواؤنا .

أحبه لأنه كان قوياً على نفسه قبل أن يكون على غيره .

أحبه لأنه كان عادلاً لا يميز أصفى أصفيائه ولا يستثني أقرب أقربائه .

كان ليناً من غير ضعف . رقيقاً دون تكسر . فقيراً ما لانت قناته لجبار في الأرض .

غنياً ما شبع قط من طعام الدنيا .

عفا ما بر أهله بشيء من لذائذ الحياة ، قال وقد اعتدل في جلسته وتوجه إليها بوجهه أمامي أذن شاعرة تعبد الله .

ـ هو ذاك فأنا شاعرة بهيامي في جمال الطبيعة ، متعبدة لافتناني بالمثل الكامل في حياة سيد الخلق فهل هذا كل ما تريد أن تسأل .

ـ إنه ما أعنيه بالضبط و يهمني بعده أن أعرف ألا تحبين حب أهل الدنيا وتغرمين غرامهم .

ـ لست نبية ولا ناسكة ولا تخلو حياتي من بعض معاني العبث ولكني لا أعدم لحات أصفو فيها لوجداني كما يفعل كل مؤمن أما الحب حب أهل الهوى فحب تقليدي وقد كنت من غواته لأني سخيفة أحب نفسي . قال وثمت حب آخر قد لا يكون من السخف بالقدر الذي تتصورين .

ـ قالت أيا هذا أنت مغرم بقيادي إلى ما يشوقك وعلى رغم أنك تراني أجملت تأبى إلا أن أسهب عساني أرضي ناحية في وجدانك .

ـ ولكن أجمالك لم يفسر شيئاً مما تعرفين أني مغرم به .

ـ لا بد لإيضاح الفكرة من ترتيب منطقي .. هناك الحب الصافي الذي تبرّ به ذوي الفضل ممن تعرف وهناك حب الجمال في الطبيعة الذي يشوقك جمالها الأخاذ من كل لون .

وعلى غير بعيد منك جمال مشرق في وجه فتاة كاعب يتألق الإشعاع في أهدابها الوطف .

الحب في صوره الأولى معناه الجمال شائع في كل ما استأنست والحب في شكله الأخير حصر الجمال في حاله بذاتها تستثنيها لنفسك وتقيدها بك ربما انقلب بك هذا إلى خير إذا كنت لا تغالي وإلا فأنت غاوي بما استثنيت ظالم لما استأثرت كدأب ما مر بنا من قصص المدنفين ومآسي المحرومين ! !

الحب في صورته الأخيرة غلطة الأجيال والحقوب تحدرت إلينا في أسلوب كانت القصة وكان الوضع أهم عناصره .

وتركت الغلطة البليغة أثرها في وعي الأجيال حقبة طويلة شكا كثير من عزه و بكى جميل من بثينة وجن قيس بليلى في صور لا تدري كم عانى الوضاع والقصاصون فيها ولكنك تدري أنها كيفت الحب في جميع العصور بعدهم وصاغته في القالب الذي اخترعه الوضاع . والقصاص لقيس وجميل وكثير ولو كنت قصاصاً بارعاً ذا خيال واسع لاستطعت أن تضع للناس قاعدة جديدة للحب في قصة محبوكة تجعل منها مثلاً للحب في أسلوبه السليم الذي لا يعرف المغالاة ولا الجنون .

أنت تشرب الشاي تعدل به رأسك إذا كنت من أصحاب الكيف ولكن لا ـ تشربه مبرداً لا ولا مثلجاً وإلا فقدت أثر الكيف وفقدت معنى الشاي فيه .

ذلك لأن جيلاً أو أجيالاً سبقت ورثوك الشاي تشربه في سخونة مقدرة فانطبعت على هذا .. إذن لا شاي إلا في إطار ما ورثت .

كدأب الحب .. حبك فتاتك الكاعب لا يكون وهو مثلج . و بارد لأنك مطبوع بما تحدر إليك من قصص الأجيال وما افتراه الوضاع من حكايات غرامية تصلى ناراً ذات لهب .. إذن لا أحب إلا في إطار ما ورثت .

ثم قل بربك أأنت تشكو من قسوة حبيب هجرك ليكن هذا ولا تثريب .

ولكن ما معنى اللوعة ما معنى الأسى والبكاء ما معنى الجنون أو الموت .

ـ إنها أسرار الروح بدليل الرعدة التي تنتاب العاشق وانتفاضة القلب التي تعتريه في الوهلة التي تفاجئه فيها طلقة الحبيب أو تصافح أذنه نتف من ذكراه .

ـ أنت تعرف أن أكل الليمون يضرس في الفم وإذا غاب الليمون فلا تستطيع أن تنكر أن ذكراه يضرس في الفم فهل تمت أسرار في الروح أم هي ظاهرة انطبعت بها من طول ما عرفت من مزايا الليمون كذلك الرعدة عند ذكر الحبيب ليست إلا ظاهرة انطبعت بها من كثرة ما ورثت من معاني قصص الحب المفتراه .

ـ ولكن ألا ترين أنثمت حباً مثلجاً هو الحب المتبادل بين اثنين .

ـ لا أحسب في هذا بأساً إذا سلم الغلو وقلما يسلم ذلك لأن للحبيبين غرائزاً قلما تهادن أو تنسى ما ركب فيها من حيوانية .

أخشى إذا تحابا اليوم ونعما بتأثير هذا الخدر الوجداني لا تلبث مشاكل الأيام أن تواجههما بهنات يتخيل أحدهما فيها أنه مغبون وللخيال شطحات إذا وجدت من يستمرئها استطالت و بدا الوهم يلون حتى البادرة البريئة ليستفز الواهم فيستاء أو يغضب لكرامته و ربما تجنى فاستكثر قبيلة تجنيه ورأى من حقه أن يتعالى .

وما أكثر ما يجرح التجني والتعالي كبرياء المتحابين فيشعر الواحد منهماأنه بات مهزوزاً من قبيله وأنه فقد من ميزته وما يجب أن يفرضه عليه .

هنا بدأ الجو يكفهر فإذا السماء تتلبد بالغيوم وإذا هزيم الرعد ينذر بالشر والويل وإذا العاشقان بين الجموح التقليدي والهوى الغرير يتجاذبهما مد وجزر لكل كرامته يجب أن تصان ولكل ميزته يجب أن تطفو فوق السطح .

لا بد في هذا الكون من سيد لعيش المسود ولا بد من ضعيف لتستقيم القوة ولا بد من النفع لتبقى الحياة في الأرض .

كن محباً أو محبوباً لتكون سيداً قوياً نفعياً أو مسوداً ضعيفاً مسخراً أو في الأولى ظلم وفي الثانية عذاب وذل .

هذا في عاشقين تبادلا الحب وصفا بينهما الود فما ظنك بهما إذا باتا طرفين أحدهما في السحاب والآخر في التراب .

حسبي يا صديقي أني كشفت أمامك أوراقي لتعرف رأيي وما أذهب إليه .

ولي بعد هذا أن أقول بقولي المحب الشاعر :

وعــش واحــداً فــالحــب راحــتــه عــنــا وأولــه ســقــم وآخــره قــتــل

فهل يقنعك هذا و يرضيك ...

بين قرى الطائف

قال هذا وهو يشعر أنه تخاذل في نفسه بصورة مرهقة . ونظر إليها فإذا هي ترنو إليه بلحظ ساهم ونظرات حائرة .. كانت قد مالت بعنقها على كتفها فبانت سحنتها أشبه ما تكون بسحنة المريض في وجه ضامر كأنما دهمه دهيم مفاجيء فانكفأ لونه وانطبقت آثار الجهامة على جبينها العالي وبان الذبول في زوايا شفتيها الدقيقتين وانطفأ بريق خدها الأسجح الجميل .. ثم حجبت وجهها بطرف ردائها بعد أن أحكمت لثامها .. وندت منها آهة طويلة عميقة وهي تقول :

ـ أتخافني يا ابن الخال ؟

أتخاف الإشعاع في عيني والإشراق في جبيني ؟ ترى ماذا تركت ؟ .. ماذا تركت لذات الخلخال والقرط ؟

أتراني ألتمس كينونتك كرجل هصور فلا أجدها . إن هذا شيء لا أفهمه . كنت أحسبني أجد فيك مفخرة أطاول بها أفيال الرجال .

لا هلاماً يتبخر مع أول إشعاع . وغاز يغني في أول سيال .

كنت أحسبني أصافح فيك الرجل لا لتتغزل اليوم في فتنتي وغداً أنت مأسور لفتنة غيري .

كنت أحسبني أناجي فيك الرفيق الذي يصحبني إلى مراتع الجمال الأخاذ تتنسم طراءة الوادي الأريج تتكسر أضواء القمر على حواشيه .. نقف على شطئان الغدير نلتقط ما ترك القرويون من ثمار الخوخ على جوانبها نقضمه ونتقاذف نواه أو نرجم به الضفادع في قاع الغدير فنثير نقيقها أو نجلس تحت شجرة البسياني التي غرستها عمتك في صباها الغابر نتأمل أوراقها الزرقاء تلمع كأنها قطع قدت من أديم السماء وقت صفائها .

قالت هذا فتركته شارد اللب تركبه الهموم طبقاً عن طبق . ونظر فإذا هي توليه ظهرها متحدرة إلى الطريق السابلة وسمعها تهيب بعجوز تجمع أفواف الورد من بستانها ـ ، سوف ألحق بمن سبقني إلى حفل الزواج ، وكأنها تريد من فتاها أن يسمعها .

استيقظ وعيه على صوتها واستطاع أن يتحامل على نفسه ليقف وكأن عليه أن يسأل العجوز عن وجهة الفتاة وعن القرية التي ستحضر احتفال الزواج فيها فإذا العجوز لا تعرف شيئاً عما سأل فأضاف إلى همومه هماً ولكنه ما لبث أن تذكر أن فتاته عاملة كمندوب للضمان الاجتماعي وأن رئيسة الضمان النسوي تسكن في قرية لا تبعد كثيراً عن مكانه فلو زارها لاستطاع أن يعرف منها الإتجاه الذي انقلبت اليه الفتاة .

قادته قدماه إلى الطريق الذي رآها من كثب تتصدر منه .. كان النسيم يهب بليلاً رخياً . وكان فوح الزهر يعطر الجو بأريجه .. إلى غدير صغير . درب مجلل بالأشجار الباسقة فانتهى منه إلى غدير صغير تناثرت على حوافيه بعض القرويات يملأن القرب أو يغسلن بعض الأواني فانتبذ منهن ناحية بعيدة تهالك فيها على حافة الغدير وأدلى ساقيه يغمرهما بالماء كأنه يطفي لهيباً تستعر وقدته في أعماق نفسه .

وشعر بعد لأي ببرودة الماء وقد أطفت من حرارته وأن شيئاً من النشاط بدأ يسري في مجاري الدم من جسمه فوثب من فوره قائماً ليصافح الطريق .

وأسلمه الطريق إلى وهدة مطمئنة على شاطىء الوادي تجللها أشجار الطلح وخاض به الوادي في جادة ضيقة تلتوي بين مدارج السيول ثم ترتفع بين تلال أو نجود صغيرة تتخللها البيوت من الطين أو الحجر على مسافات تتقارب أو تتباعد بقدر ما تلتوي بينها الجادة .

كان يسير وحده يؤنسه أزيز السواقي آتية من مخارف الوادي وكان يلتقي بين كل فترة وأخرى بالرعاة يسوقون قطعانهم بين المروج أو يرسلونها إلى العشب المخضل بين ـ ليات الوادي فكان لا يفتأ يسأل عن قرية يجهل اسمها تقيم حفلاً للزواج فتشير له الأصابع إلى البعيد من وراء الهضاب الصغيرة .

كان الريح يهب عليلاً فاتراً فيعبث بأشجار التين على أكتاف المروج فيسمع لحفيف أوراقه نغماً شجياً رخيماً ، وكانت الشمس صاحية تنقل خطاها بين أكتاف الجبال ورؤوس ـ التلال وتترك بعض النجود الصغيرة غرقى في وهجها ، وكان أطفال القرويين ينتشرون بين مهابط الماء ومساقط السيل في طول الطريق يحملون سلالهم على رؤوسهم أو بين أكتافهم يجمعون فيها أفواف الورد بين حمراء وبيضاء ويلتقطون ماتناثر من ثمار العناب فيجعلونه في أفواههم ويتراشقون بنواه في مرح ولعب .

وطال به الطريق واشتد وهج الحر وكان الجوع وطول الطريق قد أخذا منه مأخذهما فأبى إلا

أن يواصل مسيرته إلى هدفه .

وأنه لفي سيره وقد كادت الذبالة الرقيقة الباقية من مصباح النهار أن تنطفىء إذا بأصوات غنائية تصافح أذنه من وراء أدواح ملتفة فنظر وإذا بين يديه طريق يعرج به إلى مصدر الغناء في مدخل صخري فمضى يسير بسير الطريق دون أن يخالجه شك في أنه على الجادة إلى قرية العرس .

وساقته الجادة إلى مسلك تغشيه أشجار السلم بين سلسلتين من الهضاب تنحدر منها صخور قائمة أو مائلة بين جوانبها كانت بينها قطع فصلت عن الهضاب في عناية فبدت كأنما صبت في قوالب بيد أمهر الفنانين واستوت سطوحها كأنها نماذج لصناع اتقنوها في أشكال هندسية عديدة وتركوها شاهدة لما أتقنوا .

و برز الطريق به إلى ساحة انتهت في أحد أطرافها إلى بستان سوج بسور مرتفع من الطين النيء ونظر فإذا إلى جانب البستان مصطبة مفروشة بأنواع من الفرو الثمين جلس عليها شيخ من الأعراب في وجه مغدودن ضامر ولحية طويلة شعثة وجبهة عالية يطالعك منها سمو المحتد وعراقة الأصل استبان من هيئته أنه من أقرباء الفتاة على ضوء ما كان يسمع من أوصافه في ثنايا حديثها .

انتصب الشيخ واقفاً في قوام فارع يحييه في وجه مشرق وديباجة لطيفة ثم دعاه إلى الجلوس .

وابتدره الشيخ يسأل هل أنت مدعو إلى حفل الزواج في قريتنا فقال إني في نزهة خلوية لا أكثر قال إن عمتك وفتاتها كانتا عندي إلى قبيل المساء ثم غادرتاني إلى الحفل في العدوة القصوى من القرية فحيهلا بك من ليلتك هذه وتعذرني إذا تركتك مؤقتاً لأحضر حفل الزواج ثم أوافيك قبل أن ينبلج الصباح لأجدك وربما صحبتني في العواه عمتك وفتاتها .

قال هذا وهو ينادي خادمه ليوصي به فقاده الخادم إلى داخل الدار فإذا غرفة واسعة فرشت أرضها بالبسط المجدولة وتناثرت في أركانها المتكات من القطيفة .

وما يكاد يجلس حتى حملت إليه مائدة تبلغ منها ما استطاع ثم أدى فريضته على أمل أن ينام ولكن الكرى أبى إلا أن يخاصم جفونه فقد تخايلت له ابنة عمته في أبهى زينتها تبدو في محياها الجميل علامات الرضا وملامح الإستياء أخرى في صورة استعصى معها الهدوء فطفق يتقلب في فراشه حتى صافح أذنيه نداء الفجر .

وتنفس الصبح يتضوع الأريج الشذي في نفحاته فقام إلى كوة تشرف على الأودية المتموجة

بالخضرة والزهر وأرسل نظرة فإذا سحابة تسحب ذيولها على رؤوس الدوح وقطرات من الغيث تساقط على المروج فيعبق أريجها ويملأ الجو بفوحه العطري .

وما كاد يذوب في سحر ما يرى حتى استيقظ وعيه على صوت فتاته تحييه تحية الصباح ونظر فإذا هي أمامه يفتر ثغرها عن ابتسامة اختلطت معانيها عليه فما أسرع أن اتجه بكليته إليها وحاول أن يرد تحيتها ولكن معاني الكلمات ذابت في فمه فلم ير بكها حياؤه بل شجعها على أن تمد يدها لمصافحته وهي تبادره :

- كيف أصبحت يا ابن الخال .. أحسبك بت تصلي بينها بتنا فيما عانيناه من تعب الزواج .

- من أين لك أني بت أصلي وأتعبد . ترى هل بدأت تتهكمين .

- من قال أني أتهكم .. وأنت تفهم ما أعني .. أنت تعرف أن العبادة ليست بمعناها المصطلح فقط .. وإنما هي إلى هذا استغراق في ملكوت الله .

إن في هذه التلال القائمة على حفافي الوادي ، وهذه الأدواح الذاهبة في طبقات السماء تصالح أقدامها الجداول الصافية ، وتلتوي على سوقها العساليج الخضراء وألواح البرشومي يترقرق فيها الندى ، والعنب يتسلق أوراقه ما صنعت يد الإنسان من هياكل ، وثمار السفرجل والرمان والكمثري تتدله في أشجارها تدله النشوان كلما عبث النسيم .. إن كل ما رأيت استغراقة لا تجدها في سجادة بطنت بأنعم ما في المصانع من حرير .

إن في الأريج الفواح من المروج المخضلة ، وفي أشعة الشمس المنعكسة من خلال أغصان التين ، وفي رقرقة الجداول المنسابة بين الجذوع ، وفي شقشقة العصافير وتغريد القماري ، ونقيق الضفادع وخرير مياه السواقي تسابيح لا يقولها لسان ، وآيات لا يقوى عليها بيان ، وحجج دامغة لا يعدل بها كل ما كتب العلماء والفلاسفة عن حقيقة الإيمان بالله .

كانت تقول وليس في صوتها النبرة الرقيقة والألفاظ المتكسرة على شفتي فتاة كاعب فما ملك أن تاه أمامها في بيداء واسعة .. ماتت الكلمات على شفتيه وغاصت المعاني في فؤاده . وظل على حاله وقتاً لا يدري أنه طال حتى استرعت سمعه جلبه ضج بها الوادي .

كانت الحياة قد دبت في مسالك الوادي ، وبدأ ثغاء الماشية يختلط برغاء الإبل وأخذ البدو والفلاحون ينسلون من معارجهم بين النجود الصغيرة ليواجهوا أعمالهم بين المروج .

ونظر فإذا ضيوف الحفل الساهر يتقاطرون من وراء التلال عائدين إلى بيوتهم بعد نهاية الحفل .

وسمع صوت والد الفتاة ينادي خادم البيت ليفرد مهجعاً يضطجع فيه بعد ليلته الساهرة فاستيقظ وعيه للصوت وأسرع يحييه فصافحه الأب في ود وربت على كتفه في سرور واضح .

ووجد نفسه وحيداً في غرفته بعد أن تركها الوالد إلى مضجعه وتركتها الفتاة إلى ما لا يدري فراق له أن يجمع شتات ذهنه ورأى نفسه يتساءل ما معنى كل هذه المعاناة في سبيل فتاة لا أعرف مكاني منها إلا كطالب يتلقى ما يحلو لها أن تسميه دروساً في الحياة .. ترى هل تشعر بمثل شعوري بها وهل أجدني أملك نصيبي من دخيلة نفسها ؟

قال هذا وهو يؤكد لنفسه أن لا بد من وضع حد لكل هذا لا بد من حسم أتقدم به إلى والدها طالباً يدها فإما جفاء بعد وإما وفاء حتى تضع المعاناة أوزارها ..

وتراءى له أن معدل النجاح سيكون أوفى لو بدأ بوالدتها فهي عمته وقد عاشت تبره ومثلها في برها وودها سوف لا تضن عليه بهناءته وسعادة فتاتها .

وعندما انتهى من قراره كان كما لو نشط من عقال وفي لحظة كان بين يدي عمته يبثها لواعجه و يرجو سعيها لإتمام ما يؤمل .

ذهلت العمة لما سمعت . ثم ما عتمت أن غلبتها ضحكة هستيرية وهي تقول : لا أحسبك تجهل أن فتاتي أختك فقد رضعت معها من ثديي هذا أكثر من عشرين مرة .

عندما تخطئ الجماهير!!

أعرف شاباً كانت تبدو عليه بعض أعراض الهوس في صورة هادئة رتيبة ، كان أول ما أخذت تبدو عليه هذه الأعراض لا أميزه عن غيره من العقلاء إلا بلمحات خاطفة أستبين آثارها عرضاً في حديثه في بعض الأحيان .

كان يتراءى له في هذه اللمحات أنه يتمتع بشجاعة تستحق لفت النظر ، وأن من الغبن أن يتجاهلها أقرانه وزملاؤه ، ولا أستبعد أنه أسر بخلجاته هذه إلى نفر من أصدقائه في شكل بريء سازج فلم يصادف منهم مخلصاً يعني بهذه الظاهرة عليه وموفقاً يحاول علاجها في شكل حاسم لأن الجمهور في العادة لا يعني بشيء ما يعني بالتسرية عن نفسه وتسليتها بالغرائب المضحكة .. وهو إذا صادف طرفاً منها تمنى لو استطال ومد في أمره ليمعن في التسلية ما يسعه الإمعان و يغرق في الضحك ما وجد سبيلاً إلى الإغراق .

على هذا النحو اغتنم اصدقاء صاحبنا فيه هذا الوهم ووجدوا في موضوعه مادة خصبة صالحة للتسلية والترفيه عنهم فشجعوا فيه الوهم ، وطفقوا يحدثونه بالكثير الذي يغريه بنفسه و يخدمها فيه حتى استوت أمامهم على مر الأيام رجلاً جديداً له جميع صفات المجنون وتأمل حركاته .

ومضت أيام كنت لا أرى فيها هذا الشاب ، وجاءت أخرى فإذا صاحبي أمامي على باب دار خربة يشرع عصاه في الهواء و يضرب في وجوه من يتخيل ضرب البواسل في شجعان القرون الوسطى و يصحي : هل من منازل فأفنيه ، وهل من مقاوم فأبيد أثره وعلى خطوات منه شلة هائلة من صبيان الأزقة وقفوا يمثلون الفر والكر وأصواتهم تدوي بصيحات الضحك .

هذه إساءة أساءها الجمهور ممثلاً في نفر من أصدقاء هذا المسكين .. إساءة بذرت بذرتها يوم أن مدوا له في الوهم عندما تخيل من بأسه ما تخيل ولو أنصفوه وأخلصوا لصداقته لتضافروا على علاجه قبل أن يستفحل الداء . ولكننا أنانيون لا نعنى في مثل هذه الأحوال إلا بأنفسنا ، ولا نبالي في سبيل تسليتنا والترفيه عنا بما نجنيه على مثل هذه الضحايا . فلا عجب إذا هيأنا مثل هذا المسكين للجنون ودفعناه دفعاً إلى مجال الصبيان بين الأزقة ليعبثوا فيه ما شاء لهم العبث .

هذا مثل مما يجنيه الجمهور : يبين لنا إلى أي حد نمعن في أخطائنا كمجموع و يبدو لنا في

نتائجه التي رأيناها مقدار ما ترتب على هذه الأخطاء من إساءات .

وأعرف إنساناً آخر شغف بالوجاهة وأمعن في شغفه بها إلى حد كان له رد فعل خاص أثر في نفسه وتركها تعتقد وجاهته ومضى به هذا الإعتقاد أو إذا شئت فسمه الوهم في مثل هذا الدور الذي مضى فيه صاحبنا المجنون وصادفه من جمهورنا الطاغي ما صادف صاحبنا من قبل فهيأه لاختلال العقل لا لشيء إلا ليجعل منه مادة صالحة للضحك قابله للترفيه والتسلية وها هو اليوم يذرع أرض السابلة و يطوي أطوال الشوارع في أسماله البالية والناس ينادونه من كل جانب يرجوه أن يشفع لهم عند كبار الحكام وعليه أصحاب المناصب وهو يومىء برأسه تارة علامة الإيجاب وأخرى علامة الرفض كما يفعل المقربون من وجهاء الناس .

والناس في عبثهم سادرون تملأ ضحكاتهم أجواء الأفق فأية جناية هذه التي لا نرعى فيها شروط الإنسانية والأخلاق وأية أخطاء التي تتضافر على ارتكابها في شكل جماعي كامل .

وأعرف مهوساً ثالثاً أغرم بالشعر وراح بيانه يفيض بالقصائد المجدة والأبيات المطولة مما يقاس الشطر منه بالسنتمتر ويقاس شطره الآخر بالكيلو في ألوان ليس فيها معنى منثور أو منظوم أو كلمة ذات مدلول ولكن من هذا يأبى إلا أن يتخيل أنه في الطليعة وأن أساطين الشعر من مختلف جنسياتهم ليسوا إلا مستمدين أشعارهم من معانيه و يسرقها بعضهم من قوافيه .

وأكبر ظني أن شأنه أول من بانت عليه أعراض الوباء كان لا يختلف عن شأن صاحبيه اللذين أسلفت ، وأنه لا أكثر من كونه فتى ينفر من أصدقائه قاموا بدورهم في اشباع وهمه وشاعريته وأنهم أغرقوا في ذلك حتى خدعوه عن نفسه وأغروه بها فأعدوه بذلك للجنون وهيأووه لعبث الناس وسخريتهم وتركوه يمضي على وجهه متمسكاً بين مجالس الأدباء في جيوب مزدحمة بالفايف والأوراق يعرضها بين المكاتب والقهاوي ومترنماً بها نشوان وعاصفة من الضحك تتبعه حيثما حل وتشيعه في كل مرتحل وهو أكثر ما يكون مسروراً بهذا الضحك كما لو كان للضحك في رأيه معنى جديد من معاني التقدير أو دليل من أدلة الإعجاب .

قلت له مرة لأنظر إلى الموضوع نظرة عقل وتفهم أن جميع متاعبك في غير طائل ، وأن جميع ما تسميه شعراً لا يمت إلى الشعر ولا إلى النثر بشيء وأن جميع الضاحكين حولك ليسوا أكثر من مترفهين يتسلون بالعبث بك فرأيته يطرق برأسه واجماً فتخيلت أني بدأت أؤثر فيه وأنه سوف لا يلبث في إطراقته هذه أن يستعيد صوابه في هدوء ولكني ما عتمت أن فوجئت بصيحة من زاوية في المكان ورجل يؤكد بأشد الكلمات قوة أنني حسود . وأنني أغمط حقوق النوابغ في لهجة

أثـارت عاصفة من الضحك في المجلس تنبه لها صاحبنا الشاعر فاعتدل في جلسته و راح يشاطرهم الرأي في حسدي و يقرأ علي أبياتاً جديدة ارتجلها لتوه في الحسد والحساد في لغة ليس لها مفهوم .

وظل صاحبنا بعدها إلى اليوم لا يصادفني في الطريق إلا نظر إليّ نظرة ملؤها الحقد .

و بهذا كنت الوحيد الذي أحسد الشعراء وأغمط حقوق النوابغ في رأيه .

إلا أنها قسوة القلوب وتحجرهاوإلا فأي معنى في تضافرنا على التغرير بالمخدوعين ودفعهم إلى مـنـاهـل الجـنـون ، وأي مـعـنـى فـي صـرف هـذا المسكين عن العمل لما يقيم أود فقره وإلهائه بهذه الترهات الباطلة وهذا الإيهام القاتل إن لم يكن تحجر القلوب وغلظة الأكباد .

وأعـرف كـبيراً في مكتبه الخاص أجمع الملتفون به من أتباع وحاشية على إيهامه بالنبوغ الفائق والـقـدرة الـنـادرة في جميع الفنون ما كان منها رياضياً أو علمياً أو إدارياً تزلفاً إلى حاجاتهم لديه ونـفـاقاً فما عتم أن اندفع في ما أوهموه اندفاع المغشوشين و راح يفترض لنفسه أكثر مما خيلوا له وشعر أصـحـاب الحـاجـات عـنـده بغرامه بهذا الوهم فأشبعوا رغبته وقالوا له من الإطراء الخادع والخداع الكاذب ما أنساه حقيقته .

وهكذا بات صاحبنا على شرف هار وأخشى لا قدر الله أن يهوي به في مهاوي الجنون .

إنـه يـقـضـي يومه يستمع في مكتبه إلى إطراء المادحين ومدح المزيفين . أو يتحدث عن نفسه بالهراء الذي يجد تأميناً من جميع الملتفين به لا يشوبه أي اعتراض .

هـذه شـواهـد مـعدودة التمسناها من نوع واحد في وقائع الحياة ولو شئنا وأباحت الصحيفة من حقولها ما نريد لعززناها بآلاف من أمثالها فما يثبت في مجموعه أخطاء الجمهور في الحياة .

فـأخونا المهووس بشجاعته و رصفاؤه المهوس بوجاهته ، والمهووس بشاعريته والمهووس بنبوغه جنى عليهم الجمهور بغشه وخداعه .. جنى عليهم وقسا وكانت قسوة لا حد لفظاعتها . جنى عليهم ومـضـى فـي أنـانـيـتـه يخوض في دمائهم لأنه لا يعنيه مما جنى إلا أن يسري عن نفسه وما وسعته التسرة وأن يضحك ما اتسع شدقاه للضحك .

والـطـريـف فـي هـذا إذا كـان في القسوة ما يسمى طريفاً اننا نستوي في هذا الإجرام شيباً وشـبـانـاً وأطفالاً ، وأن عقلاؤنا وأصحاب الوجاهة منا والمتعلمون والمتأدبون يشاركون الأطفال في مثل هذا العبث بمثل هذه المخلوقات الضعيفة ـ لطفك اللهم و رحمتك .

متى يستقيم الظل

قالت تحدثني :

نجحت بتفوق فاختار والدي أن التحق بكلية الآداب في بلد خارجي قيل أنه محافظ أكثر من غيره .

لم نكن مختلطين فتياناً وفتيات لأن مبدأ الكلية لا يحبذ الإختلاط ولهذا اختار أبي أن تضمني مثل هذه الكلية المحافظة .

ولكن مع هذا كان مدرج المحاضرات يجمع طلابها من الجنسين .. كانت صفوف البنات تحتل المراكز الأمامية لتأتي بعدها صفوف الفتيان فكان يتعذر الإختلاط إلا في الحالات التي يتعمدها الفتيان فيغتنمون فيها فرصة الخروج من المدرج ليتسكعوا حول البنات في ردهة الكلية أو بين مماشي الحديقة أو في موقف السيارات خارج الباب العمومي .

وكان يغيظني من بعض الشباب المراهق من ملاك السيارات الخاصة تعرضهم لبعض الفتيات يدعونهن للركوب تحت شعار توصيلهن . وكنا نفهم معنى هذا فيستنكر بعضنا أو يمقت ما يرى وربما ضحك آخرون في سخرية ، وربما امتدت عيون تتابع ما يجري في غبطة أو حسد .

وأقسم غير حانثة أنني وأنا أشاهد ما أرى وأفهم معنى ما يجري من تعليقات زميلاتي كنت أشعر بالألم يعصر فؤادي . كنت أتساءل كيف يستقيم الظل والعود أعوج وكنت في سري أهيب بأبي أين أنت يا أبي لترى هذه المباذل في كليتك المختارة لمحافظتها وعظيم استقامتها .

وكان أدهى ما يدهيني أن لكليتنا مفتشة أوكل إليها مراقبة الفتيات فهي تتابع كل حركاتهن من أول خطوة يخطونها إلى الباب العمومي للكلية إلى آخر لحظة ينصرفن فيها إلى بيوتهن . ومن حقي أن أشهد أنه كان لا غبار على نشاطها وأنها كانت تتمتع بذكاء لا يعجز عن تفسير كل ما يجري بين عينيها ولكنها مع هذا كانت لا تتورع عن استغلال ما تفهم ! !

كانت ربما مالت على أذنها زميلة لتلفت نظرها إلى أخرى مستهترة فلا تزيد عن أن تواجهها

في ملامح صارمة لتقول : « إني وراء الفكرة .. سأحققها .. وسأضع لكل حد نهايته » ولكنها مع الأسف وبكل ما ثبت من حقائقها لا تتابع الفكرة إلا على ضوء مصالحها ولا تضع لنهايتها إلا الحد الذي يتناول جيبها .

ولقد قيل أنها اتهمت ذات يوم بتغافلها ولكن ثقة العميد ببراءتها وطهرها كانت لا تعادلها ثقة .

رأيتني أعيش على ضوء ما أرى في بيئة أشهد أنها كانت منحلة بصورة مقيتة لا تتفق مع ما شاع في سمعتها المحترمة في بيئات المحافظين ، وكنت آوي إلى غرفتي في المنزل الذي اختير لي بين عائلة اشتهرت بتدينها ولا حديث لنفسي إلا هذه المفارقات العجيبة التي يحتقرها كل من يعتز من أمثالي بتربيته العالية . وكنت أهمس لنفسي بأن كل من أشاهد من المستهترات لم ينشأن في بيوتهن النشأة الفاضلة التي نشأتها في بيتي طاهرة الذيل بعيدة عن فجور الحياة ومباذلها الحقيرة .

* * *

على هذا المنوال عشت أحتقر كل مشاهداتي المقيتة وألعن في سري كل استهتار لا يليق ببيئة علمية يشرفها أن تحيا فوق كل هذه المستويات .

على هذا المنوال عشت في الكلية إلى أن كان ذات يوم !.! ويا لهول ما كان ! !

لا بد لي قبل أن أبدأ قصة ما كان أن لا أنسى تقديم نفسي .. فقد كنت جميلة بشكل يثير الفتنة وعندما أقول أن جمالي يثير الفتنة أعني ما أقول دون غرور بدليل أني كنت لا أخطر بين زميلاتي وزملائي حتى تتبعني العيون في نهم لا يدانيه نهم .. كنت أتبين هذا النهم الجائع لا في عيون الزملاء وحدهم بل حتى زميلاتي يتمنين لو تشبع عيونهن من هذا الجمال الفاتن ولكني مع هذا كنت أكبر من أن أحفل بما أثير حولي .

كنت ألاحظ أن بعض الزملاء يستجمع قواه في إصرار ليبادرني تحية الصباح ولكن مع هذا تأبى ألفاظه إلا أن تلتات وتضطرب فلا أزيد على أن أحرك شفتي بصورة لا تكاد ترى كأني أرد تحيته وأنا أنظر نظرة عجلى إلى عضلات وجهه وهي ترتجف لا تحول بوجهي إلى كرسي في يدي أو إلى زميله تمد يدها لأصافحها بكبرياء وعجرفة لأني أعرف أنها ستزهو بين زميلاتها بأنها لمست يدي ! ! .

كانت متكبره وكنت متعجرفة وكنت أزهو في سري بما أرى لنفسي من مميزات التربية

العادية حتى جاء اليوم الذي طرق فيه باب غرفتي .

كـان طرقاً خفيفاً لا يكاد يستبين له صوت . ظننته أول ما سمعته طرق طفلة كانت لجيراني يلـذ لها أن تعاكسني ولكني ما كدت أفتح الباب حتي بادرتني قامة ممشوقة في محيا جذاب تطل منه عينان ساحرتان ..

لم يـتـقدم عن موقفه خطوة بل بادرني وهو يغضي بصره في حياء « هل تسمح الآنسة بإعارتي كتاب البلاغة أراجعه في ليلتي » .

درت عـلـى عـقبي أبحث عن الكتاب في خزانتي فإذا رعدة تهز جسدي ارتعشت لها يدي وأنا أتـنـاول الـكـتـاب . وما كدت أقدمه وأنا أضغط أعصابي حتى أولاني ظهره وهو يحيني في أدب جم .

أرعدة تهزني دون أن تكون لها أية مقدمات ؟

إنه محيا جذاب لا أشك في هذا .. ولكن من أنا ؟

ترى هل هنت علي نفسي إلى الحد الذي باتت فيه البادرة تهزني بهذه الصورة المريبة ؟ .

ثم من هو هذا ؟

أتراه من زملائي في الكلية ؟

لا أستبعد هذا وإلا فما حاجته إلى كتاب تدرسه الكلية ؟

ولكن أيكون لي زملاء بالكلية دون أن تقع عيني عليه قبل اليوم ؟

أتراه لا يعرف الكلية فابتكرها حيلة للقائي ؟ !

أسـئـلـة سـاورتـنـي وشرعت تتلاحق وتتوالد بشكل أثار القلق في نفسي فمنعني مذاكرتي .. مـرت الـسـاعات يأخذ بعضها برقاب بعض وأنا لا هم لي إلا أن أسأل وأعيد وأزيد ما أعيد حتى تمادى الليل دون أن يفتح لي بحرف في واجبات الغد فأزحت كرسي وأنا أهيب بنفسي : ما لي ولكل هذا وما علاقتي بشخص لا أعرفه إلا من حاجته إلى كتاب أعرته إياه .

وأخـذت سـمـتـي إلـى سريـري على أمل أن أستغرق فيا ينسيني ما كان .. ولكن الوساوس أبت إلا أن تطرد النوم عن أجفاني وتعيدني إلى خضم صاخب ! !

ترى من هو هذا ؟

أزميل هوفي الكلية ؟

إذن فلماذا لا أراه ؟

ألاعب هو يحتال لمواجهتي ؟

لا .. إنه زميل ! !

أتراه لا يملك مثل هذا الكتاب ؟

أتراه يملكه ولكنها لعبة الشباب ؟

أسئلة كانت تأبى إلا أن تتوالد وتتوالد .. وأن تطرد النوم عن أجفاني .

وأوشـكـت أن تحل الـسـاعـة الـتي تعودت أن أتناول فيها إفطاري وأتهيأ للخروج إلى الكلية فـسـاورتـنـي نـفـسـي أن أتباطأ في فراشي لأتاخر في خروجي فالكتاب لا بد أن يعود قبل موعد الكلية .

وما بي حاجة إلى الكتاب بقدر حاجتي إلى شيء أغالط في تفسيره بنفسي ..

لا شـيء أكثر من أن أعـرف هل للشاب علاقة بالكلية أم هو يدرس في منزله ؟ أم أن الأمر لا يعدو أسلوب شاب مفتون احتال للقائي .

أعـتـرف أنها أسئلة كان يجب أن تكون غير ذات موضوع لو استعار كتابي أي انسان عابر . فهل بدا في الأمر ما بدأ ؟ . بينا أتابع لأغالط نفسي وأبتكر لها ألف تفسير ..

ثم ما هذا الوجيب في قلبي ؟ تراه يعني أنني وقعت . . ؟

لا .. لا يجب أن يتمادى الأمر بي ولكن .. ! !

ولكن سأتباطأ رغم كل هذا لأعرف الجريء الذي استطاع أن يقتحم عليّ هدوئي ! !

وفي انتظار الجريء مرت الدقائق تأخذ برقاب بعضها حتى انتهت إلى ساعة زمنية و بدأ عقربها يتخطى الساعة إلى ربعها فنصفها وإذ بي مشدودة إلى الطرقه خلف الباب فلم يخفق صوت ينم عن طارق .

أتفوتني الحصص وأنا سجينة قلق لا أفهمه ؟ .. ما يمنعني أن أبادر الخروج إلى كليتي وإذا كان لا بد لي من فهم ما لا أتبينه ففي أروقة الكلية متسع لما أريد .

وما كدت أتخطى باب غرفتي حتى واجهتني الخادمة تلوح لي بالكتاب في يدها من أقصى الطريق تقول لي أن شاباً تركه هنا باسمك منذ ساعتين .

صعقت للمفاجأة وشعرت بدفقة ملتهبة تنبعث بين جوانحي فيتلظى بها سائر جسمي فلم أملك إلاّ أن أختطف كتابي من يدها وأتابع سيري ..

ووقفت عند باب الكلية في حساب مع نفسي .. ما معنى أن أعاني شيئاً لا أفهمه أو بالأصح لا أريد أن أفهمه وإلا أصبحت منذ اليوم رهينة أو شاب كنت أمقتها وأجدف على أصحابها وألاحقهم بمقتي .

ولكن هاتفاً في أعماقي كان يهتف بي أن لا أجد فتعة النظر إلى اللوحة الجميلة تقشع صدأ النفس وتفتح مغاليقها على معاني الحياة فتطرد السأم وتبدد أكثر ما تعاني من ملل العيش الرتيب .

و يهرب الصوت بي من جديد كوني حيوية فتقدير الجمال لا يعني التبذل والخطوة الوئيدة العاقلة لا تعني الإستهتار و براءة القصد لا تجر إلى وخيم العواقب إلا دنيئا التربية .

وإني لفي وقفتي وإذا بقامته الهيفاء تخطر من بعيد متجهة نحوي فاستمسكت رغم الرعشة التي انتابت مفاصلي وهزت كياني .. استمسكت بكل ما أملك من قوى خشية أن تنم حركاتي إذا واجهني عن مشاعر لا أرضاها لنفسي . ولكنه ما كاد ينتهي إلى مفترق في الصالة يفصله عني بنحو عشرة أمتار حتى لوح بيده يحييني وسألني هل تسلمت الكتاب ؟ وما كدت أوميء برأسي بالإيجاب حتى كان قد اختفى في الممر الجانبي من الصالة .

وقفت حيث أنا أحاسب نفسي .. كان الطلبة يمرون بي جيئة وذهاباً يشير بعضهم لي

بالتحية و يتغافل الآخرون كما لو كانوا يتصدقون على كبريائي بملامح جافية ولكنني كنت غائبة عن كل ما يجري .. تتقاذفني أفكار لها قوة الموج المتلاطم .

ماذا حدا بي فيما بدا ! ! ؟ أرهينة أنا منذ اليوم بما أمقت ؟ وإذا كنت أحسبني أستطيع أن أتعامى قبل اليوم عن بعض ما أنست فليس لي أن أتعامى اليوم عما يخفق في قلبي و يرتعش له كياني كما لو كنت ريشة لا تتمالك نفسها في مهب الريح .

أعاشقة أنا ؟ ؟ يا للهول ! !

أراغبة أنا وكنت أكبر على كل راغب ؟ ؟ يا للهوان ..

وإلى من تشدني هذه الرغبة ؟

أإلى شخص لا يدريني .. بل لا يهمه - فيما بدا منه - أن يدريني .. وإذا - درى فهل يجني كبريائي إلا المعرة وسوء السمعة وأن أصبح مضغة في أفواه كنت أمضغ سمعة أصحابها في سري .

اشتد الألم بي في وقفتي وكنت على عزم الدخول لأدرك بعض ما فاتني من حصص الدراسة فانقبض صدري دون ذلك ، وتخيلت الكلية بما فيها ومن فيها وحشاً كاسراً فغرفاه ليلتهمني فأوليتها ظهري ورحت أعدو بعيداً عنها .

ولم أمض طويلاً حتى استوقفتني أفكاري : « لم هذا التوتر ، وفيم هذه الحدة في أعصابي .. ما ذنب الكلية ، وما ذنب دراستي .. بل وما ذنب الأخ الذي لا يعرف شيئاً عن لواعجي . إنه لم يخطىء في حقي لأن مبلغ فهمه أن علاقته بي علاقة كتاب استعاره وأعاده ولا شيء غير هذا .

إذن عليّ أن أعود إلى كليتي أواصل دراستي وإذا خدمتني الصدف فما علي إلا أن أقف منه ومن نفسي موقف المستبين ! !

لم أحدد لنفسي نوع الإستبانة عندما استأنفت عودتي إلى الكلية ولكنني ما كدت أخطو وراء الباب حتى رأيت الطلبة من الجنسين منصرفين من المدرج ... رأيت بعضهم يتواكبون في زوايا الردهة المستطيلة يختلط فتيانهم بفتياتهم ويمضي آخرون إلى حديقة الكلية يفترشون عشبها جماعات وفرادى .

وقادتني قدماي إلى الحديقة على أمل أن يطفىء شذاها الرطب ما اشتعل بين جوانحي وما

كان في حسباني أن تخدمني الصدفة التي رجوت خدمتها فيما يجب أن أستبين من أمره وأمري .

كـانت قدماي تقودني في تثاقل بين ممرات الحديقة وإذا يد تمتد إلى كتفي فتهزه هزة حانية . التـفـت فـإذا سعاد زميلتي في الفصل تسألني فيم غيابي عن محاضرة اليوم فاعتذرت لها بدوار ألم برأسي منذ البارحة .

أخـذت بـيـدي تـربـت عليها وهي تعلل ما أصابني بإجهادي في المذاكرة وراحت تصف لي مشروباً يخفف من آلامي .

وامـتـد بـنـا السير بين الحقول التي غمرتها شمس الظهيرة فبدى النبات يلمع في وهجها المشع وبدت الأشجار الظليلة تمد أفياءها هنا وهناك يتواكب الطلبة والطالبات في ظلالها .

ورأيـتـنـي أمد بصري تلقائياً إلى حيث يتواكبون كمن يبحث بينهم عن أمل منشود .. كنت أنـكـر عـلـى نـفـسـي نشدان هذا الأمل ولكن القوة التي لا أعرف كنهها والتي قادت قدماي إلى الحديقة تأبى إلا أن تسوقني إلى مهب الريح .

وحـانـت مـنـي الـتـفـاتة إلى البعيد من حواشي الحديقة فإذا (هو) في حاشية منها يتفيأ ظل دوحـة عـالـيـة .. وإذا فتاتان تجلسان إليه في صورة لا تقرها قوانين الكلية ولا ترضاها لنفسها فتاة تقدر أنوثتها .

ودارت عـيـنـا زمـيـلـتـي فـإذا هي تلاحظ ما أرى .. وقبل أن تتلاقى عيناها بعيني كنت قد ألتفت إلى جهة أخرى غير الجهة لأبدو بعيدة عما تراءى لها ! !

قـالـت وهـي تـشـير إلـيـه وفـتـاتيه ما أغرب أمر الفتيات وهن يترامين على هذا الشاب .. إنه محـظـوظ بـصـورة لا تـبـلـغها نفثات ساحر .. إن الواحدة منهن أو الإثنتان لا يكادان يخليان سبيله حتى يقطع غيرهن عليه كل سبيل .

كانت ملاحظات تمر بأذني عابرة كما لو كنت لا أعرف لنفسي أية علاقة بما أسمع ولكنني ما كدت أخلو بنفسي بعد لحظات من وداع زميلتي حتى دار رأسي مرة أخرى ومشت في مفاصلي رعدة محمومة ..

أيـكـون نـصـيـبي منذ اليوم نصيب هذا النوع من المستهترات .. أنا التي عشت أترفع عن كل ظنة وأتحاشى كل ريبة وأتكبر على كل ريبة وأتكبر على كل من يلتمس قربي ؟

ولكن .. أأكون صريحة مع نفسي إذا ادعيت أنني أملك من القوة ما أستطيع بها أن أتحاشاه وأترفع عن مستواه وأربأ بنفسي بعيداً عن مجاله الآسر ! !

لا .. إنها أكذوبتي في الحياة .. وبت من ليلتي أهمس إلى نفسي آلاف الهواجس وأفترض لمآتي أيامي آلاف الفروض وليس لكل ما افترضت مخرج واحد يكفل صيانتي .

وطرأت الفكرة أخيراً على صوت طائرة كانت تحلق فوق العمارة التي أسكنها فتنفست ملء صدري .

وما غابت الشمس حتى كنت أحتل مقعدي في أول طائرة تغادر البلدة إلى مدينتي وأنا أهتف من أعمق أعماقي سلامي على كل علوم الدنيا أو يستقيم الظل .

بالطو .. للبيع !!

كان أبوه صناعي اليدين حاذقاً وكان كل هم هذا الأب أن يستوي من ابنه « فتحي » فتى يأخذ شكل هذا النوع الراقي في أثوابه النظيفة عائداً من المدرسة أو ذاهباً إليها .. يتأبط محافظه وأوراقه و يتخطر تخطر الذوات .. ملء العين والنفس .

واختار الأب أن يطلق عليه اسم « فتحي » لينسق بين اسمه و بين النتيجة التي انصرف همه لإعداده لها والبيئة الجديدة التي اعتمدها مدرجة له .

درج الولد بين الأوراق والمحافظ ، وتداخلت حياته في حياة المائسين في أثوابهم النظيفة من أولاد الذوات وساعدته رغبة أبيه الطاغية وعنايته بتذليل فوارق العيش رغم المعاناة فاستوى فتحي يخطر ملء العين والنفس في (بالطو) يلامس من الساق ما لا يحول دون لمعة أثوابه المتموجة في الجزء الظاهر تحت ذيل البالطو .

وجاءني الفتى يوم أمس ينعي وفاة أبيه ، و ينفض سيرته أمامي في لوعة الملتاث المضطرب .. و يرجو أن أرى له ، رأياً في هذا الإضطراب الذي لا يعرف كيف يوفق فيه بين فقره المدقع وهيئته التي ألف وجاهتها ، وأن أجد له حلاً يتفق مع الحيلة للعيش في حدود هذه الرشاقة .

قلت : أتعني أن أرشدك إلى مكان تجد فيه غايتك من العمل الرشيق .

قال : لا أرى لنفسي شيئاً معيناً بعد أن تركت الإختيار إليك في الحدود التي ذكرت .

قلت : لم تقيدني بالحدود التي ذكرت . إنني لا أتذوق هذا وليس يصح عندي تفويض تحدني فيه شروط .. ولكن لا علـيّ أن أترك هذا لأسألك : « ألم تجرب في حياتك أن تكون شجاعاً ؟ ؟ » .

قال : لست أفهم ما تعني .

قلت : إذا تصورتني أملك الآن حق تجريدك من هذا السمت الرشيق عليّ أن ـ أحلك محل

وجاهة « البالطو » سمتاً آخر يدمجك في رجال المهن العمليين ما دمت أصبحت في حاجة إلى ما يضمن عيشك فهل تغفر لي هذا ، وهل تجد في نفسك من الشجاعة ما يغريك بمصافحة الشارع والمضي في طريقه إلى بيتك متلبساً بهذه المخالفة . فما زاد على أن ضحك وشاعت في وجهه سخرية ناطقة .

قلت : إنها مأساة جيل كامل مثلت في شخصك صارخة بأوفى ما يكون الصراخ وستبقى هذه المأساة مستتبة على صدورنا ضاغطة على أفئدتنا حتى يزول آخر متعجرف فينا من الحياة ؟ ؟

قال : أتراني تعجرفت ؟ ؟

قلت : لا علاقة لي بتصرفات شخص بذاته إذا حمل وزر ما يتصرف .. لكنه يعنيني الوعي العام عندما تطويه الفكرة الخاطئة فيتطبع عليها ويمضي في اعتناقها مضي البوذيين لا يثنيهم المنطق ولا يردعهم ألف دليل من الواقع ؟ ؟ .

أنت تعرف أن في بلادك اليوم معاهد لعشرات المهن تفتح أبوابها لمن يتعلم ويعمل ، وهي إلى جانب هذا تنفحك ما يقضي على شكواك من الفقر .

يا ابن أخي .. عهدنا بالعلم غاية يتطلع الناس إليها بغية تفتيق أذهانهم على حقائق الحياة وتنويرها ، فما بالنا نلوي به ونجعل منه وسيلة لأهواء ومنازع لا ينتظمها عقل ، وطريقاً إلى وجاهة زائفة .

إذا تعلم الفتى وليس له من غرض إلا أن تستوى من ثقافته شخصية متعجرفة تأنف العمل وتأنف كل ما في معناه من المهن الحرة ، ثم حاربته الصدف قبل نهاية المطاف فلم تواته بالنتيجة التي يتطلع إليها فأية مأساة قلقة سيسلم نفسه أو يسلمه وليه إليها ، وأي هوة سيتردى في سحيقها ؟

إننا بهذه الوثيرة سنفتقد في أحد الأيام الأيادي العاملة جملة واحدة فلا نجدها ، وسنستقصي أثرها في مناحي الحياة ، فإذ أنا بها تتكتل عند أبواب الوظائف أو تتسكع في معاقل الذوات ، كما يتسكع السبهللا ، نفس في الرغام وأنف في الغمام .

أترى أننا في سبيل حفظ التوازن العام ، نسمو بالعلم إلى طبقة الأرستقراطيين فقط ونضرب

دونه نطاقاً يحول بين عامة الشعب وبينه ، فنترك الأمة مصابة في جهازها العصبي ؟ أم أننا نبيحه في الصورة الشائعة التي ترى فنحيل مجموع الأمة كاملاً إلى ذوات تميس بأثوابها اللامعة وتتخطر ملء العين والنفس دون أن تجد بينها اليد العاملة .

قال : إنه أمر ما أعددنا له عدته .

قلت : ليس في الأمر ما يدعو إلى العدة إلا إذا أردنا أن نكلف العلم غير حقيقته إننا نتكلف عندما نجعل الطراوة شرطاً من شروط التعليم ، ونتكلف عندما نسمو بالتعليم عن طبقة الممتهنين في أي صناعة مهما كانت رتبتها لأن العلم الذي يتأفف صاحبه من مزاولة أي مهنة تصادفه حقيق بأن يكون زيفاً نضلل به أعين الناس .

ولقد شهدت في غير بلادي من الشرق العربي نظماً خاصة تحدد للمتعلمين في المدارس أردية موحدة مصبوبة في قالب متفرنج فكنت أعجب بهذا التوحيد بقدر ما يسيئني في التحديد والتقرير .

وإني وإن كنت أعرف أن مقرري هذا التشريع أرادوا أن تتوحد الأمة في أحد الأيام في أزيائها وتشترك جميع طبقاتها في هذا الهندم الملفوف ، ولكني أعجب لمن وقفت به الدراسة في منتصف الطريق ونحوه ، قسراً ، لماذا لا يقنع بما ناله ثم ينقلب إلى أية مهنة تعرضه ما فوتته الظروف لينتفع بها وينفع أمته ، حتى المجلّين الذين أكملوا دراستهم ما يمنعهم إذا جد الجد أن يضعوا أيديهم في أية مهنة تصادفهم أو يصادفونها ؟

أترى أن العلم جنى علينا أم أن أسلوبنا في تلقينه كان وحده الجاني ؟ ؟ الواقع أن المدارس التي تعد ذهن الطالب لثقافة لا حد لسعتها كان عليها أن تعد روحه لفهم الحياة على حقيقتها وأن تهيمن على مناحي تفكيره فلا تتركه يعتقد أنه أليق بجانب في الحياة دون الجانب الآخر ، وأن ندس في واعيته الخفية أنه ليس في الطراوة ما يتفق مع شخصية جبارة تعتز برجولتها وتركب في سبيلها الصعاب وان اختيار السهل هو الحد الفاصل بين الإقبال من أصحاب العزم وبين المترددين من ضعفاء الرأي والإرادة .

إذا وقر هذا في نفس الطالب واندست معانيه في واعيته الخفية ، اندمج في هذه المعاني ودرج على تفسير الحياة في ضوئها تفسيراً يقر به من حقيقتها ويقوي أساره ضد كل فكرة ضالة فيها .

قال الفتى : هكذا تراني أشهد الله أني ضحية هذه الثقافة التي أعدت ذهني ولم تلمس روحي أو تهيمن على مناحي تفكيري .. وبمعنى أكثر اختصاراً مما أسلفت أني ضحية الثقافة التي لم تورثني غير « بالطو » سأسخو به في الغد لأول زبون .

قلت : بل هكذا تنتهي حيث بدأنا .. إن مأساتك مأساة جيل كامل ، وستبقى هذه المأساة مستتبة على صدورنا أو ، نرتقق الفتق ونصل أسباب العلم بأسباب الحياة .

يــارب

دلج يهبط (الدّحادير) من جبل الفلق حتى انتهى إلى بيت الشيخ (البناني) فلمح الشيخ يتكفأ في لحيته الوقور مستنداً على عصاه الغليظة وسمعه يترنم : « إلهي أصبحت أشهدك وأشهد ملائكتك بأنك أنت الله » .

ومضت به الجادة إلى قرارة المدحى (برحة القرارة) فلاحت له خيوط الفجر تلمع فيما يحاذي (أبي قبيس) وترسل شعاعها على سطح المنازل المتزاحمة على اكتاف الروابي البعيدة ، وصافح أذنه صوت المؤذن يرسل ترتيله في صوت شجيّ ، فندت عن صدره أنة مكتومة : (يا رب) .

كان نداء حاراً أودعه كل آلامه ، وترك نفسه تسيل في جرسه صاعدة إلى مولاه في تبتل ورجاء : (يا رب) .

* * *

كان شاباً ضاقت به الحياة ، واصطلحت عليه أسباب الفقر ، وكان المخاض يومها قد فاجأ زوجه المسكينة فلم يجد في بيته ما يوقد ذبالة ، فترك زوجه لأمه العجوز وانتقل هارباً يشكو إلى الله في آهات صادرة عن قلب كسير .

وأسلمه الطريق إلى (باب الدّريبة) من المسجد الحرام فرأى خطواته تسبقه إلى مزدحم الحجاج في عرصة بئر زمزم وما كان يخطو بين المزدحمين حتى لمست رجله شيئاً ما كاد يتناوله حتى تبين فيه هميانا محشواً بأوراق النقد فامتدت به يده إلى جيبه في حركة لا شعورية .

ولم تمض ثوان حتى راعه صوت حاج يصرخ في توجع باحثاً عن (هميانه) ورآه يلطم خده بكلتا يديه فأخذت الشفقة طريقها إلى قلبه ورأى نفسه يتقدم إلى الحاج ليسلمه (الهميان) .

تسلم الحاج ضالته في لهفة الملتاع ، وما زاد على أن شكره بكلمة مقتضبة ، ثم أداره إلى الطريق في صفاقة كمن يدله على سبيله فيها دون أن يجزيه درهماً واحداً .

فانطلق إلى مصلاه في المسجد بانكسار وهو يناجي مولاه في أعمق أعماق سره : (يا رب) .

وعاد إلى بيته يحمل نصف أحزان الأرض فما انتهى إليه حتى أشرف عليه من نافذتها قريب له معروف بالسعة والجود .. عرف أنه هبط عليهم الساعة من سفر له طويل وأنه أدرك حاجة من في البيت ، فأمدهم بكل ما يحتاجون ، فندب عن صدره آهة مكتومة : (يا رب) .

* * *

وأخذت شهور العام بعضها برقاب بعض حتى ندبه قريبة في مهمة له تجارية إلى بعض بلاد الشرق الأوسط ، فمضى فيما ندب له حتى حط رحله في إحدى الليالي في بلدة لا يعرف فيها أحداً . وأنه لفي طريقه إلى أحد الفنادق إذ صادفه مسجد فتذكر أنه لم يؤد مكتوبة العشاء الأخيرة ، فتأبط حقيبته ومضى إلى المسجد ، وكان قد غادره المصلون إلا شخصين كانا يتناجيان في همس إلى إحدى سواريه فخطا نحو القبلة وشرع يصلي .

ويبدو أن خشوعه في صلاته المطمئنة لفتت أنظار المتهامسين إليه لأنه ما كاد يسلم من صلاته حتى تقدم أحدهما إليه ليبادره في أسلوب رقيق الحاشية .

ـ حضرتكم غريب في هذا البلد كما أعتقد .

ـ نعم .

ـ لقد تفتحت نفسي لك أول ما رأيتك . ولا عجب فقد تجلى لي في صلاتك روح التقوى والورع اللتين نفتقدهما في كثير من المصلين لهذا رأيتني أتمنى لو أفاتحك في أمر ذي بال ليس من السهل أن أفاتح فيه إلا من كان له مثل هذه السجايا الممتازة .

ـ أقدر لك حسن ظنك . ويسرني أن أسمع ما عندك .

ـ ما عندي هو المصلحة الكاملة التي أود أن أبرك بها كهدية يستاهلها مثلك .
فما قولك في عروس نجليها لك الليلة لتدخل عليها بكتاب شرعي حتى إذا طلقتموها عند الصباح وغادرتم البلاد بعد أن ننقدكم فوق هذا جعلاً يرضيكم ؟

أدهشته المفاجأة ، وبدا على محياه عجزه عن فهم الغرض من الموضوع ، فأوضح الرجل له في

صراحة ما خفي عنه وهو يقول :

إن صديقي هذا هو الذي تراه وقع عليه يمين بات من زوجته ، وإننا نرجو حل الإشكال عندك في عقد شرعي يبيح لك من المرأة ما يحللها لزوجها الأول .

استبان له الأمر واضحاً .. علم أنه سيندب للأمر كتيس مستعار ، فكبر عليه الأمر ، ولكنه ما كاد يرفع رأسه ليعلن الرفض حتى حانت منه التفاتة رأى فيها صاحبه الحاج بطل (الهيمان) في عرصة بئر زمزم يوم ربت على كتفه وأداره إلى الطريق في صفاقة كأنما يدله على سبيله فيها دون أن يجزيه درهماً واحداً إذن هو اليوم صاحب الزوجة التي يريد تحليلها ، فما يمنعه أن يعطيه وكل المحللين من أمثاله درساً لا ينسى .

شجعه على ما نوى شعوره بأنه أمام غريم (الهيمان) بالأمس ، لم يتبين شخصه ولم يذكر ما كان من شأنهما في المسجد ، فلم يتمالك أن يمد يده إعلاناً بالقبول .

وقبل أن تبزغ تباشير الصباح كان عملاؤه بالأمس يستصرخونه لينجز الطلاق الذي وعد البارحة فخطا نحو صاحبه في هدوء ، وأخذ يربت على كتفه و يديره إلى الطريق كمن يدله على سبيله فيها وهو يقول : إنها زوجي يا صاحبي وليس من العقل أن تطلباني طلاق زوجي .

قصة جديدة

كانت الشمس قد أوفت على الاستواء ترسل أشعتها من خلال الغمائم المتكاثفة فاترة هزيلة وكانت رؤوس الجبال على جنبات الوادي تبدو حالكة السواد طاعنة في الفضاء بقرونها في خيلاء وزهو.

وكنت ترى في زاوية من الأفق من ناحية الشرق بقعاً أرجوانية تلمع في صفحة السماء كأنها بحيرات صغيرة تصطفق فيها أمواج من الدم .

وكان الدخان الساطع من المنازل الريفية المتناثرة فوق النجود الصغيرة المجللة بأشجار التوت والإثل يتلوى قبل أن يسامت رؤوس الجبال وتنعقد حواشيه في غمائم رقيقة شفافة .

وكانت النغارى تشب وتنتقل مغردة في ثنايا الوادي بين شطئان وخلجان تتعرج وتندغم وتنبسط تكتنفها عرائش العنب وأشجار الرمان والخوخ بينما تنحدر أمواج من السيل في أخاديد كأنها الشلالات ثم تعرج وتلتوي بين الغياض والبساتين والمروج .

وكان سالم ينحدر بانحدار الأخاديد مأخوذاً بهذا الجمال الفاتن حتى إذا ـ انتهى إلى ساقية مهجورة على كثب من الأخدود طاب له أن يأخذ مقعده على طرف من بنيانها المتهدم .

ولاحت منه التفاتة نحو أقرب الآكام إليه فإذا « مزينة » تشرف عليه هابطة من بعض معارجها في قوامها الغض وثوبها الفضفاض وعينيها المتوقدتين حماساً وذكاء فلم يملك إلا أن يقف ليحييها ويمهد لجلوسها فوق بعض الأخشاب المهملة أمامه فتهالكت عليها في شبه إعياء .

وندت منه زفرة مكتومة فالتفتت إليه وقد أدركها شيء من القلق ورأت نفسها تسأله في حنان ورفق :

ـ أتتألم ؟

ـ لا أتألم ولكنني أفكر !

ـ فيم تفكر ؟

ـ يذكرون هنا أنك كنت أستاذه في بعض مدارسنا العالية قبل أن تجتذبك هذه القرى بين جبال الطائف لتعملي فيها كمزارعة فيما ورثت من مخلفات أجدادك وهم يلاحظون عليك ألواناً من الشذوذ يرون أنه لا يتفق مع حظك الواسع في المعرفة و يغالي بعضهم فيتهمك بالجنون . ولا أكذبك أني بت لا يشغلني شيء ما يشغلني دوام التفكير في شأنك وما ينالني من غريب تصرفاتك حتى كدت ـ ولا تؤاخذيني ـ أن أميل بميلهم .

ـ وتسميني مجنونة ؟

ـ نعم .. ومرة أخرى أرجو أن لا تؤاخذيني .

ـ ألديك فكرة صحيحة عن الجنون !

ـ أبداً .. فالمسألة بالنسبة لي وأمثالي لا أكثر من تواطؤ تواضع عليه الناس .. هناك تصرفات شذت على قواعد الحياة فدلت على خلط أو دخل في القوى العاقلة اتفق الناس على وسمها بالجنون ..

ـ أتعني أن الحياة سنت لنفسها قواعد أم أن شيئاً آخر غير الحياة سن لها ذلك .

ـ ليست الحياة عاقلة فتنظم لنفسها وإنما هم أبناء الحياة . أو إن شئت صفوتها منهم .. تواطؤوا على تنظيم الحياة ضمن حدود لا يخرج عليها إلا شاذ أو مدخول .. و بالإختصار مجنون ! !

ـ وأنت هل تزكي كل ماتواطأ عليه الناس ؟

ـ لم أقل هذا ..

ـ أتقول أنه إذا تواطأ الناس على ما يسمونه بالجنون فأنت تخالفهم ؟

ـ ولم أقل هذا !

ـ أرجو تحديد ما تقول .

ـ إذا تواطأ الناس على مثل ففيه ما يحتمل الصواب والخطأ .

ـ وأنت شخصياً تحكم بما يحتمل الصواب والخطأ .

ـ لم أقل هذا .

ـ أرجو تحديد ما تقول .

ـ لا أريد أن أحدد شيئاً ولا أن أقول شيئاً وإلا ضعت معك في متاهات لا نهاية لها .

ـ وتريد أن تسمع .

ـ سأسمع وذلك شأني كلما جلست إليك .

ـ إذا وضع الحكيم العاقل نواة قاعدة في الحياة فالمفروض أنه يستوحي حكمته .. فما هي حكمته هذه ؟ .. إنها قواه العقلية متأثرة بمجموعة كبيرة من عوامل محيطة فعباد البقر والبوذيين وهمج الأمم البدائية فيهم حكماء يشرعون لأممهم قواعد في الحياة يستوحون فيها من سخافات محيطهم .. ومع هذا فهي قواعد ، وهي سنن في الحياة وهي نظم لها رعايتها .

فإذا كنت فيهم فهل من رأيك الخروج عليهم فيها أو متابعتهم فيما يسنون .

إن كنت الأول فأنت مارق خارج مجنون ، وإن كنت الثاني فأنت مدسوس على نفسك مغبون لغيرك .

في الهند جماعة يذبحون البقرة وآخرون يقفون مذهولين يسأل بعضهم بعضاً ما يمنع الجبال أن تميد والأرض أن تبيد بهذا النفر الطاغي الذي يذبح الآلهة و يطعم منها أهله وأولاده .

هذان خصمان عاشا في بلد واحد ونهلا العلم أو الجهل من معين واحد وأترع كل جانب منهما بالحكماء والمشرعين والعقلاء فما منع الحكمة أن تجمعهما على حقيقة واحدة . لا شيء سوى أن العاقل لا يستوحي حكمته إلا متأثرة بالعوامل الفعالة الشائعة في بيئته الخاصة ولو لم يكن هذا لكان أبناء الحياة على غير هذا النحو ـ « لو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة » .

إنـي لا أزكـي نفسـي .. لا أزكيها لأني إذا كنت أعقل بعض المفاهيم وأجدف على بعضها فإني لا أزال رغم ذلك متأثرة بأكثر من عوامل أحاطت تربيتي ونشأتي .. وها أنت ذا تراني مثلك إلى حد ما عبدة لكثير مثلك إلى حد ما عبدة لكثير مما أحاط بي و ينكره عقلي .

ومع هـذا فـإذا رأيتني في نظر غيرك أشذ على بعض القواعد العامة فكن أثبت من أن تجاري التـيـار وأخلـص مـرة واحـدة مـن مـؤثراتك المحيطة لتستطيع أن تراني على حقيقتي بعينك المجردة وتحكم في شأني بغير عقلك المشوب ! !

ـ قـال : وقد اعتدل في جلسته يواجهها : لقد قيل في شأنك ما قيل فذكرت أني كدت أميل بميلهم ولكني لم أفعل بعد على أمل أن يكون لي رأي خاص في تصرفاتك .

ـ قـالـت وإذا أردتـني أن أفرغ من أمر القواعد المرتجلة التي دشنها من سميناهم عقلاء وكانت كـل أخطـائـهـم لا تـتـجـاوز أنهم كـانوا متأثرين بعوامل محيطهم أما رأيك في بعض الطغام من أصحـاب الرأي الفطير والفكر الفسل تناولواالحياة بحكم منازلهم فيها من الجاه أو السلطة أو الثراء فـأوسـعـوهـا نـظماً وقواعد وخلقوا لنا فيها أرتالاً من التقاليد والأعراف تطغى مئات المرات على ما سنته العقول المرتجلة .

بـكـل هـذه الأرتـال انـتظمت الحياة وأصبحت بمرور الحقوب والأجيال قواعد لها حكمها ولها قـدسـيتهـا وحـرمتهـا رغـم ما فيها من آراء خطيرة كما أصبح الخروج عليها شذوذاً أو إن شئت فسمه جنوناً ! !

ـ وما شأن الطغام من هذا النوع بالتقنين يقتحمونه .

ـ أنـه شـأن الـنـاس قـبـل أن يـكـون شـأن الـطغام .. فالناس في كل زمان جبلوا على تقدير خـاصتهـم مـن أصحـاب المكانة والجاه والثراء يلتمسون الحيلة بضعفهم أمامهم .. يلتمسون شتى وسـائـل الإغـراء والتزلف فيتركون أمثال هذه المخلوقات تنسى لمجرد علو كعبها عن مستوى الأرض أنهـا محـاطـة بالزيف والكذب وجعلوها تنسى جهلها وتمضي في شططها مطلقة العنان مقدسة في كـل ما ترى عظيمة في كل ما تشير وأغراها التقديس والتعظيم فأمعنت في الغلو بنفسها وانساقت وراء الهوى تـقـتـحـم صفوف الفلاسفة وتضرب في بيداء المتكلمين تلفظ الكلمة ليرتفع لها ألف صوت وتقول الرأي فتعنو له ألوف الجباه .

وتـواتـي الحـيـاة بـعض ما تواتيه وتقلب ظهر المجن لمن تقلبه لهم فيعفي التاريخ ما أعفته الحياة ويـواتـي مـا واتـتـه فـيرهف التاريخ أقلامه ليسجل من عبثهم حكماً ومن آرائهم الخطيرة قواعد لا تـلـبـث أن تحتضنها الأجيال ويتوارثها الأحفاد كما يتوارثون كل مقدس لا يخرج عليه إلا مارق أو مجنون .

ـ لشد ما تتجنين على التاريخ .

ـ في سبيل الشيطان ألوف المجلدات مما زور التاريخ وزيف بجانب القليل والقليل جداً الذي كان نزيهاً في نقله .

ترى ماذا كان يفعل التاريخ بهتلر لو أن الحياة شايعته يوماً واحداً على أبواب العلمين وتركت جيوشه تمضي في فتوحاتها إلى نهاية الحرب .

أتظن صفحة واحدة مما تخرجه مطابع أوروبا كانت تكون خالية من ذكر أمجاده والثناء عليه بشتى النعوت .

مع هذا فليس هو اليوم أكثر من مجموعة مثالب سيظل التاريخ يتلكأ في ترديدها حتى يغمرها النسيان فيطويها كما تطوى اللجة أقذار الشاطىء .

قالت هذا وهي ترتفق سياج الساقية ثم ما لبثت أن مالت بعنقها على كتفها فبانت سحنتها أشبه ما تكون بسحنة المريض في وجه ضامر كأنما دهمه داهم مفاجىء فانكفأ لونه وانطبعت آثار الجهامة على جبينها العالي والذبول على شفتيها الرقيقتين وخدها الأسجح الجميل ثم حجبت وجهها بطرف خمارها وتحاملت على نفسها حتى وقفت لتوليه ظهرها وهي تنحدر بانحدار الأكمة دون أن تلتفت إلى ندائه خلفها .

خالتي كدرجان

لم يكن اسمها « كدرجان » ولكنه لقب وسترثي لها إذا عرفت كيف غلب عليها وأصبحت لا تنادى إلا به .

وإذا كان سنها قد زاد على الخمسين في نظر بعض جاراتها فإن بعضهن يؤكدن أنها أكبر سناً من عم عيدروس بائع الزرنباك المتجول ويؤكد هذا عيدروس نفسه فيقول أنها كانت تلبس (القنعة) يوم كنت طفلاً أقراء في كتاب المغربي بجوار بيت أمها فهي في نظره لا تقل عن سن الستين إلا بعامين أو ثلاثة .

أما خالتي كدرجان فلا تعني بكل هذا .. إن حساب السنوات في نظرها دوشة أنها تذكر أنها تعرف سنة السيل الكبير وهي صغيرة وأنها شافت الفيل في مكة وهي صغيرة وأنها حضرت زينة الشريف وهي صغيرة فإذا قيل لها أن بين هذه الحوادث سنوات طويلة صكت وجهها وهي تقول (وصامني) أنا هادي الدوشة تقلق رأسي إنها في نظر نفسها لم تتجاوز الثلاثين إلا من سنوات نسيت عددها تقول هذا في تصميم قاطع وتزيد فتؤكد لك بهندامها وهي تخطر بين فسحة الديوان الذي تسكنه وباب الجنينة الصغيرة التي جعلت منها مطبخاً يطرقع القبقاب في رجلها وهي تتهادى في دلال الفتاة ذات العشرين .

كنا يومذاك صبية نلعب الغميمه بين ملاوي زقاقنا وكنت شخصياً صاحب دل عليها فلا يحلو لي أن أختبيء إذا احتدم اللعب إلا في بيتها وكانت لفرط حنوها إذ رأتني هارعاً إليها وأنا ألهث ظننتني خائفاً ممن يطاردني ليضربني فتشير لي بيدها إلى الكنبة التي تتصدر الديوان لأختبيء تحتها خلف السجاف فإذا أفرخ روعي تسللت على أطراف أصابعي فكانت إذا رأتني تقف لتمنعني الخروج .

ـ كم مرة يا واد .. قلت لك لا تخلي البزورة يتلموا عليك هادول أشقياء وأنت صغير وهي لسذاجتها لا تدري أنها طبيعة اللعبة وأن المغموم يجب أن يهتدي إلى مخابيء المندسين أو أحدهم ليصبح فيه الدست كنت ألاحظ أن خالتي كدرجان تعنى كثيراً بمكحلتها وهي تحتفظ بجانب المكحلة بعلبة صغيرة أراها كثيراً ماتمد يدها إليها لتتناول منها بإصبعها شيئاً تدعكه بين يديها ثم

تغشي به وجهها فكنت لا أعلق شيئاً على ما تفعل .

وكنت كثيراً ما أراها تجلس إلى (نصبة) الشاهي وقد فرغت منه فتزيح التبسي والفناجين وتركز في مكانهم فوق كرسي النصبة مرآة ثم تأخذ بيدها مقصاً تمر به على شعر رأسها فتلتقط به شعرة من هنا وأخرى من هناك بيضاء ناصعة وكانت لفرط استخفافها بي كطفل ترجوني أن أساعدها بالنظر في شعرها فإذا لمحت شعرة بيضاء دفعت المقص لإلتقاطها فكنت أتحدث إلى أمي في بعض الأمسيات التي تجتمع فيها مع الجارات فكن يتضاحكن و يتغامزن وربما تأوهت إحداهن في مرارة وقالت أنها مسكينة فيمصمصن شفاههن و يبادلنها القول أنها مسكينة .

كنت لا أفهم وجهاً لهذه المسكنة وهذا التوجع الذي يبدينه تعليقاً على خالتي كدرجان وكان يخيل إليّ أنها أكثر رقة (وأحلى معاملة من كل جاراتنا بما فيهم أمي وكنت ألاحظ من عنايتها بنفسها و بالناس ما لا أجد له مثيلاً بين كل الجارات اللاتي أغشى منازلهن كان مسكنها على صغره نظيفاً بشكل يسترعي الإنتباه وكانت مساند الكنبة التي تستقبل عليها ضيوفها محلاة بالترتر البراق ومخداتها في وسط الكنبة مطرزة بأشجار يلمع فيها اللازوردي والأصفر وفي حواشيها سطور كان يروقني شكلها وإن كنت لا أحسن إلا قراءة ـ كلمة (آه) بين مقاطعها .

كانت تخدم بيتها وهي في أحلى زينتها تلبس الكرته من قماش رقيق شفاف وتعقد شعرها بمشط تلمع فيه الفصوص أما الشبشب الذي تتهادى به في خيلاء فكأنه لم يلبس في رجلها إلا من يومه وكنت ألاحظها وهي مغمورة في خدمتها رشيقة أكثر مما تعودت في بيتنا وفي جميع بيوت الجيران حولنا فهي لا تتناول الأشياء إلا بأطراف أصابعها فكنت كلما نقلت هذا إلى أمي وهي في مجمع من جاراتها لا يروعني ألا توجعهن لخالتي كدرجان ومصمصة شفاههن وهن يرددن مسكينة يا ولدي .. قول يا لطيف .

ولا أذكر في ذلك السن الغرير ـ أنه كان يعنيني من أمر خالتي كدرجان شيء كما ينبغي أن أوفق بين هذه الحياة الناعمة الرشيقة التي كانت تحياها خالتي كدرجان وتتألق في عيني كطفل و بين هذا التوجع الذي ألاحظه على أمي وجاراتها كلما مر بينهم ذكراها ومرت السنون طويلة مملة توفت أثناءها أمي ولحقت بها أكثر جاراتها ووجدتني أشب عن الطوق فأمنع نفسي عن ديوان خالتي كدرجان مسرح لعبي أيام الطفولة فلم أعد أسمع عنها شيئاً ثم بلغني أنها أصيبت في بعض أيامها بلوثة في عقلها فانتقلت إلى بيت بعض قريباتها وأنها ما لبثت أن توفت بمرضها .

انتهى خبرها إلي من عجوز كانت البقية الباقية من جارات أمي امتد بها العمر إلى عهد

متأخر فاستحلفتها لتخبرني قصة خالتي كدرجان التي كانوا يأسون لها و يتوجعون لحالها رغم الحياة الناعمة التي كانت تحياها ففهمت الكثير الذي كنت أعجز عن تعليله . شبت خالتي « كدرجان » في كنف والدها هيفاء في جمال مفرط وكانت تعيش وإياه في هذا البيت الكبير وحدها لأنها فقدت والدتها وهي في سن الرضاع ثم فقدت أختها وهي يافع ولم يبق من عائلتها غير أبيها الذي كانت تشرف على سائر خدماته وكان بدوره يدللها و يؤمن لها جميع رغباتها .

كان الوالد شيخاً تقدمت به السن وكان ثرياً من ذوي الأملاك وكان يسكن وإياها في هذا القصر وهو من بعض أملاكه عندما كان يافعاً يتألق ماء الشباب في محياها الفاتن .

واشتد الطلب على يدها فلم يوافق الوالد على زواجها بدعوى أنه « وحدة وحيلة » وأنها تشيل كبرته ولكن العالمين ببواطن الأمور كانوا يعرفون أنه يخشى أن تنتقل أمواله إلى يد أجنبية .

عاشت الفتاة في بيت أبيها منطوية على خدمته ولم يطل ذلك كثيراً فقد وافاه الأجل وهي لما تزل في ميعة صباها فما كادت تنتهي أيام المآتم حتى تقدم ليدها ابن عمها وكان يحتل بعد أبيها مقام الوصي عليها ولكنها أبت قبول يده فهو والد لا تراب في مثل سنها ولما أصر تشبثت عند رفضها في عناد .

وجازاها بعناد مثله إذ رفض باعتباره وصياً عليها كل يد يتقدم لخطبتها كان يخترع لكل خطيب عيباً يستند عليه في الرفض حتى استطاع أن يحكم عليها لتعيش عانساً في بيتها .

لقد كان رزقها مكفولاً من حصتها في أملاك أبيها ولكنها مع هذا عاشت فارغة تتطلع ككل فتاة إلى من يملأ فؤادها وتحلم بالفارس الجميل حتى في أوقات يقظتها .

ولما طال انتظارها عبثاً اتسع القصر الذي تسكنه على وحدتها القاسية فانتقلت ببعض أثاثها إلى الديوان في أسفل طبقة منه وعرضت الباقي للإيجار وعاشت تتجرع غصة وحدتها .

ومضت بها الأيام قبل أن تستيقظ ذات صباح على من يطرق الباب كانوا ضيوفاً من أندونيسيا قدموا إلى الحج من عامهم ذلك رجلاً وامرأتين يحملون إليها رسالة من بعض أقرباء أبيها فاستقبلتهم في لثام رقيق على عادة نساء مكة في استقبال الحجاج اعتماداً على الثقة فيهم كحجاج و بعد أن تناولوا تحتيهم قهوة أو شاياً شعرت أن عين الشاب تسارقها النظر في لهفة فلم تعلق كثيراً على هذا رغم أنها أنست ارتياحاً واستطاعت أن تغافله لتنام عدة ثوان بين أهدابه .

ولم تمضى إلا ساعات بعد وداع الضيوف حتى طرق الباب فتستقبل في هذه المرة شيخة الحجاج جاءت لتنقل إليها رغبة ضيوفها في طلب يدها لابنهم الشاب الذي كان يصحبهم في زيارتها قبل ساعات وصادف الحديث هوى في نفس فتاتنا فاتسع وتشعبت وجوهه وكان لا بد أن يتداعى إلى قصة ابن العم الذي يمثل الوصاية عليها و يحاول بشتى الوسائل ألا يتم لها قران .

ولكن الشيخة كانت شيخة في صرامتها فقد أهابت بها وهي تودعها شوفي يا بنتي الولد بعد الحج يسافر بلده مع أمه وأخته اللي شفتيهم يأخذ رضا أبوه و يأخذ اللي فيه النصيب عاشان المهر واللي منه و يجيكي راجع أبوه يبغاه يدرس هنا و يبغاه يكمل دينه و يربط رجله .. لا تقولي ولد عمك يرضى ما يرضى .. انت موصغيرة اخطفي رجلك أنت وهوبعدين وعلى بيت القاضي يعقد لكم ما دام انتي راضية ومنت قاصرة ها .. ؟ اتفقنا .

ـ اللي تشوفيه .

ـ يعني خلاص ؟ ؟

ـ زي ما تقولي أصله انتي زي أمي !

وقضي موسم الحج وأقلعت آخر باخرة للأندونيسيين عائدة بهم إلى بلادهم فعاشت تحصي العام الجديد في أعصاب متوترة لا تعرف القرار أنها فرصة العمر سوف لا أتركها تضيع من يدي .. لا قيمة للصداق عندي قل أو أكثر ما أعظم ستي الشيخة وما أعظم أفكارها سوف أصحبه إلى بيت القاضي وأقرر موافقتي من أول يوم يطرق فيه بابي ما أحلى أن أجد إنساناً يملأ فراغ بيتي بعد طول هذه السنين لك الرحمة يا أبي فقد قيدتني في حياتك لأفكارك الخاصة وأسلمتني بعدك لهذه الوحدة المريرة وأبحت للنذل ابن أخيك أن يقيدني لمنفعته الشخصية و يضيف إلى السلسلة أقفالاً جديدة .. سأحطم هذه السلسلة مهما كانت متانتها .. فتعال .. تعال يا رفيق روحي ليتك تسمعني ! !

ولكنه لم يسمعها فيما يبدو وقد أهلت أول باخرة تقل الأندونيسيين إلى جدة في العام الجديد ثم تقاطرت بعدها البواخر دون أن تسمع خبراً وانتهى الموسم وتلاه آخر وآخر وفتاتنا تنتظر دون أن تفقد الأمل وحاولت أن تعرف رأي الشيخة فيما سبب هذا الغياب ولكن أين هي الشيخة لقد كانت زيارتها بيضة الديك لم تتكرر بعدها وقد فاتها لفرط دهشتها يوم أن زارتها أن تعرف اسمها وعنوان سكنها ومع هذا فهي لم تفقد الأمل .

وظلت فتاتنا تعيش على هذا الأمل سنوات وسنوات تسللت الكهولة أثناءها إلى محياها الوسيم وظهرت آثارها فيما تغضن من وجنتيها ولكنها تأبى رغم ذلك أن تعترف بما تقدم من سنها ظلت تعيش في أحلام اليقظة تترقبه في كل حركة يخفق بها الزقاق الطويل وتصيح بسمعها لكل طارق ولو على أبواب جيرانها خشية يكون قد ضل سبيله إلى بابها وهي لهذا دائمة الزينة تتناول أعمالها في خدمة البيت بأطراف أصابعها في رشاقة العروس المجلوة من ليلتها .

وتضحك جاراتها لما تتكلف من الأناقة في غير مناسبتها و بما لا يليق من تقدم سنها فأما العارفات منهن بدقائق النفس كنتيجة للتجمل فيرثين لها و يجدفن باللوم على أبيها الذي هيأها لمثل هذا الهوس .. أما البدائيات فحسبهن ما يجدن في سيرتها من مفارقات تغري بالسخرية منها .. وهن لهذا يطلقن عليها خالتي كدرجان » .

أخطأ العفريت ولم أخطئ !!

هالتها آلام الرضوض في رجلي ، وساءها مرور الأيام طويلة دون أن تبدر للشفاء بادره ، أو يظهر في رجلي ما يدل على تحسن حالتها فقالت :

ـ يعني أنت ليش ما تستعقد ؟

ـ في أيش استعقد ؟

ـ لازم تعرف أن الطبة ما تسوي في رجلك هذا الحال كله !

ـ ولكنها سوت زي مانت شايفه

ـ ما سوتها الطبة لوحدها !

ـ أجل في شي تاني غير الطبة سواها معها ؟ ؟

ـ أنت بنفسك فكر ؟

ـ وإذا كان فكري ما يصلح .. ليش اللي زيك ما ينفعني بفكره ؟ ؟

ـ أنت ما تستعقد !

ـ يعني رجعنا « للإستعقاد » حقك هاذا .. مرة ثانية ؟ ؟

ـ نعم أنت رحت الأشعة واتعالجت عند الدكتور ، وجبت الجبر في البيت عشر مرات تقدر تقول لي أيش سوى .. ما دام يقولوا الوجع كباس ؟ ؟ والعافية نسناس ؟ ؟

ـ لا يا سيدي تقدر تسوي كل شيء .. لكنك ما تستعقد .

ـ يعني احنا يرضنا في هذا الإستعقاد اللي ما انت راضية تبينيه .

ـ أنا أبيته .. لكن أنت رجال تتريق وتسويني مضحكة .

ـ لا .. في هذي المرة منت مضحكة بس بيني لي الهرجة إلي يمش عليها الجمل .

ـ وماذا تضحك علي ؟ ؟

ـ إذا كان هرجك مضبوط .. ليش أضحك ؟ ؟

ـ هيه .. باين تبغي تضحك علي .

ـ أجل أنت عارفة هرجك مو مظبوط ؟

ـ لا .. يمكن مظبوط .

ـ يمكن و .. ؟ يمكن بس ؟ ؟ سار انت شاكه في هرجك بنفسك ؟

ـ لا .. ماني شاكه هيا اسمع ! ! انت تدري طحت على مين ؟ ؟ .

ـ أنا . أنا طحت على مين ؟

ـ أيوه .. أنت طحت على مين ؟

ـ هو دا سؤال ؟ طحت على مين ؟ ..

أنا يا ستي طحت على حجر ! !

ـ هه .. هادي هي قلة الإستعقاد .

ـ طيب والإستعقاد أيش يقول ؟ يجيب لي الإستعقاد شيء من الخيال .. و يقول لي أنت طحت بالغصيبة عليه .

ـ لا مو كده .. انت تقدر تقولي طحت على شيء ما شفته .

ـ يعني طحت على شيء صغير ما ينشاف ؟ على كده هذا الصغير ما يعورني .. أما الحجر اللي شفته هو اللي صحيح يعور .

ـ برضك ما أنت راضي تستعقد .

ـ يا ستي والله استعقد .. بس هاتي فهميني شيء أستعقده .

ـ يعني انت ما تعرف أن الأرض فيها عمار ؟

ـ يعني من الجن ؟ ؟

ـ أيوه من الجن .

ـ طيب وأنا أيش لي .. وأيش لهم ؟ ؟

ـ برضك رجعت ؟ ؟ ما تستعقد .

ـ يعني أستعقد متى ؟ ؟ بعد أفهم .. وإلا قبل أفهم ؟ ؟ أنت ما دام مستعقدة فهميني تكسبي ثوابي .

ـ قلت لك الأرض فيها عمار .

ـ فهمت أنه فيها عمار .. العمار أيش لهم وأيش لي .. أنا راجل طحت على الحجر .. انفركت رجلي .. اترضت .. انفكت .. يعني غرضك يمكن أن الحجر جني ؟

ـ أيوه يمكن

ـ طيب وكيف أفهم أن الحجر جني .. أيش الدليل .. وإلا بس الواحد يستعقد من غير دليل .

ـ إلا في دليل .. الدليل أن الأرض مليانه بالجن .

ـ يعني يمكن هذا الحجر جني ؟

ـ مو بعيد .

ـ طيب وهادي الحجارة كلها اللي الناس طايحين فيها تكسير بالفواقيش والعتل .. كلها حجارة جن ؟ ؟ وإلا بس هذا الحجر لوحده جني ؟ ؟

مو بعيد يكون هذا الوحده جني .

ـ طيب هذا الحجر لوحده جني فهمنا .. أيش لو هذا الجني عندي ؟

ـ أنت لا بد عورته ؟

ـ كيف عورته ؟

ـ طحت عليه ؟ ؟

ـ يعني مقصودك جيت لقيت حجر قاعد في الأرض .. قمت رميت نفسي عليه علشان أعوره ؟ ؟ هادي هي هرجتك اللي تبغيني أستعقد فيها ؟ طيب أنا أخطيت عليك يا حجر .. لكن الحجر في قياسك .. ما أخطى علي ؟

ـ أيش هو خطا الحجر ؟ ؟

ـ ليش ما صاح في وقاللي ترى يا شيخ انتبه .. أنا جني ! ! روح عني بعيد ؟

ـ تبغى الحَجَر يصيح ؟

ـ إذا ما صاح صار هو المخطيء .. أول حاجة هو شافني أطيح .. والناس ما تطيح إلا غصبا فكان لازم يشرد من طيحتي .. الشيء الثاني لما شافني قريب الطيحة ليش ما صاح في وشي وقال : روح عني بعيد ترى أنا جني ، وأقل شيء يعودني .

ـ هادا الهرج يا شيخ .. الناس ما تقوله ! !

ـ أبداً .. الناس ما يعجبهم إلا الهرج اللي يكون باين فيه محل الخطأ والصواب .. أما إن كان الجن احكامهم غير كده .. فهادا يسير خطاهم مو خطايا أنا .. أنت لما تكوني قاعدة محل الجن وشفتيني طحت فوقك غصباً عني .. أيش رأيك ما تعذريني ؟ ؟ ان ما عذرتيني .. تسيري ما أنت عاقلة .

ـ لا ... أعذرك ! !

ـ طيب وليش الجني ما يعذرني ؟ .. وخصوصاً وهو يدري أني ماني شايف غير حجر .

- لا بده ما يعذر .

- أجل أنت أخطيتي عليه دحين أكثر مني .

- ليه ؟ ؟ !

- لأنك سويتيه ظالم ، واعتبرتيه ما يعرف اللي لو .. واللي عليه .. فإن كان هو تمام .. يزعل منك من صحيح .. ويمسك رجلي .. لأني رجال وما اعتديت عليه .. أما أنت كلامك كله تعدي عليه .

وي .. هيا جينا لهرج المجانين ! ! وما أتمت كلمتها حتى كان صوت غلاية الشاي فوق الموقد يناديها فأولتني ظهرها مسرعة ، وهي تحوقل من غرابة أطواري وقلة اعتقادي . وتركتني بعد هذا أضيف إلى جنوني مرتبة جديدة في الجنون في هذ الحصى الذي أطأه ، والأحجار التي أدوسها ، وقطع الأخشاب التي ربما انكسرت تحت قدمي وأنا لا أعلم من أمرها شيئاً .. كل هذه أتوصرها أخيراً عالماً من الجان تأخذ السبل ، وتعاقبنا أشد العقوبة وأقساها إذا وطئناها :

سأضرب ابتداء من يومي عن المشي حتى لا تصطدم رجلي بعد الآن بأحد عمار الأرض سأقنع بالبقاء في بيتي لا أريم خطوة . فهل يوافقني مجنون يناصر مذهبي و يدعو معي إلى هذا الإعتكاف ؟ ؟

وهل يرضى العقلاء أن يحذفوا هذه السيدة من بنودهم ليضيفوها إلى المجانين و ينقلوني لأحتل المركز الذي كانت تحتله بينهم في صفوف العقلاء ؟ ؟ أيرضيهم هذا ؟ أم يظلون على تعصبهم لا يقبلون الهوادة فيا صنفوا ولا تزجرهم البراهين عما اعتقدوا ؟

إذا صح هذا فبارك اللهم نعمة الجنون !



صبي السلتاني

والسلتاني نفع الله بك شواء كان معروفاً بطريقته الخاصة في شي اللحم في أكثر مدن الحجاز يوم كان اللحم وحده عمدة الطعام وكان سعره مشوياً في دكان السلتاني لا يزيد عن قرشين للرطل .

لا أدري لما سمي هذا النوع من الشي (سلات) إلا أن كان اشتقاقاً من اللغة ففي اللغة سلت الشيء قطعه وكان السلتاني في بلادنا يقطع اللحم بصورة فنية بعد تجريده من العظم إلى شرائح خفيفة ثم ينصب في دكانه (منصة) عالية تتوسط الدكان يعتلي فوقها على كرسيها ويجعل أمامه كانون الشواء وهو كانون واسع يعلوه حجر رقيق الصفحة يبسط عليه شرائح اللحم ويتحلق الزبائن حوله تحت المنصة « هات من فضلك نصف رطل .. وقر معاه العيش » .

وهو لا يعطيك نصيبك من الشواء إلا منجماً .. ملقاطه يتخلل شرائح اللحم ليلتقط الناضج الباقي فيوفيك ساخناً طبقاً بعد طبق .

وأكبر ظني أن أستاذنا القنديل أدرك آخر هذا العهد وكان آخر الزبائن « السلات » يوم كان يعيش بمكة عاملاً في رئاسة تحرير صوت الحجاز مغرماً بدكاكين الشواء من لحوم وقلوب وأكباد وكان معروفاً لفوالة باب العمرة وأصحاب المطبق المعصوب فيها .

وكان من أشهر دكاكين السلات في مكة دكان عم خليل السلتاني بالقرب من باب العمرة وهو رجل طويل عريض ما بين المنكبين تزدحم بطنه البارزة بين الكانون والكرسي فوق المنصة فينثني ضاغطاً عليها ليلتقط الناضج من الشرائح في أقصى طرف من حجر الشواء .

وكان زبائنه يستمرئون الطعام عنده لفنه وفرط عنايته بتشريح قطع اللحم وشيها وهو إلى هذا خفيف الظل حاضر النكتة يرسلها بداهة فيضج الدكان بضحك المزدحين من زبائنه وتصافح أذنه أختها من أحد الطاعمين فيرسلها قهقهة عالية تهتز لها مراقبة وتسمع قرقرتها في بطنه كأنها قرع الأناء من النحاس .

وصاحبنا خليل السلتاني كان معروفاً إلى جانب فنه في الشواء و براعته في النكتة بحرصه

على الملة لا يشتري بها الإبرة إلا إذا عز على أمه أن تستعيرها من الجيران أو ضاق الجيران بها .. واضطروها لتترك خليلاً يلبس قميصه بادي الشقوق .. وعندها يجد خليل أن لا مناص من الملله يقدمها قرباناً على مذبح دموع أمه الغالية . ويبدو حرص خليل وشحه البالغين نرى ذلك واضحاً في طريقته وهو يختار صبيه في الدكان .

كان من مميزات صبيه (أبوطافش) أنه أمين على دكان عمه بشكل نادر ولكن الخبثاء حول خليل لا يعللون أمانة صبيه بما يعرف من خلال الأمناء فهم يقولون أن فهمه لا يحيط بالحيل التي يجب أن يمتاز بها المختلس فهو إذا صفا ذهنه مرة واستطاع أن يعي ما فوق العشرة على حساب الهلل عجز في مرة أخرى أن يحصي أكثر من الخمسة واضطر أن يقول لك انها خمسة وثلاثة وعليك معرفة مجموعها وكل هذه الذهنية لا تجرأ على اختلاس الحرام لأنها ستلتاث عند أول ملاحظة تواجهها فمن الخير أن يكون : (الباب الذي يجيك منه الريح .. سده واستريح) كان خليل يعرف هذا في صبيه ولهذا عاش مطمئناً إليه راضياً به ولم يطمئن ويرضى وهو إلى جانب هذا قنوع حسبه من عمه أن يملأ بطنه من فضلات ما يطعم الناس دون أن يطمع في أخر لخدمته (ببطنه) غير مجنون لأن كفاءته في الخدمة لا تتخطى أبعد من هذا المستوى في سوق الصبيان .

ـ إجري يا (أبوطافش) اشتري ليمونة للزبون من عمك سعيد من قريب » .

نعم يشتريها من عم سعيد .. ولكن عم سعيد لا يوجد في الدكان هل يشتريها من غير عم سعيد ؟ هنا أكثر من بائع ليمون .. ولكنه لا يحب عصيان عمه .. فلينتظر عم سعيد .. لينتظره ساعة أو ساعتين فطاعة الأمر خير سلوك الأدب .. ربما قلق الزبون ولكن ما علاقته بهذا ما دام لم يأمر بشرائها إلا من عم سعيد .

خذ (يا أبوطافش) أعط الطبق للزبون في الركن على يمينك .. ولكن (أبوطافش) لا يعرف يمينه من شماله فيعود بالطبق .. فين يا عمي .. !

ـ يا واد شوف الراجل هناك أبو إحرام أصفر ..

ولكن أبوطافش من أين له أن يعرف الأصفر والأخضر فلا حيلة في الأمر إلا أن يقف الزبون ليصيح به : أنا هنا يا واد .

ويرسله عمه بعد انتهائه من خدمة الزبائن : (خذ يا « أبوطافش الزبدية ») اشتر فيها ربع أقة سمن للبيت ، فيمضي إلى السمان ويزن له السمن ويفرغه في الزبديه فتستوعبه الزبدية إلا

شطراً ضئيلاً بقي في كفة الميزان وهنا يتجلى الذكاء فقد نظر فإذا في قاعدة الزبدية قاع مجوف يسع بقية السمن وقبل أن يطول التفكير قلب الزبدية ليتلقى بقية السمن في قاعها فإذا السمن ملء الزبدية يسبقه إلى الأرض .

فوقف مشدوهاً يتأمل غرابة ما حدث وتداعت معاني الغرابة في رأسه أن يتعمق .. فقلب الزبدية يتأمل جوفها فما راعه إلا السمن يسبقه من قاعها المجوف إلى الأرض ، وراعه أكثر ضحكات المستهزئين حوله فاضطرب عليه الأمر .. حاول أن يفهم لم كان للزبدية جوقان ؟ وهل من حرج في استعمالها معاً ؟ .. حاول أن يفهم وإذا كان فأي معنى لهزء الناس وضحكهم ... اضطرب عليه الأمر فتوترت أعصابه فلم يملك إلا أن يقذف - بالزبدية إلى الضاحكين و يعود إلى الدكان ليستوفي مكتوبه فيه .

وأعطاه عمه قطعة استامبولي ذات القرش ليشتري له تنباك كيزرون « شوف يا واد دكان بصلوح عنده كيزرون زي الكهرم .. ترى لا تجيب تنباك مسود » .

و يجري أبوطافش إلى باصلوح الحضرمي فلا يجد عنده الكيزرون لم يصل من جده وفهم من ثنايا الحديث .. ولا أدري كيف استطاع أن يفهم - إن في جدة يباع الكيزرون مثل الكهرم في أكثر الدكاكين فقاده العزم في غير تردد إلى طريق جدة ليثبت لعمه بطولته في الموقف .

انتظر العم خليل أن يعود أبوطافش بالكيزرون وطال انتظاره وطال فقام يتعقبه عند دكان باصلوح فلم يجد عنده ما يشفيه فذهبت به الظنون عشرات المذاهب إلا أن - يسوق الذكاء المفرط أبا طافش إلى جدة في شراء الكيزرون .

ومضت يومان عانى العم خليل في دكانه من خدمة الزبائن عنتاً لا يطاق وأشرق اليوم الثالث فإذا أبوطافش يشرق بإشراقته على باب الدكان وقد تأبط لفة التنباك .. فين كنت يا (أبوطافش) ؟ فلم يملك أبوطافش إلا أن تهالك على نفسه في إعياء شديد وراح يروي لعمه قصة التنباك الكيرزون في ألفاظ لا ربط بينها استطاع عمه بما تعود منه أن يفهم من لهجته الخاصة أن ذكاءه الخارق ساقه إلى جدة في سبيل الكيرزون .

لم يدهش عمه كثيراً لما حدث فقد تعود مباذله الشاذة وأطواره الغريبة المتطرفة ورأى من الخير أن ينسى ما حدث إبقاءاً على خدمته المجانية .

ومضت الأيام تتوالى بعدها الأسابيع حتى أقبل العم خليل ذات صباح إلى دكانه الذي تعود

أن يجده مفتوحاً مكنوساً فإذا الباب قفل وإذا أبو طافش مسجي على كرسيه الذي تعود أن ينام فوقه عند الباب جثة فارقتها الروح .

واجتمع الناس على النبأ وتطوع بعضهم فنقلوه وكرسيه إلى المستشفى حيث أعلمهم الطبيب بموته بالسكتة القلبية إلى هنا .. كان الأمر عادياً لا يزيد في مجموعه عن حياة شخص عاش كما يعيش كل غبي مر بالأرض ثم انتهي به أجله إلى حيث تنتهي الآجال بأغنياء الناس وأذكيائهم على حد سواء .

ولكن ما كشفه الموت من فضايح أبي طافش كان من أروع ما نقصه نوادر الحكايات والطرائف .

ذلك أن العم خليل ما كاد ينفض يده من تراب القبر الذي وارى جثمان أبي طافش حتى تذكر أن لأبي طافش صندوقاً في مخزن الفحم داخل الدكان كان يجمع إليه ثيابه فمال إلى شيخ الحارة يسأله رأيه في الصندوق وهو لا يعرف إلا أنه مجاور جاء مكة من قرية في بادية الشام ذكر له اسمها فنسيها على مر الأيام .

وعلى عادة مشايخ الحارة « روح يا بويا اللي زي ده مسكين أيش عنده تعال نفتح الصندوق وإن كان فيه ثوبين فقطعة نقسمها على روحه وبس ! ! » .

ومضيا إلى مخزن الفحم في الدكان وعاجلاً فتح الصندوق فإذا هو مكين متين التركيب بشكل أثار ظنونهما في بلاهة أبي طافش فألهب إحساسهما حتى جاء عليه بعد عناء شاق .

ولفت نظرهما الأول ما لفت ان العمق في جوف الصندوق لا يتناسب مع مسافة ظاهره فارتابا في أمره وتحسسا جوانبه وزواياه بدقة المرتاب فإذا يد العم خليل تصطدم بزر بالغ الصغر حاولاه ليعرفا مهمته في الصندوق فلم يفلحا و بدا لهما أنه سيقفل بشكل معقد على مخبأ سري فلم يدر بخلدهما إلا أنه ينطوي على نقود فاشتعل حماسهما بدافع من عامل الطمع وعمدا إلى ساطور في الدكان راحا يضربان به في شدة حتى احتشد الدكان بالفضوليين كلهم يسأل ماذا جرى ..

ماذا حدث ؟

وسرى الخبر إلى أقرب مركز للجندرمة (البوليس) فخفوا إلى مكان الحادث ليروا أمامهم صندوقاً من الصاج السميك اختلفت أضلاعه من هول الضرب دون أن يكشف مخبوءه عن شيء .

ونقل الصندوق إلى مقر البوليس وسيق البطلان خلفه مخفورين ورأى ضابط البوليس بعد أن سمع أقوالهما أن يستعين على فتحه بأحد الحدادين .

واستولت الدهشة على المجتمعين عندما انغلق المخبأ عن حزمة من قصاصات الصحف التركية وأوراق أخرى مكتوب عليهابالحبر و بعضها الآخر بالقلم الرصاص .

لئن ذهبت بعض الظنون إلى أن أبا طافش يتخذ في صندوقه مخبأ سرياً معقداً يخفي فيه ثروة يجمعها فإن قرائن المال لا تؤيد مثل هذه الظنون فقد عرفوا من بلاهة وعيه ما لا يستقيم مع هذا الوعي فكيف بهم وهم يكشفون أن مخبأه السري يخفي قصاصات مضمومة بعناية إلى جانب أوراق مكتوبة مبندة بشكل منظم ترى هل عاش (أبوطافش ليستعمل صندوقه دون أن يعرف عن مخبئه السري شيئاً أم عاش معارف أبي طافش يتعاملون مع سر مغلق يتظاهر بالعي و يتصنع البلاهة و يتقن دوره كممثل بارع .

شرع ضابط البوليس التركي ولعلنا نسينا نذكر أن وقائع القصة كانت في أواخر العهد التركي - شرع يقرأ اللغة التركية في أول ورقة صادفها تقريراً يدين موظفاً تركياً متقاعداً بالعمل ضد الدستوريين في استامبول وأنصارهم في مكة فلاحت الدهشة على ملامحه وارتسمت بصورة واضحة عندما قرأ اسم المدين وهو شيخ وقور معروف في باب العمرة ولا يزال يعيش في البيت الذي يجاور دكان السلتاني .

وقرأ في غيرها أسماء أشخاص لا يزالون أحياء يومها كان بعضهم من الأتراك والبعض الآخر مكيين كانوا يختلفون إلى بيت الشيخ المتقاعد في أوقات متفاوتة فيتسللون لبيت الشيخ لواذا لزيارته في ساعات سجلت أرقامها وتواريخها في أوراق مرفقة .

رأى الضابط أنه أمام واقعة حال دقيقة بالغة الغرابة فلم يملك إلا أن يسجل منها محضراً يذيله بشهود الحادث . ثم يصرفهم ليرفع به إلى والي مكة المختص فيها بحماية الدستور .

وظل المجتمع بعدها في باب العمرة وفي كثير من مناطق مكة لا حديث لهم إلا - بلاهة أبي طافش الذي عاش لا يحسن جمع أكثر من خمس هللات و يتعذر عليه إذا امتحن أن يعرف شماله من يمينه أو يفرق بين الأصفر والأخضر ثم تنتهي نهايته بمفارقات يستعصى حلها على الفهم الذكي .

كاد أن ينسى الناس بمرور الأيام والأسابيع أبا طافش وما في قصة أبي طافش من غرابة

نـادرة حـتـى فـوجـئـوا في أحد الأيام بأوامر القبض على الشيخ المتقاعد . وتكشفت الحوادث عن القصة فإذا أبو طافش من أمهر الجواسيس الذين خدموا الدستوريين في كثير من بلاد العرب وقد تـدبـته السلطة ليحقق ريبتها في الموظف المتقاعد فمثل دوره باتقان رائع في دكان السلتاني ولكنه ما كـاد يـعـد تـقاريره ويشرف بمهمته على النجاح حتى سبقته الجبهة المضادة فكشفته للموظف المتقاعد . ورأى الموظف المتقاعد أن يتخلص منه فأطلق في أنفه وهو نائم على كرسية دخاناً مخدراً جاز أمره على الطبيب المناوب فأمر بدفنه حياً ليلقى حتفه بعيداً في غيابة القبر .

بعد أن طاب السفرجل

خديجة الفقيهة من عائلات مكة العريقة قرأت المصحف على أبيها الشيخ وجودت آياته وحفظت جملة صالحة من كتب الحديث وتمرست في فن الخط والحساب إلى حد كان لا يتيحه عهدها يوم كان من عيوب الفتاة أن تتعلم كيف تكتب . وأصابها الزمان في أبيها ثم في زوجها دون أن تخلف منه ولداً يعولها فرأت أن تتخذ لها كتاباً تعلم فيه البنات لتكسب عيشها وما يقيم أودها .

كان كتابها يقع في زقاق فما أن تمر في أي ساعة من ساعات النهار حتى تصافح أذنيك أصوات البنات يقرأن في ضجة عالية .. وربما سمعت بعض المارة من أتراب أبيها كبار السن يتلمظون حياتها في عهد أبيها ـ « والله وعرفت تخلف مين يا شيخ سليمان .. الله يقويك يا بنت الشيخ .. يا خدوج ! ! .

وكتاب خديجة الفقيهة أو ـ خدوج ـ كما يتراءى لأتراب أبيها أن يدللوها لا يزيد عن غرفة واحدة متسعة الأطراف قسمت البنات بين أركانها إلى ثلاثة فصول .. فصل يتهجى الأليف لا شيون عليها .. وفصل يفك الحرف في قصار السور من جزء عم .. وفصل بالغ الغاية تتربع كل بنت فيه أمام كرسي مزدوج يحمل مصحفها تقرأ فيه طوال السور وتتابع ما تقرأ « فين الغنة يا بنت .. افتحي فمك بالمد .. يعني منت شايفة السكون بعد المد يبقى له ست حركات » ..

ولا يقبل كتاب خديجة أو خدوج أطفالاً من الذكور ـ هادا يا ستي كتاب مخصوص للبنات .. والعذر لله ولك .. شوفي هنالك كتاب الشيخ الصنعاني في دحديرة القرارة ليش ما توديه ؟ .. كتاب عليه فتوح ألف ما شاء الله .. ومع هذا فقد وجد بعض الذكور طريقهم إلى الكتاب في عدد لا يتجاوز الثلاثة أو الأربعة كان سن أكبرهم حسان لا يتخطى العاشرة إلا بشهور رأت الفقيهة أن لا مناص من قبولهم لأنهم جيرانها والولد الكبير حسان ربنا ممد على وشه .. ولد هادي ما عنده شيطنة .

كانت تقنع نفسها وتقنع أمهات الطالبات بمثل هذا وهي تخفي في قرارتها شطارة حسان في قضاء أكثر حاجاتها الصغيرة من السوق واستفادتها من أبيه بائع البليلة عند الكتاب « من فضلك

روح يا عم قاسم دخيلك قضي لنا وصلة لحمة وشوية ملوخية بس جيبها من العثري .. وذل من فضلك على أبو سعديه خذ منه العادة .. ربنا ما يقطع له عادة إن شاء الله » .. وأبو سعديه من مشاهير الصاغة في زقاق الحجر أمام باب النبي .. كان كبيراً في عمله كبيراً في ثروته ، كبيراً في شهامته وبذله كبيراً في عطفه على ضعفاء الناس كما كان كبيراً في حارته : « عند الله وعندك يا أبو سعديه .. احنا ما نسينا إنك شلت الزينة على رأسك .. فتحت كيسك وبيتك .. الحارة ما تنسى لك جميلك .. إحنا بس نبغا الطليان منك والباقي على الله .. عندنا أبو صادق والشر والشريم والبالغ برضهم أهل نزعة ما هم متأخرين بس انت سيد الكل .. رأس القايمة » .

ـ يا مرحباً .. حيا الله نباكم .. بس الحق صلاة العصر مع الجماعة وارسلوا لي النقيب .. واللي تقولوه عليّ ما شي » ..

أجل ماشي .. فقد تعودت نفسه السخاء وأدركت فقيهتنا ميزته في البذل فأخذت بسعدية ابنته عناية فائقة واستطاعت أن تستدر عطفه على الكتاب .

ـ البزورة يكسروا ألواحهم يا أبو سعدية ويقطعوا الأختام .. أكثرهم فقراء ما عندهم يشتروا بدالها .. كمان ـ المضر ـ زي مانت شايف عمل يخلص قبل الدور .. فزعتك يا أبو سعديه إلهي ما يحرمنا منك ! !

ـ طيب أرسلي عم قاسم كل دور .. وربنا يقدرنا على الطيب !

وكان الطيب ريالين « مجيدي » أصبحت عادة ينفحها أبو سعديه لكتاب كل أسبوع وأدرك العم قاسم ما يتمتع به أبو سعدية من أريحية فكان إذا بارت بليلته في نهاية بعض الأمسيات كلف حسان ولده أن يحملها إلى دكان أبي سعديه : « يسلم عليك أبو يا ويقولك شوف اليوم البليلة زي المخ خلالك منها شوية علشان سعدية وأخواتها » .

ـ طيب وديها البيت يا حسان .. وهادا ريال حق البليلة وهادا ربع ريال لك .. واد يا حسان لا بدك تشتهي البليلة كل من سعدية يا ولدي .. وشوف عندهم سفرجل خليهم يعطوك حبة وديها لأمك في البيت تسويها مربة . ويفترش حسان وسعدية أرض الخارجة فوق مفرش صغير أمام صحن من البليلة وآخر من السفرجل ! ! وتشعر سعدية بدافع لا تفهمه أن عليها أن تكرم حسان في بيتها . فتقدم له قطع السفرجل المقشور فيتقبلها ممتناً ولا يعرف لحداثة سنه كيف يقابل جميلها فتختلط المعاني في نفسه وتضطرب ، ويشعر بنانه خفيفة تنبض في صدره ولا يتبين لها معنى ويحس أن عليه أن يفعل شيئاً من أجلها فتسبقه نفسه إلى جبينها يطبع عليه قبلة خفيفة ! !

أودعهـا امـتنانه كما كان يشهد أمه تطبع على جبين سعدية نفسها مثل هذه القبلة كلما حملت إليها هـديـة مـن أمـهـا أو تفصيلة جديدة للعيد تبر بها جارتها .. ودخلت أم سعدية فجأة على حسان وهو يـطـبـع قـبـلـتـه البريئة على جبين ابنتها ورأت ابنتها تضحك لبادرته الحلوة فطاش الدم في صفحة وجهها ، وانهالت تضر به بمروحة الكوانين في يدها : « كدا يا للي ما تستحي .. يقولوا عليك ولد هـادي وأنـت تـعـرف هـادي المسخرة .. امش من هنا لا عاد أشوف وشك في هادا البيت اكسر رجـلـك .. » وأنـت يـا بـنت يا سعدية كيف تخليه يسلم عليك ولد زي هادا ما يعرف العيب .. اصحي تاني مرة أشوفك تهرجيه . « لم يفهم حسان معنى لهذا الزعل المفاجىء » .

ولم يـفـهـم مـعـنـى لطرده من البيت وما ناله من ضرب المروحة . عهده بأم سعدية تحدب عليه وتعطف على أمه كجارة وفية ودودة فلم يملك إلا أن يسلم ساقيه للريح حتى إذا انتهى إلى الشارع سـاقـتـه قـدمـه إلـى عتبة باب الكتاب فركن إليها وراح في ذهول يستعرض في عقله الصغير كل ألاسباب التي تحتمل ثورة أم سعدية عليه وطرده بهذه الصورة المهينة فلم يسعفه خياله البريء بأي مـعـنـى يفسر ما حدث . وفجعت سعدية بدورها لما حدث فلم تملك إلا أن تبكي بدموع مدرارة .. ونهرتها أمها فالت بجسدها على الأرض وأخذت ترفس برجليها وتشهق ببكائها في طفولة مجنونة .

وأمـسـى الـلـيـل عـلـيهـا فأخذت سبيلها إلى مضجعها في الخارجة تحاول النوم ولكن النوم أبى لأول مـرة في حياتها إلا أن يستعصي عليها تبلبلت أفكارها وذهبت بها آلاف المذاهب .. لم يخرج حـسـان مضروبـاً مـطـروداً بلا ذنـب ؟ حاولت في حدود ما يتيحه سنها أن تفهم سبباً لما حدث فـطـافـت بـذهـنـا آلاف الـظـنون إلا قصة القبلة على جبينها فقد تعودت مثلها من أمها وأبيها وأكثر أقـربائها .. تعودتها على جبينها ووجنتيها وثغرها من معارفها وجيرانها رجالاً ونساء كما تعودتها من فقيهتها في الكتاب ! !

طـافـت بـذهـنـهـا آلاف الظنون إلا قصة القبلة فالتاث عليها الأمر واختلط ، وجفاها النوم فلم يـغـمـض لهـا جـفـن إلا بـعـد أن أسفر الإصباح عندما شعرت بثقل أجفانها ورأت نفسها فيما يرى الـغـافـي تجري إلى بيت حسان لتسترضيه فيهولها نحيبه وقد ملأ البيت وتنادي بأمه لتفتح لها باب الـبـيـت وقد وجدته مغلقاً في وجهها فيطل وجه الأم من نافذتها ثم يشيح عنها في ازدراء ! ! هبت مـن نـومـهـا مـذعورة فآلت على نفسها في سرها أن تستعجل خروجها إلى الكتاب لتقابل حسان وتـسـتـرضـيـه فيما حدث من أمها ولكن ما كادت تخطو حتى سمعت أمها : « يا أبوسعدية بلاش عـلـى الـبـنـت كتّاب علشان خاطر دا الواد حسان .. ونرى لا عاد يجيني البيت بعد كده .. ترى اكسر رجلـه نـاقص علينا ولد هايف زي دا . قال إيه .. قال أبوه بياع بليلة .. قرف ! ! وحاول

أبو سعدية أن يفهم الفكرة فأبت إلا أن تعمى عليه : « بس كدا هادي بنت وأمها أدرى بها .. أنت مالك شغل .. البنت تنطق في البيت .. وأنت خليك في شغلك » .

لم يرق لأبي سعدية أن يتوسع إلى أكثر من هذا فقد عاش بخلقه الرضي يتحاشى مواجهة الحياة من جوانبها المظلمة ـ « سيبك يا سيدي .. ما دام أمها تبغا إلا كدا شلي واشل .

و « أنطقت » البنت في البيت لا تريم عنه إلا ما ليس منه بد . ولكن المسكينة عاشت وفي نفسها حزازة لهذا ـ الغلبان ـ الذي شهدت هونه في بيتها وعجزت عن إنصافه وإرضائه .

كانت تختلس بعض حبات الرمان أو الخوخ كلما دخل بيتها وتدسه في يد أختها الصغيرة ـ إجري يا صالحة أعط هادا الحسان في بسطة البليلة .. ترى اصحى أمك تشوفك بعدين ابسك ! !

كانت تعتقد أنها بهذا ترضي ربها لقاء ما حدث ـ للغلبان ـ في بيتها لا أكثر .. وكان حسان يتقبل هديتها في صمت دون أن يعلق عليها بحرف فقد ألف عطف أبيها قبلها فما خالجه قط أن هديتها تتسع لأوسع ما يفهم في حدود هذا المعنى . وربما عن له في بعض الحالات أن يقابل هديتها بشيء من البليلة يضعه في جيب غثفة اختها الصغيرة و يوصيها ان تأكلها مع سعدية . وجاءته مرة بحبات من المشمش وكان في يده سفرجلة فدسها في عتفتها لتحملها إلى سعدية فما كادت سعدية تلمسها حتى ذكرت يوم السفرجل المقشور وما أعقبه من إهانة وطرد فسالت دمعتها وارتابت في الأمر ربما أرادها لتذكر في السفرجلة سيئات ما ناله في بيتها ولم يدر بخلدها أنها لم تكن إلا صدفة .. مجرد صدفة لا أكثر .. ومضت سنوات نسيت فيها سعدية أمر حسان إلا في فترات متفاوتة يدخل فيها السفرجل بيتها أو تشتري صحن بليلة من أبيه .. ولكن أين أباه هذه السنوات ؟ .. لقد كان يبسط بضاعته من البليلة في ظل هذا الركن .. وأين حسان نفسه .. لم لا ترى له أثراً في هذه الأزقة المتعارضة وكان مرتع طفولته ؟

وعنّ لها في أحد الأيام أن تستدرج لسان العم بادريق العجوز وكانت في طفولتها تشتري منه الزرنباك والحلاوة الموزية فنفض إليها العجوز خلاصة ما يعرف ـ « إيه يا بنتي أبو حسان يعيش في رأسك من سنين .. أما حسان فسعده سعد .. هو اليوم في المدرسة الرشيدية مع الأفندية والذوات ! !

لقد مات والد حسان وماتت والدته فتبناه رجل من الأشراف يشغل في قصر إمارة مكة مركزاً محترماً .. وألحقه الشريف بالمدرسة الرشيدية وكان قد أسسها رجال الدستور في ذلك

العهد فظهرت عليه مخايل النجابة واستطاع أن يحقق نجاحاً هيأه لعمل وظيفي ممتاز في دائرة حكومية .

وشعر بحاجته إلى أن يكمل نصف دينه وأن يستقل ببيت خاص فعرض عليه متبنيه بعض بنات العائلات وكادت الموافقة أن تتم لولا أن ثمت بيتاً كان صاحبه يعطف عليه في صغره وثمت فتاة كان عزيزاً عليها .. كانت تقشر له السفرجل ! ! وتنفحه هداياها من الرمان والخوخ في أسلوب صبياني لذيذ رغم ما ناله من شراسة أمها فما يمنعه أن يبني على فتاة كان يلمس عطفها وحنوها و يصاهر رجلاً نادر المثال في أريحيته وأخلاقه .

أفضى الأمر إلى متبنيه الشريف فاستصوب الرأي ومضى من يومه إلى أبي سعدية في دكانه فوجد عنده ما أرضاه ـ متى ما شاء الله سار في هادي الوظيفة ؟ « الله يأخذ بيده كمان وكمان .. هادا ولد مؤدب وكان أبوه الله يرحمه من الناس الطيبين .. أنا يا أخو يا كبرت وما عندي أولاد .. يا مرحباً به خليه يسير كبير البيت .. أموت وأنا مطمئن .. دخيلك خليه يزل عليّ في البيت مشتهي أشوفه » .

وحمل الشريف إلى حسان أمر الرضا ورغب إليه أن يزور الرجل في بيته فأسرع إلى ذلك من يومه تسوقه ذكريات مشبوبة وشوق طافح ولكنه ماكاد يطرق الباب حتى سمع صوتاً رغم تقدم السنين .. صوت والدة سعدية تهيب به ـ ما فيش حد هنا .. إن كان تبغا سيد البيت رح له في الدكان .

استغرب حسان ما رأى وما سمع وأدرك أنه يطرد مرة ثانية من هذا البيت فهاله الأمر وحز في نفسه بشكل لا يطاق .

س . ولم يعجزه أن يعلل الأمر فهو يعلم أن سيدة البيت أساءت فهم طفولته يوم السفرجل واحتقرت صلته بفتاتها وهو ابن بائع بليلة .

وهي اليوم لا تدري شيئاً عن مكانته كشاب مرموق .. كما يعلم أن زوجها الطيب رغم أنه يفهم مثل هذه الأمور على غير هذا النحو الأهوج ولكنه لا يملك في الوقت نفسه أن يؤثر على أفكارها في الحياة أو يقودها إلى ما يعتقد صلاحه .

كتم كل هذا في نفسه دون أن يبدي منه شيئاً لمتبنيه الشريف وأكد عزمه على أن يجتر آلامه وأن يلغي فكرة الزواج من ذهنه ما عاش .

ولم تمض أيام حتى انطلقت الرصاصة الأولى في قصر الحسين في مكة تعلن ثورته على العثمانيين فانضم إليها حسان في فتية من كبار الموظفين زملاءه يخدمون القضية تحت أمرة الحسين وبدأت وفود الهيئات العربية من الشام والعراق ومندوبو الجمعيات العربية المغتربة في انكلترا وفرنسا وسويسرا تنهال على مكة لتقدم تأييدها للحسين فندب حسان ليتولى الإشراف على استقبال كبار الضيوف ومناقشتهم في بعض المهام التي ندبوا اليها وتقديمهم إلى الحسين حسب درجاتهم وأهمية استعدادهم لخدمة القضية العربية ومضت شهور صدرت أوامر الحسين على أثرها بتجنيد المتطوعين من حارات مكة الفزيعة واستنفار القبائل الموالية في الحجاز للعمل في جيش الشمال الزاحف إلى سورية تحت أمرة أحد أبناء الحسين فانضم حسان إلى الفرقة العاملة في دائرة أموال الجيش .

وبات الجيش في طريقه إلى الشام يتلقى إعانة الحلفاء المالية صناديق من جنيهات الذهب الإنكليزي . فغمرت الأموال أفراد الجيش وجميع العاملين في إدارته بشكل فياض واسع .

وعندما عسكر الجيش في العقبة وطال مكثه اتسعت أسواق الحاجيات حول ميدانه وتفاقمت أسعارها فبيعت وقية الملح بما لا يقل عن قيمة الريال وبيع رطل السكر بما يوازي جنيهاً انكليزياً وبيعت علبة الدخان بأكثر من ريالين دون أن يتذمر المستهلكون لوفرة المال في أيديهم وكثرة الذهب في جيوبهم .

وتاقت نفس حسان للعمل في التجارة إلى جانب عمله الوظيفي ورأى في حوزته من المال ما يتسع لأوسع الأعمال فيها فاستأذن قيادته في الأمر فلم تعارض القيادة لحاجة الميدان إلى اتساع رقعة السوق فأرسل إلى مكة من يختار لدكانه الواسع آلاف الأصناف واختار لإدارته صديقاً وفياً فانهالت الأرباح عليه بصورة كان لا يحلم بها .

كان يقضي سحابة يومه في إدارة أعماله الوظيفية فإذا أظله المساء هرع إلى الدكان ليشرف على أعمال البيع ويقفل حسابه اليومي ويحصي أرباحه التي ظلت تتطور كلما تطورت الايام . وإنه لفي دكانه ذات ليلة وإذا أمير الجيش يدعوه ليلبي طلب الأمير في أمر مستعجل من فوره إلى خيمة الأمير فإذا رجل من مكة بين يدي الأمير وما أن سلم حتى بادره الأمير : أتعرف هذا ؟

- أجل كنت أعرفه وأنا صغير السن أبيع البليلة بجوار أبي وكنت أشهده أحياناً يزور بيتاً معروفاً هناك .

وهنا ابتدره الرجل .. « العلم خير لك يا حسان .. أنت سيبت هناك في مكة قلب : تقطع

علشانك .. لا تقل لي أيت قلب .. أنت لا بدك مانسيت واحدة اسمها سعدية كنت تلعب معاها وأنت صغير .

١ـ لا والله ما نسيت لكن ما أعرف قلب مين اللي اتقطع .

ـ شوف يا ولدي .. وجه الله عليه غطا .. أنت خطبت هادي البنت وأبوها رضي .. وقفت أمها زي لقمة الخانوق في الحلق .. سار اللي سار البنت سمعت حكاية الخطبة ما قدرت تقول ولا كلمة ، طاحت وجعانة في محلها .. تعبنا حكماً .. تعبنا طبباً ما فيش فائدة .. قول الأم أخذ الله بوداعتها وماتت ، البنت جاها عشرين خطيب ما فيش فائدة .. مين يتزوج ؟ .. تتزوج واحدة على الفراش ! ! ما أكثر ما عليك أنا خال البنت جا في بال الأبو على الحكاية قلت ولا شيء عندي .. وأنا أروح أحس النبض .. دخلتك على سعدية .. يا سعدية هادا حسان الأولاني جاء يخطبك وأبوك رضي ايش تشوفي .. أنا قلت هادي الكلمة ولا شفت لك إلا البنت فتحت عيونها وصحصحت وسمعتها تقول بنفس مفتوحة اللي تشوفويا خالي .

بس أنا موحمار .. فهمت الهرجة من طقطق لسلام عليكم ورحت أجري لأبوها قال لي خلاص شوف حسان أنا سألت عنه قالوا في العقبة في الجيش وقالوا لي الرجل مضرب عن الزواج من يوم ما صكوا الباب في وجهه .. أيش تشوف ؟ قلت له ولا أشوف ولا شيء أنا أقدر علشان خاطر الضعيفة هادي أمد رجلي للعقبة إن كان لقيته مشترينا برضه الله يحي نباه .. إن كان .. لا .. جيتك على تياري .. وربنا يلطف بالبنت ولا يأخذ عمرها وتستريح .

وأديك تشوفني دحين مسكوني للأمير وأنا داخل العقبة حسبوني جاسوس قصيت عليه الهرجة بزي ما هيا .

والتفت الأمير في هذه اللحظة إلى حسان يستوضحه الأمر . أصحيح ما يدعيه الرجل أم هو تلفيق جاسوس ؟ !

وقبل أن يتفوه حسان كانت الدمعة قد سبقت إلى عينيه واختلطت قطراتها بشفتيه وهو يتفوه : « أيها الأمير : كل ما قال صحيح .. وإذا أذنتم لي بنجدتها فإن نفسي وما أملك فداء لها .. وقد طاب اليوم السفرجل ! !

وأطرق الأمير ملياً ثم رفع رأسه يقول : إنك صفي عندنا . ومن النادر أن نجد من يعدلك أمانة وكفاءة وإخلاصاً .. ولكننا سنسخوبك في سبيل روح غالية .. أرى أن تبادر إلى مكة من

ليلتك وسنختار من يشرف على عملك في الوظيفة و يتولى شئونك في الدكان .. إجمع من أموالك ما شئت وأترك ما شئت لمن يخلفك على شئونه .. هيا واسرع إلى مأمور النقل عن أمري ليجهزك وزميلك بما يكفيك من ركائب الجيش السريعة وما يلزمك للمؤنة والعتاد .. وأرى أن لا تبيت ألا على طريق مكة .. وأنجب السعيدان على أثر هذا فتى عاش بعدهما واسع الثراء بعيد الآمال ظل يدير عملاً ناجحاً في جدة ثم انتقل بأعماله كما قيل إلى جنوب افريقيا ولعله يعيش اليوم فيها إن لم تكن تجارته قد دفعته إلى ميادين أوسع .

من احاديث التلفزيون

من أحاديثي في التلفزيون

أخي المشاهد .. أختي المشاهدة ...

أقول أختي وأحب أنك تنتظرين مني أن أقول سيدتي وهو أدب جميل دون شك ولكني رغم جماله أكاد أنسى في نفسي منه شيئاً فدعيني أقول أختي .. أختي لا أكثر .

ودعيني بعد هذا أستسمح أخي المشاهد فحديثي الليلة لا يخصه في شيء .. إنه حديثك وحدك .. فهل تعيرينني سمعك ؟

هل تنسين ولو لحظة هذا الرغي الستاتي الذي لا يكاد ينتهي في الفارغ والمليان وتعيرينني سمعك من صحيح ؟

أنا لست محاضراً بالمعنى الذي تسمعينه في الكتب فذلك ميدان له رجال يا أختي .

أنا إنسان حكاي .. ما جئت هنا إلا لأسلي من يسمعني ببعض حكاياتي عن الحياة .

وحكاياتي الليلة لأنها تخصك أرجو أن تكون خفيفة على نفسك .. حذار يا أختي أن تغضبي إذا تراءى لك في بعضها شيء سخيف حذار أن تصيحي في وجهي : راجع مخ .. مولاقي كلمة يقولها .

لا يا أختي فأنا صديق .. وأحلف أني صديق ولكن كما كانت جدتك تقول رحم الله من بكاني و بكى عليّ ولا رحم الله من ضحكني وضحك الناس عليّ .

أصحيح هذا يا أختي .. إذا كان هذا صحيح فإليك حكايتي .

جاري إنسان فقير الحال لا يكسب من دكانه ما يكفي قوت أولاده إلا بشق النفس جاء يحدثني وفي عينيه ملامح دمعه تكاد تسبقه إلى الكلام .

قال منذ أسبوع أبت السيدة المصونة أن تحضر زواج خالها إلا بفستان كلفني أن أقترض نحو

مائتي ريال عجزت إلى اليوم عن سداد بعضها ومع هذا تأبى اليوم أن تلبس الفستان الجديد في حفل (قيله) دعيت إليها عند بعض الأقارب .

ليش هادا ؟ - : (وي يا خويا شافوه فوقي أيش يقولوا الناس .. عيب ..) أصحيح يا اخواتي : أن هذا عيب وإذا أراد رجل بليد الفهم مثلي أن يفهم منكن وجه العيب فهل يجد لديكن ما يضع يده على هذا العيب ؟

ترى ماذا يصنع رجل محدود الدخل إذا كانت السيدة المصونة تأبى إلا أن - تلبس لكل مناسبة فستاناً جديداً ثم ماذا يصنع إذا تعددت هذه المناسبات وتوالت بعضها في أعقاب بعض .. هل يختلس ؟ هل يسرق .. هل يتعرض لذل الإقتراض .. هل يمتهن نفسه بسؤال الناس .

أليس هذا عيب .. أم العيب أن يشوف الناس ألست المصونة تلبس الفستان أكثر من مرة ..

أليس بينكن سيدة رشيدة تستطيع أن تصحح لأخواتها معاني العيب في مثل هذه القصة الدامية .

لقد كان لأمي رحمها الله بدلة تسميها بدلة العيد .. كانت تطويها وتكويها وتودعها بقجتها في قاع الصندوق السيسم حتى إذا دقت الطاسة في الزير وجاءتها الست العزيمة رحبت بدعوتها وقامت إلى بدلتها تتهادى فيها كأنها عروس .

كأني أراكن الآن تتضاحكن ساخرات بي (شوفي يا أختي .. هذا الراجل المهبول يبغانا نعيش مثل ما كانت أمه تعيش) .

لا .. لا يا ستات .. أنا أعرف أن بلادنا تحضرت .. وإننا أصبحنا متمدنين .. ولكن من قال أن المدنية معناها أن نعرض الرجل محدود الدخل ليختلس أو يسرق أو يمتهن نفسه بأي شكل من الأشكال .. إذا كانت هذه هي المدنية ... وإذا كان هذا هو التقدم فلا عاشت المدنية ولا عاش لنا فيها تقدم .

رحم الله أمي في ثوبها الباهي .. ورحم الله صندوقها السيسم .. ورحم الله الست العزيمة في بساطتها وحلاوة أسلوبها .

إذا كان لي ما أتمناه بعد أن حلّت بطاقات الدعوة محل العزيمة .. وهو أن نرسل العزيمة في ساقه البطاقات لا لتعزم عليهن بالحضور بل لتعلن فيهن بجاه الله عليكن يا ستات .. كل واحدة تلبس أنظف ما عندها و بس .. ترى اللي تفصل جديد تنكد علينا وعلى الستات الحاضرات .

أخي المشاهد .. أختي المشاهدة .

لي صديق يقوم على تربية أربعة من أولاده بشكل يثير العجب .

يصطفيهم و يتحبب اليهم و يبذل في سبيلهم أفضل ما يملك في سخاء كريم و يحاول كل جهده أن لا يزعجهم ، أو يغضبهم أو يكدر عليهم .

ألفوا هذا فيما بدا لي من نعومة أظفارهم حتى أصبح في نظرهم جزء من حقوقهم وأصبح لا يدور في خلدهم أن في الإمكان غير ما كان .

« يا ولدي قلت لك كم مرة بلاشي تمشي مع هذه البوطة ما هي أولك ما سمعت كلامي .. أنا يا ولدي والله أحب لك الخير لكن أنت ما تسمع كلامي .. يا ولدي فين انت تروح تذاكر .. أنا كم مرة قلت لك عندك المجلس فاضي تعال ذاكر فيه برضك ما تسمع كلامي .. هيا الله يهديك ، إن كان لك رفيق ، وإلا اثنين تحب يذاكروا معاك جيبهم يذاكروا في المجلس » .

« يعني انت رايح وخاصر كلامي أنا داري بتذاكر مع مين وتتمشى مع مين وفين عمال تذاكر .. والله يا ولدي بهواك ألا تبغي تروح هيا روح على كيفك .. بس يا ولدي لا تتحير في الليل كثير ترى .. أنت عمال تشغل قلبي » .

و يمضي الولد منهم في طريقه دون أن يقبل مراجعة فيما خطط .. و يترك والده لا يملك إلا أن يلتفت إلى مثلي ليقول (أولادي الله يهديهم) .

وفي رأيي أن مثل هذا الوالد في أشد الحاجة لأن يوفر دعاءه لنفسه هو في أشد الحاجة لأن يهديه الله ليعرف كيف يبني شخصيته في الحياة قبل أن يبني أولاده و يربيهم على احترام كلمته .

كيف لي أن يعرف أن الإلحاح في الأوامر والنواهي يعلم العصيان وأن الناشيء إذا استمرأ المداراة وأخذ الخاطر شب وهو يعتقد بأن علاقته بوالده لا يصح بحال من أن تتعدى وظيفة المداراة وأخذ الخاطر بل ربما خدعته هذه التربية فاستهان بعلاقته بالحياة ، وانتظر أن يداريه الناس في كل علاقاتهم به وأن يطيبوا خاطره في كل ما يفرضه لنفسه عندهم على غرار ما تعود من أبيه .

مثل هذا الفتى يعيش فاشلاً إلى جانب ما يتعرض له من قسوة الحياة وهو يواجهها ، بمثل هذا الأسلوب المدلع .

أنا لا أقول أن على الوالد أن يشتط ، فلا يهتم لما يرضي أولاده ، ولا أقول أن عليه أن يأخذهم بالعنف و يحيل تربيتهم إلى العصا كما يفعل البعض .. لا

لا .. فالتربية على هذا النحو لا تقل فشلاً عن التربية التي يحاول سيدي الوالد أن لا يكدر على أولاده فيها بأي حال .

هناك أمر وسط يستطيع الوالد فيه أن يبر ولده و يعامله في عطف و يثبت له في الوقت نفسه أن مثل هذا الفيض الحاني سيبقى ما بقي الولد باراً بأبيه وظل مقدراً له هذا الصنيع .

وليس في استطاعة الإبن أن يعيش باراً يقدر أباه إذا كانت أوامر أبيه تتلاحق بشكل معقول وغير معقول : لا تقعد كدا .. لا توقف كدا .. لا تمشي كدا .. روح إحفظ .. روح ذاكر .. روح سوي كذا .. اعمل كذا بشكل .. قاطع لا يقبل مراجعة ، فذلك أسلوب يعلم الخنوع أو يجر إلى العصيان فيفقد الوالد مركزه من ابنه و يقضي على شخصيته .

يستطيع الوالد في لباقة ، أن يشير إلى مواطن الخطر ، في كل ما يرى من الضروري أن ينهي الولد عنه وأن يكشف فائدة الموضوع ، الذي يرى من الضروري أن يأمر به .. فيفعل كل هذا في غير إلحاح ومن غير كلام كثير اللوم يعيده و يزيده و واللي يزيده يعيده يفعل كل هذا وهو يوحي اليه أنه ولد عاقل يعرف كيف يميز طريقه ليشعر الولد أنه شريك في هذا الشقاء وأن الموضوع ليس فيه أمر صارم قاطع ، بل هو مداولة لاختيار الأحسن فيجد نفسه منساقاً إلى الأحسن و يتدرب على هذا حتى يألفه .

حذار أن تقول لولدك .. (لا) ثم تتغاضى عن عصيانه حاول مداراة الموضوع ولا تقل لا ، إلا بنسبة واحد في المائة واعرف أنك إذا قلتها تعين أن تقف دونها لئلا يتعلم عصيانك .

أخي المشاهد .. أختي المشاهدة ...

لا تزال لحكاياتي مع الأخوات بقية .. أرجو أن لا تكون ثقيلة لأني سأحاول أن (ألايمها شويه) .

هذا الحلي الذي تتحلى به بناتنا وأخواتنا ولا أقول أمهاتنا أليس في بعض أحواله ما يلفت النظر ..

لقد كنت أفهم حسب ما علمني الفقيه طيب الله ثراه الشيخ ابراهيم الخزامي أن يندب للمرأة أن تتزين ببعض الحلي إظهاراً لنعمة الله على عبده .

هذا كلام طيب .. فالسيدة التي استطاعت أن تملك قطعة من الصيغة عقداً من اللؤلؤ أو طوقاً من ألماس من الخير أن تباهي بماتملك تحدثا بنعمة الله .

أما أختنا هذه التي تستعير القطعة من جارتها أو قريبتها أو تدفع أجراً لمالكها لقاء أن تتزين بها ليلة واحدة تتمخطر بها أمام المشاهدات وليس بين المشاهدات إلا من يعرف أنها ملك فلان أو علان فهذا شي لم أفهم معناه بعد ولم يحدثني شيخي الخزامي بما يفسر مغزاه .

أنسمي أختنا عارضة أزياء مكلفة من أصحاب المال أن تعرض مقتنياتهم على الحاضرات ؟

لا أعتقد أن بين المشاهدات الفاضلات من تستطيع أن تقنعني بغير هذا التفسير .

وي يا أختي شوفي عقد آل فلان اللي لابسته ألست اللي وراكي .. شوفي كيف اللولو كيف يصقل مصاقله ..

إذاً فالفخر في صقاله وجماله سيعود إلى أصحاب الملك وليس للست التي أماطته بجيدها إلا نصيب عارضة الأزياء مع فارق واحد هو أن عارضة الأزياء تحقق ربحاً مادياً من عملها في العرض أما أختنا هنا فأكبر ظني أنها تؤدي خدمتها بالمجان .

شيئاً من الفهم يا اخواتي إن مجتمعنا كأي مجتمع عاش و يعيش على وجه الأرض يضم الغني والفقير وصاحب الدخل المتوسط فإذا أبينا جميعاً إلا أن نغالط لنظهر بغير المظهر الذي يدل عليه مستوانا فتلك مكابرة لا جدال فيها .

شيئاً من الفهم يا أخواتي ..

ومع هذا فمجتمعات بلادنا تكاد أن تكون محدودة بمعنى أن السيدات الحاضرات في أي حفل قل إن يجهل بعضهن بعضاً .. كل واحدة بينهن معروفة أسرتها معروف مستواها في الغنى أو الفقر فأية مغالطة تتكلفها ألست أمام الحاضرات لا تغير شيئاً في أمر مستواها .

وشيء آخر مهما غالت الفقيرة في ثمن الفستان الذي تلبسه فهي لا تستطيع أن تضاهي نوع الفستان الذي تلبسه فتاة من بنات الأغنياء .

فإذا صح هذا فسيكون البون شاسعاً بين الفستان العادي فوق جسم الفقيرة و بين قطعة الماس التي تتحلى بها إعارة أو تأجيراً وفي هذا مدعاة للهزء والسخرية .

أي أخواتي لقد عالجت البلاد المتمدنة تلك التقاليد البالية التي كانت تتجلى في مشاكل الحلي من المصوغات فنساؤها اليوم لا يتحلين إلا بالأنواع المقلدة من الحلي الزائف .. حتى الأسر الغنية التي تملك القطع الثمينة من النوع الأصيل اكتفت بإيداع ما تملك باطن الصناديق المقفلة و باتت تتزين (بالفالصو) اعتماداً على دقة صنعه وجمال بريقه فأي مانع يمنعنا ونحن جماعة شطار في المتابعة والتقليد أن نحذوا حذوهم .

لقد سرق أكثر سيداتنا ألواناً من الموضة لا حصر لها سرقتها لملابسهن الداخلية والخارجية ولما لا أعرفه من شؤونهن الخاصة والعامة فأي مانع يمنعهن من سرقة موضة الحلي التقليد .

إنكن بهذا توفرن على أزواجكن تكاليف باهظة لا يستهان بها وتستغنين عن سؤال اللئيم أن يمد اليكن يد الإعارة وتترفعن بعد هذا أو قبله أن تنزلن منزلة عارضات أزياء .

وتسلمن من مشاكل الضياع التي تعرفن حوادثها وما جرت من ويلات ومصائب على المعيرين والمستعيرين .

و بعد فهل يرى أخواتي في كلما قلت شيئاً لا يستحق العناية والتأمل .

أخي المشاهد .. أختي المشاهدة

حديثي الليلة أو حكايتي بالأصح عن الأب الذي جاءني خبره .

بل سأتكلم في شخصه إلى كل أب يجعل من ابنته سلعة يؤمل من ورائها الربح .. يؤمل أن يجعل منها بضاعة يثرى على حسابها دون نظر إلى حساسية فتاته ودون أن يجعل لعواطفها أي معيار في ميزانه .

أليس هذا صحيحاً يا أخي الأب ؟ أليس صحيحاً ما بلغني من أنك عقدت عزمك على قبول الخطوبة التي تقدم بها إليك العجوز الثري وأنت تعرف أن كل مؤهلاته خزانه طافحة بالأحمر والأخضر والأصفر وإن كل مبرراتك انك (ناوي تغمّس اللّبة) .

نسيت أن فتاتك في عمر الورود وأن عريسك رجل أوفى على السبعين إن لم يكن قد تجاوزها .

نسيت أن فتاتك في عمر تحس بإحساس كل فتاة وتشعر بشعورها وأنها تتألم كما يألم كل مغبون مقهور وهي ترى والدها يقدمها ضحية على مذبح أطماعه (إسمعي كلامي يا بنتي وخلينا نعيش في طرفك) أنسيت أنك تقتلها بكل خطوة وتنقلها إلى بيت غريمها العجوز وأنك لا تكاد تهيىء لسعادتكم بما ظفرت من ثمن حتى تكون قد أجهزت عليها وقضيت على حياتها إلى الأبد .

فهل تساءلت في أعمق أعماقك : بأي ذنب قتلت هذه المسكينة ؟

وبعد .. دعني أنتقل إلى أفق آخر جاءتني منه حكاية لا تقل غرابتها عما كنا بصدده .

وحكايتنا هذه تشير إلى شخص مرموق ليس لي أن أذكر اسمه رأى أن يؤمن حياة فتاة الشاب فاختار له ما يرضي ذوقه الخاص دون أن يعير مشاعر الابن أي التفات أو يجعل لذوقه في الإختيار أي معيار .

رحت أسأله أتراك تريدها زوجة لك ؟. أم أنت تنوي تزويجها لابنك ؟

قال لقد وصفتها أمه بما لا يزيد عليه من الثناء فهي طباخة وهي خياطة وهي كفء لمهام بيتها قلت وهل فهمت من صاحب الحق ابنك أنه يسعد بزواجه من جهاز أو ماكنة للخياطة .

قال لست أعني هذا .

قلت ليس من حقك أن تعني بهذا أو بغيره لقد أسديت معروفاً يوم تفضلت فأعلنت استعدادك بما يلزم لزواجه فلا تعكر صفو ما تفضلت به إن كنت تنوي بحق أن تهدي إليه ما يسعده (يعني بركة عطر لا توسخ فيها) .

من حقك على نفسك أن تقف عند الخطوة التي أعلنت فيها استعدادك لتترك ابنك يبحث ما يتفق مع ميوله و يوافق مزاجه .

إخواني المشاهدون . .

كأني أحس الآن بما يشبه الهمهمة تلوك بها بعض مجالسكم مما يتعذر على تعيينها وتحديد مواقعها وكأني أتبين من خلالها حروفاً تنطق ببعض السخرية (ما بال هذا الأبله الحكاي يشايع الفتي الفرير و ينسى تجارب الأب ودربة السنين) وهي سخرية أرى أن لها وجهاً من الحق إذا ثبت أني أنكر على الأب حق التجارب .

إني يا سادة أول المقتنعين بضرورة ما تمليه التجارب ولكني أتمنى أن لا ننسى مزاج الفتى وميله العاطفي إلى جانب تجارب أبيه .

من حق الوالد أن يدلي بتوجيهاته ونصائحه ومن حق الابن أن يستنطق أحاسيسه على ضوء ما اجتمع إليه من إرشادات أبيه .

أخي المشاهد .. أختي المشاهدة

وحكايتي الليلة حكاية لها معنى غريب شائك .

ألم أقل لك قبل اليوم أني رجل حكاي أكثر مني محدث أو محاضر ..

فإذا لذّ لكم أن تسمعوا مني وإلا ففي برامج التلفزيون من المحاضرين والمحدثين ما يغنيكم عن حكّاي مثلي ..

حكايتي الليلة عن قريب لي مات والده وتركه واخوته على (الخصف)

لقد كانوا خمسة أخوة أكبرهم رئي يلعب الكبوش قبيل خروج الجنازة لأن سنه الصغير لم يقدر معنى ما حدث في البيت .

لقد تعاون الجيران والأقارب على الأنفاق على الجنازة تكفينها وتجهيزها ودفنها رحمة بالأسرة التي تركها لا تملك شروى نقير .

إلى هنا والأمر بلغ غاية المعقول ولكن ما حدث بعد هذا يثير الدهشة و يدل على أننا نعيش في دوامة لا تتفق مع منطق ولا يقرها عقل .

كيف يا أخي هذا فلان اللي مات الله يرحمه كان على رغم فقره صاحب موجب .. عمره ما يتأخر عن الواجب عاش يا أخي كبير لازم يموت كبير .

برضه الناس بالناس .. تقدر الست الوليه الأرملة تشوف طريقة من هنا وإلا من هنا .. تقدر تستلف ولو ألف ريال وتكبر يوم الرجال .. بلاش كل يومين ثلاثة وجبات للحريم .. لا .. هي واحدة مرة تسويها قطع عزا وتخلص من الناس .. ها .. أجل أيش نقول للناس .. أيش نقول للستات المعزيات .. يسير لا دي ولا دي ولا بنت اللّدي .. لا مو صحيح لا بد من قطع العزا .

وهكذا أبت التقاليد إلا أن تظفر رغم كل أحوال الضنك التي تحيط بالأسرة المنكوبة .

نسينا أن نفكر في أمر أيتام خمسة لا يجدون ما يطعمهم أو يكسيهم .. نسينا أن ندبر لهم حياة تعيينهم ليعيشوا ولو على الكفاف . نسينا كل هذا ولم نفكر إلا في ميّتنا الكبير كيف يعيش كبيراً

ولا يموت كبيراً .. كيف ننسى واجب التقاليد مع رجل يفهم الموجب .

لقد كنت على كثب يومها من المجلس التقليدي فقلت يا قوم لنصفع هذه التقاليد ونلعن خاشها دون أن نبالي بمن يقول وما يقول . حسبنا أن نفكر اليوم كيف نؤمن حياة هؤلاء الأيتام ..

لقد كان لوالدهم مرتب في الضمان الجماعي فما يمنعنا أن نساعد الأرملة لتقدم إلى أولياء الأمر بما يفصل حالها وحاجتها ليضيفوا إلى مرتب الأب ما يساعد على تنشئة الأولاد وتربيتهم .

قال لي اعقلهم اطمئن سوف نفعل هذا بعد أن نفرغ من أعمال الواجب ونؤدي ما علينا للفقيد الكريم الذي عاش رحمه الله لا يفرط في الموجب .

ألا يا قوم هل بينكم من يعرف عقلاً أميز به أمثال هذه المفاهيم الشائقة ؟

يسألني طويلب في سنته الأولى من المتوسطة كيف يا عمي كنتوتقضوا أيام العطلة ، وأيش تسوا فيها .

ما أحلاك يا صغيري .. أتحسبنا كنا مدللين ، بالصورة التي تتمتعون بها اليوم .

كان الأولى بك أن تسألني هل كانت لديكم عطلة ، لا بل هل لديكم فسحة .. أثناء النهار الدراسي .. لا بل تسألني كيف تدرسون ، وكم ساعة تستغرق دراستكم في اليوم .

اسمعني يا صغيري كنا لا نعرف العطلة إلا في الجمع والأعياد وأيام الموسم التي تزدحم فيها مكة بالحجاج ، وهناك استثناءات في أيام الغيوم والأمطار .. والله يا سي الشيخ دحين المطر تغرق البيت ، كمان يا سي الشيخ السقوف عندنا تخرخر .. والله أنا كمان يا سي الشيخ دحين السيل يدخل دهليزنا .

و ينظر الشيخ طويلاً هذه الجباه الصغيرة .. التي ارتسمت عليها البراءة في دقة (اصطنعتها فراخه متناهية) فلا يلحظ الشيخ فيها إلا ما يرضي سذاجته .. و بذلك لا يملك إلا أن يهيب بجميع الطلاب هيا (فيدوس) .. هيا اخرجوا ألحقوا بيوتكم وليس بيننا من يلحق بيته بحق ، **لأن** (الترويش) تحت المطر لذيذ ننسى معاه ثيابنا المكوية المنشاة ، وننسى محافظنا فوق رؤسنا ولا يصل أكثرنا إلى بيوتهم **إلا وقد جعل المطر من أثوابهم ودفاترهم وأوراقهم عجينة سائلة .**

لا تعجب يا صغيري ، فقد كان جوع الإنطلاق ، والمرح والجري يهيئنا لكل هذه الشقاوة عند أول فرصة يواتينا فيها الظرف .

كانت دراستنا اليومية حصصاً متسلسلة إلى الظهر دون انقطاع فإذا آن أوان الظهر انصرفنا للغذاء ثم عدنا لنستأنف الحصص إلى العصر ولما ابتدعت بدعة الفسح بين الحصة والأخرى كان نظام الحصة ستين دقيقة وافية كاملة ، تعقبها فسحة عشرة دقائق نترك فيها الفصول إلى الدرج والدهاليز نتفسخ فيها .

ألم أقل لكم يا صغاري أنكم اليوم مدللون .. لقد قامت قائمة كبارنا يوم ابتدعت الفسح .. هادا ايه .. هادي بالله مدارس .. مدارس إيه .. اللي ما تدخل على الأولاد إلا تلتقيهم يلعبوا . هذه أصوات الإستنكار التي قوبلنا بها اليوم يوم ابتدعت الفسح في المدارس .. ترى ما رأي

كبارنا أولئك ، لو شافوكم اليوم مفلوتين لا شهر ولا اتنين ولا تلاتة .

وبعد أتسألني يا صغيري كيف نقضي عطلتنا بعد الإنصراف مساء كل يوم وأيام الأعياد والجمع .

إن الأكثرية الساحقة منا مربوطون من طريق آبائهم ، بحلقة أو أكثر من حلقات المسجد هيا يا واد شيل محفظتك على الحرم الحق الدرس درس النحو عند الشيخ المنصوري وإذا صليت المغرب شوف جنبك حلقة الشيخ بابصيل علشان تحضر درس الصرف وبعد العشاء تلاقيني قدامك في درس الشيخ الشنقيطي .

هذه برامج عطلاتنا اليومية ، أما عطلة الجمعة فربما كان أمرها أيسر عند بعضنا روح يا ولدي العب شويه في البرحة لكن لا تجي الساعة خمسة من النهار إلا أنت جنبي في الحرم عشان تسمعني الجزوين اللي غيبتها أشوف حافظها زي البلبل وإلا لأ .

هذه عطلاتنا يوم كنا ، فهل يسمعها صغارنا المدلّلون .

حديثي الليلة أو بالأصح حكايتي فأنا رجل حكاي أكثر مني محدث أو محاضر .

أقول حكايتي الليلة لا تزال في بند الستات أما اخواننا الخشرين فسألتقي معهم في وقت لاحق ليش ؟ ! ـ لأن ستاتنا يتمنوا يكونوا قدامنا في كل شيء .

حكايتي الليلة تتلخص في كل عزابنا من الشباب يشوفوا الستات هم العترة الوحيدة في سبيل إكمال دينهم .

وي يا خويا .. هي فرحة العمر .. هو كل يوم نبغا نزوج بنتنا .. لا .. لا شوف فلانه حطوا لها أربعين ألف غير الثلاجة والتلفزيون والغسالة والبكب والبوتوغاز .

ليش هي فلانة أحسن من بنتنا . يا سيدي قدامها نصيبها .. أما شيء على أصله وإلا ربنا يسهل عليه .

وهكذا .. هكذا أيتها الأخوات الله يسهل عليه .. وكما يسهل على اللي بعده .. واللي بعده .. وتفضل بنتنا تخمر عليها العيش .

وي أيش بك يا بنتي دي الأيام زي المسحورة .. إنها ليست مسحورة ولكنها الآلام النفسية تضغط على صدرها فتذيب حيويتها وتطحن جسدها وأنتم على كثب منها لا يهمكم من أمرها إلا أنكم تنتظروا الخطيب المليان اللي يكيد العدو .. استني يا حمار حتى يجيك العليق .

ارحموها يا ستي فهي ما خلقت لتعيش خدامة لطامه عندكم .. خلقت ليكون لها بيت تسميه بيتها وزوج تفتح له صدرها وأطفال يناغونها فتناغيهم .

هذا ما كان من أمر فتاتنا البائسة .

أما فتانا الغلبان فنسي أنه جديد على الحياة هو يا دوبه طالع .. من فين يجيب .. لا .. لا احنا مالنا شغل .. بلاشي عليه جواز .. وإذا كان أبوه ماعنده فالناس بالناس .. يقدر يا ستي يستلف وربنا معوض .. هذه بنتنا مسكينة ما شافت دنيا .. ما نصرها ونرسلها هي ما هي غنمه .

لا بأس ها نحن قد أرهقنا الوالد والد الفتى ثم ملنا على الأصحاب والأقارب الف من هنا

وألفين من هناك وها قد زرنا معارض التقسيط كفالات هنا وسندات هناك فهل ثمت بعد هذا ما نخشاه .

هنا جاء دور الست والدة العريس : « وي يا خويا بلاشي فضائح قرش الزفاف مخلوف .. والله نبغي نفرح بك .. هي ليلة العمر » . شوف أبوك يمكن يشوف واحد من أصحابه الناس ما تتأخر عن بعضها قم بس انت « الحركة فيها بركة » والله ما احنا مخلينها الأزهر .. و بكرة على رب بكرة ..

صحيح يا ستي بكره على رب بكره ولكن رب بكره قال بل الإنسان على نفسه بصيراً وقال لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة .

ماذا يفعل مثل هذا الفتى وقد أثقلتموه بكل هذه الديون .. ترى كيف يواجه الحياة هل يختلس .. هل يسرق .. هل يمد يده لذل السؤال .

إنكم في سبيل فرحة العمر .. في سبيل ليلة واحدة « هيصتم » فيها .

حكمتم على فتاكم بالشقاء والبؤس .. حكمتم عليه وعلى زوجه أن يعيشا إلى سنوات لا يعلم عددها إلا الله محرومين منكوبين وربما حكمتم على أطفاله بأكثر من هذا .

شيئاً من العقل يا أخواتي فقد أجمع الفتيان والفتيات وأجمع سائر الغلبانين من الرجال أنكن مصدر كل هذه المشاكل .. وأنكن في سبيل أن تكيدوا بيت فلان وتتفنجروا أمام بيت علان في سبيل أن تحيوها ليلة بها الحادي والمنادي لا تبالون بالعواقب مهما كان شأنها ولا يتبادر إلى خيالكم مبلغ ما سوف يعانيه فتاكم بعد تمام الأفراح والليالي الملاح .

بين صفوفكم اليوم عاقلات .. ولعاقلاتكن اليوم ندوات وجمعيات فما يمنعهن أن يتفقن على قرارات يبدأن بتنفيذها في بيوتهن لتكون بيوتهن قدوة .. إني أتمنى ذلك وما هو عليهن بعزيز .

حكايتي الليلة حكاية بعض الشطار الذي يسيئون إلى سمعة بلادهم في نظر الحاج دون أن يبالوا بما يترتب على ذلك بالنسبة لسمعتهم كجيران لبيت الله .. خليك يا عمي (اللي تغلبوا العبوا) .

أنا أعرف أن هذا النوع من الناس والحمد لله قلّة وأن عددهم أخذ في النقصان بعد أن انتشر التعليم وعم المدن والقرى ولكن مهما كانت هذه القلّة ضئيلة العدد فإن حوادثها القليلة ستترك أثراً

سيئاً ستتناقلها الألسن من وسط إلى آخر حتى يشيع أمرها وربما صادفت من يخلق من الحبة قبة فتنتهي النتائج إلى نهاية لا تشرف بلادنا .

ربما صادفنا بدوي يعرض قارورة ملأها بسائل أبيض وسماها للحاج لبن العشار أو فرعاً من (الشواحط) العادية سماها عصا موسى .

ربما صادفنا حضري يؤكد أن قاشه سليم الفتلة أو أن عطره لم يعرف الخلط وأن سبحته من خشب اليسر الخالص ثم ثبت للحاج أي لون من الحيلة مهما كانت ضآلته فإن سمعتنا سوف تتعرض لما يخدشها ويسيئها .

كأني أرى بين مجالسكم الآن من يصعّد نظره في وجهي ساخراً : هذا أخونا ما عرف إلا الحضري والبدوي ونسي حضرته ألوف الطارئين من أجناس الحجاج الذين يندسون بين الباعة ويملؤون الأسواق .

أنا لا أنكر هذا ولكن هذا لا يخلينا من المسؤولية ففي رأيي أن على المواطن الغيور لبلاده أن يجند نفسه لخدمتها.. (يعني ما يمكن أشوف واحد أجنبي يحاول أن يزيف على حاج ثم أرخي رأسي وأمشي لأني بهذا أعطيت للحاج فرصة يتهم فيها بلدي وأهل بلدي بالغش دون أن يدري) .

على أن هذا ليس معناه أن الغش وقف على الحاج المدسوس على الباعة في بلادنا فلدينا كما قلت أقلية وإن كانت ضئيلة ترى أم من الشطارة أن تكون فهلوي (اللي تغلّبوا تلعبّوا) .

لا يا أصحابي إن سمعة بلادنا أفضل من أي كسب تحققه في أسلوب غير مشروع .

وفي سبيل أن نخدم هذه السمعة لا يكفي أن يركن النزيه إلى نزاهته (وتشقى لمن تلقى) .. وكيل ما هو كيلك لا تحضر كيله تتغبر ذقنك وتتعب في شيله .

لا .. لا لا يا أصحابي .. فهذا شيء لا يقره غيور على بلاده .. يجب أن لا نقر شاطراً على شطارته الكذابة .

لا أريد أن أقول : حط ايدك في حلقه وسويها دشمان ذلك أسلوب لا يقره رجل متحضر .. تستطيع أن تستخدم لباقتك في إفهامه مبلغ الإساءة التي يقدمها بمثل هذا العمل لبلاده فإذا عجزت فلا أقل من أن تستنكر فعله بقلبك .. وذلك أضعف الإيمان .

أخي المشاهد .. أختي المشاهدة

استاء مني بعضهم وجاء من يصارحني : أنت يا راجل بس تهبّش كلام ؟ يعني انت موعاجبك تربية الناس .. ؟ خلي الناس في حالها ! ! يعني انت ما تشوف نفسك .

الحقيقة أنا أشوف نفسي وأعرف من حقائقها ما لا تعرفون ولهذا لا أجدني راضياً عنها كل الرضا بل ولا بعض الرضا .

وإذا لذّ لكم أن تسمعوا مني ما أتهم به نفسي فإليكم الجوانب الآتية ..

أنا قبل كل شيء إنسان مدلع وأنا عندما أقول مدلع أعني هذا بكل معانيه .

صحيح أنا راجل شحط أمامكم عريض الأكتاف ضخم الكراديس تشوف القبة تحسبها مزار ولكن جوتها كله حجار . أنا إلى اليوم أخاف من الشمس أمشي فيها ، أخاف من البرد لا يصفقني لا أعرف كيف أواجه مدلهمات الأمور وعظائمها .. كثيراً ما فوّت على نفسي مئات الفرص بسبب عزيمتي الخائرة ولقلة شجاعتي تجدوني أتلمس طريقي في الحياة من أهون السبل وأكثرهاطراوة وأتجنب الطرق الشاقة مهما ثبت لي نجاحها .

لماذا لأني رجل نشأت على طراز أمي الحس مسني وأبات مهتي وهو أسلوب كما ترون لا يواجه الحقائق بقدر ما يزوغ منها فهل تستنكرون اليوم إذا أنا عمّيت الحقائق على نفسي ولبّست الأمور عليها وعشت كالنعامة تدفن رأسها في التراب حتى لا ترى الصياد .

لم تخطىء أمي رحمها الله فقد كانت بنت جيلها وكانت معلوماتها عن الحياة مستقاة من معارف جيلها لا في بلادنا وحدها بل وفي أكثر بلاد الشرق فيما أفهم .

ولكن ألا يزال بيننا إلى اليوم من يدين بأمثال هذه النظريات ؟ ؟

هذا ما أخشاه فنحن في أشد الحاجة إلى نشء جديد يواجه الشمس و يتحدى البرد و يمشي إلى المجهول بقدم ثابتة يقتحم الأبواب دون أن يهابها و يواجه الحقائق دون أن تثبط عزمه الوساوس أو تفل إرادته الأوهام .

نحن في أشد الحاجة إلى أم تعلم طفلها كيف يرفع صدره توحي إليه أنه رجل وأنه أهل لثقتها

وأنه على صغره كفء لأن يحميها نفسها ـ (بكره يا ولدي تسير سيد في بيتك وكبير في أهلك .. بكره تمشي قدامهم وتفتح لهم أكبر باب) في أسلوب دبلوماسي معتدل دقيق لا يهيىء للغرور .. هذا الإيحاء يترك أثره في نفسية الطفل فينشأ ثابت الجنان قوي الشخصية لا تغريه الطراوة ولا تلذ له الميوعة ولا يدلع نفسه إذا داهمته الحياة ، كأنه نونو جميل .

هذه التربية الحاذقة نتمناها في إخلاص لنشئنا الجديد لئلا يفشلوا .

أنا أيها السادة والسيدات امتداد لأمّي .

كانت رحمها الله على غرار جيلها ـ (يا واد غطي راسك من الشمس ـ يا واد زرر ثوبك من البرد) ولدي يا حبيبي يا دلوعة أمك يا حبيبي .. لا تفتح الباب لحالك يكون شيء ورا الباب يفجعك .. لا تمشي في الظلام ترى باسم الله الرحمن الرحيم يندرو في الظلام) .

فإذا أنشأت دلوعة أخاف الشمس وأخشى البرد فلا عجب في هذا فقد تركت هذه الرواسب أثرها في تكويني .

وإذا رأيتني أجبن عن اهتبال الفرص وأفوت على نفسي كثيراً من فوائدها فلا غرابة فيما أفعل فقد غرست أمي في نفسي الخوف من اقتحام الأبواب خشية أن يكون وراءها شيء يفجعني .

وإذا ساءك من هذا الشحط تردده عند مواجهة الأمور وإذا رأيت هذا الطريء الذي تشاهده أمامك على طوله وعرضه يخيب ظنك في أدق المواقف فلا تلحاه فقد هيأته أمه أن يتوقى الظلام و يخاف المجهول تحاشياً (من أن يندر عليه حقّون باسم الله الرحمن الرحيم) .

ولا أعتقد أن بينكم من يجهل أن حقّون باسم الله الرحمن الرحيم (هو الجن الذي لا يجوز أن تسميهم بأسمائهم لأن ذكرهم في الكانون .. حسبنا أن نكنى عنهم بقولنا بسم الله الرحمن الرحيم .. بسم الله على دمنا ولحمنا .

أخي المشاهد .. أختي المشاهدة ..

حديثي الليلة واقعة حال .. تلقيت فيها من أحد الطلاب خطاباً يقول فيه كنت تحدثت قبل اليوم عن أسلوب التعليم في زمانكم وما كنتم تبذلونه من مشاق وأنتم تواصلون الدراسة الصباحية بالمسائية دون أن تتخللها فسحة كافية للإستجمام ثم تتبعونها بحصص ليلية لا تقل وطأتها عن الحصص النهارية فهل كان هذا هو كل الفرق بين أسلوب التعليم في العهدين .

وللجواب على هذا .. أرجو أن تسمعني .. كان أستاذ الأمس يعني سيدك الشيخ في المدرسة ما يعرف هادي الفرقلة اللي زاد حالها هادي الأيام وكان ولي أمر الطالب في أغلب الأحيان لا يرى إلا أن اللحم لك يا سيدي الشيخ والعظم لنا لأنه يعتقد عن يقين بصدق الحكمة القائلة (رب ولدك وأحسن أدبه .. ما يموت حتى يفرغ أجله وأن عصاية الشيخ في المدرسة من الجنة) .

أنا لا أقول أنها فكرة سليمة ولا أتمنى لو بقيت سائدة إلى اليوم .. لا ولا أقول أن الفرقلة اللي عاشت بين طلبتنا هي أسلوب الحياة الصحيحة فهذا ليس بحثنا لا يزيد عن عرض بعض الأساليب الشائعة بين العهدين .

كان الشيخ في المدرسة يرى أن معدل الجلد بين عشرين أو ثلاثين ضربة على الرجل أو اليد معدل معقول لمتوسط الأخطاء ومتوسط التقصير وأن من الحق أن تزيد عدد الضربات كلما زاد مستوى الخطأ .

لعلك ترى أنه أسلوب بالغ القسوة .. إني أوافقك على هذا بل أزيد فأدعي أن هذه المبالغة أدت إلى رد الفعل الذي أنهى أمره في عهدكم إلى إلغاء الضرب بشكل يكاد أن يكون باتاً .

أتسمعني .. أرجو أن تواجهني بكل حواسك فلي إليك سؤال ..

أيش رأيك اليوم في إخوانك الطلبة وأنت شايف ناس كثير منهم نسيوا حقوق الأستاذ في الوقار والحشمة .. ليس يا أخي أيش لو علينا احنا محنا عبيد أحد يقل لي كلمة ما يلوم إلا نفسه .. أنا إنسان حر ما استحمل الكلام الزائد .. قال أيش يقول لي قوم اندر برّه من الصف .. طيب ماني نادر من الصف أشوف أيش أيسوي .. وإلا قال إيه قال شافني أشرب سيجارة طيب ما هي فسحتي .. قال بدّو ينصحني لا ينصحني ولا شيء أنا أنصح عشرة زيو .

هذا ما انتهى إليه إلغاء الضرب فهل حمدنا العاقبة .. أشوفك قدامي يا أخي السائل راخي رأسك ليش ساكت هل تنتظر أني أقولها .. أنا لا أرى إلا أن ـ الأمر يحتاج إلى كثير من الحزم على أن لا يكون الضرب وسيلتنا الوحيدة للحزم وقولهم عصاة الشيخ في الجنة خرافة لا يمكن سماعها وفي هذا دراسة واسعة يجب أن نفرد لها بحثاً خاصاً .

وهناك فرق بين طلبة اليوم وطلبة الأمس .

كان المصروف الجيبي للطالب لا يزيد معدله عن هللات .. أرى في مبسمك ضحكة ساخر كأنك تريد أن تقول لي ولم تنس القوة الشرائية التي كانت للهللات بالأمس .

طالع فيّ ، يا أخويا المسألة موبس القوة الشرائية .. كمان في شيء ثاني .. ما كنا نعرف الكاكولا ولا السينالكو ولا الجاغالكو ولا هذه الأصناف من علب البسكويت والشيكولاته الغالية .
كان مشروبنا السوبيا أو منقوع الحمر أو الزبيب وكانت حلاوتنا فشار معجون بالسكر أو سكر معجون بالدقيق نسميه فوفل جنجاوي شغل بنات الجاوي أو سكر معجون بالسمسم أو بالنارجيل وكانت فاكهتنا الجزر الأسود التمري الجزر اليماني وكان مجال التسالي واسعاً من القصفص والحمص من المقلاه يا مجوهر للنبق التفاحي للوزر البجلي للمخيّط للوزر المندي ، للبن الدجاج لدجاج البر وطبطاب الجنة وكنا نحدق باللّبم مع الشرش أو القتة العجوري إلى مغموسة في الشرش .. لعلك تعرف الشرش إنه ماء وملح وماء لا تعرف لذته يا صغيري إلا إذا غمست في الشرش .. لعلك تعرف الشرش إنه ماء وملح وماء لا تعرف لذته يا صغيري إلا إذا غمست فيه اللبم أو القثاه ورحت عليها باللاهط .. أقول اللبم وهو غير البرتقال اللي أصبحتم تتهادونه حبات بعد حبات .

هذا التفكير بل هذه المشروبات وهذه التسالي كانت لتواضعها تكفيها هللاتنا المتواضعة وكانت صالحة حتى للجبا شويه حمص في يد زميلك أو وصلة سمسمية أو حبة فوفله قامت بالموجب .

أما اليوم فشروبك من الجاغة لكويكلف ربع ريال تقدر تضيف عليها كم ربع وأنت تناول صاحبك من هنا وزميلك من هناك قارورة بعد قارورة أما هدايا أصابيع الشيكولاتة أو قراطيس النعناع أو الليمونية أو حبات البرتقال والتفاح فحدث من تكاليفها ولا حرج .

رحم الله أيام النبق والمخيط وأعان الله أولياء طلبتنا اليوم على تسليك الريالات .

أخي المشاهد .. أختي المشاهدة

يعود الحديث إليكن الليلة يا أخواتي المشاهدت في سياق لا أدري كيف جاءت مناسبته .

مما ألاحظ في أكثر بيوتنا أن القليل جداً من سيدات البيوت من يهمهن موضوع المقارنة بين الدخل والصرف .

هذا موظف محدود الراتب وذاك رجل يتعاطى البيع والشراء في السوق ولا يحقق كسباً ذا قيمة وذلك شخص يمتهن حرفة ضئيلة الدخل .

كل هؤلاء لهم بيوت . وفي بيوتهم أطفال صغار وكبار يعولونهم وعلى رأس كل هؤلاء زوجة تمثل مركز سيدة البيت أو مديرته أو بالأصح تمثل مركز وزيرة المالية فيه .

وإحنا نعرف وزير الماليةدا لازم يكون صاحب بصيرة يعرف أيش القرش دا أيش معناه و يعرف فين يحطه وإلا اضطربت عليه وظيفته ، وعرض بيته للإفلاس .

لا يا أختي لا تزغري فيّه بهادا الشكل ، ولا تتشامقي بيّا يمكن انت ست مدبرة صاحبة حواس تعرف اللي لك واللي عليك ، فالهرجة إذا ما تخصك ولا تعنيك .. خليني أهرّج مع اللّي انت عارفاهم .

أهرج مع الست اللي ما يهمها كم مدخول زوجها .. ما تعرف غير هات .. هات حتى تجيب لو المهَات .

يقول أبو سنبب في النكتب التي يرويها أن الراجل قال لزوجته أنت ما عندك طول النهار غير هات .. هات .. هات يعني ولا مرّة ما تقولي خد .. فقالت الزوجة طيّب خد المسجل صلحه .

ها أيش رأيك موصحيح دا الكلام ؟

أنا أعرف ناس ، غيرك أنت طبعاً يا ست لأني ما أعرفك .. أعرف ناس كل يوم في مغنى جديد على هذا المهَات .

يا ستي أنا مدخولي كل يوم ما يزيد على الشيء الفلاني وهادا الشيء الفلاني يا هل ترى

يكفي المقاضي والا الكساوى والا حاجات البزورة والا مصاريف الروشتات للوجعانين .

كل هادا يقولوا زوجها المسكين وما فش فائدة ، تقول هو ينفخ في قربة مخروقة كل يوم اللي يعيدوا يزيدوا ، ولكن مع مين ، مع الست المصون .. استنيني .. هادي طينه وهادي عجينه .

إن هذا العناء الذي يكابده الزوج المسكين في سبيل أن تفهمه شريكة حياته وأن تحس بإحساسه وتشعر بشعوره ، في غير جدوى هذا من شأنه أن يصرم حبال الود ، يوماً بعد يوم آخر ، حتى ليصبح اليوم الذي يعتقد فيه الرجل أن مديرة بيته ليست معه بقلبها وأن علاقتها به لا تزيد عن عنايتها بقضاء مآربها وإذا رسخ هذا في دهن الرجل ، فالويل للبيت ومستقبل البيت . الويل للبيت يوم يتراءى للرجل أن عدم عنايتها بظروفه المالية دليل على بغضها له وعدم محبتها .

يقول لي صديق وهو راجل على قد حاله ودكانه لا يربح إلا يا دوب رجلك على قد فراشك .. يقول هذا الصديق (المسألة تقول لهم تور يقولوا لك أحلبه .. طيب كيف أحلبه ؟ ما لهم شغل لازم تحلبه .. تقول وطمت الطامة هادي اسنين لما اخترعوا هادا الشيء الجديد .. تجي الست قال تبغي تهرج عندها عصرية .. كان زمان فنجان القهوة أبو النانخة ساير ويمكن جنبه براد الشاي ؟ وإذا طلع الطوق لفوق بالكثير بكرج الحليب على الدفه يعني هادي لمن تزيد فوق الفوق .

تعال شوف يعني لازم قوارير الكاكولا وعلب العصير من كل شكل في الثلاجة .. دايما هو يا هو بلكي يجينا أحد على الغفلة .

طيب مرحباً هادى يكفي .. لا كيف يكفي الناس دحين يا خويا يعبوا علب البسكويت الكبار أم ٣٠ ريال وعلب الشكولا ته وجنبها يا سيدي فاكهة والا تنين هادا ما لو شغل القهوة هيا والشاهي هو بس هاد من باب التزلكة كمان شوية فستق شوية حلاوة نعناع .. كدا يا خويا الناس لازم يعرفوا واجب بيتهم مو تخلينا قشقلة قدام الناس .

حاشاكم يا اخواتي من هذه اللي تسمونها (قشقلة) ولا أعرف كيف تسمى بلغة العرب حاشاكم منها ، ولكن أليس من القشقلة أن ترهقي زوجك بالديون وتحيلي حياته إلى جحيم ، تنتابه فيه الوساوس والأوهام وتترك أثرها في صحته .. أي نفع ينالك بعد هذا ، إذا قلت الديون على زوجك فأسلمته للإسقام وتركته طريح الفراش ورت له ـ الآلام إنك مصدر شقائه وعلة الخراب في بيته .

مـو لازم يـا ستي لبيني للناس انك بنت سيدي وسيدي وأن جوزك حاله منغنغ ضيوفك يعرفوا أنـك مـنـت صـادقة فبلاش من الفنجرة الزائدة .. ليش ما تقولي لهم والله انتو حقكم طلي يندبح لـكـم لـكـن الـرجـال حالوا معذور دي اليومين .. هادا موعيب يا ستي الناس يشوفوا كدا يقولوا هـادي سـت مـر يحة ما يقولوا مسكينة تحب النبجخة الفارغة اللي في غير محلها .. ها أيش تشوفوا كلامي في محله وإلا أحسن تخربوا بيوتكم بهواكم على كيفكم والسلام عليكم .

رسائل مطوية

رسائل مطوية

يتراءى لي تناسق منظم بين عبث الأطفال في مراحلهم الأولى ودلال بعض الكبار وتجنيهم في مراكزهم المرموقة حتى لأخاله في بعض تناسقه متجانساً .. تتداخل معانيه .. وتتساوق عند نهاية واحدة .

ألم يصادفك عاقل في أسمى ما يكون عليه التعقل ؟ يستخذي لكلمة إطراء واحدة يزجيها لسان مفوه خبير بأفانين الإطراء فيترك أثر السحر في أعصابه و يحيله في لمحة واحدة إلى طبل تتجاوب في جوفه أصداء يختارها الضارب و ينظم ألحانها وفق ما يهوى ؟

أليس في هذا طفولة تتجلى في استهواء الأطفال واستخذائهم لما نجزيه لهم من كلمات الثناء والإطراء ؟ .

ألم تشهد عظيماً في دسته السابق يضطرب جهازه العصبي فتتوتر أعصابه و يستشيط غيظه فتهدهده بكلمات منتقاة وتغمزه بمعنى وشاه الزيف فإذا أعصابه تسترخي وإذا بين يديك طفل كبير تربت على كتفه كما تربت الأم على كتف صغيرها : « أنت حبيب أمك يا بابا » .

أما أنا فما أكثر ما صادفني من الأدباء الأجلاء والعلماء الأعلام والفلاسفة النابهين والقواد المغامرين والرؤساء المحترمين من تراودهم عن عقولهم حيل المتكلمين وتعمل المراوغة في إفهامهم عملاً يتدانيه كلمة جادة أو قول صريح واضح .

أليس في هذا طفولة لا يماري فيها إلا جاهل بطبائع الأطفال وأساليب تغريرهم ؟

أتراها غرائز متأصلة في طبيعة الإنسان عاصية على التشذيب لا تهذبها دروس الحياة ولا يحد من شافتها نضج واستواء .

صادفني في إحدى عواصم الشرق العربي كاتب مغمور حذق الاتجار بملقه في مجالس العظماء وأنشأ يحدثني عن طرائف شيقة كان يحتال بها على أفذاذ من رجال الصدارة في أمته وجره السياق فجرد لي من إضباره يحتضنها صورة مقال مفكك العرى يمتدح فيه أحد الأعلام

و يحله مقاماً لا تدانيه فيه النجوم كان مقالاً مغفلاً من العنوان ليس بينه و بين أن يتملق به أي كبير يصادفه إلا أن يتوجه باسمه .

وأرادني على أن أشهد براعته فيا يحتال فأقترح أن اسمي له كبيراً بعينه فاقترحت عليه اسماً نابه الصيت معروفاً برجاحته العقلية فأسرع يتوج المقال بالإسم المختار و يرجوني مرافقته إلى زيارته .

وكم كانت دهشتي عظيمة ونحن نغادر العظيم المختار و يده تندى في جيب المغمور لتترك فيها ورقة من فئة المبالغ المحترمة .

لا تدري وأنت تمر بمثل هذه الألوان من الحياة ما هي قيمة الرجاحة في العقل والنباهة في الشخصية إذا كانت لا تقوى على الصمود في مواطن الخداع ولا تملك من الحصانة ما يميزها عن سذاجة الأطفال .

وأخيراً : أهو تناسق منظم بين عبث الأطفال في مراحلهم الأولى ودلال بعض الكبار في مراكزهم المرموقة أم هو شيء آخر لم تبلغ اليه دراستي للنفسيات .

رسائل مطوية

(٢)

لا أستبعد إذا قيل لي أن الكلمات منذ اليوم بدأت تؤدي غير معانيها .. وتدل على غير ما كان يفهم منها .. أجل فأنا أسمع منذ أمد طويل أن الحرب انتهت وأننا في عهد من عهود السلم والطمأنينة ثم أسمع أن في الحبشة وارتيريا والصومال مراجل تغلي .. وفي الصين وفيتنام وكمبوديا نيران تستعر وأن لبنان تشتعل وفلسطين تصطفق والأفغان تحترق وأن مصر مضطربة وإيران متقدة وأوروبا متوثبة .. وأن مأساة المآسي في دسائس روسيا وطغيانها وتحفز أمريكا لحق أو لباطل وأن شرق المعمورة يرغي وغربها يزبد .

فيحيرني هذا ويربكني ويجعلني لا أدري أكل هذه الأحداث تؤدي معنى السلم أم أن تعديلات أخرى دخلت على معاني الألفاظ فأعطتها غير ما كنا نفهم من مدلولاتها .

ليهنأ أثرياء الحرب وأصحاب الجشع من مصاصي الدماء فالحياة تأبى إلا أن ـ تواتي شياطينها (والله من ورائهم محيط) .

رسائل مطوية

(٣)

لا يسيئني فيك شي ما تسيئني سطحيتك في كثير من أمورك وحكمك على الأشياء بما يبدو من ألوانها السطحية .

سمعت حديثك البارحة عن الرجل (الفاضل) وشهدت حماسك وأنت تعدد مناقبه فاستوت لدي فكرة صحيحة عن أسلوبك في فهم الناس . وعلمت أنك إلى حد ما لا تحسن تفسير الأشياء وفلسفتها .

رايت صاحبك يسمو في نظرك بالمحافظة الشديدة على قواعد المجتمع الذي ألفه واتزانه أمام التبعات التي يخشى مسئولياتها ثم باقتصاره على الوتيرة التي يحياها سعيداً بنفسه على هامش الحياة لا يكدره المعترك الصاخب وأخيراً سموه إلى الخلق الفاضل الذي يربأ به عن الدخول في فوضى الناس وإبداء آراء معينة فيها .

ليتك تدري أن مجموعة كبيرة من معاول الهدم وآلات التخريب لا تعمل في هدم كيان صاحبك عمل الثناء الذي كنت تزجيه عليه ليلة البارحة .

ما ظنك بشخص تربا به نفسه عن الدخول في فوضى الناس ؟ أيزيد في نظرك عن شخصية لم تكتمل نضجها بعد ؟ فلم يقو على مواجهة الحياة والدخول في معتركها ؟

ليس النضج نتيجة عملية لما تدرسه في بطون الكتب وأنت مطمئن على سلامتك سعيد باقتصارك على هامشها بقدر ما هو احتكاك بالحياة وإنشاء علاقات فيها وطيدة البيان شديدته .

وتركك في الدنيا دوياً كأنما　　　تداول سمع المرء أنمله العشر

وإذا صحت ظنونك جميعها في صاحبك فهو من ناحيته السيكولوجية طفل لم تستكمل بعد مؤهلاته للحياة ولم ينضج فيها تضوج الرجل الذي يقوى على مسايرتها .

وما محافظته الشديدة على قواعد المجتمع إلا مظهر من مظاهر هنة الطفولة التي لا تستطيع

مواجهة أي تفسير أو تغيير يطرأ على ما اعتاد رؤيته وألف اختياره في مناحي حياته .

وليس يصح في ذهنك فيما أعتقد أن تنتظر من طفل اعتاد ألواناً معينة واطمئن اليها أن يجرأ على تحمل مخاطر مجهولة في سبيل المبادرة إلى ما لم يألف .

إنه بذلك ينقصه عامل المخاطرة وهو ما لا يتيسر لطفل لم يكتمل نموه السيكولوجي .

وإذا كنت لا تنتظر منه أن يبادر إلى غير مألوفه فمن غير اليسير عليك أن تتصور مقدار ما يضطلع بالتبعات و يجرأ على مسؤلياتها لأنه بذلك إنما يعرض نفسه لمصاعب حافلة بالكثير من الأخطار التي لا تتفق مع حداثة سنه .

وقل مثل هذا في خلقه الفاضل الذي يسمو به عن إبداء آراء معينة لأن الآراء المعينة رهينة برجال كمل نضجهم وطال احتكاكهم بالحياة فاستوت لهم أفكار قوية يستوحونها عند الطوارىء و يعتمدون عليها إذا لزمهم الإعتماد بل يستطيعون أن ينفردوا بها مهما اشتدت الأزمات واعترك الصخب .

و بعد .. إذا كنت لا أستبعد على أخيك (الطفل) عجزه عن المبادرة إلى غير ما ألف . وخوفه من الإضطلاع بأية مسئولية يتعرض لمصاعبها فأنا جد مستبعد بأنه يقوى على تحرير فكرة يستقل بها دون أن توحيها إليه أمه .. أو أي فرد آخر من الذين تعود توجيههم ومساعدتهم .

رحمة لطيبة أخيك المسكين وفي طيبة بعض الأطفال ما سيتدر الدمع و يبكي الفؤاد .

رسائل مطوية

أيستطيع صاحبك وهو من عرفت حذقاً وحصافة رأى أن يدلني بجملة واحدة على غاية الحياة وظفره منها .

أرى أننا نجاهد فيها بأكثر مما يسع الجهاد . ونجالد بأرقى ما يطيقه الجلد . ولم أر إلى اليوم إشارة واحدة صافحتنا لتدل على الغاية التي نتوخاها ، ولم أسمع إلى اليوم شخصاً واحداً أشرف علينا من منبر عام ليقول .. « إنني انتهيت إلى الغاية التي تصبون إليها أيها الناس وتجاهدون من أجلها » .

ليس في هذا ما أرمي به إلى تثبيط الجالدين أو التقليل من شأن عزائمهم ولكنها حقيقة أريد أن أجابه بها عزيزاً مثل صاحبك . أريد أن أقول له فيها أنني وإياك دون القمة بكثير وأننا إذا كنا معجبين بنفوذنا أو علمنا أو بما ملكنامن نشب الحياة أو جاهها ففي الحياة ملايين لا يساوي جاهنا شيئاً في جاههم ، ولا يعدل قلامة ظفر من نجاحهم ، وإننا إذا جمعنا بهم جامع فلا أكثر من أن نستحيل إلى ظلال بجانب هياكلهم وتتقلص أوداجنا المنفوخة وأنوفنا الوارمة بجانبهم إلى خطوط أشبه ما تكون بصورة كاريكاتورية؟ومع هذا فقد ولوا مطأطئي الرؤوس وطوتهم دواليب الحياة فيا طوت دون أن ينتهوا إلى حقيقة واحدة تفسر لهم لغز الحياة وتحدد لهم غايتها .

إننا نستطيع أن نكون أهنأ بالاً مما نحن إذا خففنا من غلوائنا في تقدير أقيامنا في الحياة وإذا نحن استطعنا أن نطمئن للواقع الذي لا يجعلنا نغدو شيئاً يذكر بالنسبة لمن سبقنا آلاف الأشواط ومع هذا فهم يشعرون أنهم في مكانهم من الحياة .

ما ألذ أحلام المجانين وأحلى عيشهم .. أولئك اناس ليس لهم حاجات يطيلون بها عذابهم في الحياة وليس لهم أغراض يولدون بهم آلامهم ولا يساورهم فيها ما يساورنا من غرور وأحلام .

رسائل مطوية

(٥)

قلت لصاحبك : إنك تغيظني .

قال : قد يكون في عملي ما يحمل على الغيظ . وقد لا يكون في الأمر إلاّ أنك تفكر على نحو شاذ فأنت الذي تغيظ .

قلت : إنني وإياك يا صديقي نجهل كثيراً ولا نعرف إلا القليل . ولكن نفسك تطغى على هذه الحقيقة وتأبى أن تعترف بها وفي هذا الإدعاء ما يغيظني .

قال : في هذه إحدى ترهاتك فنحن في جيل لا يحترم نكران الذات ولا يؤمن بغير التسامق والتعالي فأمض حيث مضى الناس ولا تغظني .

قلت : إنك في سبيل التسامي لا تستنكف أن تريق ماء وجهك وفي سبيل التعالي تستهين بما لا يهون فأنت تغيظني .

قال : ما عني الناس قط بالفلسفة وليس بين الظافرين من دعاة الجد في الحياة من يدين بغير الواقع فكن إنساناً ولا تغظني .

قلت : عندما استبانت لنا الطرق لم تختر غير السهل الذي لا يدل على السمو النفسي ومع هذا فقد أبيت إلا أن تعطي السهل الذي اخترت مختلف النعوت .. ورحت تضفي على نفسك شتى ألقاب البطولة كأنك شجاع مغوار وفي هذا تضليل وتبجح .. يغيظني .

قال : في غير هذا ضعة المنكسرين .. وأخلاق المنطوين فكن عصرياً ولا تغظني .

قلت : إنك تغضب لكرامتك وتشيد بأمجادها في المواطىء اللينة .. بينما تتجاهلها وتنسى وجودها إذا جد الجد وادلهمت الحوادث وفي هذا صغار .يغيظني .

قال : إنه الحزم والتبصر في العواقب . وقديماً كان عنترة يقول احمل على الضعيف حتى يهابني القوي فليتك تعقل هذا ولا تغظني .

قلت : إنك تنعي على تعويد أطفالي الصراحة وإلزامهم الصدق وفي هذا عداء صريح للفضيلة والحق فأنت تغيظني .

قلت : إنك تنعي على تعويد أطفالي الصراحة وإلزامهم الصدق وفي هذا عداء صريح للفضيلة والحق فأنت تغيظني .

قال : إنني أحفى منك بالعواقب .. ولو كنت تقدر الأخطار التي تعرضهم لها بما تعودهم لعلمت إلى حد يمعن بك الخيال .. سيتصلون غداً بالحياة فيصارحون هذا بمقته وكراهيته .. و يجابهون الآخر برأيهم الصريح فيما يعمل .. سيجابهون غداً جميع من عرفوا بحقيقة ما اعتقدوا فيه فيجعلون من أنفسهم هدفاً لجميع السهام وحينئذ يشعرون أنهم كانوا ضحية خيالي جامح .. فكن عملياً ولو إلى حد ولا تغظني .

قلت : إنك تساق إلى كل رأي شائع وتندمج في كل فكرة ذائعة دون أن تبيح لعقلك نقاشها أو تكلف نفسك معاناة بحثها .. وفي هذا ما يغيظني .

قال : إن في انسياقي أسلم الطرق وليس في عصيانك على مجاراة الناس إلا ما يثير حنقهم فحاول ما استطعت أن تكون مرناً في الحياة ولا تغظني .

قلت : إنك تربكني وفي هذا ما يغيظ .

قال : وأنت تحزنني وليس في هذا .. إلا ما يغيظ .

قلت : دونك الطريق ودعني لما ربكتني .

قال : في وديعة الله وحسبي ما رهقتني .

رسائل مطوية

(٦)

حملت من يومين بطاقتك إلى صاحبك ولقد أعجبني فيه طلاقة المحيا ورحابة الحديث وحفاوته بأصحاب الحاجات ؟ ولم يعجبني فيه أنه قالب حديدي أعد لصب المائعات في كيف محدود ليس فيه معدى ولا عنه تجاوز .

وما أن بدأته الحديث فيما جئت من أجله حتى احتفى بالفكرة وراح يدلل على رأيه فيها بمنطق حفاظ المتون وأسرارها .

قلت سيدي .. إن آفاق النفس أوسع من أن تحدها قاعدة صماء وإن منظمي القوانين ووضاعها عنوا بروح المادة قبل أن يعنوا برصف حروفها .. وإن ذهنية صافية تعرف كيف تفسر النظام خير من ألف خزانة حديدية تحفظ لنا محتوياته مصونة . فما زاد على أن أولاني ابتسامة فيها كل معاني الإستغراب ثم زايلني إلى أضابيره المصفوفة بعناية وترتيب .

هؤلاء قوم ـ مع احترامي لأبهتهم الوقورة ـ كل استعدادهم في الحياة وقل من المجلدات الضخمة ينوؤون تحت أثقالها و يلوون ألسنتهم بالفخم من ألفاظها عند التلاوة والسرد .. أما معانيها وأما ما يفهم من ملابساتها فوالله إنه لأسهل عليك أن حجر صلد على أن تلتمسه عند رؤوسهم الغليظة .

أردت أن أقول له أن الإثم في نظر أضابيرك الجامدة قد تلابسه ظروف واعتبارات لها ما تستحق من التوجيه وأننا لا نلتمس التوجيه وحسن التخريج في صوان مفعم بالكتب بقدر ما نلتمسه في المعية متوقدة وذكاء متوثب .

ولكنني وجدت أني أزيح البوذيين عن معابدهم ولا أزيحه عما يعتقد فأستأذنته في مثل محياه الطلق وخرجت لا ألوى .

يا ضيعتنا بهذه الأخشاب المركزة على مساندها وفي أفواهها ألف لسان ينطق بألف لهجة لا تعرف منها إلا مخارج حروفها وموضع التفخيم منها .

إلا من مبلغ هؤلاء أن في خلايا الدماغ تلافيف تؤدي وظائفها مستقلة كل واحدة منها عن

الأخرى وأن من هذه التلافيف من تقتصر وظيفته على الفهم والإدراك للأمور واستبطان حقائقها وأن شيئاً من الإستغناء عن هذه الوظيفة كفيل بأن يعطلها ثم يلغيها و يجعل من صاحبها أداة للمحاكاة والتقليد الأعمى .

رسائل مطوية

(٧)

إذا نعيت لك أذهاننا فلا تجعلني في مقام من يبالغ في الأشياء و يعطيها أكثر من حقائقها .

أنت تعرف آل « فلان » وتعرف قيمتهم في الوسط المحترم الذي يعيشون فيه .. وتعرف أنهم رزئوا أخيراً في أحد أبنائهم بمصيبة فقد فيها بصره وأصبح أعمى يقوده الخادم الصغير ويرشده إلى الطريق صبيان الحي .

لكنك لا تعرف أن مجلس العائلة الموقر بعد أن قرر نهائياً إلحاقه بأحد العميان المرتزقة ليقرئه بعض السور من القرآن الكريم يتكفف بها الناس عند أبواب المسجد و يستجديهم بما يتلوه منها .

قل ما شئت بعد هذا في أسلوبي القديم لفهم الحقائق وطريقتي في التعبير عنها ومبالغتي في وضعها أما أنا فلا أقول إلا أننا قوم بلغ من ضيق أذهاننا أننا لا ننظر إلى أبعد من أنوفنا ولا نفكر إلا في حيز أضيق من ممرات الشوارع في بلادنا إذا صح أن للآفاق والبيئات تأثيراً في نشاط العقول .

كنت أعرف أكثر من أعمى يرتزقون من شتى المهن الحرة و يحتالون لمعيشتهم بوسائل عديدة تشرفهم ولا تتنافى مع ما فقدوه من أبصارهم فما بال بعضنا اليوم يجمد ولا يتفتق ذهنه عن حيلة يدفع فيها « عماه » لا إلى التكفف واستجداء الناس بما استظهر من آيات وما جود من صوت لا نميز كثيراً بينه و بين رغاء ناقة أجفلت في يوم عاصف .

إن العالم يحتال لعميانه بأكثر من ألف مهنة تدر عليهم أخلاف الرزق وفي بلادنا اليوم مدارس ومعاهد تحتفي بمستقبل العميان ومع هذا فنحن في مكاننا نأبى أن نمد أبصارنا أبعد ما ننظر .

أتراني بعد هذا أبالغ في تصويري وأعطيه أكثر مما يحتمل من الحقائق ؟

رسائل مطوية

(٨)

النفاق الإجتماعي شائع في أدبنا الكاذب واصطلاحاتنا الزائفة وتجارتنا من الألفاظ والمعاني الفجة وإذا أعوزك النموذج فإليك .

هو سيد كريم لا يجود الزمان بمثله .. وأنت فرس مجلس لا يشق غباره .

وهذا عظيم ينحسر الطرف دون مقامه من الطهر والعدل .

وذاك نسيج وحده فضلاً وعلماً وأدباً .

في صورة لا تدري بعدها أين مكان غير الكريم والعظيم المجلي والعادل من هذه الأرض .

الواقع أنها ميوعة وأنه انحلال لا يستقيم معها بناء .. وإنه تمويه يعبث بالحقائق كما تعبث بالمتهجد خيوط الفجر الكاذب .

وأنا وأنت وهم بعد هذا معذورون إذا نحن أمعن الغرور بنا والتضليل كنتيجة لتمويه تجار الألفاظ وعبيد الأدب الكاذب .

إن نشوة الكرسي تترك أحياناً أثرها الواضح العام للجسم وراء المكتب فشيء من الضغط على أحد الأعصاب الحساسة كنتيجة لما تستلزمه (العجرفة) يحدث انحرافاً في ناحية أو أخرى من أعضاء الجسم .

ولتكن هذه الأعضاء معنية بإفرازات خاصة في الجسم فإن انحرافها يعطل شيئاً من وظيفتها فيترك ذلك أثراً في دورة الدم ومن ثم تتهيج الأعصاب وتضطرب ويصبح جهازك أدق ما يكون حساسية وأرهف شعوراً .

ومن ثم تصبح وأنت أشد حنقاً بالحياة وتأففاً منها .. وأحسب أنه كلما ازداد ـ الوضع الخاطىء وراء المكتب ضغطاً على أعصابك الحساسة ازداد تهيجك وازداد اضطرابك وأصبحت عرضة لمضاعفات أولها الهستريا وآخرها بوابة المارستان .

قال : أما عن الوضع الخاطيء فلا أستبعده فقد نشأت على هيئآت ما سمعت أنها تتفق وهذه الفلسفة العريضة في أوضاع الجلوس والوقوف .

قلت : بحسبك أن تختصر فقد نشأت مترفاً تطوح العجرفة بك كل مطوح فتضغط من أعصابك ما يهيج أعصاباً أخرى و يرهف من إحساسك ما يترك أثره في أخلاقك ما حييت .

ستعيش يا صديقي ما بقيت ضحية أعصابك المتوترة وإحساسك المتهيج وستشكو ما حييت الضيق ممن ساقتهم الحاجة إلى مكتبك وتظل عمرك متبرماً بنفسك ساخطاً على الحياة متأففاً منها أو تعنى بالوضع المستقيم وراء مكتبك وتطلق العجرفة ثلاثاً في كل ماله علاقة بمعاملات الناس .

رسائل مطوية

(٩)

لقد مشاها .

مشاها ليقال : إنه رائد العروبة ...

مشاها خطى لم يتبينها .

مشاها ولم يجد حوله من يبصره بها .

مسكين هو .. فلا تعذلوه ..

لا تعذلوه .. فإن العذل يؤلمه في قبره .

لوح له خلفاء الماركسيين بالكثير ..

قالوا له : ستقود العرب بعصاك .

وقالوا له : سنجمع اليك مقدرات الشرق ...

وقالوا له : وقالوا : فمضى في خدمتهم مأخوذاً بما قالوا .

وأعلن اشتراكيتهم مغروراً بما وعدوا .

مسكين هو .. فلا تعذلوه .. لا تعذلوه فإن العذل يؤلمه في قبره .

خططوا له ليعلن مساوىء الإستعمار .

وهيأوه لينسى الملايين التي أبادتها الشيوعية وشردتها .

هيأوه فيما هيأوه كأي عميل أبله .

هيأوه وساقه همه إلى حيث لا يدري .

مسكين هو فلا تعذلوه .. لا تعذلوه فإن العذل يؤمله في قبره .

سندوه يوم ادعى جلاء الانكليز تحت وطأة تهديده .

وسندوه يوم أعلن بطولته في تأميم القنال .

وسندوه حتى ضللوه وحتى خدعوه في نفسه .

مسكين هو .. فلا تعذلوه .. لا تعذلوه فإن العذل يؤلمه في قبره ندبوه لخدمة مذهبهم في مصر فارتبكت عليه المذاهب .

وندبوه ليلبس على العرب في قضاياهم فاختلط عليه التلبيس .

وندبوه لينضم إلى الرفاق باسم الإنحياز فتكشفت حقائق الانحياز .

وندبوه ليعلنها ضروساً على الإسلام فافتضح أمره في بلاد الإسلام .

مسكين هو .. فلا تعذلوه .. لا تعذلوه فإن العذل يؤلمه ..

باسم الوحدة دفعوه إلى سوريا ليتصيدها ففشل .

و باسم الوحدة حاولوه ليحوز العراق لهم فخسر .

و باسم الوحدة دعموه ليضم الجزائر فضاعت عليه الجزائر .

مسكين هو .. فلا تعذلوه .. لا تعذلوه فإن العذل يؤلمه في قبره .

من أجل أن ترضى موسكو عانق مكاريوس ضد مسلمي قبرص .

وفي سبيلها صادق هيلاسلاسي ضد ارتريا والصومال .

وفي سبيلها أيد نكروما ضد كل مغلوب من الأحرار والمظلومين .

مسكين هو .. فلا تعذلوه .. لا تعذلوه فإن العذل يؤلمه في قبره .

غمرته ديون موسكو على أمل أن يعمل لها في اليمن فاستعصى عليه اليمن وغمرته على أمل أن يثيرها مدوية في لبنان فلم تنجح إثارته في لبنان .

وغمرته على أمل أن يضع يدها في الكويت فلم تظفر آماله في الكويت .

وغمرته على أمل أن يهيىء لها في بعض دول الخليج فخيبته دول الخليج .

مسكين هو .. فلا تعذلوه .. لا تعذلوه فإن العذل يؤلمه في قبره .

في سبيل موسكو نسي صداقة البدر في اليمن .

وفي سبيلها جند الألوف ليدوس على مقدراتها .

وفي سبيلها صب نيرانه على المدن والمزارع والقرى .

وفي سبيلهاقضى على آمالها في مستقبل الحياة .

مسكين هو .. فلا تعذلوه .. لا تعذلوه فإن العذل يؤلمه في قبره .

ظنوا صحوه ضميره يوم هبط جدة ليصافح .

وظنوا شرف توقيعه يوم قبل المبادىء ووقعها .

ظنوا ولكنه ما كاد يزور موسكو حتى خاب ما ظنوا .

وندب مفاوضيه في « حرض » ليقضوا على آمال حرض .

مسكين هو .. فلا تعذلوه .. لا تعذلوه لأن العذل يؤلمه في قبره .

أيهادن وقد تسلم الملايين لينفقها في سبيلهم ؟

أيهادن وقد غمرته الديون وكبلته القيود .

أيهادن وقد عجز عن السداد والوفاء .

أيهادن وقد وضعوا أيديهم على موارد القنال .

إنه مسكين .. فلا تعذلوه .. لا تعذلوه فإن العذل يؤلمه في قبره .

انه مشنوق وللمشنوق أن « يسب السطان .

للمشنوق أن يتطاول و يفتري .

للمشنوق أن يقذع و يتهجم .

للمشنوق أن يسفه و يتبجح .

انه مسكين .. فلا تعذلوه ... لا تعذلوه .. فان العذل يؤلمه في قبره .

واليوم وقد سلم أمانته لأخيه المؤمن فهنئوه .

مشى « المؤمن » على سننه فأدار ظهره للعرب .

باع نفسه لأمريكا فأمرته أمريكا أن « يصهين » .

ما « صهين » حتى نسي القدس وتراخى في أمر فلسطين .

ما « صهين » حتى قبل ما أملته مطالب صهيون .

انه كأخيه مسكين فلا تعذلوه .

لا تعذلوه .. فإن العذل يؤلمه في دست ملكه .

رسائل مطوية

(١٠)

لو أحصيت كذب المطابع وتزويرات التاريخ لاستوت من ذلك صحائف توازي ثلاث أرباع ما على وجه الأرض من مطبوع ومخطوط .

في مكاتب الوراقين آلاف الكتب تحوي ملايين الخرافات مما قصه الوضاع عن طبقات الأرض وأسمائها وأصناف الخلق وعجائبهم وسكان البحور وغرائبهم وتواريخ الأجيال التي سبقت التاريخ وما تم فيها في صور كلها هراء ضاع الصحيح بينها كما تضيع الكوبة من ماء عذب في بحر آسن .

والدين .. لا ندري ما شأن هؤلاء الوضاع بالدين يختلقون له شأن القصص وأصناف الحكايات عن الصالحين وأدعيتهم وأورادهم وتسابيحهم وكراماتهم لا تسندهم في ذلك رواية ثابتة ولا علم صحيح .

والتاريخ نحيل إلى الله ما أودع في بطونه من مين وما اختلق من عداوى وما أضيف اليه من حواشي .

ومأساة المآسي أن انصاف المتعلمين وأرباعهم يكفي لإغرائهم القصة المطبوعة والخبر المكتوب فتى تتفتح عيوننا وندرك أنه لا يلزم أن نثق بكل كتاب .

وعليكم السلام يا سيدي .

في غاية الشوق

بعض ما عندنا

كيف حالكم

لا أسأل إلا عن صحتكم

لعل هذا المحفوظ نجلكم

نعم (سيدي) عبدكم

وكيف حال المحافيظ في البيت

يقبلون الأيادي الكريمة

هذا « الروتين » المحبوك في تنميقه العذب وألفاظه المعسولة صورة من حياتنا تكاد أن تكون شائعة في أطراف كل شقة وعلى كل لسان و بشرح معاني كلماته نخلص إلى أننا أمة متحابة إلى حد تغذينا فيه أشواق بلغت الغاية والمنتهى .. وأننا كأطفال عبيد لمن كانوا في سن آبائنا ندين لهم بتقبيل الأيدي و بما لا أدري من مستلزمات تقبيلها من خضوع أو طاعة أو حب .

أما أنا فلا أكذبكم القول فصحتي أغلى ما عرفت وأشواقي إذا اشتدت وقدتها فسوف لا تصل إلى المنتهى والغاية قط .. أما أولادي فلست أسخو بهم عبيداً .

سيقول المتحذلقون أنه أدب المجاملة ولست أفهم إلا أنه سرف في التنميق وليس بينه و بين ما يدعونه النفاق إلا حد أرق من الشعرة .

رسائل مطوية

(١١)

أنت تعلم أنه نشأت في بعض بلاد أوروبا في السنوات الأخيرة رابطة اقتصادية من أهم أغراضها تبادل الآراء الإقتصادية على مستوى عال بين الدول المشتركة في الرابطة فهي تتبادل بينها المساعدات تكنيكياً أو فنياً وتتعاون على بذل الآراء والتوصيات في سائر حقول الإنماء فإذا تخصصت دولة في زراعة بعض الحبوب أو الثمار أو صناعة بعض الآلات من حق الدول المشتركة في الرابطة أن تقف على نهاية ما انتهت اليه تجارب صديقتها في الرابطة كما أنها مطالبة في الوقت ذاته بإبداء المعلومات الوافية عن كل ما يحتاجه أي عضو مشترك في الرابطة في أي حقل من حقول الإنماء التكنيكي أو الفني أو الزراعي ومن أهم ما قرأته في الأيام الأخيرة أن بلداً عربياً تخصص في زراعة الفاكهة اشتهرت به بلاد العرب فلقي العرض قبولاً طيباً وأصبح من حق البلد العربي المذكور أن يطالب على قاعدة المثل بإعطاء تفصيلات وافية عن أي بحث يشعر بحاجته إلى استقصاء دراسته .

هذا لون من التعاون المثمر تشعر الدول الراقية بضرورته رغم تقدمها في سائر وجوه الإنتاج ولا ترى غضاضة أن تتقدم إلى أصغر البلاد لتطلب توجيهها في أي وجه تشعر أنها أحسنته دون غيرها فما يمنع البلاد العربية أن تتفق على مثل هذه الرابطة الإقتصادية لتتبادل المعلومات وتستفيد من تجارب غيرها في الإنتاج .

وفي أوربا يعقدون اليوم خناصرهم على تثبيت قواعد السوق المشتركة خدمة لتناسق جهود في ميادين التنمية وسعياً وراء التعاون التجاري والفني من كل جهاته فما يمنع الدول العربية أو دول الشرق الأوسط في مداه الواسع أن تتفق على مثل هذا التعاون وأن تؤسس بينها روابط اقتصادية تجمعها لجان مشتركة تتبادل وجهات النظر في كل ما ينمي اقتصاديات البلاد .

إن من المسلم به أن لكل أمة تجاربها الخاصة في ميدانها الخاص فإذا تعاقدت الأمم التي تجمعها روابط خاصة على تبادل وجهات النظر واستعدت كل أمة لبذل ما عندها في سبيل التطوير العام فسيفضي ذلك بهم إلى نتائج تضمن رقياً مطرداً في أهم الحقول التي تبني قواعد الحياة . لقد تنبهت لهذا شعوبنا العربية قبل اليوم فكانت لهم جامعة عربية وكانت للجامعة فروع تقاسمت التخصص في شتى الحقول وكان للحقل الإقتصادي نصيب من هذا التوزيع ولكن

نتاجه كان محدوداً فيما يبدو ذلك لأن النتائج التي ترتبت على جهود اللجنة الإقتصادية لم تكن إلى اليوم ذات أثر عميق يعتمد عليه .

نحن في حاجة إلى دراسات مستفيضة يتبادل فيها الأعضاء وجهات النظر على ضوء التجارب العامة في كل أمة على حدتها ليتكون من مجموع ذلك مقدمات تكتيكية تساعد على تنسيق الأعمال وتتناول تنشيط المشاريع ذات الفوائد العامة في إطار لا تتضارب فيه المصالح ولا تتضاءل بعض المنافع في دولة ما على حساب دولة أخرى .

رسائل مطوية

(١٢)

لا .. وسل أول من يلاقيك عن : أسعد أيامه في الحياة . يجبك أنها أيام الطفولة وإذا استزدته أيضاحاً رنا اليك برأسه وأجاب أنها كانت خلواً من التكاليف . خلواً من متاعب الحياة .

وهذا حق .. حق في مجموعه لا في تفاصيله .. ولا يكون حقاً في التفاصيل لأن في هناء الطفولة شيئاً أدق من هذا وأعمق مر به صاحبك وتمر به أنت و يمر به سواد الناس مرو راً لا يلفت النظر .. وهو في الواقع أهم ما يصبغ الطفولة بلونها البراق الجميل .

معالجة التنويع في الحياة سر سعادة الناس والحياة قبل أن تكون التكاليف سر شقاء الناس .. ونحن كنا أطفالاً وكنا مدفوعين بالوجدان غير الواعي إلى التنويع فكنا سعداء به .. والتنويع أن نعبث بكل شيء ونلعب في كل شيء دون أن نحس بشيء معين نجعله مصدر سرورنا وغبطتنا .

ودرجنا فكبرنا فماذا صنعنا ؟ الغينا هذا التنويع تدريجياً حتى حصرته أنت في مال تجمعه وحصرته أنا في امرأة جميلة أتصبب إليها . وحصره صديقك في سمت من الوقار والهيبة يبدو بهما وجيهاً في أعين الناس ـ وفي هذا ألغينا السرور من الحياة إلا من ربح جديد بالنسبة إليك أو جلسة شعرية بين يدي الحبيبة بالنسبة إلى أول مظهر محتشم وجيه بالنسبة إلى صديقنا المحترم .

فيم هذا التحديد ؟ ومن أين لنا هذا الحصر ـ : المسألة مسألة إلغاء وتركيز .. ألغينا مناحي الحياة في جميع صنوفها وأشكالها وألوانها وفيها الجميل البراق والجذاب .. وفيها ما يكفل بعث النشاط في جوانب النفس كما فيها ما يغري بالضحك والسعادة والسرو ر وصببناها جميعاً في قالب واحد احتبس فيه الخيال الذهني والتجاوب العقلي وانحصرت فيه كل نوازع النفس فلا يستهوينا إلا هو ولا يشيع فينا السرو ر والسعادة غيره .

الطفل يضحك لدميته إلى أن يلوي عنها فيفرح بتفاحة تدحرجها إليه وقد لا ينتهي من أكلها حتى ينسيه جمالها ولذتها جمال طفل صغير يدعوه إلى لعبة الغميمة .

حاول مرة البعد عن دفاترك التجارية واخل في دارك على كرسي مريح وتناول قصة روائية

تجد نفسك قد غمرك أفق جديد واصطنعت لنفسك مسرة جديدة .

وحبيبتك الجميلة التي يحنو عليك فؤادها و يعطف عليك قلبها ولا يخلو معك حالها من ساعة ذل تصليك بها جرب معها ذلك واجراء على ترك موعدها مرة تأخذ سبيلك فيها إلى نزهة خلوية ترقى فيها جبلاً ما عرفت مسالكه ولا سبق لك عهداً بمعالمه إجراء ولو مرة واحدة وحاول أن تكون إلى جرأتك جباراً طاغياً تكتسح في عنف وقوة ذكراها من خيالك إلى أجل تصالحها بعده وإذا فعلت ستجد أنك اكتشفت من نفسك أفقاً مجهولاً منك وكشفت النقاب عن إرادتك الحديدية التي كنت تتركها على نفسك من نوع غريب قد يروقك الإطراد فيها والمضي في غرارها بعد ذلك التركيز المحدود .

وطلق سمتك الوقور واحتشامك المتزمت وحاول أن تتبذل في غمرة من غير طبقتك تصحبهم في رحلة إلى جبل كرا تترك فيها سيارتك الفخمة إلى حمار تحس الأرض برجليك وأنت تعتليه دعه يقفز أمامك على الصخور وأنت تطفر خلفه بالعصا تحمل على كتفيك قرابك فيه الخفيف من طعامك اجلس في رفقتك الجديدة على ناتيء من الصخر مشرف على الوادي السحيق والتهم خبزك في شراهة وعبث مرفوعة كل تكاليف الوجاهة ملغية جميع الفوارق بينك و بينهم وستجد أنك طلقت حياتك ونسيت ضجرك وانطلقت في أفق مرح ليس لسعادتك فيه مدى .

بقدر ما تطفر في ابتكار الأساليب المسرة لنفسك و بقدر ما تطرد من خيالك تركيز السعادة في مصدر واحد . و بقدر ما تغري نفسك بابتعاث السرور في كل شيء ومن كل شيء بقدر ما تجد الحياة مرنة مليئة بالمباهج والمسرات حافلة بالملايين من مصادر السعادة والفرح .

و بالجملة كن طفلاً يعبث بكل شيء ولا يعني شيئاً إلا بمقدار .

رسائل مطوية

(١٣)

ثق أني لا أكتب شيئاً أتصنعه وإذا بدا لك أني أسخر وأتهكم فليس في الأمر إلا أني درجت في الحياة أعايشها على سجيتي فليس غريباً أن يترك هذا أثره لا في كتابتي وحدها بل وفي كل علاقاتي بالناس .

عشت لا أتكلف التكتيك المتعارف بين الناس ولهذا كثيراً ما أبدو صفيقاً لمن لا يعرف بداوتي .

وعشت لا أتكلف الحياة نفسها ولا أزاحم في مناكبها إلا بالقدر الذي لا يثير في نفسي هماً ولا يكبدني ما ينغصني فإذا أبت المسيرة إلا أن تجابهني خلال الطريق بما يكدر صفوي فإني لا ألبث أن أدير لها ظهري .

فإذا دارت بإصرار لتواجهني ثارت السخرية في نفسي ورأيتني أضحك في تهكم من فرط قسوتها ويتداعى الضحك حتى تمتليء به نفسي وتهتز لشدته جوانحي .. وكثيراً ما يلازمني الضحك حتى آخر الشوط وحتى يبدد ما غشيني من هموم .

لعله يبدو لك من هذا أني لا أقاوم الحياة بقدر ما أزوغ منها وأني أجالد إذا جالدت بروح الساخر الذي لا يقاوم كما قلت ـ بقدر ما يزوغ ويضحك .. فإذا رأيت كتابتي تنطبع بما تراءى لك فثق أنها صورة مني .

أنا استكنت بل قلت أني عشت أزاحم في مناكس الحياة بالقدر الذي لا يثير في نفسي هماً ولا يكبدني ما ينغصني فإذا بدا ما ينغصني هزئت وضحكت أو أدرت ظهري إلى مجال آخر ازاحم فيه إلى الحد الذي لا ينغص عيشي .

وأستطيع أن أثبت لك ما قلت عملياً من واقع حياتي فقد بدأت عملي في الحياة مدرساً فلما أثقل عليّ العمل ببعض هموم التدريس جاهدت لأثبت لنفسي أثراً ولو صغيراً في حقل الأدب وحاولت حتى طلقت التدريس إلى العمل في صوت الحجاز ولما أثقلت عليّ هموم الصحافة وجدتني أزوغ لأمتهن التجارة وعندما تراءى لي أنني لا أملك أخلاق تاجر ضحكت ملء نفسي

لما منيت فيها من مصاعب وأدرت ظهري لها بحثاً عن مجال لا يكدر صفوي فاخترت الوظيفة ولما أشقتني الوظيفة في خلال ما مضى قد وضعت أول مؤلف لتدريس القراءات العربية في المدارس وكان يدر عليّ من مكاسبه السمن والعسل فما عتمت المنافسة أن اشتدت حولي بصورة لا أريد تفصيلها اليوم فرأيتني أهرق مدادي وأختم على كتبي وهي من ستة أجزاء وأسخر من كل ما ينالني من مكاسبها ثم أدير ظهري .

وكنت مطوفاً فأثقلت عليّ عجرفة بعض الحجاج ورأيتني أفشل من أن أجاري غيري ممن خلق لها فأعرت اسمي لغيري وقبلت منه فتات المائدة لأعيش بعيداً عما يكدر صفوي .

وكان لا بد لي من عمل بعد أن أصبحت فارغاً فأسست مطبعتي فدرت عليّ من أخلاف الرزق ما لا أحلم به ثم ساقتني إلى الصحافة فزاولتها حتى دمجت الصحف فبعت نصيبي من الدمج تحاشياً من الخلاف وأدرت ظهري .

وعدت بعدها أستأنف العمل الصحفي في مجلة قريش حتى إذا صدر الأمر بتأسيس المؤسسات الصحفية طلب إلي اختيار من يشاركني في مؤسسة قريش فخيل إليّ أني مقبل على عنت الشركة فتقدمت أطلب إحالة قريش إلى من يشتهيها .

ورأى المختصون أن يضيفوا اسمي إلى أعضاء مؤسسة الندوة فاشترطت أن لا أنتخب مديراً ولا رئيساً وحسبي أن أساهم كعضو لا تتجاذبه المصاعب .

وعندما جدت ملابسات ظننتني فيها أني أستطيع أن أعمل كمدير لإدارة الجريدة على أن يقاسمني أعضاء الإدارة مصاعبها إذا جدت ما لبثت بعض الهموم أن واجهتني فلم أقض في عملها إلا بضعة أشهر ثم طلبت إقالتي ثم زغت وأنا أضحك .

وعشت إلى هذا أتحاشى عضوية مجالس المطوفين بل وسائر المجالس التى تنشأ فى مرافق البلاد إلا ما كان منها في شبابي المبكر .. لا أفعل هذا جحوداً لبلادي ولكني لا أميل إلى العنت . أو الصدام .. يروق لي أن أعيش الحياة هازئاً . فإذا أبت مفارقاتها أو نوائبها إلا أن تمتحنني سخرت بها ما واتتني السخرية وحاولتها حتى أزوغ هارباً بنفسي منها وربما استعرت من سخريتي بعض القوة في القليل النادر أواجه بها من يناوئني لكني لا أكاد ألبث أن أزوغ . حتى حقول النقد الأدبي لا تكاد تجد لي مجالاً فيها .. قد تقول أني كثير الكتابة في النقد الإجتماعي .. وهذا صحيح ولكنه نقد يتناول عامة تقاليدنا لا أعني فيه شخصاً بذاته بقدر ما أعني فيه شخصاً بذاته بقدر ما أعني مرئياتي في الأحوال العامة . أنت تعرف أن أحلام الشباب

لا يتسع لها مدى في العادة ولا أكذبك أني كذلك كنت .. ولكن الأيام ما لبثت أن علمتني كيف أخفف من غلوائي .. وأما عني ككاتب فلا أكتمك أني كنت قد خططت لنفسي أن لا أنتهي من مؤلف حتى أبدأ غيره وكان لي جدول بأسماء المواضيع التي أنوي التأليف فيها ولكن تجارب الحياة أثبتت لي أني لا أستطيع المضي فيما خططت ذلك لأن ثروتي لا تساعد على إبراز ما تخيلت وظروف السوق لا تغري بالعمل الدائب والنشاط الجاد فما لبثت أن قنعت بما كان واجدني اليوم استمرىء الكسل في لذة ورضا ولا أمل إلا أن أعيش ناعماً بما تهيأ لي من سقط الحياة .

رسائل مطوية

(١٤)

إننا في سبيل ضبط سلوك أطفالنا كثيراً ما نثير فيهم الخوف والفزع حتى من الوهميات التي لا تجد لها أصلاً إلا في مخيلة الممرورين والمعتوهين . فنحن نخوفه ببزة العسكري ونصوره أمامه عتياً جباراً يسحق الأطفال وكان ينبغي علينا أن نكبره وأن ندلل له على علو شأنه و بسالته وأن نوحي إليه ليقدر رجولته و يهيىء نفسه لمثل رتبته في مستقبل أيامه لينشأ في معناه عسكرياً وقائداً أو طياراً أو فدائياً أو مقداماً في أي نوع كان .

إن بذور الخوف إذا وجدت سبيلها في نفس الطفل نمت وترعرعت مع كل أسف وامتدت فروعها إلى مواطن التفكير في الشخص وتركت طابعها في كل مناحي حياته العملية فلا يكاد يخطو خطوة في أي اتجاه منتج حتى تنتابه الأوهام بشكل لا يحقق له نجاحاً ذا بال .

ونحن نشهد اليوم لا في بلادنا وحدها بل في كثير من بلاد الشرق أنه قل بيننا من يجرؤ على اقتحام مشروع له قيمته الحيوية بالنسبة لشخصه أو بلده ذلك أن عوامل الخوق التي بذرت بذورها في طفولته ظلت تعايشه مدى حياته فلا يكاد يناقش فكرة أو يعتزم عملاً أو يهم بمشروع حتى تنتابه الوساوس الكذابة وتحد من خطوه خوفه من شيء مجهول . يسألني أحدهم لم عشنا نبرع في التقليد فلا يكاد أحدنا يؤسس مصنعاً للمرطبات أو يبني محطة للبنزين أو ينشىء معرضاً لبيع السيارات المستعملة حتى يبادر لتقليده عشرات وعشرات فإذا شوارعنا غاصة بألوان من المرطبات لا نهاية لها وإذا محطات البنزين تكاد تتلاحم وتتلاصق لكثرتها ، وإذا معارض من يبيع السيارات المستعملة تكاد تناديك القذة بالقذة . إن مشاريع الإنتاج في الحياة لا نهاية لها وليس من مصلحة المجتمع أن نزدحم على مناهل محدودة من هذه المشاريع ولكن المطبوعين على الخوف من نعومة أظفارهم تركوا الخوف ـ يتسلل إلى مواطن تفكيرهم فباتت أفكارهم أعجز من أن تناقش رأياً جديداً في ميادين العمل الواسعة وتسلل الخوف إلى مواطن العزم من نفوسهم فباتوا لا يملكون الجرأة على مواجهة أي صعيد ينتج عملاً له قيمته في دنيا الإنتاج و ربما عن لأحدهم أن ينسى خوفه إلى حد وأن يستلهم من ضعفه قوة يندفع بها إلى تأسيس أو بناء و رشة فلا تلبث انعدام الثقة في كفاءته أن تعرقل سيره أو بعض سيره إلا في القليل الذي يستطيع طرد أوهام الخوف من نفسه و يثبت لاستئصال عوامل التردد من جذورها .. ما أحوجنا اليوم وقد شهدنا أثر أسلوب التخويف في تربيتنا أن نعدل عنه إلى أسلوب منتج نوحي به إلى أطفالنا أنهم أقوى من أن تعرقلهم

الوساوس الكاذبة . وأن استعدادهم الطبيعي لا يعجز عن تأهيلهم لمواجهة أهم المصاعب ما أحوجنا إلى أن نمرن الطفل من نعومة أظفاره على تحمل المسئوليات الصغيرة التي تتكافأ مع سنه لينشأ كفوأً في مسايرة الحياة وليتعرف على أهم ما يمكنه التعرف إليه من اتجاهاتها وليتعلم كيف يناقش و يبحث و يدرس و يستنتج في حدود تتفق مع عقليته كلما تقدمت به الأيام .

مثل هذا الطفل ينشأ إيجابياً لا يشوبه القلق النفسي عند كل خطوة يواجه بها الحياة ولا يهزمه الخوف من كل عزمة ينويها .

مثل هذا الطفل يستطيع أن يبني طريقه في وضوح وأن يمضي إلى غايته في الحياة بقدم لا تزعزعها الأوهام .

رسائل مطوية

(١٥)

أتذكر يوم قلت لك وكنا في صدد القديم والجديد أن علينا أن نتفهم مبلغ حاجتنا إلى التطوير لا في أدبنا أو شعرنا أو فنونا بل وفي كل مستلزمات حياتنا .. علينا أن نبدا انطلاقتنا من حيث انتهى تراثنا القديم فخورين به كأساس له دعائمه على أن لا ننسى علاقتنا بعصر الذرة ومركبات الفضاء وأننا نعيش جيلاً له أحكامه .. وإذا تطرق بنا متطرق يدعو إلى نسيان تراثنا بكل مراسيمه وآدابه لنثبت في رأيه أننا أمة جديدة مطواعة لكل دخيل فإنما يدعونا بهذا أن نعيش ممسوخين وأن نستعير لمقوماتنا في الحياة أساليب لا تتفق وما جبلنا عليه .

إن مثل هذه المحاولة من شأنها أن تقضي على ثقتنابكياننا وليس كضياع الثقة و يسلم الأمة إلى الفشل وإذا كان الجمود عندما ورثنا مضيعة ومزلقاً ينتهي بنا إلى التخلف فإن عصيان الفطرة ونسيان الجبلة التي خلقنا من طينتها إقحام على الطبيعة البشرية لا يستقيم معه بنيان مهما حاول المتطرفون دعمه بالقول المعسول والآراء الزائفة .

لقد مر بأمتنا في عصور ازدهارها دور لا يختلف عن دورنا الذي شرعنا ننطلق منه اليوم فلم تجمد على تراثها الصميم ولم تتطرف لتقلد غيرها وتبني من جديد على فراغ بل حفلت بأساسها كتراث وانطلقت تستعير من جيرانها كلما ينقصها في سبيل أن تزدهر وتتفوق احتكت بمدنيات من سبقها إلى الحضارة فندبت من يبحث ، واستأجرت من يدرس ووظفت من يترجم فضى روادها يأخذون من كل شيء أحسنه حتى لقد قيل أن مترجماً ندب إلى الهند فوجد في بعض خزائنها كتاباً في الطب أبى صاحبه إلا أن يبيعه بوزنه ذهباً فلم يبخل المندوب بالثمن وقدمه طائعاً فلما انتهى اليه الكتاب وجد بين بحوثه مصطلحات لا يوجد من يفهمها و بعد لأي طويل استطاع أن يهتدي إلى حكيم كان يسكن قرية نائية فلما قصده عز على الحكيم مقابلته فرابط عند بابه أياماً طويلة خجل الحكيم في نهايتها ورضي مقابلته وأن يقضي حاجته .. على هذا الغرار بذل أجدادنا من أنفسهم وأموالهم في سبيل بنائهم ما اكتفوا بما عندهم وما ورثوا رغم القيمة المعنوية التي حققها تراثهم بين القيم السائدة في عصرهم أقول لم يكتفوا بما عندهم بل استعانوا بكل جديد نافع سمعوا به .. كانوا يستقدمون الخبراء و يستعيرون النوابغ و يهيئون طلباتهم لتلقى الجديد و يستخدمون أذكياءهم لتطعيم قديمهم بالجديد المنتقي . و بذلك تفتق الوعي العام واتسعت آفاقه

ولم يتحرج عن قبول الأفكار مهما كانت غرابتها إذا ثبت نفعها وتأكد مدى حاجتهم اليها فلا عجب أن يزدهر عصرهم وأن يتفوقوا على كل من نقلوا عنهم من معاصريهم فما يمنعنا أن ننطلق اليوم على غرار ما انطلقوا وأن نطعم تراثنا بكل جديد نافع يهيئنا للتطوير .

رسائل مطوية
(١٦)

تسألني عن مجرى ماء غامض وجد تحت أطباق الأرض في القشاشية فهاك ما أعرفه .

في رمضان عام ٧٣ وصل الرشيد إلى مكة المكرمة معتمراً وما أن انتهى من أداء ـ النسك حتى جلس للناس في داره التي أمر ببنائها بين الصفا والمروة وكانت الدار شارعة على المسعى وكانت في الفخامة بشكل جعلها أحدوثة مكة وقد سماها الناس دار القوارير ولعلها سميت بذلك لأن الزجاج كان يقفل على نوافذها .

جلس الرشيد للناس يستمع إلى شكاواهم وكان أهم ما يشكون منه قلة الماء ذلك لأن الآبار العديدة التي كانت تسقي مكة من عهد جاهليتها نضب ماء أكثرها .. كما نضبت مياه العيون التي أنشأها معاوية رضي الله عنه في عهد خلافته وهي عيون ذكرها المؤرخون . وعين أبو الوليد الأزرقي مواقعها وقال إن عدتها كانت عشرة وكانت لها مناهل يراها الناس ومن أهمها عين كانت تمر في بطن مكة تحت الأرض وينتهي مجراها في المسفلة حيث يستقي منه الناس .. جفت آبار مكة على كثرتها كما جفت مجاري العيون التي أنشأها معاوية كما قل منسوب ماء زمزم لكثر ما ضخ الناس منها .. ولا أستبعد أن تكون كل هذه الأخبار انتهت إلى بلاط الرشيد قبل أن يأتي إلى مكة فرأى أن يواجهها شخصياً وأن ـ يدرسها على الطبيعة فشد رحاله إلى مكة ليصلها في رمضان ويرى بعينه حاجة الناس إلى الماء في شهر تشتد فيه الحاجة إلى الماء بصورة لا تدانيها الحاجة في أي شهر آخر من شهور السنة .

لم تكن هذه أول رحلة للرشيد إلى مكة فقد كان أكثر الخلفاء من بني أمية والعباس ولعاً بالحج ذكروا أنه حج ست حجج كانت في سنة ١٧٠ و ١٧٣ و ١٧٤ و ١٧٥ و ١٧٧ و ١٧٩ كما ذكروا أنه كان يحمل اليه الثلج إلى مكة إذا اشتد القيظ في بعض سنواتها .. وما كان يبلغ مكة في جميع المرات التي حج فيها إلا قبيل أيام الحج إلا في عام ١٧٣ فقد رأيناه يبادر إلى مكة ليبلغها في رمضان استجابة لما بلغه من شكاوى الماء في رمضان كما يبدو لكل مدقق يتتبع حوادث التاريخ ويعرف من عناية الرشيد بالمرافق العامة ما لا ينكر .. وما أن جلس الرشيد مجلسه لأهل مكة حتى قنع بما يقاسونه وبدا أوامره بأن أباح بئر القصر الذي ينزله لعامة الناس يستقون منه وكان بئراً غنياً بالماء إذا قيس بغيره احتفره جبير بن مطعم فيما احتفره من آبار قبل الإسلام وسماه

الناس سحلة ولعل لاسمه نصيب من معناه فالسحل في اللغة هو المطر الجود وكان أمير مكة يومئذ لعامل الرشيد عليها أحمد بن اسماعيل فاقترح البحث عن العيون التي كان قد أنشأها معاوية في عهده وأن يعملوا على إصلاحها فبدأ البحث بصورة جدية أنفق الرشيد عليها أموالاً طائلة حتى عرفوا مكانها فشرعوا في إزاحة ما طمرها وأخذوا في إصلاح مجاريها ثم صرفوا مياهها في عين واحدة سموها عين الرشا واعتقد أن العناية شملت هذا المجرى الذي سميته غامضاً وقلت أنه وجد تحت أطباق الأرض في القشاشية كما سملت باقي الآبار والعيون وعندما بدأ العمل يأخذ دوره الجدي وكان قد انسلخ من رمضان أقل من نصفه غادر الرشيد مكة إلى المدينة ليقضي بقية صيامه فيها و بمغادرته مكة أمر بأن توافيه أخبار العمل في الماء تباعاً ليطمئن على سيره وظل في المدينة حتى وافته أخبار نهايته فاستأنف عودته إلى مكة وظل فيها حتى انتهى موسم الحج في ذلك العام واستوثق من نتيجة ما فعل وتلك مزايا الرشيد التي سجلت له بالفخر .. على أن الماء ما لبث أن بان عجزه فعملت زبيدة زوجة الرشيد بالأمر فأمرت بالبحث عن مصادر أخرى للماء فكان عين زبيدة .

مطبوعات نادي الطائف الأدبي

١ ـ سوق عكاظ في التاريخ والأدب	إعداد لجنة الآثار التاريخية بنادي الطائف الأدبي
٢ ـ البحث عن ابتسامة	محمد المنصور الشقحاء
٣ ـ لكل مثل قصة	مناحي ضاوي القثامي
٤ ـ شبه الجزيرة العربية تهدي الحكمة للعالم (محاضرة)	حمد الزيد
٥ ـ مسيكينة	سعد الثوعى الغامدي
٦ ـ رحلة العمر	على حسين الفيفي
٧ ـ هل للشعر مكان في القرن العشرين	د . غازي القصيبي
٨ ـ خطرات في الأدب والفلسفة	حمد الزيد
٩ ـ فلسفة السلام	هشام ناظر
١٠ ـ معاناة	محمد المنصور الشقحاء
١١ المضيفات والممرضات في الشعر العربي المعاصر (محاضرة)	عبد الرحمن المعمر
١٢ ـ ملف نادي الطائف الأدبي الأول	إعداد النادي
١٣ ـ أجنحة بلا ريش	حسين سرحان
١٤ ـ نظرات في الأدب والتاريخ والأنساب	على حسن العبادي
١٥ ـ رجل على الرصيف	عبدالله سعيد جمعان
١٦ ـ صور من الحياة والمجتمع	علي خضران القرني
١٧ ـ ذكريات	أحمد علي
١٨ ـ خواطر في التنمية (محاضرة)	د . غازي القصيبي
١٩ ـ حديث في الإعلام (محاضرة)	د . محمد عبده يماني
٢٠ ـ البيت أولاً (محاضرة)	هشام ناظر

العنوان	المؤلف
٢١ - جوانب صحية في التشريع الإسلامي (محاضرة)	حمد الدعيج
٢٢ - المحراب المهجور	ابراهيم الزيد
٢٣ - كتاب القصة	محمد المنصور الشقحاء (كتاب دوري)
٢٤ - مقالات في الأدب	إعداد النادي (كتاب دوري)
٢٥ - عذراء المنفى	إبراهيم الناصر
٢٦ - نشر النور والزهرج ١ ، ٢	محمد سعيد العامودي وأحمد علي
٢٧ - ملف نادي الطائف الأدبي (الثاني)	إعداد النادي
٢٨ - معجم الحجازج (١)	عاتق بن غيث البلادي
٢٩ - مذكرات في الخط العربي	جلال أمين صالح
٣٠ - في الأدب والحرب	حسين سرحان
٣١ - أهازيج	محمد ابراهيم جدع
٣٢ - نافذة على الحائط المهدوم	هند صالح باغفار
٣٣ - الطائف (محاضرة)	عبد القدوس الأنصاري
٣٤ - حكاية حب ساذجة	محمد المنصور الشقحاء
٣٥ - الرواد الثلاثة	عبدالله خياط
٣٦ - كتاب القصة (٢)	محمد المنصور الشقحاء
٣٧ - من حديث الكتب	محمد سعيد العامودي
٣٨ - مقالات في الأدب (٢)	إعداد النادي
٣٩ - دريد بن الصمه	مناحي ضاوي القثامي
٤٠ - ألوان من الأدب ج (١)	شعبان جبريل عبد العال
٤١ - هتاف الحياة	عبدالله جبر
٤٢ - كنز الأنساب ومعجم الآداب	حمد الحقيل
٤٣ - القصاص	عبدالله سعيد جمعان
٤٤ - معجزات القرآن الكريم البيانية (محاضرة)	د . حسن محمد باجودة
٤٥ - الصمت والجدران	سباعي أحمد عثمان
٤٦ - حين ينزف الأفق	إصلاح سهيل

٤٧ ـ الطائر الغريب	حسين سرحان
٤٨ ـ ملف نادي الطائف الأدبي (الثالث)	إعداد النادي
٤٩ ـ كتاب القصة (٣)	محمد المنصور الشقحاء
٥٠ ـ علم العروض	د . عبد الهادي الفضلي
٥١ ـ أحيحه بن الجلاح الأوسي	د . حسن باجودة
٥٢ ـ المسحوق	محمد حمد الصويغ
٥٣ ـ سوق الخميس	خليل ابراهيم الفزيع
٥٤ ـ الموسوعة الأدبية ج (٣)	عبد السلام طاهر الساس
٥٥ ـ ترانيم الصباح	عبد السلام هاشم حافظ
٥٦ ـ في موكب الأبطال	على حسين عويضة
٥٧ ـ اغنية الشمس	إبراهيم الزيد
٥٨ ـ دعونا نمشي	أحمد السباعي
٥٩ ـ كلمات حب إلى المدينة المنورة	عبد السلام هاشم حافظ
٦٠ ـ أبو الشمقمق	د . محمد سعد الشويعي
٦١ ـ تأملات في الفكر والمجتمع	عبدالله بوقري
٦٢ ـ الأحاجي والألغاز الأدبية ط ٢	عبد الحي كمال





مطابع الحارثي — تلفون : ٧٣٦٢٦١٧